

الحياة اليومية في بلاد بابل و آشور

ترجمة: سليم طه التكريتي



وزارة الثقافة والإعلام



دار الشؤون الثقافية العامة

المطبعة - العراق - بغداد - اعظمية

ص. ب ١٠٣٢ تلکس ٢١٤١٣ هاتف ٤٤ ٤٤٣٦٠

الطبعة الثانية
١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور

تأليف
هنري كونينجو

ترجمة وتعليق
سليم طه التكريتي وريهان عبد التكريتي

كلمة المترجمين

هذا الكتاب الذي تقدمه الى القارئ ، والذي تولت وزارة الثقافة والاعلام مشكورة ، طبعه ونشره ، من أهم الكتب التي صدرت حتى الآن. عن مختلف نواحي الحياة العامة في العراق في تاريخه القديم الذي يعود الى بضعة آلاف من السنين .

وعلى كثرة ما نشر من كتب ودراسات مسهبة تناولت بزوغ فجر الحضارة في بلاد الرافدين ، سواء في عهد السومريين والاكديين ام في عهود البابليين والاشوريين ، فان هذا الكتاب يتميز على تلك المؤلفات بشموليته ، لانه يصف الحياة اليومية التي كانت سائدة في بلاد الرافدين وصفاً دقيقاً ويعطي صورة واضحة المعالم لكل ما كان سكان الرافدين يمارسونه من اعمال ، ويبتدعونه من أفكار ، ويتحمسون به من مشاعر وأحاسيس .

اما مؤلف الكتاب « جورج كوتينو » فهو من مشاهير الاثاريين الفرنسيين والباحثين في تاريخ الشرق القديم والعراق بصفة خاصة ، ولا سيما النواحي النفسية منها ، وله مؤلفات في هذا المضمار .

اتنا اذ نكرر الشكر الجزيل لوزارة الثقافة والاعلام نأمل أن لا نكون عند حسن ظن القارئ ، وان يحفظنا التشجيع الذي تلقاه الى تقديم تناجات علمية وفكرية اخرى لا تقل قيمة واثرا عن هذا الكتاب .

الترجمان

سليم طه التكريتي وبرهان عبد التكريتي

١٩٧٨/٤/١

مقدمة المؤلف

استمرت مدينة بلاد الرافدين منذ اوائل بداياتها في حدود سنة ٢٩٠٠ قبل الميلاد حتى غزو الاسكندر الكبير سنة ٣٣٠ قبل الميلاد ، قرابة ستة وعشرين قرناً .

ان عبارة مثل « الحياة اليومية » التي تطلق على مثل هذا العصر الواسع تكون عديمة المعنى . ومع ان المعرفة الناقصة قد تقودنا الى بعض الاغلاط والاختفاء القسرية في تسلسل الحوادث ، الا اننا نجد انفسنا ملزمين بان تقتصر على عبارة محدودة نسبياً ضمن اطار واسع . ولكن اية عبارة سنختارها ؟

لا بد من ان يتحكم عاملان باختيارنا هذا ، ليس لان هذا العصر يجب ان يكون ممثلاً حقاً لمدينة بلاد الرافدين حسب ، بل ويجب ان يكون ضمن ذلك الصنف الذي نعرفه كثيراً .

يقودنا هذان الاعتباران الى السنين الواقعة بين السنة سبعمائة والسنة خمسمائة وثلاثين قبل الميلاد . ففي خلال هذه السنين تكشفت في غربي آسيا احداث لم تجرب في التاريخ قبلاً . ففي الدرجة الاولى بلغت قوة بلاد آشور ذروتها ، وامتدت الى الشرق الادنى كله ، بما في ذلك بلاد مصر في وقت من الاوقات . واستطاعت بابل ، الخاتمة لبلاد آشور ، وبمساعدة الماذهين من المرتفعات الايرانية ، ان تخلع عنها النير ، وان تدمر مدينة نينوى في سنة ٦١٢ قبل الميلاد .

كان هذا فاتحة عصر الرخاء البابلي الذي ما تزال اصدائه تصل إلينا

من صفحات المؤلفين القدامى ، والذي يرتبط باسم نبوخذ نصر بصفة عامة .
واخيرا سقطت مدينة بابل ذاتها فريسة لايران . لقد احصى الشرق
الادنى رأسه لسيد جديد . وبقيت مصائره ، طيلة قرنين من الزمن ، في
ايدي الملوك الاخمينيين .

فبالنسبة الى هذا العصر الملىء بالاحداث التي غيرت وجه العالم القديم ،
يتوفر لدينا المزيد من مصادر المعلومات .

ولابد ان تنسب فخامة العصر الى الرقم الطينية الاصلية من بلاد بابل
واشور ، تلك الوثائق الخالدة التي عرفنا منها الشيء الكثير عن التفاصيل
الطيفة لحياة الاسرة اليومية في عهد سلالة سرجون الحاكمة في بلاد
اشور*^(١) ، اكثر مما تعرفه عن حياة الفلاح النورمندي مثلاً* فلقد غطت

* وضعنا لشروحنا وتعليقاتنا هذه العلامة . اما بالنسبة الى شروح وتعليقات
مترجم هذا الكتاب من اللغة الفرنسية الى الانكليزية فقد وضعنا لها
ارقاما متسلسلة - المترجمان .

(١) استعملت عبارة « السرجونية » في هذا الكتاب لتشير علي وجه التحديد
الى اشور الحديثة ، والى العصر الذي يشمل حكم الملوك سرجون الثاني
٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م. ، وسنحاريب ٧٠٥ - ٦٨١ ق.م. ، واسرحدون
٦٨٠ - ٦٦٩ ق.م. ، واشور باتييال ٦٦٨ - ٦٢٦ ق.م. .

** النورمان : قبائل موطنها شمال اوربا وبحر البلطيق زحفت في اواسط
القرن التاسع على اوربا فاستولت على فرنسا وقسمت من بريطانيا واطاليا
وقد سميت فرنسا باسم نورماندي نسبة اليهم .

الآخبار التاريخية الملكية ، التاريخ السياسي للعصر ، وغطيت الحياة الدينية بالطقوس والتراثيم ، واصبحنا نمتلك ليس الاتفاقات الخاصة حسب بل وكذلك مراسلات كبار الموظفين مع القصر ، والرسائل التي كانت تتبادل بين الافراد الخاصين . حيث تمثل المكتبة الرسمية في نينوى التي جمعها اشور بائيال في القرن السابع قبل الميلاد ، علوم العصر . فالواقع اننا لا نستطيع ان نتوقع المزيد من الرقم الطينية .

ولدينا مصدر آخر مهم في شكل حسابات مدونة ، يرفى تاريخ القسم الاول منها ما بعد هذا العصر الذي نتحدث عنه بقليل ، ثم استخلصها من اقدم الاتصالات الاحصائية التي نعرفها بين بلاد اليونان والشرق الادنى . بين اجداد خط الرحالة المؤرخين .

واخيرا فاننا نمتلك شواهد النصب التذكارية التي اكتشفت بالتتابع في خرسباد ونيوى ، وفي نمرود ومدينة اشور وفي مدينة بابل ذاتها ، وقد خضعت هذه الشواهد لتحجيص دقيق ومفصل .

ينتهي هذا الكتاب في النقطة التي اوشكت فيها السلالة الاخمينية ان تشيد قصورها الواسعة في سوسة وبرسيبوليس ، عاصمتها الامبراطوريتين .

الفصل الأول معلومات عامة

البلاد

تؤلف بلاد اشور في الشمال وبلاد بابل في الجنوب سوربة بلاد ما بين النهرين ، الارض التي تقع بين النهرين العظيمين دجلة والفرات ، والتي هي مصدر الخصب الذى اثار اعجاب الرحالين عبر التاريخ •

ولكن في الوقت الذي كانت فيه مصر ، وهي بلد مثل بلاد الرافدين ، تعتمد كلية على الري وتوصف بانها هبة النيل ، ذلك النهر الذي تفيض مياهه بالبركة كل سنة على البلاد في صفة وديمة من الغرين ، فعلى النقيض من ذلك نجد في بلاد الرافدين ان الفيضانات الواسعة لنهري دجلة والفرات وبسبب طبيعة الارض التي يجرى فيها النهران ، تصبح من الكوارث بكل يسر الا اذ تم الاحتفاظ بها تحت الرقابة الصارمة • فالنهران ينبعان من مرتفعات ارمينيا • وكلاهما يجرىان بقوة مدمرة ، ويشقان قنواتهما عبر الجبال ، ويجرفان ويصقلان كتل الصخور التي تعترض مجراهما العنيف •

وما ان يذوب الجليد وتفيض الانهار حتى تغطي المياه على السهل مخلقة الدمار في كل شيء اثناء مسيرتها •

ولقد استطاع سكان بلاد الرافدين منذ اقدم العصور ان يسيطروا على هذا التهديد الذي يتعرضون له كل سنة ، وذلك بالطريقة الطبيعية لتنظيم فيضان الماء ، بواسطة شبكة من القنوات التي كانت في ذات الوقت تروي التربة ، وتؤلف ايضا مياها صالحة للملاحة تستطيع ان تنقل المزيد من الحمولة مثل طرق القوافل تماما .

بهذه الوسائل يتم خفض رأس الماء الهائل الذي يؤلفه النهران ، فلا يحدث سوى القليل من الاضرار ، بينما تستمر احواض النهر في تدفقها متعقبة ذات القنوات . فلو لا بعض اجراءات من هذا النوع لتغيرت حدود البلاد بشكل غير متوقع كل سنة . ومثل هذا الامر مهم جدا لانه ما ان تتخلف الجبال وراء التربة التي تتألف جزئيا من الغرين الذي توفره الفيضانات ، فان هذه التربة تتفكك بصفة نسبية وتصبح عرضة للتحويل تحت ضغط الماء . فعلى مقربة من الخليج العربي تكون التربة برمتها غرينية . فهناك اهورا واسعة حيث تبدأ الدلتا بالتجاوز على الخليج كل سنة .

ففي العصر الذي يتناوله هذا الكتاب ، كان الخليج العربي يمتد الى الشمال ابعد مما هو عليه الان^(٢) ذلك ان نهر شط العرب لم يكن قد تكون بعد وان كلا من نهري دجلة والفرات كانا يصبان على انفراد في البحر .

ونظرا لسعتها العظمى ولحقيقة ان الجبال في الشمال عالية وان ارض الجنوب منبسطة ، فقد اصبح جزءا بلاد الرافدين يختلفان اختلافا كبيرا . فقد روضت الجبال حرارة الجو في الشمال ، وادت في القسم الاعلى من بلاد اشور الى ظهور نباتات تشبه بصفة عامة ما هو موجود منها في اوربا الغربية .

(٢) اصبح هذا الرأي في الوقت الحاضر عرضة للتحدي في ضوء الابحاث الاخيرة (انظر فهرس المصادر) .

اما في السهول فمع ان الحرارة في الصيف خائفة ، ومع ان فصل الربيع قصير عمره . ومع ان اعدام الامطار وشدة حرارة الشمس تتلف كل انواع الخضار ، مع ذلك فان الصفة الغرينية للتربة تضمن خصوبتها ، وتغدو الحياة ميسرة عن طريق الري .

يتألف ادنى الجنوب على الاكثر من احوار يغطيها القصب الباسق . وباتجاه الجنوب تختفي بالتدريج انواع الشجر التي تعيش في المنطقة المعتدلة، وبعد بغداد : التي تقع شمالي بابل القديمة ، تغص ضفاف الانهار باشجار النخيل .

ولقد كان جنوب بلاد الرافدين اقدم موطن لحاصلات الحبوب التي كان منتوجها يؤلف مصدر دهشة ثابتة للقدامى . فهناك فقرات اخرى في تأريخ هرودوت قد تكبح سرعة تصديقنا ، لكن بلاد الرافدين قد ظفرت على حق . بلقب انها واحد من اهرء الحبوب في العالم القديم .

كانت حياة الحيوان في العصور القديمة تشمل على انواع غدت مميزة في العصر الذي يتناوله هذا الكتاب ، من أمثال الثور الوحشي والكبش ذي الذقن الطويل والقرون الممتدة ، غير ان الاغنام والماعز ما تزال تتكاثر باعداد كبيرة .

لقد كانت الماشية تنتمي الى انواع اصلية ، في حين تم تدجين البقر والثور الهندي ذي السنام في منطقة آسيا الصغرى . ولم تكن الخنازير تربي قط ، ولكن قطمان الخنازير البرية كانت تجوب غابات القصب في الاحوار . وكانت الطيور الاعتيادية الداجنة تتألف من الاوز والبط والدجاج ، وكان طائر اللب المألوف هو طائر الدراج^(٣) .

(٣) نوع من الدراج يشبه الديك البري .

وتتوفر كميات كثيرة من الاسماك في القنوات وكان صيد الاسماك يتم في المياه الضحلة للخليج العربي .

وكافت الحيوانات الخطرة تشتمل على الاسود وهي اقل تأثيرا فسي مظهرها من الاسود التي تعيش في شمالي افريقيا ، والفهود ، والقروء ، والضباع ، والافاعي ، والحشرات السامة من امثال العقارب . وكائنات مستنقعات الدلتا موبوءة بالبعوض .

وطبقة الارض في القسم الادنى من بلاد الرافدين فقيرة ، وهي بسبب صفتها الغرينية لا تحتوي على الحجر ، غير ان الحجر والمعادن تتوفر في جبال بلاد اشور . ويتوازن هذا الامر بمنابع النفط في اواسط بلاد اشور وعلى الاخص حول كركوك في حين تتركز مستودعات الغاز في الجنوب .

تلك هي المظاهر الرئيسية التي كنا نهتم بها بصفة رئيسية . غير ان الامبراطورية الاشورية نتيجة لفتوحاتها والحروب المتواصلة التي كانت تشنها في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد ، قد توسعت حتى بلغت حدود ايران الحديثة الى الجنوب الشرقي ، والى شواطئ البحر الابيض المتوسط في الغرب ، والى الحدود الحقيقية لمصر ايضا . وهكذا كانت اشور في وضع استطاعت فيه ان تسيطر بطريق التجارة او الهيمنة على كل موارد العالم القديم .

السكان

البابليون والاشوريون افراد طائفة سامية عرقية ، لكنهم يضمون فيما بينهم بعض العناصر الاجنبية الممثلة اصلا بالناس الذين نعرفهم الان باسم الاسيانيين Asianic والذين اذا لم يكونوا من اهل البلاد حقا ، فانهم كانوا على اقل تقدير من بين اقدم السكان المعترف بهم في آسيا

الصغرى:، ويؤلفون طائفة مميزة باللغة، والممارسة الدينية والطراراز. الجسماني • والمظهر الفريد جدا للغاتهم التي توجد عدة انواع منها بين اللغات الاسيوية هو الجذر اللفظي الذي بقي من دون تغير في تصريف الاسماء وتكوينها •

وكانت ديانتهم تستند الى قوى الطبيعة العظمى مع تأكيد خاص على الخصب والنماء • وكانت مقاسات مثل هذه الجماجم التي اكتشفت اثناء التنقيب متشابهة في الواقع مع المظاهر التي اتجهوا نحاتهاهم ، ولكن اذا ما قبلنا دليل نصبهم ، فان مظهرهم الجسماني كان متميزا بالانف الاقنى . الضخم ، وبالجبهة الواطئة ، وبعظم القحف العميق المائل ومؤخرة الرأس المنبسطة • فهذه المظاهر تعتبر نموذجية للطائفة الارمنية الحديثة •

وعلى هذه الشاكلة يبدو جليا ان هؤلاء السكان الاسيانيين يختلفون عن الساميين والهندو اوريين معا ، ولو ان بعض علماء الآثار يميلون الى القول بان الطوائف التي سبقت الهندو اوريين يمكن تشخيصها بين البعض من هؤلاء السكان •

تتمثل اقدم الامثلة لهذه الطائفة بالسومريين (الذين يعتبرون على اكثر احتمال عنصرا متمدنيا في بلاد الرافدين) ، والحيثيين الاصليين في آسيا الصغرى^(٤) والهوريين الذين كانوا يقطنون شمالي بلاد آشور وشرقيها ، والاعراق التي كانت تمتد على امتداد جبال زاغروس من القفقاس الى عيلام •

ولقد كان البابليون والآشوريون يؤلفون في الاصل طائفة واحدة هي طائفة الاكديين • وهم ينتمون الى الفرع السامي الذي تتمثل خصائصه النموذجية بالانف الاقنى والججمة العالية المقببة • ففي اللغة السامية ،

(٤) لغرض بحث هذه الكلمة بشكل اوفى انظر كتاب او . غرني O. GURNEY « الحثيون » لندن منشورات بليكان ١٩٥٢ . الفصل الاول .

كاللغة الفرنسية ، يمكن تكوين الجذور اللفظية بالتصاريص الداخلية •

اما عبادة آلهة الكواكب فهي مظهر مهم للديانة السامية • ففي بداية العصر التاريخي في بلاد الرافدين امتزج الساميون والسومريون امتزاجا كبيرا ، وقد استقرت اكرثية الساميين غربي القسم الاعلى من سوريا حيث شنوا من هناك غزواتهم على اواسط بلاد الرافدين وجنوبها ، والتي كانت في ذلك العصر تؤلف بلاد سومر •

واخيرا ، وفي عصرنا والذي نتحدث عنه على وجه الدقة اتخذت موجات جديدة من الساميين ، الذين عرفوا باسم الآراميين والذين كانوا من البدو في وقت لا يمكن تذكره ، طريقها الى داخل بلاد الرافدين باعداد كبيرة الى درجة انها كانت تؤلف عنصرا مهما في سكان هذه البلاد •

لقد استعار الساميون اول الامر عناصر من مدينة بلاد الرافدين ومن ثم اختاروها لكي تطابق عقيرتهم • فلقد كان احترام احدى المراحل المتقدمة للمدينة ملموسا على الدوام بين الاكديين الذين لم يسلخوا في الغالب سوى تحسينات ضئيلة على ما استعاروه من بلاد سومر • وكانت الروحانية التي مارسوها هي روحية الاعجاب والتقليد ، وقد تركت هذه الروحانية اثرها في كل مظهر من مظاهر التفكير والمهارة المطبقة •

وكان العنصر الثالث المميز في غربي آسيا هو العنصر الهندي الاوربي • ويبدو ان هذا العنصر قد بسط تأثيره ليس عن طريق حجمة الحقيقي ، وانما عن طريق دوره كقائد للغزوات المتوالية التي كان الآسيويون يشنونها من ناحية الشرق طيلة عصر تاريخي •

لقد كان الهنود الاوربيون عنصرا موجها او قائدا في هذه الغزوات وقد تركوا سمتهم في البلدان التي افترضوها من امثال الحثيين الهنود

الاوربيين بالنسبة الى الحثيين الاصليين الاسويين والهورييين في شمالي بلاد آشور والكشيين في بابل ، والفرس في ايران •

وليس من شك في ان الكثير من الفروق العميقة بين صفات الاشوريين وهم اقل تقدما ، والبابليين المتمدين بصفة عالية ، انما تبسغ عن طبيعة السكان المحليين التي يجابهونها في البلدان التي يحتلونها والتي ينصهرون بواسطتها ، أو من اختلاف نسب العناصر العرقية الرئيسة الثلاثة التي مر وصفها في الفقرات السابقة • لكن اطلاق مثل هذا القول يجعل من الخطأ ان نقل من قيمة التأثير الذي مارسته الاجواء الواسعة الاختلاف في بلاد آشور وبلاد بابل في تكوين صفة سكانهما •

اللغة

الاكديية هو اسم اللغة التي كان يتحدث بها في بلاد آشور وبلاد بابل سوية • ويتميز شكلا اللغة بصفة عملية في القواعد والمفردات ، وربما يختلفان اختلافا ملحوظا اكثر في طريقة التلفظ ، حيث يبدو - بالنسبة الى البرهنة على اللغة في شكلها المكتوب - ان البابليين كانوا يميلون الى اضعاء الصلابة على بعض الاصوات • ويمكن ان نجد شباها لذلك في ايطاليا الحديثة ، حيث يتلفظ النيوبولتان الاعتياديون(*) كلمة « كرمستو » CRISTO بشكل غرشنو - GRISTO ولكن في العصر الآشوري المتأخر والبابلي الحديث ، اهملت اللغة الاكديية ذاتها ، واخذت اللغة الارامية ، التي كانت الشعوب المحيطة ببلاد الرافدين تتحدث بها ، تنتشر الى كل ارجاء البلاد

فقد كانت الآرامية تتميز بفائدتين عن اللغة الاكديية • فهي لم تكن

(*) نيو بوليتان . Neopolitan

أكثر مرونة حسب ، بل انها كانت تدون بكتابة القبايية وليس بالحروف. المسارية التي كانت تؤلف اداة جد صعبة في الاعراب عن الافكار ولا يمكن السيطرة فيها على اية حالة الا من قبل طائفة من الكتبة الذين لم يكونوا يؤلفون سوى جزء ضئيل جدا من السكان

ومن ذلك العهد وما بعده اخذت اللغتان تستخدمان بصفة مزدوجة . ولقد بقيت آثار قليلة من اللغة الآرامية وذلك بسبب بساطتها واستعمالها بشكل أكثر شيوعا ، لانه يمكن تدوينها بالحبر على مواد غير ثابتة تكون عرضة للتلف ، غير ان اللغة الاكدية بقيت تستعمل كلغة تقليدية ، ولا تستخدم الا للوثائق الرسمية ، وتدون على الرقم الطينية التي تصبح - عندما يتم صنعها - تماما - غير قابلة للتلف .

ومنذ عصر سلالة سرجون وما بعده ، وعلى الاخص في عهد البابليين. والفرس ، احتلت اللغة الاكدية التي كانت تدون بالحروف. المسارية منزلة مشابهة للمنزلة التي تبوأها اللغة اللاتينية في اوربا الغربية خلال العصور الوسطى .

اما اللغة الآرامية فقد احتلت مكانة اللغة الاكدية ، كلغة للكلام الذي يجري تناوله كل يوم مثلما احتلت الاكدية مكانة اللغة السومرية على وجه الدقة .

تاريخ بلاد الرافدين في الفترة ٧٠٠ - ٥٠٠ قبل الميلاد

قبل التعرض لوصف الحياة اليومية في مدينة بابل في الفترة المارة بين سنة سبعمائة وستة خمسمائة وثلاثين قبل الميلاد على اوسع تقدير ، ينبغي لنا ان نلخص بإيجاز حوادث العصر ضمن موقعها التاريخي .

كانت بلاد بابل وآشور خلال الالف الثاني قبل الميلاد ملتحمة في صراع جاد من اجل السيادة . غير ان الحظ كان منذ حوالي سنة الف قبل الميلاد لصالح بلاد آشور ، وفي سنة سبعمائة قبل الميلاد أصبح تفوذها امرا لا خلاف فيه . ذلك ان الملك سرجون الثاني (٢٢-٧٠٥ قبل م) الذي كان قد توفي حديثا ، بذ اسلافه بان خلف وراءه على بعد عشرة اميال ونصف الميل شمالي شرقي نينوى^(٥) قصرا تأكدت عظمته بواقع ان منحوتاته الناتئة التي يضمها اذا ما صفت الواحدة منها الى الاخرى فانها ستمتد الى اكثر من ميل .

كانت الامبراطورية الآشورية تقترب من الذروة ، وكان سنحاريب خليفة سرجون (٧٠٥-٦٨١ ق م) قد وسع حدودها وان لم يكن مع ذلك قد اضطر الى القضاء على الثورات التي كانت تصحب تنصيب ملك جديد عادة في الشرق القديم .

وهكذا وبعد ان دجر دعيا بالعرش ساندت ادعاءاته بلاد عيلام ، والآراميين المتمردين أولئك البدو الذين كانت ثروة الشعوب المستقرة بصفة أكثر تثير حسبهم ، قضى سنحاريب على الثورات التي وقعت في فينيقيا ، الضفة الغربية التي كانت مصر تساندهما معا ، ونصب مرشحا من قبله على

(٥) في خرسباد .

عرش بابل والذي صمم في إحدى المرات ان يجرب حظه باغراء من ملكها المخلوع « مردوك - بلادان » (**). ولقد تعقبه سنحاريب بأسطوله حتى منطقة الخليج العربي التي فر اليها ، غير ان بلاد عيلام التي تقع في المنطقة الجنوبية الغربية من ايران الحديثة ، اقدمت على مساندة المتمردين واتهمت الحملة بصفة غير حاسمة . لذلك اضطر سنحاريب الى ان يؤجل اجراءاته التأديبية لانه كان يواجه الضرورة ليس في ضرب العرب الموجودين في الجزء الجنوبي الغربي من امبراطوريته حسب بل ويرسم خطواته التالية نحو فلسطين التي انفجرت الثورة فيها ثانية .

واخيرا وقد عاد ثانية الى بابل فنهبا في سنة ٦٨٩ قبل الميلاد وعين احد اولاده حاكما عليها ، لكن الثورة انفجرت في بلاد آشور ذاتها ومات سنحاريب نفسه اغتيالا .

لن يؤخرنا التحدث عن الملوك الذين اعقبوا سنحاريب ، وعلى الاقل ما يتعلق بالثورات ومكائد القصر . فقد كرم اسرحدون خليفة سنحاريب (٦٨٠-٦٦٩ قبل الميلاد) معظم قوته لمهاجمة مصر ، الخصم التقليدي لبلاد آشور في دورها كمساند لأمم الغرب التي كانت تتطلع الى تحرير نفسها من النير الآشوري .

استطاع اسرحدون ان يفتتح دلتا نهر النيل في مصر ، ومن ثم وجه لطمة شديدة للثورة في فينقيا . فقد تم اسر ملك صيدا وضرب رأسه ، وهدمت المدينة ذاتها تهديما كاملا ، واستبدلت بمدينة جديدة شيدت على

(**) الصواب مردوك ابلا دن (مردوخ بلادان الثاني) الملك الرابع من سلالة بابل التاسعة دام حكمه اثنتي عشرة سنة من ٧٢١ الى ٧١٠ قبل الميلاد وقد خلع مردوك بلادان عن العرش ثم اعيد اليه ثانية ولكن لفترة لم تزيد على تسعة اشهر .

موقع قريب منها ، لم تشخص بقاياها ، ويبدو واضحا انها اما قد هجرت في الحال او انها لم تظهر باهمية كبيرة .

وفي الوقت ذاته كان الشرق يتعرض لخطر الماڤين الذين استقروا شمالي غربي ايران ، والسكثيين(*) ، وهم عرق بدوي من فرع هندي اوروبي ، كانوا يحاولون التغلغل الى بلاد آشور عن طريق ارمينيا .

وعلى الرغم من كل هذه القلاقل فقد توفر الوقت لدى اسرحدون لتخطيط قصر جديد في نينوى ، لكن لم يكن مقررا له ان يستمتع باية راحة ، لان مصر ثارت عليه مرة اخرى ، ولقي الملك مصرعه وهو في طريقه الى احدى الحملات ضدها .

خلف اسرحدون اخوه الاصغر آشور بانيبال (٦٢٦-٦٢٨ قبل الميلاد) الذي ورث اخوه الاكبر عرش بابل .

لقد جعل آشور بانيبال اول مهمة له هي استعادة سلطة آشور في مصر ، ولذلك تحركت القوات الاشورية من ممفيس الى طيبة التي تم نهبها .

لقد كان امرا محتوما ان ينتهز اخ آشور بانيبال الاكبر الوارث الشرعي لعرش بلاد آشور هذه اللحظة للثورة عليه ، وهكذا اضطرت آشور مرة اخرى ان تسلك الطريق الى مدينة بابل .

لقد تم احتلال المدينة ، ولقي الاخ المتמרّد حتفه في قصره المحترق (هذا هو الحادث الذي ادى الى ظهور اسطورة ساردا نابالس)(**) وحصل

(*) السكثيون هم مجموعة القبائل التي استوطنت البلاد الروسية (الاتحاد السوفياتي الان) واليهام ينتمى معظم الروس في الوقت الحاضر وقد عرف الاسكثيون في مدونات المؤرخين والجغرافيين العرب والمسلمين باسم (الاشقوذيين) .

(**) ساردانابال سardanapalus وهو الاسم الذي اطلقه الرومان على الملك الاشوري آشور بانيبال .

ذات المصير: بمدينة سوسة غاصمة عيلام التي تضائل حجمها في عهد اخلاف
آشوربانيبال .

عمد كي خسار ملك ماذي ، ونوبلصر(*) حاكم بابل الى اقامة تحالف،
واعدا حملة مشتركة ضد نينوى فاستولوا على المدينة سنة ٦١٢ قبل الميلاد .
اخفقت جهود اخر ملك(٦) لتجميع قواته في شمالي سوريا ، واذا ذلك قسمت
كل امبراطورية آشور بين الحاكمين المنتصرين . وعلى هذا فقد اصبح الشمال
كله من ماذي في الشرق حتى آسيا الصغرى في الغرب يؤلف جزءا من
الامبراطورية المأذية .

اما بلاد بابل وآشور والمنطقة الساحلية فقد توحدت تحت سلطة
نوبلصر ، وبرزت مدينة بابل كرئيسة للامبراطورية الجديدة التي عرفت
باسم الامبراطورية البابلية الحديثة . اما نوبلصر الذي حكم هذه
الامبراطورية كأول ملك لها عدة سنوات ، فقد خلفه نبوخذنصر
(٦٠٥-٥٦٣ ق.م) . وقد استطاع نبوخذنصر خلال حكمه الطويل ان يعيد
لبابل جمالها ، بعد ان نهبا آشوربانيبال ، وان يزينها بالنصب التذكارية
التي تشهد بها كتاباته ومؤلفات المؤرخين اليونانيين ، والتي ظهرت بقاياها
الى النور بالتنقيبات التي أجرتها البعثة الالمانية تحت اشراف كولدوي(***)
خلال السنوات ١٨٩٩-١٩١٧ .

(٦) هو الملك سن شاراشكون (٦٢١ - ٦١٢ ق.م) .
(*) كي اخسار Cay Xares ملك الماذهين الذي تحالف مع نبو بلاسر ملك
بابل فجهزا جيشا مشتركا هاجما به مدينة نينوى سنة ٦١٢ ق.م .
فاستولوا عليها ودمرواها تدميرا تاما وبذلك قضيا على الامبراطورية
الاشورية الى الابد .

(***) كولدوي Koldwey منقّب الماني ركز عمله في مدينة بابل وكشف عن
قصر نبوخذنصر وأعاد تركيب بعض اجزائه وكان كولدوي الذي ولد
سنة ١٨٥٥ قد بدأ أولى تنقيباته سنة ١٨٨٢ في مدينة اسوس في اقليم
مليسينيا من آسيا الصغرى ومنها انتقل الى العراق حيث استمرت
تنقيباته فيه من سنة ١٨٩٩ الى سنة ١٩١٧ في مدينة بابل وحدها . وقد
توفي كولدوي سنة ١٩٢٥ .

ما لبث الخصوم السابقون لبلاد آشور ان اتحدوا مرة اخرى في
 مناهضة مملكة بابل . لقد اصبح نبوخذنصر نفسه سيد القدس اثر حملتين
 جردهما على فلسطين سنة ٥٨٧ قبل الميلاد . ففي المناسبة الثانية لم يظهر اية
 رجسة . فقد قتل الكثير من السكان ، بينما تقبل «صدقيا»(*)
 مع امراء بيته وطبقة النبلاء والحرفيين الماهرين الى بلاد بابل .

تم الاستيلاء على مدينة صور بعد حصار طويل (لا يقل عن ثلاثين سنة
 حسبما ذكره المؤرخ منندر)(**) Manander كما خطط نبوخذنصر على
 الاقل حملة الى مصر (٥٦٨ ق م) من قاعدة يوفرها له شاطئ البحر ، وان
 لم يكن يوجد سجل عما اذا كان قد قام بهذه الحملة أم لا ، واذا ما قام بها فما
 هي درجة نجاحه فيها .

هناك القليل مما دون خلال حكم المبيوك الذين اعقبوا نبوخذنصر ،
 ما خلا الاضطرابات المعتادة . غير ان المرحلة كانت تنهيا لاجداث ذات فترة
 اعظم .

ثار الفرس الذين استوطنوا القسم الجنوبي من ايران ضد الماذهين
 وجولوا اسيادهم السابقين الى دمار .

(*) صدقيا . Zedekia احد حكام فلسطين الذي تصدى لقاومة يخنصر
 فهزم شر هزيمة واخذ اسيرا مع افراد اهل بيته وقادته الى بابل .
 (**) المؤرخ منندر Manander يقصد به المؤرخ الفارسي « ابن مهندر » .

وصل كورش (٥٢٩-٥٤٦ ق.م) الى العرش الفارسي أثناء حكم نبوئيدوس (٥٥٥-٥٣٩ ق.م) في بابل^(*) والذي كان يهتم باستعادة النصب الدينية اكثر من اهتمامه بالحفاظ على مصالح امبراطوريته . ومع ذلك فان خطته في ان يجمع في عاصمته تماثيل اعظم الالهة قدسية من المعابد النائية قد اثارت معارضة الكهنة ، ولذلك فلم يلاق كورش الذى وسع حدود مملكته في تلك الفترة حتى شاطئ بحر « الايون »^(**) ، سوى مقاومة طقيفة عندما وجه هجومه المباشر على بابل سنة ٥٣٩ قبل الميلاد . ولقد تميزت سياسته باعتدال لم يكن متوقفا . فقد اعاد تماثيل الالهة الى المدن التي نقلت منها .

لقد برزت في الواقع روحية جديدة تماما عند وصول الفرس . فالصلابة التي عرف بها البابليون ، والشدة التي تميز بها الآشوريون قد اوجدت مكانا لتفهم واسع ، وعلى الرغم من انفجارات العنف العرقية ، ادت هذه الروحانية الى نوع من الترويض كان الشرق غريبا عنه قبلا .

لقد رسمنا بإيجاز خلاصة تأريخ قرنين من الزمن ، وقد حان الوقت الان ان نتساءل عن نوع الحياة الاعتيادية التي كان يحياها ابن الرافدين في العصر الذى عاش فيه .

(*) نبوئيدوس Nabonidus ويعرف باسم نبونيد بلشاصر هو آخر ملك من السلالة الكلدانية ، اي العهد البابلي الاخير ، وقد دام حكمه سبع عشرة سنة وقد سقطت مملكته على يد كورش الاول ملك الفرس الاخمينيين .

(**) بحر الايون Ion هو بحر ايجيه احد خلجان البحر الابيض المتوسط وتعرف المنطقة الممتدة على ساحله باسم ايونيا ومنها اخذ اسم « اليونان »

لا بد وان كانت هذه الحياة غير مستقرة ومفعمة بلحظنات التآسي .
بالنسبة لسكان العواصم سواء في ذلك نينوى ام بابل التي دمرت اثناء هذه
السنين ، والتي كانت دون ريب اكثر اطمئنانا لمن كانوا يسكنون في الارياف .
ولكن ما عدا الشك كانت تلك السنين مليء بالعمل المتواصل . ولنا بحاجة
ان نبحث عن دليل على ذلك ابعد من الوثائق التي تدلل لنا على غنى وتجديد
المدينة التي وجدت في عهد اخر الملوك الاشوريين ، والملكية البابلية
الحديثة .

سجل الوقائع التاريخية

' ينبغي لنا ، قبل المضي في بحثنا ، ان نتفهم الكيفية التي يمكن بها نسبة الحوادث التاريخية في القسم السابق الى تواريخ خاصة . فبالنظر الى العالم الحديث اصبح تأريخ الاحداث امرا بسيطا نسبيا . فاستخدامنا للعصر المسيحي يعني ان السنوات تمضي متعاقبة من نقطة بداية ثابتة ، وبعد اجراء علاوة مستحقة لمختلف التصويبات التي ادخلت في التقويم خلال القرون ، فان نظام تدوين التأريخ الذي نستخدمه يشمل هذه الفترة الطويلة بثقة تامة . كذلك استعملنا اسم هذه الطريقة في وقت متأخر ، ونفرض احتساب مضي السنين قبل ميلاد المسيح فاننا نطبق ذات الاصطلاح ، حيث نبدأ مرة اخرى من بداية العصر المسيحي . غير ان العالم القديم لا يستطيع طبعاً ان يدرك الحادث الذي ثبت نقطة البداية لنظام تسجيل الحوادث التاريخية الذي نستعمله ، ولهذا ينبغي لنا أن نبتهج طريقة مغايرة . ولقد كانت محاولات هذه الطريقة ، رغم ثباتها ، عرضة للفشل لانها كانت ، كما هو الواقع ، تعوزها اية نقطة ثابتة .

ولقد استعمل العراقيون ، مثل غيرهم من الشعوب ، اليوم كوحدة لديهم لقياس الزمن . ومع ذلك فطبقا لحسابهم كان اليوم يبدأ بغروب الشمس ، ولم يكن يقسم الى اربع وعشرين ساعة بل الى اثنتى عشرة فترة امد كل واحدة منها ساعتان ، اعطت اسمها الى المسافة التي يمكن تغطيتها في ذلك الفراغ من الوقت(*) (٧) .

وكانت الوحدة التالية لديهم هي الشهر . ولقد اذنت التجديدات التي ادخلت على تقويم لوزربا الغريبة الى اختيار شهر واحد يتألف من ثمانية وعشرين يوما ، والبقية من ثلاثين او واحد وثلاثين يوما ، وبذلك غدت السنة

(٧) كانت تعصى بؤرو Boru - باللغة الاكدية .

تتألف من ثلثمائة وخمسة وستين يوما . وكانت هذه السنة تتجاوب ضمن حوالى ست ساعات مع السنة الشمسية وقد احسن احتساب الفرق بإضافة يوم واحد كل اربع سنوات الى شهر شباط الذي يتألف عادة من ثمانية وعشرين يوما .

وعلى النقيض من ذلك اختار العراقيون الشهر القمري الذي يتألف من ثلاثين يوما . وقد ادى هذا النظام الى حدوث نقص سنوي يزيد عن خمسة ايام قليلا ، ولذلك يصل الوقت المتأخر ، بعد ست سنوات ، الى شهر . في تلك النقطة ادخل العراقيون في تقويمهم ما سموه بالشهر الكبيس ذي الطول الاعتيادي ، وبذلك امسكوا مرة اخرى بالنسبة الحقيقية .

وما ان تملك البابليون ، كما فعلوا ذلك حقا ، هذه الوحدة القياسية حتى استخدموا طريقتين مختلفتين في تأريخ السنين ، والتي كانوا يعتبرونها ، مثلما كانت عليه اوربا الغريبة حتى عصر النهضة ، تبدأ بفصل الربيع . فطبقاً للطريقة الاولى سموا كل سنة بعد وقوع حادث مشهور فيها ، مثال ذلك السنة التي شيد فيها الملك فلان المعبد الفلاني ، او السنة التي دحر فيها الملك فلان عدوا محددا ، والتي وردت في قوائم تؤلف دليلا للحوادث . وبالتعاقب كانوا يحتسبون عدد السنين في كل فترة من فترات الحكم .

فهذه الطريقة يمكن الاعتماد عليها وحدها حقا في حفظ كل الوثائق في مكانها الصحيح ، غير انها لم تكن كذلك لبوء الحظ .

غير ان البابليين قد تركوا لنا ، مثلما فعل نحن ذلك تباما ، قوائم لسلاسلهم الحاكمة المختلفة والتي يظهر فيها كل ملك في نظام شديد من التعاقب سوية مع عدد سنوات حكمه ، في حين ان الكاتب يعطي عادة في نهاية كل سلالة حاكمة ، مجموع عدد الملوك ومجموع السنوات المقاربة لحكمهم .

فمثل هذه الطريقة تكون هي الاخرى وافية كلية ولكن بالنسبة الى
الاطباء والاختزالات التي يعمد اليها قسم من الكتبة . ومع ذلك فهناك نوع
اخر من الوثائق التي قد تتقذنا من كل هذه الاخطاء . فالواضح ان الملك
عندما يسجل مظهراً مهماً اثناء حكمه فانه يشير بذلك الى حادث ماض ، ويحدد
فترة الزمن المتداخلة فيه .

وعلى هذا فان من المدهش ان تتحقق بان اعتماداً محدوداً حسب يجب
ان يوضع في هذه السجلات المكتوبة . فطالما كشف القليل نسبياً من هذه
النصوص ، فان في الامكان تقبل صحة نظام تسجيل الحوادث التاريخية
الذي اعيد ترتيبه على هذا الاساس ، ولكن بنطاق متنام من التقيب وبكشف
اكثر صراحة للبرهنة على تسجيل الحوادث ، وان النتيجة التي لايسكن التهرب
منها هي ان هناك سلسلتين من الوثائق آشورية وبابلية ، قد تعايشتا في بلاد
الرافدين . فضلاً عن ذلك توجد ضمن كل من هذه المسلسلات فروق بين
مختلف النصوص في العدد التام للملوك ولسني حكمهم .

ومع ذلك فان الطريقة التي استعملها الكتبة في رسم الواحهم التاريخية،
تقدم اساساً آخر بالنسبة لعدم الصحة . ففي الوقت الذي يعمد فيه التطبيق
الحديث لتجميع القوائم المماثلة ، الى حشد اسماء الملوك والامراء او الحوادث
التي كانت معاصرة احداها للآخرى في اعمدة متوازية ، سجلها البابليون
احداها بعد الاخرى .

وليس هناك ادنى شك في ان هذه القوائم كانت تمثل تفسيراً صحيحاً
وذلك بفضل التقليد اللفظي الذي كان يلعب دوراً كبيراً في نظام التربية لديهم .
ومن ناحية اخرى فاننا ما نزال نعيش في ظلمة الى ان يسعفنا حادث

محفوظ يكشف لنا بان ذنبك الحادثين الذين كان يعتقد قبلا بانهما قد فصلتا نتيجة فترة زمنية ، كانا متعاصرين في الواقع .

ففي السنوات الاخيرة كان الاعتقاد السائد ان حمورابي ، الملك الذي ينتمي الى السلالة الاولى الحاكمة في بابل ، كان معاصرا لشمس ادد ملك آشور . وكان يظن بان الاخر عاش اكثر من جيلين بعد حمورابي ، وان هذه الحقيقة لم تتأكد الا نتيجة العثور على مراسلات بين كلا الملكين ، وذلك دليل لا مجال للخلاف فيه ، ولا يمكن تفنيده بالقوائم الرسمية ، بغض النظر عن مدى العناية التي جُمِعت بها هذه القوائم .

ولقد تم التوصل ^(*) للمساعدة في ايجاد طريقة للتخلص من هذا الخطأ . فاصبح مستطاعا ليس احتساب التواريخ المقبلة للطوالح المتعاقبة لاحدى الظواهر كالخسوف ، او ظهور تابع للشمس ، او اختفاء كوكب ، او نجم حسب . بل وكذلك تواريخ مطالعها السابقة . والواقع ان العراقيين الذين كانوا يهتمون بعلم التنجيم والفلك ، غالبا ما كانوا يسجلون احداثا من هذا القبيل في التواريخ التي يكتبون بها سير ملوكهم . وبهذه الوسيلة اصبحنا نمتلك الان سجلا كاملا لملاحظات فلكية عن فترة معروفة من حكم احد الملوك وهو « امي صدوقا » ^(*) الذي ينتمي الى سلالة بابل الاولى ، وبذلك نستطيع - كما اوضحنا سلفا - ان نحسب التاريخ الذي وقعت فيه هذه الحوادث .

وَقَلَّكَ يَا حَمَار

لقد استطاع المنجم الاماني « كوغلر » ، بعد حسابات مطولة ، ان يحدد التاريخ الدقيق الذي ينبغي ان يعزى حكم هذا الملك اليه ، وكذلك - بطريقة ضمنية - تواريخ ملوك آخرين ينتمون الى تلك السلالة .

(*) امي صدوقا Ammi Zaduga الملك العاشر من ملوك سلالة بابل الاولى دام حكمه احدى وعشرين سنة ١٥٨٤ - ١٥٦٤ ق.م .

ومع ذلك فقد توصل المنجم الانكليزي « فورذنفام » ، الذى كان يبحث ذات القضية بصفة مستقلة ، الى نتيجة مغايرة ، في حين كرر « كوغلر » في سنوات متأخرة حساباته السابقة فتوصل الى نتيجة مغايرة لتلك التي نشرها سابقا .

ان العناصر الواضحة للخطأ الموروث في هذه الطريقة ، تعزى في الدرجة الاولى الى حقيقة ان الخيار يقع بين عدد من التواريخ لا معدى عنها .

فالواقع ان الظاهرة التجسيمية الخاصة التي تمت دراستها يحدث ان تؤدي في بعض الاحيان وبمثل هذه الصراحة ، الى استعمال تاريخين او ثلاثة تواريخ محتملة . وهذا هو سبب الاختلافات في الرأي بين المعنيين بدراسة القضايا الاشورية الذين يقارنون هذه النتائج مع ما بقي من الوثائق العراقية .

وعلى الرغم من هذه المصاعب المتباينة فان من المصيب ان نقول بان كل التفسيرات المختلفة للبرهان تشير بنطاق واسع الى نقص في التدوين العام للاحداث التاريخية .

ان اسبق تاريخ مقترح بالنسبة الى بداية العصر التاريخي ، والذي حدد قبلا بعد اربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، قد تم تقريبه الآن الى القرون الاولى للالف الثالث قبل الميلاد ليس الا .

وكلما اخذنا نقرب من العصر المسيحي اخذت الاخطاء تتناقص بصفة نسبية الى نقطة تختفي فيها ، ولذلك فقد تم اهمالها فعلا بالنظر الى العصر الذي يشملها هذا الكتاب .

فقبل هذا التاريخ بعدة قرون كان الآشوريون يصفون السنين المنفردة . باسم قاض ملقب يدعى «ليمو»^(٧) وتتوفر لدينا قوائم لهؤلاء الموظفين . فضلا عن ذلك فان الكتب في هذا العصر كانوا يدونون التاريخ المتواصل .

للأحداث التي كانت تحدث في بلاد آشور وبابل والبلدان المجاورة ، وقد سلمت هذه المدونات من التلف .

وأخيرا وضع « بطليموس المصري » (*) للقرون الماضية قانونا للأحداث يمكن استعماله لفرض المقارنة .

وعلى هذا فحين يتحدث هذا الكتاب عن التواريخ الواقعة بين سنتي ٧٠٠ و ٥٠٠ قبل الميلاد ، فإن هذه التواريخ قد احتسبت بدقة إلى حد أشهر قليلة .

(٧) : الاسماء الاشورية والبابلية يكون الحرف **U** بمثابة (وو) كما ان الحرف **E** لا يكون ساكنا .

(٨) : بطليموس : عالم يوناني اشتهر بعلوم الجغرافية والرياضيات وتنسب اليه كثير من الآراء والنظريات الجغرافية ومن بينها قياس محيط الأرض وماشاكلها . وقد ترجم العرب في زمن الرشيد والمأمون كل مؤلفاته ونقلوها وأصلحوا الكثير من آرائه ومقولاته .

تركيب المجتمع العائلة ، البيت

مع ان الحياة اليومية لعضو من الطبقات العليا في بلاد الرافدين تختلف اختلافا بارزا عن الحياة اليومية للرجل الاعتيادي ، الا انها لا تحتفظ بالقليل من المظاهر بصفة عامة . ولكن عن طريق المفارقة لا يوجد شبه مهما كان نوعه بين حياة ملك بابل او آشور ، او حياة اي من رعاياه . وعلى هذا فان اهتمامنا المباشر يتركز على الرجل الاعتيادي في الشارع . اما الملوك فسيحتلون قسما منفصلا من هذا الكتاب .

اعترف المجتمع العراقي في مراحلہ الاولى بتقسيم ثلاثي بين افرادہ . فقد وجدت بين الرجل والعبد طبقة تستحق - بالمعنى الحرفي للكلمة - ان تعتبر اقل من الاول واكثر من الثاني . ومع ذلك فلا يوجد سوى دليل مباشر ضئيل على وجود هذه الطبقة يمكن ان يستنتج منه ابتداء من عصر حمورابي وما بعده (اي في حدود القرن الثامن عشر قبل الميلاد) بانه لم تكن لهذه الطبقة سوى اهمية ضئيلة .

وبكلمة مختصرة كانت تلك الطبقة هي طبقة ال « مشكينو » (التي تقابل كلمة مسكين في اللغة العربية) والتي اشتقت منها الكلمة الفرنسية « مسكان Mesquin » ، وهي طبقة من رجال لا يستحقون سوى الشيء الضئيل ، لكنهم يتميزون عن الارقاء الذين لا يساوون شيئا ما .

الرجل الحر والزواج

يقف الرجل الحر في قمة الميزان الاجتماعي ، اي الرجل بالمعنى التام للكلمة . فهو ليس ملكا لاحد . والواقع انه يخضع للقانون ولكن بالنسبة الى المحاكم وبالنظر الى العقوبات التي قد يتعرض لها كان يعتبر اكثر قيمة من العبد ، الذي كان وضعه القانوني مناقضا على وجه الدقة لوضع الرجل

الحر ، مما سنأتى على وصفه فيما بعد •

كان الزواج اساس العائلة • ومع ان تعدد الزوجات نظريا كان هو القاعدة الا ان ثشئة الزوجات اللواتي كن يسجن من الرقيقات ، كان معمولا به ايضا • والى وقت زواجها تبقى الفتاة تحت حماية ابيها الذى كان مطلق الحرية فى ربطها بالزواج حسبما يعتقد ان ذلك مناسباً •

وحتى اذا حدث ان كانت الفتاة فى خدمة طرف ثالث ، مثلا كضمان للدين الذى فى ذمة ابيها ، فانها لن تكون اقل اعتمادا على والدها لان تزوج او على اخوتها اذا مات ابوها •

وكان الدائن حر التصرف بها كما يشاء اذا لم يكن لها والد او اخوة •

يسبق الزواج حفل الخطوبة الذى يقوم خلاله الزوج المقبل بصب العطور على رأسها ، ويجلب لها الهدايا والمأكولات • وبعد ذلك تصبح الفتاة عضوا كاملا فى اسرة زوجها المقبل ، اى انه اذا ما توفي سوف تتزوج واحدا من اخوته ، او اذا لم يكن له اخوة ، واحدا من اقاربه الاقربين •

ولعله من غير المعتاد ان لا تجد احدا فى عائلة شرقية قد انجز هذه الشروط ، ولكن اذا ما وجدت مثل هذه الحالة ، فان والد الفتاة سوف يحتفظ بكل حقوقه عليها ، ويعيد كل الهدايا التى تسلمتها ما عدا الاشياء التى تم استهلاكها •

والمثقف عليه ان الفتاة اذا ما توفيت وان زوجها المقصود لم يرغب ان يتزوج احدى شقيقاتها ، فانه سوف يسترجع كل الهدايا التى اهداها اليها عدا تلك التى تتألف من الطعام •

ويأخذ الزواج الحقيقي ، كما نعرف ذلك من احد النصوص ، صفة تسليم الزوجة الى زوجها ، اما اذا كانا كليهما ينتميان الى طبقة المواطنين الاحرار ، فان الرجل يضع الحجاب على وجه عروسه بحضور شهود ، ويعلن

بكل خشنوع « انها زوجتي » •

يحدد القانون الآشوري الشهيرة الحجاب الذي كان مثار مزيد من البحث ، ويفسره بأنه العلامة المميزة للمرأة العزبة ، وان من واجب اي فرد يصادف رقيقة او عاهرة ترتدي الحجاب ان يفصحها •

ولم يكن الحجاب في الواقع ليغطي به الوجه دائما . ذلك لانه توجد كثير من النسب الحثية الجديدة تصور نسوة يرتدين الحجاب اندي يغطي شعورهن ويتدلى على جانبي الوجه • ففي مثل هذه الحالة من الضروري سحبه معا (وحتى هذا اليوم ما تزال كثير من النساء الشرقيات يوثقنه بان يمسكنه باسناهن) او ، اذا ما تجمع فوق قمة الرأس ، يدعنه يتدلى طليقا •

وطريقة ارتداء الحجاب هذه يمكن ان تشاهد في تماثيل من تدمر وفي رسوم من [دورا يوروبوس] وهي مدينة تقع على الفرات قرب دير الزور (*) •

وهكذا ومع ان اهميته قد تغيرت فقد كان الحجاب الذي كانت النساء المسلمات يرتدينه يمتد الى احقاب بعيدة في التاريخ ومنذ ذلك الوقت جرت العادة باستعماله على نطاق واسع ؛ لكنه كان مقبولا قبلا في اجزاء من الشرق منذ اوائل النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد •

(*) دورا يوروبوس . من المدن القديمة سيدها سلوقس الاول خليفة الاسكندر في نهاية القرن الرابع للميلاد . وقد اشتهرت كثيرا في العهد الفرني واستولى عليها شابور الاول فخر بها . نقبت فيها بعنة من جامعة بيل الامريكية سنة ١٩٢٨ وكشفت فيها عن معابد تعود الى القرن الاول للميلاد . يتألف اسمها من كلمتين : دورا ، اي الحصن . يوروبوس وهو اسم المدينة التي ولد فيها سلوقس الاول في مقدونيا . تعرف خرابها الان في سوريا باسم « الصالحية » .

ومع ان الزوجات في العصر الآشوري المتأخر والعصر البابلي الحديث لم يكن يجري شراؤهن او بيعهن ، ولو بصفة نظرية على الاقل ، فانه توجد على الاقل نصوص معينة توضح بان الشراء في صفة تنكيرية قد وقع فعلا .

فاحد مثل هذه النصوص مثلا يسجل ان سيدة تدعى نخثشارو حصلت ، بسعر ستة عشر شاقلا من الفضة ، على امرأة تدعى نليلها تسبنا فتملكتها بصفة عملية كما تزوجها من ابن نخثشارا .

تبين الوثيقة بصفة محددة ان ثمن الشراء قد تم دفعه تماما ، وعوض الشاري عن كل مطالبه . وقد سحب الاحتفال عقد زواج صحيح ساعد على منح المرأة لقب زوجة .

فاذا كانت مثل هذه الصفة قد الغيت ، فان المضاجعة خلال فترة سنتين في حالة الارملة على الاقل ، تعتبر مساوية للعقد .

وكانت حياة المتزوجة تشتمل اما على بقاء الزوجة في بيت والدها او ذهابها مع زوجها الى بيته ، ففي الحالة السابقة يقدم الزوج او زوجته مبلغا يدعى (دوميكي Dumóki) لقاء صيانة البيت ، فاذا ما توفي الزوج بقيت هذه المساهمة ملكا للارملة في الحالة التي لا يخلف فيها المتوفى اولادا ولا اخوة . ويمكن اتفاق الدوميكي كله او جزء منه طبعاً .

وفي القانون الآشوري يعتمد عبء اثبات دعواه على المدعي ، وعلى هذا يجبر الاولاد والاخوة على ان يثبتوا بان الدوميكي لم يتم اتقاكه كلية .

وكان مثل هذا الامر يقع صراحة عن طريق استدعاء الشهود . فاذا لم يتم التوصل الى اتفاق يقوم الاثبات بطرائق اليمين او التحكيم . ولكن في الدعاوى التي تخص الدوميكي كان المدعون يعفون من طريقتي الاثبات ، ويكون دليل الشهود كافيا دون شك .

ومن ناحية اخرى اذا ما اراد الزوجان اليافعان العيش في بيت الزوج فان الزوجة تجلب معها « شركو = Shirku » (شركتو في عهد حمورابي) او صداق ، مع جهاز العرس ايضا في الغالب فالشركو مع الهدايا التي تتلقاها العروس تبقى ملكا خالصا لاولادها وليس لاخوة زوجها اي حق فيها .

وما عدا هذه الهدايا قد تتلقى العروس عقارا موهوبا لها (ندتو = Nudunnu) ، وبقبول هذا العقار تصبح الزوجة عرضة لديون زوجها بصفة مشتركة او منفردة ، بالإضافة الى هبة خاصة تريباتو Tribatu تقدم اليها بمناسبة خطوبتها ، وتظل ملكا خاصا بها حتى اذا ما طلقها زوجها ، واخيرا تتلقى هدية من ذهب او فضة او رصاص او طعام بسيط يدعى [زبلتو = Zubullo] يتم تناوله دون شك في وليسه الخطوبة . يقوم الفرق بين هذه الانواع المختلفة من الهبات على اساس انه ينسأ يبقى التريباتو ملكا منقطعا للزوجة ، فان الدوميكي والتدنو يمكن استرجاعهما ، كما هو شأن الزبلو الذي يشترط فيه بانه ما يزال كاملا .

ومع ذلك يستطيع الزوج ان يحتفظ ليس بزوجه حسب وانسأ ب (اشرتو = Esirtu) (*) او محظية ، يحق لها ان ترتدي الحجاب في المناسبات التي تصحب فيها الزوجة الشرعية خارج البيت . فمثل هذا الحق الذي منحه شريعة حمورابي للبابليين بقى ساريا في النصف الاول من الالف الاول قبل الميلاد . غير انه لم يكن يسمح للزوج ان تكون له زوجتان . فهذا العنوان يعود الى الزوجة الشرعية منذ اللحظة التي وضع فيها الحجاب

(*) هذه الكلمة البابلية مقاربة لكلمة « عشيرة » العربية التي تعنى الصديقة او المحظية ، اي من المعاشرة .

على رأسها ، وبالمقارنة مع الاخيرة تكون المحظية على الدوام تحتفظ بوضع لا يختلف الا قليلا . فهذه المحظية قد اختيرت في الاصل من بين الاماء ، وينبغي لها ان تمتنع بواجبات وظيفتها باحترام خالص للزوجة الشرعية ، وان تحبل كرسيتها عندما تذهب الى المعبد ، وان تساعد في زيتها .

ويندر ان تكون هناك اية حدود لحقوق الوالد على اولاده . فهو يستطيع مثلا ان يرهقهم لدى احد الدائنين كضمان لتسديد دينه . وفي بعض الوثائق القانونية كان الاب يوصف بأنه سيد او مالك ولده ، وذلك مفهوم بمعايير تماما للفكرة العصرية عن الاب .

وكما شاهدنا قبلا كانت للاب سلطة كاملة تماما بالنسبة الى قضية زواج ابنته ، وان لم ترد اية اشارة الى اي من الحقوق التي تملكها الام .

ومما تجدر الاشارة اليه ان القانون الآشوري لم يشر الى عدد الحقوق الشرعية التي كانت ام العائلة تملكها في عصر سابق كثيرا لعصر حمورابي .

واذا ما مات الزوج قبل الزوجة ولم يترك وصية ، فان الارملة يتوقع لها ان تستمر في العيش في بيته ، وان تساعد من قبل اولاده ، اما اذا كان لها اولاد من زوج اقدم فان اولادها من زواجها الثاني قد يعيدونها اليهم لان ذلك من مسؤوليتهم .

• ويبدو ان سوء الطالع الطبيعي الذي تتعرض له من لا اطفال لديها قد تضاعفت شدته بعدم المصادقة الضمنية الواردة في القانون الآشوري والقاضية بطرد الارملة التي لا اطفال لديها . فالقانون ينص باقتضاب قائلاً « لها ان تذهب حيث تشاء » ويترك الامر عند هذه النقطة .

وسواء كانت العائلة تحتفظ ام لا تحتفظ باولاد من الزوجة الشرعية

ام من الاشرئو التي قد تصبح عضوا فيها ، فان للعائلة على الدوام حق تبني اولاد آخريـن يحصلون على حق الارث مثل بقية الاولاد الذكور .
الاخريـن شريطة ان لا يؤدي هذا الى الحاق الضرر بالاولاد الذين ولدوا بطريقة الزواج .

ويقع الاحتفال بالتبني في حضور شهود ، وينبغي للولد المتبني به ، مقابل حقوقه التي حصل عليها حديثا ، ان يقدم هدية صغيرة الى والده الجديد .

وكانت عملية التبني هذه في بعض القرون السابقة تجري بوسائل حاذقة للتحايل على القانون الذي يحظر بيع مال تم الحصول عليه باقطاع .
ممنوح من الملك لكن يسمح بانتقاله عن طريق الارث .

ولقد عثرنا فعلا على تاجر غني من القرن الخامس عشر قبل الميلاد من منطقة قرية من كركوك(*) كان يقوم بتبني افراد اغنياء وفقراء على حد سواء ومن دون تمييز تماما ، بينا اقدم هؤلاء ، مقابل ذلك ، على تقديم هدايا الى والدهم الذي تبناهم ، تتألف من مبالغ من النقود والمزارع . مساوية في القيمة لما سيرثونه مؤخرًا نتيجة تبنيهم (الاعمال التجارية في نوزا) .

وعن طريق التبني يحصل الاب على حقوق واسعة جدا . وهكذا يستطيع ان ينهي التبني حسب رغبته ويعيد الولد المتبني به في حين ان

(*) يقصد المؤلف بذلك مملكة « نوزي » و « ارابخا » القريبة جدا من كركوك والتي كان اهلها يتحايلون على القانون الذي يمنع انتقال الملكية ، بطريقة تبني الاشخاص الاغنياء والفقراء على حد سواء . انظر كتاب « العراق القديم » دراسة تحليلية في اوضاعه الاقتصادية والاجتماعية . الفصل السابع الذي نشرته وزارة الاعلام في ربيع سنة ١٩٧٦ .

الآخر اذا ما فصل عن العائلة التي تنتمي ، يفصل بكل بساطة^(٨) ويعاد الى أهله .

بعد هذه اللحات عن عائلة الرجل الآشوري الحر (Amélu = اميلو) في عصر السلالة السرجونية ، آن لنا الآن ان نعود وتمحص الوضع القانوني للارقاء ، الذي جعل منهم عددهم عنصرا مهما في المجتمع .

(٨) طبقا للمادة ١٨٦ من شريعة حمورابي . ووفقا للمادة ١٩٢ من هذه الشريعة يقطع لسان ابن المرأة المنذورة او المترهبة عندما يتبرا من والديه

الارقاء

قد يولد المرء عبدا ان كان ابن عبد ، او ان يصبح عبدا لعدد من الاسباب التي تكون متعددة بشكل واف لاحتساب الميل الدائم بالنسبة لازدياد عدد الارقاء .

واول هذه الاسباب هي الحرب . فمن الاهداف الرئيسة للحملات العسكرية المتلاحقة التي قام بها الملوك الآشوريون ، الحصول على قوة عمل كبيرة بعنة تكفي لتنفيذ مشروعاتهم المختلفة .

وتصور المنحوتات الآشورية الناثة صفوفًا من الاسرى الذين تقودهم الجيوش الظافرة الى العاصمة ، وقد اوثقت ايدي الرجال منهم واقتيدوا كالماشية تلهبهم اسواط الجند ، وتتعبهم النسوة وهن يحملن اطفالهن وما ندر من امتعتن . او ينقلن في بعض الاحيان ، في عربات محملة بالقمح الذي تم الاستيلاء عليه غصبا مع السكان .

وتقدم التواريخ الملكية حسابات مفصلة عن عدد المنهوبات والاسرى معا . وقد حصص البعض منهم للعمل كعمال بناء . وتطهير القنوات ، وفي خدمة المعابد . بينما كان الآخرون منهم يباعون في الاسواق .

وقد يضطر رب العائلة بفعل القافة الى ان يبيع ، كارقاء ، زوجته او اطفاله او حتى نفسه هو اذا لم يكن قادرا اطلاقا على تسديد دين تعاقد عليه . واخيرا يشترط القانون انه اذا ما فضح ولد متبنى به نفسه بان تخلى مثلا عن العائلة التي تبنته . فانه قد يباع كرقيق .

ومع انه من الناحية النظرية المتشددة يكون من حق الشخص الذي يباع بستانة رقيق ضمانا لدين ان يسترد حريته متى ما سدد الدين ، فانه غالبا ما يبقى في الرق بعنة غير معقولة . وان القانون الآشوري يتعهد في حالات معروفة بان لا يبقى احد في عبودية من دون سبب معقول بعد ان

استرد حريته •

ليست للرقيق شخصية انسانية • فهو مجرد اداة لمال حقيقي وكان يشار اليه في الوثائق القانونية بأنه مجرد وحدة رقيق ، او اذا ما ذكر اسمه يحذف اسم أبيه • واذا ما أصيب بأذى فان سيده وليس هو نفسه ، يستحق التعويض • وفي الوقت الذي يمثل فيه على وجه التحديد قيمة نقدية معينة لمالكه ، فان القانون لم يواجه احتمال اعدام المالك على قتل عبده عمدا •

والذي نعرفه ان الرقيق كان يوسم بذات الطريقة التي يوسم بها الحيوان ، ولكن رغم الاشارات الصريحة الى هذا الاجراء ، فاننا لا نعرف على وجه الدقة ما الذي يمثله هذا الاجراء • ذلك ان التعبير المستعمل بصفة عامة قولهم « انه سيحلق » ، او « انه سيوسم » تعبير غامض ، ذلك لانه وان كان حلق رأس الرجل السجين او المحتجز في اوربسا الغريبة ، يفضحه بين الرجال الاحرار ، فان مثل هذا الامر لم يكن يصدق تماما بالنسبة الى بلاد الرافدين ، ذلك لان الرأس غالبا ما يلحق في الشرع لاسباب صحية • وعلى هذا فان الوسم على اكثر احتمال ينبغي ان يكون نوعا من رمز للملكية يتم ختمه بقطعة حديد محمية كالجمر على جلد الرقيق بصفة مباشرة •

والواقع ان شريعة حمورابي كانت قبل اكثر من الف سنة من العصر الذي نتحدث عنه ، تحتاط بشأن قطع او حرق وسم على عبد ، وهذا يقصد به الندبة التي يخلفها الوسم • فمثل هذا التصرف كان عرضة لعقاب شديد • فكل من يقتطفه تقطع يده ، واذا اقترفه جهالة بتحريض طرف ثالث فان هذا الاخير يعاقب بالموت •

والشيء المؤكد بصفة معقولة ان علامة الوسم ذاتها اما ان تكون رمزا للتشخيص ، او اسم المالك احيانا • فقد عرفنا من عقد بيع ان امرأة

تدعى بلت - سليم بيعت الى شخص يدعى نبو - شوم - ليشير الذي طبع
اسمه على يدها .

وما خلا ذلك كان يوضع في عنق العبد لوح طيني صغير يحمل اسمه
واسم مالكة ايضا ، وبذلك يستخدم هذا اللوح بمثابة قرص هوية . وتوجد
جملة من هذه الألواح في الوقت الحاضر في مجاميع بمتحف اللوفر .

ويمثل هرب الرقيق هدف تعقب له ليس من قبل مالكة حسب وانما
من قبل السلطات العامة ايضا . ذلك ان شريعة حمورابي تخصص ما لا يقل
عن ستة اقسام لهذا الموضوع الذي يبرهن على الكيفية التي ينبغي ان يحدث
بها . فقد كان تقديم المساعدة للعبد الآبق او اخفاؤه من الاعتداءات التي
يعاقب عليها بشدة ، وعلى البائع في عقود البيع ان يتعهد بان العبد ليس
آبقا ، وان يدفع غرامة ثقيلة اذا ما ثبت بانه كان آبقا .

وعلى غرار ذلك ينبغي على المدين الذي يقدم عبدا رهنا لدين ، ان
يدفع للمالك الجديد غرامة اذا ما هربت « رهينته » هذه .

بيع الرقيق

كانت المظاهر القانونية لبيع احد الارقاء مطابقة لمظاهر بيع السلعة .
فقد كان يعطي ضمان ، مثلما هو جار بالنسبة الى الحيوان ، بان الرقيق كان
مالا مطلقا للبائع ، وانه لم يكن يعاني من اي مرض معد . وكانت معظم
هذه الامراض واضحة بصفة مباشرة ، وعلى هذا فان الامراض الممثلة
بالكلمتين « بينو Benu » و « سبتو Sibtu » اللتين توصف بهما ،
غير موجودة . والترجمات المقترحة للصرع والجذام معقولة في الظاهر لكنها
يجب ان تظل تخمينية .

وتتغير الفترة التي يكون فيها الضمان حسنا طبقا للاحوال الجارية
وعلى هذا فهي مائة يوم بالنسبة للصرع او الجذام ولكن لا يوجد حد
بالنظر الى الادعاءات التي تقع من لدن طرف ثالث .

ولقد سقطت العبارة التي كانت تتناول المرض والتي كانت شاملة في
سلالة بابل الاولى ، من الاستعمال في العصر البابلي الحديث بحيث انصب
التأكيد في هذا الوقت على حقيقة ان الرقيق ليس مالا ملكيا ، وانه لم
يكن ابن احد الجذود [مار بنوتو Mar Banutu] او بعسارة .
اخرى ، حرا سواء بطريق الولادة او التبني .

يعطي عقد بيع من عهد حكم نبوخذنصر فكرة تامة عن نوع الوثيقة
المستعملة .

«لقد باع أولاد ذكر بن كذا وبملاء حريتهم الى ابن فلان امتمهم نانا -
ديرات والطفل الذي ترضعه بسر متفق عليه هو تسعة عشر شاقلا من الفضة .
وسيتعهد البائعون للمشتري ازاء هروبها ، او اي ادعاء معاكس ، او اذا
ما ظهر بانها مال ملكي او انها حرة » .

وكانت الامة تلتزم بان لا تقدم لمن اشترها ليس عملها حسب وانما
تفلسفها ايضا . ومن دون اي التزام مقابل من جانبها . فهو في الواقع يستطيع
ان يسلمها الى المبغى . وحتى عندما تصبح محظية لشاربها ، ويكون لها
الها اطفال منه ، فانها تبقى مع ذلك امة ، اي انها تكون عرضة لان تباع كما
حدث ذلك من قبل ، لكن بعد وفاة مالکها تسترد حريتها هي وابنائها .

واذا ما تم شراء امة من قبل امرأة متزوجة كخادمة لها او محظية
لزوجها (وذلك لغرض ان تحول الزوجة اذا لم تنجب الاطفال دون ان
يتخذ زوجها محظية اخرى) فان هذه الامة تبقى ملكا خالصا للزوجة وعلى
الاقبل الى الوقت الذي يكون لها فيه اطفال .

ولما كان من مصلحة مالكي الارقاء ان يزداد عدد ارقائهم ، فانهم
كانوا يشجعونهم على الزواج ، وبهذا القصد المذكور كانوا يشترون الرقيق
من الذكور او الاناث طبقا لجنس اولئك الذين كانوا يملكونهم قبلا .
ويصبح الاطفال الناتجون عن هذا الزواج ملكا لملك الرقيق الذي يستطيع
بكل حرية ان يبيعهم على افراد ان هو اختار ذلك . ومع ذلك كانت العادة
الشائعة ان لا يتم تفريق افراد العائلة الواحدة .

ويستطيع العبد برضا سيده ان يتزوج امرأة حرة ، واذا لم تجلب مبرا
معها ، فانها هي نفسها واولادها يظلون احرارا . اما اذا ما جلبت بائنة معها
واستشترتها بالاشترائك مع زوجها في بعض الاعمال فعند ذلك تسترد الارملة
اذا ما توفي زوجها او هرب ، مهرها لكنها لا تستلم سوى نصف ارباح
ذلك العمل في حين يتسلم سيد زوجها النصف الثاني .

ارقاء المعبد

كان ارقاء العبد يؤلقون طبقة خاصة يتكون معظمهم من اسرى الحرب، حيث ينذر عدد معين منهم للالهة من قبل الملك بعد الحملة الظافرة ، ولو ان الكثيرين منهم كانوا يهدون الى المعبد من قبل الكرماء من الاشخاص المتنفعين .

ان مجرد الحديث عن مختلف النشاطات التجارية التي كانت المعابد تمارسها ، يدلل على حاجة هذه المعابد الى عدد كبير من الموظفين . فهؤلاء الارقاء الذين عرفوا باسم (شركو Shirko) كانوا يخضعون لاوامر موظف تعينه سلطات المعبد لكي يضمن استخدامهم في افضل مصالح المعبد . ومع ذلك فلم يكن تشغيل هؤلاء الارقاء محدودا بالمعبد ذاته ، وانهم لم يكونوا يهيئون العمل الاجباري في المدن على حساب الجمهور حسب ، لكن كانوا يؤجرون ايضا للعمل لدى المستخدمين الخاصين .

وكان وضعهم القانون اظلم من وضع الارقاء الاعتياديين لانه لم يكن امامهم اي امل في التبني ، في حين يصبح اولادهم - حتى اذا كانت امهم امرأة حرة - ملكا للاله بصفة ذاتية .

ومع ذلك ينبغي لنا ان نتحقق بان طائفة ال « شركو » لم تكن تشتمل على الارقاء حسب ، وانما بعض البابليين الاحرار ايضا اذا نحن صححنا تفسيرنا لبعض الوثائق .

كان المظهر الفريد في الغالب للرق الذي مارسه البابليون والآشوريون هو ان الارقاء كانوا - على الرغم من عبوديتهم الكاملة لاسيادهم - قادرين ان يمتلكوا الاعمال التجارية ، وان يمتلكوا الارقاء على حسابهم الخاص ، وان يوفروا لهم النقود .

لقد كانت هذه الحالة بصفة خاصة خلال العصر الذي يتناوله هذه الكتاب ، وهو العصر الذي لم ينتقل فيه جزء مهم من تجارة البلد الى ايديهم حسب ، بل اتنا نراهم يعملون كاصحاب حرف الى جانب امتلاك الماشية ، او ممارسة الاعمال الصيرفية ، في الوقت الذي كانوا فيه يتمتعون بالحرية في المتاجرة ليس مع بعضهم البعض حسب وانما مع الرجال الاحرار ايضا .

فنحن نجد مثلا عبدا يستأجر بيتا من امرأة حرة لمدة اربع سنوات يبدل ايجار سنوى مقداره اثنتا عشرة وجبة طعام كاملة في السنة مع شاقل من الفضة .

وفي العهد الفارسي تقدم عبد يدعى « ربات Ribat » بعيرض لاستئجار برك لصيد الاسماك من اولاد « موراشو Murasho » (وهو اكبر صيرفي من اصل يهودي) مقابل نصف طالبين من الفضة وتجهيز مائدته بالسماك . فضلا عن ذلك فان السيد الذى يتحقق بان لدى عبده موهبة في التجارة ، لا يتردد عن ان يعهد اليه بالمعاملات المهمة ومبالغ كبيرة من النقود . فنحن نجد احد التجار يقرض ٨٨٩ شاقلا من الفضة بفائدة مقدارها عشرون في المائة سنويا .

ومع ذلك فان الوضع الغامض للعبد والذى يكون في وقت واحد مالكا للمال وملكا لسيد ، ان هذا الوضع كان مصدر خلاف دائم .

عتق الرقيق

هنالك عامل واحد في الوضع القانوني للرقيق والذي يجي على الدوام امله في استعادة حريته ، وان علينا ان نذكر انفسنا بالظروف التي يصبح فيها هذا الامر ممكنا .

فاولا ان النسوة والاولاد الذين يودعون كرهينة لدى الدائن لا يمكن ابقاؤهم لاكثر من اربع سنوات .

وتانيا ان الاولاد الناتجين عن زواج بين امرأة حرة وعبد يكونون احرارا ، في حين ان الامة المحظية واولادها يستردون حريتهم بعد وفاة سيدها .

واخيرا كان هنالك شرط قانوني يهب الحرية للعبد البابلي الذي ، بعد ان يبع في سوق اجنبية ، اعيد ثانية الى بابل ، فما عدا هذا فان قدرة العبد على ان يملك وان يوفر النقود تمنحه فرصة استرداد حريته ، واذا ما فعل ذلك فانه يحصل عليها بصفة مطلقة بعد اقامة حفل رمزي للتطهير .

وبالموازنة كانت فرص التحول الى الرق اكثر عددا بشكل واضح من فرص التحرر منه ، وان الارقاء الذين كانوا يطالبون بحريتهم استنادا الى احد الاسس التي ذكرت الآن ، كانوا اقل من اولئك الذين يصبحون ارقاء ، حيث تحققت الزيادة المطردة في اعدادهم بالقانون المتعلق بالولادة ، او بالحملات العسكرية .

والشيء الواضح تماما هو ان ثراء الامبراطوريات الآشورية والبابلية ولا نريد ان نسمى اكثر من ذلك ، كان يعتمد اعتمادا كبيرا على وضع الرق . ففي هذا العصر الذي كان فيه الانتاج يعتمد - بسبب عدم وجود كل الآلات - اعتمادا كلياً على العمل اليدوي ولا يمكن زيادته الا بزيادة مطابقة

في القوة العاملة ، كان الوضع القانوني للفقن حاجزاً مطلقاً يحول دون دعمه لمطالبه عن طريق العنف ، كأن يعمد الى الاضراب للابطاء في الانتاج ، او ان يكون دفع الاجور غير متناسب مع قيمة ما كان ينتجه .

تلك هي الوسائل التي استطاعت بها بلاد بابل وكثير من الاقطار الاخرى في العالم القديم ان تصبح رخية . فقد كانت اقتصادياتها الاساسية تعتمد على ما كانت تنتجه ، وعلى تجميع احتياطي الثروة ، وما عدا ذلك لم يكن سوى مجرد عملية افاق احتياطي محددة من الزمن التي يحتاج اليها لاستنفاد موارد البلاد .

لقد ظهرت المشكلة التي طرحها الرق في بعض النظريات الخاصة بمشال ذلك ان « المقدم لفيفر دي نويتس »(*) وهو ضابط خيالة فرنسي متقاعد ، تأكد نتيجة دراسة تاريخية لعدة الخيل ، ان الحصان الذي يعتبر من حيوانات الجر ، لا يمكن ان يستخدم بكفاية تامة الا بعد ان يزود ببنية صلبة تستقر على كتفيه . فقبل ذلك الوقت كما تدل الرسوم الاولى عليه ما ان يطرح حمل الحصان حتى توثق رغبته ببنية محيطة بها . ولما كانت قصبة رؤته قريبة من سطح بشرته ، فان اي جهد يبذله الحيوان يخنقه ويجعله عرضة للاختناق .

من هذا استخلص المقدم « لفيفر » ان الارقاء قد وجدوا بانهم افضل من غيرهم للتشغيل على اساس ضعف استخدام الحصان والتخلي عن استعماله نتيجة لذلك .

ان مثل هذا القول فيه غلو كبير وان كان ينطوي على عنصر من الصحة . فالسبب الرئيس للاصرار على استخدام الرقيق بصفة عامة ، يكمن دون

ريب في اليسر الذي يمكن به الاستحواذ على مثل هذا المصدر للعمل ، وفي
تفاضي السلطات العامة في ذلك الوقت عن هذا الاجراء المهين الذي لم يكن
بعيد المدى عندما كانت حقوق الفرد تخضع لحقوق الدولة •

وهذه الحاجة الملحة لتموين واسع من العمل في المجتمعات البدائية
تجد تعبيرها في وجود عائلات كبيرة بشكل صريح • فهذه تبرز اهمية رب
العائلة الذي كان حاكم المجتمع بالنسبة لكل الاغراض العملية • في حين كان
مبدأ التبني بالمعنى الذي تم فهمه فيما بعد ، يشير الى ذات السبب • وكانت
النتيجة الخالصة هي ان العائلة غدت قادرة على ان تزيد من حجمها بصفة
اسرع مما كان في الامكان اجراؤه بالوسائل الطبيعية •

المنازل

على الرغم من عدم بقاء بيت سكن يرقى تأريخه الى عصر متقدم محافظ على جوهره ، فان مظهر المدن في الشرق المعاصر لا بد وان يكون مشابها جدا لما كان عليه ، وان افقر احياء المدن الكبرى مثل مدينة بغداد ، كانت مشابهة بشكل قريب حقا لمدينة من بلاد الرافدين في الالف الاول قبل المسيح .

فقد اظهرت التنقيبات الاثريّة اولا ان المخطط الارضي للبيت في الشرق ، ولاسباب متنوعة ، يكاد لم يتغير عبر التاريخ . فالفكرتان وتعبيرها العملي اكثر محافظة في الشرق منها في الغرب ، في حين ان الجو بالتغيرات الضئيلة في درجة الحرارة ، لا يهيء سوى باعث ضئيل للبحث والتعديل في تصميم البيت .

ولعل ابرز مظهر مثير للجو في بلاد الرافدين هو الحرارة ، وما ان ابتدئت صفوف الاعمدة فلم يعد هنالك سوى مجال ضيق بشكل واضح للاطراد في هذا الاتجاه .

اما في اوربا فعلى النقيض من ذلك تغير مجرى الحياة بحدّة وبسرعة كبيرتين ، وقد اثر هذا التغير بدوره في تصميم البيوت ومقاطعها .

والواقع ان جو اوربا الغريبة حيث تتغير فيه درجة الحرارة خلال الصيف والشتاء بمقدار سبعين درجة فهرنهايت ، قد ادى الى حدوث تغيير في التجارب التي صممت في الاصل لمواجهة الحرارة والبرد .

ولقد اثرت هذه بصفة ملحوظة في تخطيط بيوت المدينة في حين ان تصاميم البيوت في الريف لم تتغير الا قليلا .

البيت

ان الطراز البدائي للسكن والذي ما يزال غير متبدل في الريف العراقي هو الكوخ المصنوع من الاغصان المتشابكة والذي يغطي بسقف من القش ويقوى بالطين الذي ما ان يجف حتى يمسك باطار الكوخ سوية . وما تزال الطبقة التي تمثل اقدم المساكن البشرية تحتفظ ببقايا شاخصة لهذه الاكواخ .

وهذا يشير الى انه كان يوجد عمود مركزي يشبه عمود الخيمة ينحني عليه اطار الجدار الخارجي ويثبت به ، وبذلك يؤلف نوعا من العقادة . وكانت الجدران تغطي بالحصر . وربما كانت للكوخ نوافذ وكافت الابواب تقوم على عمود محوري مربوط بالجدار ربطا وثيقا . [الشكل مزهريه في صورة كوخ دائري] .

غير ان تطور فن العمارة قد كرس هذا الطراز من البناء للريف ، حيث كان يستعمل في الدرجة الاولى للاصطبلات وحظائر الماشية . وما يزال هذا البناء يستعمل في المنطقة باسم « صريفة » (*) .

تتألف طريقة البناء من حزم اسواق القصب الطويلة وتثبيتها في الارض على مسافات منتظمة في خط مستقيم . ويقابل هذا الخط المركزي عند اي من جانبيه خطان آخران من القصب الذي يثبت بشكل قوي في الارض ثم تحنى رؤوسه لتشكّل ما يشبه النفق ، ومن ثم تربط بالخط المركزي ويشد بامتداد عمود يؤلف سقف المبنى . وتكون نتيجة ذلك بناء مأوى ذي سقف معقود . ويمكن مد هذا المأوى الى اية مسافة مطلوبة لكن عرضه يحدد بارتفاع القصب الذي ينمو في تلك المنطقة .

(*) ذكرها المؤلف باسم زوريف Zorife وهو تحريف لكلمة صريفة الشائعة الاستعمال في جنوب العراق بصفة خاصة .

وفد تصنع الجدران من الاغصان ، ومن الطين المجفف ومن الحصر ، وربما حتى من القش (مثل اليورت التركماني)(*) ترتبط اول علامة للعمارة الصحيحة بمظهر المباني المربعة الزوايا او القائمة . وهذه لا تنثل تقدما اجتماعيا اصيلا حسب بل ورفاهية في الغالب بالمقارنة مع الابنية ذات التصاميم الدائرية التي تطبق على اصغر مساحة ممكنة من الارض بالنسبة الى العمل والمواد المستعملة فيه .

غير ان البيت مربع الزوايا كان يتطلب تقبل طرائق جديدة . ذلك ان اقدم البيوت من طراز ما زالت اثاره باقية ، كان قد شيد من كتل من الطين المخفف بالماء ، وثم تنظييه في شكل نهج من عظام السمك اشبه بالاحجار غير المهندمة او المكسوة في الجدار .

(*) يورت Yurt التركمانية تعنى اللباد الذي كان شائع الاستعمال كرداء ايضا لدى التركمان والاكراد على حد سواء .

استعمال الطين

تم اقتباس هذا النهج كدليل من قبل مدرسة الفكر ، وهو يشير الى ان المدينة التي انبثقت في بلاد الرافدين ، لم تكن من صنع السكان الاصليين وانما من صنع شعب جاء من منطقة كان استعمال الحجر في البناء معروفا لديها تماما .

ومهما يكن ذلك فان سكان بلاد الرافدين في العصرين الآشوري المتأخر والبابلي الحديث كانوا يستخدمون من زمن طويل طريقة في البناء تستند الى استعمال الطين ، وتلك طريقة ظلت غير متغيرة بصفة جوهرية عبر القرون والحقيقة ان سكان بلاد الرافدين قد حذفوا استعمال هذه المادة الطبيعية الى درجة من الكمال التي ينذر ايجاد افضل منها . وكما اوضحت تحرياتنا للمصادر الطبيعية في بلاد الرافدين ، فان السكان في الوقت الذي كانوا فيه يستعملون الطين بسبب عدم توفر احجار البناء فان هذا الطين كان في الواقع هو المادة التي تعطي افضل النتائج في الاوضاع المناخية للبلاد .

يمكن استعمال الطين بحالته الطبيعية لصنع الآجر ، غير ان قرونا من تجربة استعماله قد اظهرت طرق المعالجة التي يمكن بها اطالة حياته .

يصب البناؤون الحديثون السمات حول محيط قضبان حديدية للتقوية لغرض ان يحولوا دون تشقق الخرسانة . اما العراقيون فكانوا يمزجون طينهم مع قطع لطيفة من القصب لغرض تعزيز قوته . وكل امة تبني بالطين تعرف هذه الطريقة .

وتذكرنا التوراة بما حدث في دلتا نهر النيل عندما قام القراعة ، بعد ان طردوا الهكسوس الفاتحين او الملوك الرعاة الذين ينحدرون من فرع سامي ، بارغام اليهود الذين استوطنوا البلاد المصرية ، على أن ينفذوا أعمالهم

الشاقة ، وكيف ان رعمسيس - كما نستطيع ان نقرأ ذلك في « سفر الخروج » - اجبرهم على صنع الآجر للمباني التي كان يقوم بتشيدها في منطقة الدلتا . ولقد كانت مهمتهم هذه أشد ثقلًا لانهم أرغموا على ان يجمعوا القصب اللازم لذلك من الحقول دون ان تنقص حصصهم اليومية من الآجر بآية طريقة كانت .

عندما يمزج الطين والقصب المهروس سوياً ، يصب هذا الخليط في قوالب خشبية منبسطة . وبعد ان يتم نقل اللبن يترك كيما يجف في الهواء الطلق ، وكانوا يصنعونه بسرعة في الصيف الحار أكثر منه في فصل الشتاء ، ولهذا السبب كان الشهر الاول من اشهر الصيف الذي يدعى « سيوان » يعرف ايضا باسم « شهر الآجر » .

غير ان الطين المجفف وان كان يغدو صلبا بشدة ، الا ان حياته النافعة تكون اقصر من حياة اللبن المشوي . فهو يتغصن تحت حرارة شمس الشرق التي لا ترحم ، ويميل الى التفتت عندما يتعرض للفيضانات ، وذلك ضرر أشارت اليه النصوص السحرية التي تحدثت عن بعض العفاريت التي تشبه النهر الذي لا تصمد اسواره .

غير ان اللبن لا يمكن ان يشوى من دون وقود ، وان هذه المادة كانت نادرة الى درجة ان الآجر في الزي العصري لم يكن يستعمل الا في الابنية التي تتمتع برخاء خاص ، او تلك التي كانت تتطلب درجة خاصة من المقاومة . ومع ان عملية صنع الآجر كانت بسيطة يقدر اي فرد ان ينهض بها ، الا انها في الواقع كانت حرفة خبير .

فقد كان الآجر باحجام مختلفة والمطلوب طبقا لنوعية البناء الخاصة التي كان يجري تخطيطها ، يتغير من الآجر الواسع الذي يشبه قاشي القصر او دكته الى الانواع الاخرى التي يصعب ان تكون اكبر من الآجر الذي

يستعمل اليوم في بناء المنازل الريفية •

وقد يظهر مخطط البيت بعض التغير ، لكنه في جوهره بقى دون تغير في الشرق من اقدم العصور حتى الوقت الحاضر ، ما دام يفي بمطالب المناخ والحياة الاجتماعية معا •

يتألف المخطط النموذجي من ساحة رئيسة تضيء عددا من الغرف التي تؤدي اليها ، حيث يقع في واحدة منها تكون ضيقة وليست اوسع من الممر الا قليلا ، باب يفتح على الشارع •

وقد تتصل بعض الغرف احداها بالآخرى ، في حين ان غيرها لا تتصل ببعضها البعض ، لكننا نقول بصفة عامة ان الباب توفر المدخل الوحيد للنور والهواء من العالم الخارجي والباب الرئيسة التي اشير اليها اعلاه هي المخرج الوحيد من البيت ، ولا يمكن لضوء النهار ان يدخل عبر الجدران الخارجية • وبعبارة موجزة تكون الباب بكل بساطة عبارة عن صندوق اقيم بدون اسس فوق ارض مداسة مستوية •

ويستعمل اللبن حينما تكون ثلاثة ارباعه قد جفت ، وهو يبنى بملاط من الطين المخفف بالماء والذي حين يجف يؤلف جدارا اذا قوة موحدة • اما ارضيات الغرف ، فانها مثل ارضيات الساحة ، سوف تصنع من التراب المداس ولو ان مالك الدار اذا كان حسن الحال ، يقوم بتعبيد بعض اقسامها بالبلاط او بقاشي من الآجر الذي يصف بشكل منحني قليلا نحو المركز كيما تستطيع مياه الامطار او المياه القذرة ان تخرج يسرا ، في حين ان نظام تصريف المياه الوسخة المصنوع من انابيب فخارية تمتد الى الخزانات داخل الارض •

وغالبا ان لا يتضمن البيت مطبخا منفصلا ، ويبنى موقد الطبخ من

التراب قبالة جدار الساحة ، اما اذا ما خصصت احدى الغرف لهذا الغرض فانها لا تحتوي على مدخنة ويترك الدخان ليجد طريقه من الباب او من فتحة اضافية فتحت في الجدار .

وتتبع الغرف الداخلية المعدة للعمل النهج التركي ، اي انها تتألف من ارضيات مبلطة وفي وسطها حفرة وهي - وان لم تكن مجهولة في بعض اجزاء اوربا الغربية - لا تفرغ الا اذا انتفت الحاجة اليها .

ويحفظ الماء المعد للاستعمال الداخلي في حباب كبيرة تفرق الى حد النصف في ارض الساحة . ومع ذلك فان الآشوريين والبابليين معا ، وبالنظر الى خزن الطعام دون شك ، قد وجدوا ان الحاجة تتطلب المزيد من المنافذ في الجدران بقصد تحسين دورة الهواء . وتأخذ منافذ الهواء هذه صفة اقنية عبر الجدران تسد عند منتصف الطريق بقطع من القحار يتخللها عدد من الثقوب واسعة الى درجة تسمح بالقليل من الهواء ووميض نور النهار ان يمر خلالها لكنها صغيرة جدا لا تسمح بمرور قتران او جرداذ، قد يجتذبها القمح اليه

السقف والطابق العلوي

يسقف هذا الطراز من البيوت اولا بوضع شرائح من خشب اشجار النخيل على قمة الجدران بهدف تغطية الغرف ، ومن ثم تغطية هذه الاخشاف بالقصب وسعف النخيل ، واخيرا تضاف اليه طبقة من التراب يدامس بمدحلة حجرية ليست مغايرة لتلك المداخل التي تستخدم في ساحات لعبة التنس .

وفي سوريا الحديثة لكل بيت مدخلته الخاصة به موضوعة على الدكة ومعدة للقيام بالاصلاحات التي لا تنتهي في السقف الذي يحتاج اليها بالضرورة عند سقوط اخف زخة من المطر .

اما الدكة التي تستخدم للاستمتاع بالبرودة اثناء المساء ، او النوم عليها ايام الصيف ، فيتم الوصول اليها من كل الجوانب بسلم من الخشب يمتد من الساحة ، واذا كان البيت واسعا نسبيا ، فبسلم داخلي في احدى الزوايا .

والمعتاد في الحالة الاخيرة ان يصنع السلم من الطابوق وان يقطع حسب سمك الجدار بمسالك عالية وضيقة .

ويأخذ السقف بصفة عامة شكل دكة لكن توجد بعض المنحوتات الاشورية النائية التي تصور نوع البيت القائم الزوايا الذي جئنا على وصفه الان ، ثم تشييده في ريف مكنتظ بالشجر ، غير ان ايا منها كان يخضع لقبة او لسقف على شكل خلية النحل .

وهناك عدد محدد من بيوت واسعة نوعا ما كانت تسقف بمثل هذه الطريقة . وكانت القبة تغطي اما واحدة من الغرف ، او الساحة ذاتها اذا كان البيت يقوم في حديقة ويتخلله الهواء بكفاية ، شريطة ان تكون القبة كبيرة جدا . ففي هذه الحالة تؤلف الساحة غرفة مركزية تفتح عليها الغرف الاخرى .

ان هذا المخطط الخاص قد استلزمه استعمال الطابوق واستخدام الزخرف في البناء • ذلك ان التدابير في كل زاوية توفر اسسا دائريا للسقف الذي يبنى بطبقات متعاقبة من الآجر الذي يثبت اما بالكلس او القار ، وتمتد كل طبقة الى الداخل قليلا فوق الطبقة التي تحتها •

وعندما يكمل السقف يترك على حاله من الداخل والخارج ليخفي المقطع المشوش من طبقات الآجر المتداخلة • وتكون نتيجة ذلك الحصول على قبة [صورة بيت قائم الزوايا وسقف يشبه خلية النحل] غير ان هذه الطريقة لم تكن تستعمل الا على سطوح صغيرة نسبيا •

كان فحج خلية النحل مغaira في السابق حيث كانت الطبقات المتعاقبة من الطابوق لا تتداخل الا جزئيا ، ولذلك كان السقف يرتفع الى نقطة معينة • وهذه الاشكال من السقوف لم تكن شائعة الاستعمال في بلاد الرافدين ، وانما كانت اكثر شيوعا في سوريا ، حيث ما تزال كل القرى الى اليوم تبنى حسب هذا النهج كما نرى ذلك في منطقة « حماة » • ولهذا النهج فائدة مزدوجة فهو ايسر بناء ويسمح باستعمال بعض المواد الغريبة من امثال كسر الآجر والذي يعتمد عليه في تشييته بالملاط وتدعيم المبنى ، اكثر من الاندفاع التام للبناء ذاته ، كما هو الامر في سقوف القباب •

ومعظم البيوت في الشرق القديم تحتفظ بحديقة متصلة به وليس له سوى طابق واحد • وتضم القرى في الجزيرة العربية اليوم بصفة عامة بيوتا من عدة طوابق وكان مثل هذا النهج موجودا فعلا في مدينتي تينوى وبابل وفي المراكز الاقليمية •

وكان الطابق العلوى الذى يبنى بذات الطريقة التي يبنى بها الطابق الارضى ، يقوم على اساس جدار ذى سمك اضافي كيما يمنحه المزيد من القوة • ويمكن الوصول الى الغرف في الطابق العلوي عن طريق شرفة

خشبية تستند على قوائم وتمتد عبر الطريق كله حول الساحة الداخلية •
وتكون لهذا فائدة اضافية هي حماية مداخل الغرف التي تنفتح على الساحة
من الشمس والجو الرديء •

وكانت ابواب البيت تصنع من خشب اشجار النخيل ، ولكن لما كان
الخشب يصبح واحنا نتيجة تعمير الشجرة او سعة حجمها ، فان الابواب لن
تكون صلبة بالشكل الذي تعودناه • ولذلك كانت تصنع بصفة خاصة من
الواح من الخشب تصنف في اطار كما هي عليه في الشرق الحالي •

الزخرفة

الامر المحقق تماما هو ان احقر بيت في بابل لم يكن مزينا الا بطبقة من البياض ربما كان ذلك لاختفاء خشونة وجه الجدار ودكنة الطين . وكان يجري تبييض الجدران الخارجية هي الاخرى أيضا على غرار ماهي عليه اليوم، لان العراقيين لم يخفقوا في التأكد بان السطح الابيض يمتص اشعة الشمس اقل من السطح الاسود ، وان الجدران الغبراء كانت ترقط بقطع من القش بشكل سمج .

أما في بيوت وسعي الحال ، فاذا لم تكن هنالك ألواح رسمت عليها مختلف المواضيع ، يتم صبغ اسافل الجدران الى النصف بنوع من لسون غامق ، هو اللون الاسود عادة ، يستخلص من القار المخفف بالماء ، ثم يخط شريط آخر فوقه من لون آخر .

ويحدث احيانا ان تصبغ اطر الابواب باللون الاحمر ، ولكن قد يكون من الخطأ ان نعتبر هذا بمثابة تمثيل لخيار جمالي متعمد لان اللون الاحمر ، كما نعرف ذلك من الطقوس والرقى ، كان يعتبر اللون الذي يخيف الارواح الشريرة ويبعدها ، وبذلك يحمي المدخل من كسل التأثيرات الشريرة . وكان اللون الاحمر يستحصل من اوكسيد الحديد على شكل صباغ احمر اللون قابل للحل في الماء .

وليس من المدهش ان نجد كل نوع من المخلوقات يتطلع الى الهرب من ضربة الشمس التي لا تحتمل والتي تنصب رأسا على هذه البيوت قليلة التهوية كما هو الواقع ، وذلك لغرض الوقاية من الحر .

وكانت الجدران تغطي ليس ببقع مرطبة حسب وانما ايضا بانواع ذات الوان مختلفة من النمل والصراصير . ففي نظر البابليين كان كل شيء له اهمية خارقة للطبيعة ، وان لدينا عددا من نصوص التطير توضح الاهمية

التي كانت تعلق على عدد من الحيوانات التي يمكن مصادفتها داخل البيت او على جدرانه من امثال السلاحف و ابي بريص ، والعقارب ، والصراصير ، والخنافس وغيرها من الحشرات الزائرة غير المرغوب فيها التي نواجهها في الاقطار الحارة •

اثاث البيت

كان الاثاث في هذه البيوت نادرا ، مثلما هو عليه اليوم في بعض المناطق . لقد كان عضو الطبقة المتوسطة من البابليين ينام على الحصه والابسطه ، في حين كان حسن الحال ينام في الاخرى على اسرة عالية ، وهي تشبه الطاولة نوعا ما ذات نهاية واحدة صنعت لتؤلف نوعا من وسادة .

وترى اسرة من هذا النوع منحوتة على الواح تصور تماويذ المرض ، ر الاكواخ التي تعود ، دون ريب ، الى الضباط وان لم تكن الى طبقة من افراد الجيش المحارب .

ويجلس البابليون اما على كراسي عالية مصنوعة من خشب النخيل ، او على نوع أكثر شيوعا من كراسي لها مساند ذات خلفية عميقة الحنية مصنوعة من القصب المضفور ، تشبه الكراسي التي تستعمل في الوقت الحاضر شيها كبيرا جدا . اما بقية الاثاث فانها تتألف من عدد قليل من الصناديق . وكانت الفخاريات تلعب دورا مهما جدا في تأثيث البيت به في ذلك الجرار ذوات الاحجام المختلفة للشرب او الطعام ، والقلل ذوات الاشكال القديمة جدا التي تحتوي على عرى صغيرة مثقوبة يمكن امرار خيط فيها لتعليقها كيلا تصل اليها الفئران والجردان .

وكانت الاواني الفخارية المعدة للاستعمال اليومي تتألف من اقداح مختلفة الاعماق والاحجام ، ونحتفظ بعدد من الفطاسات الفخارية الطويلة ذات نهايات ملتوية لاغتراف السوائل منها . مماثلة تماما للمغارف المدحلة في معامل صنع الحليب في الوقت الحاضر .

وكانت الموائد الواطئة اصغر من الطباق التي تستند على قدم واحدة ، ولكن كانت لدى البابليين موائد لتناول الطعام عليها من شكل مختلف تماما لانها تقف منتصبة وعالية عن الارض تماما مما ستحدث عنه بصفة اكثر مؤخرا .

الانارة والتدفئة

يمكن وصف نظام الانارة البابلي بايجاز ، بأنه استعمال المصاييح البدائية والتي تصنع اصلا على شكل صحن غير عميق ذي ميزاب مخروطي يمر فيه القليل ، وهو في عصرنا ، اشبه بحذاء مدبب فيه ثقب للقتيل .

وهذا النوع من المصاييح هو الرمز الاعتيادي للاله [نسكو Nusku] اله النار . غير ان العراقيين قد اعتادوا تماما استعمال النفط الخام الذي كانوا يسمونه « زيت الحجر » كأداة اعتيادية للوقود ، ومع انهم لم يعرفوا على وجه التأكيد كيفية تصفيته الا انه مع ذلك لا بد وان كان يوفر لهم ضياء افضل من الزيت الذي كانوا يستخرجونه من بذور السمسم بصفة اساسية .

وكانوا اذا ما ارادوا لها من نور عمدوا الى استعمال المشاعل ، وغالبا ما يشاهد الجنود وهم يحملون هذه المشاعل في المنحوتات الناتئة التي تصور الحملات العسكرية .

وعلى الرغم من الاعتدال المعتاد للمناخ الا انه تأتي ايام عرضية خلال الشتاء باردة تماما تتطلب شكلا ما من التدفئة . فموقد النحاس الذي يحتوي على جمرات متعددة من النار التي استعملت للطبخ ، والذي يوضع داخل قدح من الفخار ، يوفر المزيد من التدفئة عادة .

المدينة ومقطعها

تتراكم البيوت في وسط المدينة ، كما هو جار في الشرق اليوم ، بشكل متقارب سوية . ويكون مقطع الشوارع الضيقة مشوشا ، وسطح الارض وعرا وسبب ذلك يعود جزئيا الى ان البيوت كان يعاد بناؤها تكرارا من دون اية اسس جديدة ، فوق انقاض مسواة اعتباطا من اسس سابقة ، وبسبب القاء النفايات في الشوارع ، لان مالم تأكله الكلاب والحيوانات السائبة ، كان يجف بفعل الشمس وتدوسه الاقدام .

هناك مخطط لمدينة بابل سنة ٦٠٠ قبل الميلاد . مأخوذ عن اونغر(*) يمثل الايساغلا اي المنطقة التي كانت تشمل برج مردوك ومعبد . وقصلا عن ذلك فتعاقب البنايات المتكررة كان سطح الارض يرتفع تدريجيا .

وكانت البيوت تختلط سوية كما هو شائع الآن في المدن الشرقية ، وفي الضواحي وحدها حسب تقدم البيوت التي لها حدائق .

وهكذا فان المدينة وان كانت تمتد فوق مساحة واسعة فان كثافة البيوت في اية نقطة معينة لا تكون بالضرورة متناسبة مع كثافة السكان .

ولكن على الرغم من ان معظم الاحياء المأهولة بالسكان بشكل كثيف لم تكن تبني وفق اي مخطط ، فان العراقيين لم يكونوا يراعون اية مبادئ معينة في تخطيط مدنها الكبيرة وان المقطع الذي يشبه لوحة الشطرنج ويضم مجسوعات من البيوت تقوم على زوايا صحيحة والتي كنا نلاحظها في المدن التي يعود تأريخها الى عصر الاسكندر ، كل هذه كانت هي القاعدة العامة المتبعة في بلاد الرافدين منذ عدة قرون سابقة .

(*) انظر Unger من مشاهير علماء الالمان الذين تعرفوا على دراسة الكتابات المسمارية وقد وضع عدة مؤلفات في ذلك من أشهرها كتابه المعنون [بابل : المدينة القديمة] الذي صدر سنة ١٩٣١ .

مدينة بابل

لقد اعانتنا التنقيبات التي اجريت في مدينة بابل على ان نعيد تشكيل مظهر المدينة في اواسط عهد حكم نبوخذنصر ، والذي كان يشمل اواسط العصر الذي تحدث عنه الان .

كانت المدينة مقسمة الى عدد من المستطيلات بممرات واسعة تفسح الطريق امام السابلة والمواكب والسلع سوية الى مركز المدينة والى مختلف القطاعات التي كانت البضائع تفرغ فيها وتخزن في المخازن .

وكانت هذه الشوارع التي كانت تشبه ابواب المدينة ، تسمى باسماء الالهة العظام لمجمع الالهة في بابل . وهكذا على الجهة اليسرى من نهر الفرات كانت شوارع الالهين مردوك وزبابا تلتقى في زوايا صحيحة غالبا مع شوارع الاله سن . الاله القمر ، وانليل سيد الارض ، في حين يمر على الضفة اليمنى من النهر شارع « ادد » الذي يتقاطع مع شارع شمس ، اى الاله شمس .

وبين البيوت الاعتيادية التي تسكنها الطبقة الواطئة ، والتي جئنا على وصفها قبلا ، والقصر الملكي او الدوائر العامة الكبرى ، تقوم بيوت كثيرة ذات حجم متوسط . ذلك ان من يملك مزرعة كبرى يسكن في بيت اكبر مشيد وفق ذات المخطط لكن يتم توسيعه بكل بساطة عن طريق تكرار الوحدة الاصلية المؤلفة من ساحة ومن غرف تؤدي اليها . ففي هذه الحالة تستبدل احدى الغرف بممر يؤدي الى ساحة اخرى توفر مدخلا الى الغرف الاخرى المطلوبة .

ولقد عثر على بقايا بناية كبيرة في مدينة بابل في حي عرف باسم « مركز »(*) والذي لا بد وان كان يؤلف مركز المنطقة التجارية فيها .

(*) اوردها المؤلف بهذا الاسم « Merkes » وهي تعنى نفس ما تعنيه الكلمة العربية « مركز » ذاتها .

وهذا يشير بكل قوة الى انه حتى وان كانت سياسة ادارة البلدية قد قررت اشادة المدينة حسب مخطط منتظم فان السكان لم يأبهوا له اكثر من الحاكمين . ان في الاستطاعة ان نصادق على ذلك في امثلة محددة .

فعندما قامت بعثة «بوتا»(**) بالتنقيب في قصر الملك بمدينة خرسباد على مقربة من نينوى ، تم الكشف عن مخطط القصر ، ولكن طبقا لما كان جاريا في أواسط القرن التاسع عشر ، افترض بأن الخطوط كانت تتقاطع في زوايا صحيحة ، بدلا من الشكل الذي رسمت به الخرائط الجغرافية ، اما في مجال مخطط موسع او مكثف .

وكانت نتيجة ذلك ان القصر كان يبدو متناسقا كلية اشبه بالمباني التي وجدت في فرنسا في القرن السابع عشر .

على ان هذا لم يكن صحيحا في الواقع . فعندما واصلت البعثة الامريكية التنقيب في حدود سنة ١٩٢٧ ودققت مخططات « بوتا » اتضح لها تماما بان القصر كان شبه منحرف قليلا في شكله وانه لم يكن متناسقا كما افترض ذلك ، في حين ان هذا يصدق ايضا على القصور الملحقة التي لم يكشفها بوتا ، وعلى قصر نبوخذنصر في مدينة بابل ، والذي اكتشفت البعثة الالمانية التي نقت في المدينة مخططة .

والواقع ان سكان بلاد الرافدين لم تكن لديهم اية حماسة بالنسبة الى التناسق المتناخر وبالنظر الى المظاهر المتوازنة بعد ان ظلوا طيلة قرون متتالية يتطلعون الى ابداعاتهم المعمارية العظيمة .

(**) بوتا Boota واسمه الكامل باولو اميليو بوتا ولد في مدينة تورين سنة ١٨٠٢ وتوفي سنة ١٨٧٠ . عين وكيل قنصل لفرنسا في الموصل وقد شرع بالتنقيب في منطقة قوينجق (نينوى) سنة ١٨٤٢ ولما لم يعثر على =

المباني الكبرى ، المركز

يبين فحص البناية الكبيرة في بابل التي تدعى بالمركز بانها قد شيدت على مخطط شبه منحرف ، وان ثلاثا من جبهاتها ، طول كل جبهة منها حوالي اربعين او خمسين يردا ، كانت مخرسة مثل اسنان المشمار .

وليس من شك في ان هذا التصميم كان نتيجة الرغبة في كسر اطراد النسق للسطح الطويل المنبسط وذلك بايجاد مستويات بديلة للنور والظل تتغير كلما مضى النهار وازافة عنصر زخرفي .

فما عدا هذا المظهر كان المخطط مماثلا للمخطط الذي وصفناه قبلا ، والذي يحتوي على سلسلة من الباحات التي تربط احداها الاخرى غرف تنفتح عليها ، وان الفارق الوحيد هو اننا نجد بدلا من غرف البيت الاعتيادية ، صالات اوسع واقل عددا ، وذلك ترتيب أكثر ملاءمة دون ريب لبنايسة تستعمل لاغراض تجارية في الدرجة الاولى .

وكان للمدن في بلاد الرافدين مظهر آخر مميز ، ونقصد به الهياكل الصغيرة او المذابح المكرسة لمختلف انواع الالهة ، والتي كانت تقام في مخابئ الجدران ، والتي تذكرنا بقبور ، « ترب » السلاطين او عليّة القوم التي تقطع خط الشارع مباشرة في اسطنبول .

غير ان الفارق الرئيس بين مدينة من هذا الطراز كبابل ، ومدينة في اوربا الغربية ، هو ان الشوارع في المدينة الاولى تشبه الشوارع السكنية في الشرق الادنى في الوقت الحاضر والتي يكون لها جدار صوري على اي من جوانبها . فهي تستمد حياتها ونشاطها من المارة فيها ليس الا .

= اشياء مهمة ترك الموقع وانتقل الى خرسباد سنة ١٨٤٣ فاستمرينقب فيها مدة ثلاث سنوات وقد نقل من هذا الموقع منحوتات حجرية واثارا اخرى كثيرة الى باريس عرضت في متحف اللوفر وما تزال فيه حتى اليوم .

نهر الفرات وجسره

يمتد احد الاسوار في بابل الى نهر الفرات • وفي العصر الذي تحدث عنه كان النهر يفتح على ارضفة وقنوات لتصريف المياه القذرة لغرض انقاذ المدينة من الفيضان ، وكان يقطع النهر جسر دائم يستقر على خس قناطر •

وكان هذا الجسر مصدر دائم لدهشة المسافرين ذلك ان بغداد مثلاً . ومن دون سبب ، بقيت الى وقت متأخر جداً لا تملك سوى جسر من القوارب كانت القناطر التي انشئت مخروطة الشكل كما توفر اقل مقاومة . ممكنة لضغط الماء على الجسر ، قد صنعت من الحجر وغطيت بالواح عريضة من الخشب •

ولقد تغير حوض النهر خلال القرون ، وما تزال بقايا الجسر حتى اليوم ترى في وسط الخرائب المحيطة بها •

ومن ثم كانت الحياة التجارية للسدينة ، كما هو الامر الآن ، تتركز في الارصفة ، في حين أدت اهمية النقل النهري في بلد كان نظام القنوات فيه يؤلف الوسائل الرئيسة للمواصلات بين مختلف المدن ، الى اقامة الدوائر على امتداد ضفاف النهر ، والتي كانت تسيطر على مسرى الاعمال التجارية •

وقد كانت هذه الدوائر في بعض الاحيان اشبه بالغرف التجارية العصرية : فقد كانت اسعار التحويل تنظم هناك ، وفي الوقت الذي تحدث فيه اوربا الحديثة عن التحويل ، كان العراقيون يطلقون على المكان الذي انشئت فيه هذه الدوائر اسم (كروم Karum) اي رصيف الميناء •

والموقع الحقيقي لسوق مدينة بابل ما يزال مجهولاً ، ولو انه كان يقع في المركز على وجه التحديد ، اي في حي الاعمال •

ولابد ان كان هذا السوق يشبه في مظاهر اخرى ، الاسواق الحديثة في مدن الشرق من امثال اسطنبول ، وحلب ، وطهران ، أو اصفهان ، اي في منطقة لها صفتها الخاصة بها ، تعلق ابوابها ليلا ، وتكون لها ممرات ضيقة تظللها مظلات تحتوي جدرانها على عدد لا يحصى من الاكشاك ونضم كل انواع التجارة ، لكنها تتجمع على غرار ما كانت عليه في اوربا خلال العصور الوسطى ، بتراث اسماء شوارعها من امثال شارع الشاميلية أو شارع الخبز . وتبين تفاهة الاسواق العصرية بكل جلاء مدى استحالة تعيين موقع هذه الاسواق في مدن الشرق القديمة .

ولم تكن المدينة مبلطة ولا مجاري فيها ، والواقع ان هذا لا يتوفر في العواصم والمدن المهمة في الشرق حتى اليوم .

غير ان الاشوريين القوا فكرة تبليط الشوارع . فعندما شيد سرجون الثاني قصره في خرسباد خلال عشر سنوات من حكمه ، وضع مخططا للمدينة كان يعتزم انشاءها والمضي في ذلك وقد شيد السور المحيط بها فعلا .

ولقد عبت البوابات التي يسر خلالها الى المدينة بقطع كبيرة من الحجر بكل عناية ، في حين ما يزال ممكنا ان نرى بان الطريق الذي يؤدي الى خارج المدينة قد عبد هو الآخر ايضا الى مسافة قصيرة . وسرعان ما انحط الى مسار ومن ثم اختفى تماما .

تجهيز الماء

يمكن رؤية الاهتمام الذي كان الحكام يتحسونه لتأمين تجهيز ماء الشرب ، ببقايا مجرى ماء فوق قناطر بناء الملك سنحاريب من « جروان » ، وهي قرية تقع على بعد بضعة اميال عن نينوى ، وذلك لتزويد عاصمته بالماء . فقد سبق هذا المجرى التصميم المتأخر بكل تفصيل . ذلك ان الماء كان يجري في انبوب مقوى ذي ارضية من الطين الصلب ، مغلف بالقار ومحصن بالبلاط .

وكان المجرى يعبر الاودية على قناطر ، ويروى من عدد من الجداول الصغيرة لكي يضمن تأمين الماء الكافي للمدينة .

واذا لم نأخذ مدة لحظة بنظر الاعتبار ، الفراغات الهائلة التي كانت المعابد تقام فيها فان « زقورة » المعبد الكبير^(٩) والقصور الملكية التي كانت جنائنها المعلقة الشهيرة ترى من بعيد ، والتي سيرد وصفها فيما بعد في قسم يتناول حياة الملك والبلاط ، فقد حان الوقت الآن للعودة الى اسوار مدينة بابل التي يصنفها الاقدمون مع الجنائن المعلقة بانها واحدة من عجائب العالم .

)

(٩) كانت الزقورة او برج المعبد التي تقام على مراحل او طبقات ذات احجام تتناقص باتجاه القمة ، قد جرى على وصفها في الفصل الرابع الذي يخص الحياة الدينية من هذا الكتاب . ولعل افضل ما عرف منها هي زقورة بابل التي وردت في التوراة باسم « برج بابل » .

الاسوار

كانت اسوار بابل التي عززها الملوك المتعاقبون ، وبصفة خاصة نبوخذ نصر ، تؤلف نظاما دفاعيا حيويا لا يسكن التعويض عنه ، وقد اتفق المؤرخون في اعتقادهم بان سقوط هذه الاسوار عند استيلاء الفرس على المدينة (سنة ٥٣٩ قبل الميلاد) كان مثار دهشة ، وانه كان يعود الى اشتراك « غوبارو » (غوبرياس باليونانية) محافظ بابل في جريمة الاحتلال ، اكثر من العمليات العسكرية(*) .

والواقع انه كان يوجد صف مزدوج من الاسوار ذو مسافة قليلة على حدة ، وان هذه الاسوار قد صممت بحيث اذا ما تم اختراق السور الخارجي منها في اية نقطة ، فان المهاجمين يجدون انفسهم وقد وقعوا في فخ بين سورين ويتم القضاء عليهم كلية من قبل المدافعين .

وكان كل سور محصن على مسافات منتظمة مزود بابرار تهيء موقعا متقدما يستطيع منه المدافعون ان يردوا اية قوات معادية قد تتقدم الى قاعد السور في محاولة لتقويضه أو لتسلقه بالسلام .

ويؤكد المؤرخون القدامى اهمية عرض هذا السور الذي كان يتسع لمزور عربتين فوقه الى الطريق الذي كان يصعد الى القمة ، والذي يحيط بالمدينة احاطة كاملة ، والذي يمكن على امتداده لعدد كبير من الرجال ان

(*) غوبارو Gubaru ورد في الاخبار القديمة ان غوبارو هذا كان على اتصال بالفرس وانه تأمر معهم ضد بابل . واتفق معهم على ان يهاجموا المدينة بعد منتصف ليلة عيد رأس السنة البابلية حيث اباح لافراد حامية بابل ان تفرق الى اذانها في مشارب الخمر تلك الليلة حتى اذا طلع الفجر كان الفرس قد احتلوا المواقع الحصينة في بابل دون علم اهلها .

يندفعوا الى اية نقطة تكون مهددة بالخطر بصفة جدية •

وفيسا وراء السور الخارجي يوجد خندق مملوء بالماء يستمد مياهه من قنوات مختلفة لزيادة صعوبة اقتحامه ، في حين كان الطين الخام الذي تشاد به الاسوار يقوى باكسية من الآجر •

وتختلف التقديرات المدونة في تقدير احجام هذه الاسوار غير ان كلا منها يتجاوز الابعاد الحقيقية التي كشفت عنها التنقيبات •

لقد قدر هيرودتس ارتفاع الابراج بمقدار ثلثمائة قدم ، وعرضها - بما في ذلك سمك الاسوار - بمائة وخمسين قدما ، لكن التنقيبات قد برهنت على ان عرض الابراج كان حوالي سبعة وسبعين قدما ، وهذا يشير الى ان من الصعب ان يزيد ارتفاعها على اكثر من حوالي تسعين قدما •

وما عدا ذلك فلا يوجد شيء يشبه تماما ، المائة باب التي كانت المدينة تمتلكها •

ويقدر « ستسياس »(*) محيط المدينة بحوالي خمسة وخمسين ميلا ، وهذا غير صحيح بكل وضوح لان التنقيبات قد برهنت ان هذا الرقم يجب ان يكون في الواقع في حدود عشرة اميال • وهذا يبين ضرورة الحذر الشديد في تقبل اية ارقام لا يمكن ان تؤيدها نتائج التنقيبات •

(*) المؤرخ ستسياس ويعرف باسم ستسياس الكنيدي مؤرخ افريقي عاش في القرن الاول بعد الميلاد وهو احد مؤرخي الاغريق الذين زاروا العراق وكتبوا عن اوضاعه وعلى الاخص مدينة بابل وجنائنها المعلقة . وكان المؤرخان هيرودتس وديودورس الصقلي قد سبقاه الى ذلك •

الابواب

على ان المظهر الشاذ كثيرا للاسوار يتمثل في الابواب التي تؤدي الى داخل المدينة ، والتي شيدت على ذات المبدأ في كل من بلاد اشور وبابل معا .

لقد كانت ابواب جميع المدن والابنية في القديم تجري تقويتها على الدوام بشكل خاص ، لانها كانت تمثل النقطة الضعيفة في النظام الدفاعي . وكانت الطريقة التي نفذ بها هذا الامر في بلاد الرافدين هي التي وفرت لها صفة مميزة ، والتي تم تصورها بكل وضوح وعلى نطاق واسع في صفات اللبن الذي شيدت به ، والذي كانت فائدته الدفاعية تعتمد على كتلته .

كان كل باب يميز بقوة من الداخل والخارج معا بجدار واق من الآجر تتخلله احدى الفتحات . خلال ذلك كله يمتد ممر ينفتح في فترات على السماء . ويمكن السيطرة على هذه الفتحات من قبل رماة السهام الذين يوجدون في اعلى الاسوار ، في حالة اذا ما استطاع المهاجمون - بعد - ان ينجحوا في اقتحام الباب الخارجي - ان يتغلغلوا عبر سمك الاسوار . ومثل هذه الطريقة في الدفاع يمكن ان توجد في ابواب المدن والقصور في المغرب في الوقت الحاضر . ولقد اخذ « باب الشمس » في مدينة طليطلة باسبانيا عن ذات الاصل ولو انه كان على نطاق اصغر لان الحجر كان يستعمل هناك .

وعلى هذا فيما عدا مناطق المعبد والقصر ، فان هذا الاعتبار يعطي لمحة عما كانت تشبهه المدينة العراقية الكبيرة فعلا اذا ما تم تمثيلها بمدينة بابل . فلم تكن بابل من اهم المدن في كل اودية دجلة والفرات حسب ، بل ان في مقدورنا ان نقارن ايضا الاوصاف الرفيعة المتألقة التي وردت عنها مع نقايا المدينة بالصفة التي كانت عليها حقا .

الريف ، القنوات

ان المسافر الذي يمر عبر ابواب المدينة ويأخذ مسيله نحو الريف ، سيرى ان البيوت قد انشئت وسط الجنائن . ومثل هذا لا يستدعي الدهشة لاول وهلة ، لان مثل هذا كان مطبقا وتم تطبيقه على نطاق واسع في كل انحاء الشرق .

غير ان الجنائن تعتمد كلية على نظام حسن للري يستخدم القنوات بدوره ، وهذا مظهر ضروري لحياة الريف يتطلب وصفا موجزا .

لقد كان سكان العراق منذ اقدم العصور التي عرفت يسعون الى حماية انفسهم ضد كوارث فيضانات نهري دجلة والفرات التي كانت تؤلف خطرا واضحا ، لانها عندما تتدفق على السهل تصبح احواض النهر وشنة نوعا ما وتجري في ارض طليقة ومتحولة .

ولقد وصل السير ليونارد وولي(*) خلال تنقيباته في مدينة اور الى طبقة من خزان للنهر ادى الى تدمير استمرار الحضارة في ذلك الموقع تماما . وقد توصل « واتلان »(**) الى ذات الاكتشاف في مدينة « كيش » ولكن على مستوى عمل مغاير .

(*) السر ليونارد وولي Sir Leonard Woolley من اشهر المنقبين البريطانيين عن الآثار في العراق . ركن تنقيباته في مدينة اور وهو الذي كشف فيها عن المقبرة الملكية وما كانت تضمه من كنوز واستمرت تنقيباته هناك من ١٩٢٢ الى ١٩٣٤ وضع عدة مؤلفات قيمة عن تنقيباته منها التنقيب عن الماضي ، واور ، ومملكة الحثيين .

(**) واتلان شارل CH. Watlin اثنري فرنسي ولد سنة ١٨٧٤ اشرف على ادارة البعثة التي نقتب في كبش في الفترة ١٩٢٦ - ١٩٣٣ . وتوفى سنة ١٩٣٤ .

لقد كان هذا يشير الى فيضانين مختلفين ، وهما طوفانان متكرران من هذه الصفة التي ادت الى ظهور قصة طوفان بابل التي استنفدت قسما تاما من ملحمة غلغامش •

لقد كان الجواب لهذا الخطر يتمثل في حفر نظام من قنوات صمم البعض منها كيما يجري موازيا لجاري النهر وليحول دون الفيضان ، في حين يربط البعض الاخر منها بين القنوات التي كانت قائمة قبلا ، والقنوات الاخرى أيضا ، للوصول الى مناطق لم تكن تروى من قبل • وتكون نتيجة ذلك ثلاثة اضعاف هي : حصول زيادة كبيرة في عدد من طرق الملاحة ، ونظام مواصلات يربط مختلف المدن ، وزيادة في مساحة الاراضي الزراعية •

كانت القنوات تبنى على اساس بسيط جدا • فحينما كانت تشاد اسوار المدن تكون الحفر التي يتم حفرها اولاً ، هي التي توفر المادة الخام للاجر الذي تشاد به الاسوار • وبنفس الطريقة عندما يراد حفر قناة فان التراب الذي يتم حفره يلقي به على الجانبين كيما يؤلف بذلك سدودا تؤمن الحماية من الفيضان في الحالة التي قد يرتفع بها مستوى النهر •

وكان الجريان الحقيقي للماء يتم تنظيمه وفق نظام لفتحات تصريف المياه ، في حين كان توزيع الماء داخل القنوات الصغيرة التي تأخذ الماء من القنوات الكبيرة وتروي الحدائق ، تتم السيطرة عليه بشكل فعال عن طريق قنوات التصريف في السدود ، والتي يمكن غلقها أو فتحها بسرعة تماما •

والواقع ان المطر غير موجود بصفة عملية في بلاد الرافدين وانه يستحيل ايجاد زراعة بدون الري ، ولكن اذا ما ترطبت الارض بصفة كافية فان مساحات من الصحراء الحيوية تغطي بالخضار وتصبح خصبة بصفة مذهلة •

الخصب يعود الى الري

يمكن استخلاص اصدق انطباع عن مظهر بلاد الرافدين في القديم من مصر وليس من المظهر الحالي للبلاد . ففي مصر كان الخضار على امتداد ضفاف النيل يتعاظم تبعا للري ، وذات الشيء يمكن رؤيته في واحة تدمر منذ حرب سنة ١٩١٤ - ١٩١٨ •

ففي مجرى التأريخ تقلصت الارض الصالحة للزراعة الى نسبة تكاد لا تذكر ، لكنها ما لبثت ان تضاعفت بسرعة بعد ان تم استخدام ينابيعها بشكل غزير اثناء الاتداب الفرنسي •

وكان ما يوصف بالرخاء الاصطناعي يطفى دوما وبصفة طبيعية على تصوير الرحالين في القديم • فالبعض منهم مثال ذلك هيرودوتس كانوا يفضلون في الواقع حسب ما دونوه ، ان لا يقتبسوا الاحصاءات التي كانت تعطى لهم • في حين ان البعض الآخر ، وهو اقل تشاؤما ، قد كرر ما ذكر له عن حجم حاصلات الشعير •

فهذا « سترابو » (*) مثلا يكتب عن منتوج يبلغ ثلثمائة ضعف من الكمية التي بذرت • غير ان المشاهدة الحديثة تشير في الواقع ، الى ان هذا المنتوج وان كان اقل مما يستحق النظر ، فانه مع ذلك يتجاوز بكثير اي شيء عرف في اوربا الغربية •

(*) سترابو ويسمى سترابون ايضا مؤرخ وجغرافي يوناني شهير ولد سنة ٦٣ ق. م • وتوفي سنة ٢١ ميلادية درس في اليونان وروما ومصر وقام بجولة واسعة في شمالي افريقيا واوربا وآسيا ودون مشاهداته في كتاب يقع في سبعة عشر مجلدا غنية بالمعلومات عن العالم القديم •

فالحالة والعالم الطبيعي « أوليفيه » (*) الذي زار العراق في أوائل
تقرن التاسع عشر يقدر محصول الشعير بحوالي ثلاثين أو أربعين مرة من
الكمية التي تم بذرها .

ومنذ اقدم العصور جدا كان حكام العراق يعتبرون ان من واجبه
ومن باب الرحمة معا ، ان يحسنوا نظام القنوات ، وفي العصر الذي
شخصت فيه بعض السنين بصفة عامة ، بحوادث شهيرة للشهور السابقة .
اشتهر عدد من الحكام عند الاشارة الى حفر احدى القنوات التي كان
حفرها يعادل في اهميته الانتصار ، ودمج اقليم ما ، أو تشييد معبد .

اما بالنسبة الى نظام صيانة القنوات فقد كانت الاوامر تصدر من
المجالس العدلية الملكية الى محافظي الولايات في الامبراطورية لانجاز
هذا العمل .

ففي عهد سلالة بابل الاولى تعكس رسائل حمورابي الى هؤلاء
الموظفين المحليين ذات الاهتمام الذي تكرر ظهوره في دعاوى مؤرخة في

(*) الرحالة اوليفيه G. A. Olivier رحلة فرنسي زار العراق في
عهد الملوك سليمان باشا الكبير الذي حكم العراق في الفترة ما بين
١٧٧٧ و ١٨٠٢ . وكان اوليفيه قد وصل الى العراق قادما من ايران .
وقد دون مشاهداته في رحلته تلك في مجلدين كبيرين صدرا له في باريس
سنة ١٧٩١ م .

شهر « سيوان » من السنة الثانية من حكم الملك قمبيز(*) تأمر بإرسال عشرة رجال للعمل الاجباري في قناة . فاذا ما اخفق الموظف المسؤول عن حفر القناة في ذلك ، فانه سوف يعاقب من قبل (غوبارو) محافظ مدينة بابل ومنطقة عبر الفرات .

وعندما تفككت الامبراطورية الاشورية البابلية في عهد الغزو العربي والغزوات التي جاءت من الشرق في العصور الوسطى ، لم يعد السكان الذين تناقص عددهم يبدون اي اهتمام بالقنوات التي ردمت بالتدريج ، ولذلك فلا تشاهد اليوم سوى اثار باهتة منها ترى ظاهرة على وجه الارض . ومع ذلك ففي غضون العشرين سنة الماضية(*) وبفضل الاب « بوادبار »(**) وضع المسح الجوي في متناول وسائل لا تبارى عن اعادة تشكيل مخطط هذه القنوات . ففي ضوء مائل ، يظهر التمرج الطفيف لسطح الارض الذي لا يخس به عند مستوى الارض ، عندما يلاحظ من طائرة تحلق على انخفاض ، في تضريس غير مشكوك فيه قبلا .

(*) قمبيز ويسميه الغربيون باسم « كمبوجة » هو ابن كورش الكبير مؤسس الدولة الاخمينية التي استولت على العراق وقد سار قمبيز على نهج والده في الفتوح فاستولى على بلاد مصر وضمها الى مملكته . وبتدبير منه تم اغتيال اخيه يرديا سنة ٥٢١ قبل الميلاد . ويقال ان احد المشعوذين من الفرس قد ادعى بعد زمن بانه هو يرديا الذي بعث حيا من القبر ، فما ان سمع قمبيز بذلك حتى انتحس وتربع ذلك الدمى مكانه على عرش الامبراطورية الاخمينية مدة من الزمن .

(**) يقصد المؤلف بذلك العشرين سنة التي سبقت نشر كتابه هذا باللغة الانكليزية سنة ١٩٥٤ .

(***) الاب بوادبار : من الاثاريين الفرنسيين الذين تقبوا عن الاثار في سوريا في الفترة بين الحربين العالميتين .

ولكن مع ذلك تبقى مشكلة تشخيص بقايا القنوات التي وصلت
اسماؤها إلينا .

ان هذا يذكرنا بخطأ محير . فاحدى القنوات التي ذكرت في النصوص
المسمارية ، والتي يبدو انها كانت ذات اهمية ملموسة ، لها اسم يقرأ على
شكل « زلزلات » (Zallzallat) غير ان النصوص لا تورد اية معلومات
لا عن مجراها ، ولا عن نقاط مبتدائها . ولقد بذلت جهود كبيرة لتحديد
وقد طرحت بعض الفرضيات الاصلية عنها بل انها ثبتت حتى بعض الخرائط ،
الى ان استطاع في احد الايام شخص يدعى (ئي . دورمي) (*) : وبعد
اعادة حساب مختلف القيم البديلة الممكنة للعلامات المسمارية ، ان يقرأها
بشكل مصيب باسم « ادغلات » وهو في الواقع اسم نهر دجلة العظيم .
وكانت تلك هي خاتمة القناة « زلزلات » .

وحتى في القديم كانت تهمل كثير من القنوات الصغرى . ومع ان
ماءها الذي يحمل الغرين بغزارة من الانهار الكبرى مفيد في الغالب كوسيلة
لتسميد الحقول ، فان الغرين ذاته كان يؤلف مستودعا في احواض النضاد
وبصفة خاصة اكثر عندما كانت الفتحات تسد ولا يستطيع الماء ان يجرى
ويصبح آسنا .

وكان القصب الذي ينبت في القنوات بسرعة ، في حاجة لان يقطع
باستمرار ، وان يكرى الطمي ويكوم على الضفاف . ولكن على الرغم من
الجهود المضنية كان حوض القناة يرتفع تدريجيا ، وان الطمي الذي كان

(*) دورمي (ادورد) E. Dhorme عالم فرنسي متخصص
بالاشوريات ولد في كانون الثاني ١٨٨١ - اختير عضوا في المعهد الفرنسي ،
واستاذا فخريا في « الكوليج دي فرانس » .

يكري ويكوم على الضفاف يزيد من ارتفاعها بالتدريج وبذلك تصبح القناة
— ان عاجلا ام آجلا — تجري اول الامر فوق مستوى الارض ومن ثم أعلى
من هذا المستوى ، وتنحصر بين سدين ترابيين • في هذه النقطة ترسم الحيطه
تحولها الى مجرى جديد يحفر على مقربة من المجرى القديم •

كانت الحقول التي في مستوى احدى الفروع الرئيسة للقناة ، تروى
عن طريق ايجاد فتحة مؤقتة في الضفاف القائمة للقنوات التي تتقاطعها وتسدها
ثانية بكميات كبيرة من التراب حين يتم ارواء الحقول خلالها •

ولكن عندما تجرى القناة اوطأ من مستوى الارض ، لا بد وان يرتفع
الماء •

ففي منطقة حماة بسوريا عندما تزداد سرعة جريان الانهار ، يتم
استخدام « الناعور » (*) الذي يتكون من عجلة تثبت الدلاء حول حافتها •
فعندما يدير ماء النهر عجلة الناعور تمتلئ تلك الدلاء بالماء بصفة متعاقبة
وتفرغه في الارتفاع المطلوب •

وتشتغل هذه الآلات ليل نهار ، ويعجج الهواء باصوات حركتها الكئيبة •
ومع ذلك فقد كان الشائع كثيرا في العراق هو استخدام الشادوف •
وقد رسم هذا الشادوف على النصب ، ويبدو بانه قد شخض تشخيصا حيويا
بما يمكن ان يشاهد اليوم ليس في ذات المنطقة حسب بل وفي كل انحاء
الشرق •

(*) اخلا المؤلف او مترجم الكتاب عن الفرنسية في تهجئة « ناعور » العربية
فكتبها باسم (ناوريا Noria) وهو يقصد بها « ناعورة » على
وجه اصح •

يتألف الشادوف من صارية متحركة على دعامة • ويربط الحبل الذي يشد به الدلو ، في النهاية الطويلة لهذه الصارية • يرفع العامل النهاية القصيرة للصارية التي تشد بثقل مقابل ، ويدلي الدلو في داخل الماء • ومن ثم ينحني على الثقل المقابل • ويرفع الدلو فيفرغ ماءه في بركة تمد القنوات بالماء الذي يجري خلالها ليصل الى الحقول ، وهكذا يستمر تكرار العملية •

هناك تغيير طفيف في هذا العمل يتمثل في استخدام احد حيوانات الجر كالحمار والثور • فالدلو يعطس في الماء نتيجة ثقله الخاص ، ومن ثم يسحب الحيوان الحبل الذي يمر افقيا حول بكرة تشبه بكرة الدولاب ، حيث يفرغ الدلو الماء كالسابق ، وعندما يعود الحيوان الى النقطة التي بدأ منها يسقط الدلو ثانية في الماء الذي يهب الحياة •

الملاحة

يعتبر الانتقال من الطرق المائية الى الملاحة امرا طبيعيا . ذلك ان التغيرات التي حدثت في مجاري نهري دجلة والفرات ، والتيارات التي كانت سبب تحول القعر المنطلق ، كانت تعيق ملاحة السفن العميقة الغور بالنسبة للقسم الاعظم من اطوال هذين النهرين .

غير ان السفن الموغلة في القدم لم تكن على هذه الشاكلة بصفة عامة . فقد كان معظمها يتألف من زوارق كبيرة تشبه الزوارق الخفيفة التي تستعمل الآن في سوريا لتفريغ السفن الكبرى .

وبالنسبة الى العدد القليل من المراسي الطبيعية ، والنقص التام في عدد الموانئ التي توفر الحماية ، فقد كان من المعتاد بالنظر الى السفن ان ترسو فيها اثناء الليل وان تحتمي تحت بعض الكهوف التي تحميها من الاتجاه الذي تهب الرياح منه ، في حين ان الزوارق التي تتحرك صراحة على وجه الماء بفعل ملاحيتها ، كانت تكشف عن مدى احجامها في هذا العصر .

لقد كان هذا النوع من الزوارق هو المطبق استعماله في القنوات والذي كان يجر بالحبال ، حيث تصور بعض المنحوتات النائية ، وعلى الاخص الواح البرنز على ابواب القصر الذي تم اكتشافه في قرية « بلاوات » الحديثة(*) خطأ من رجال على شاطئ النهر وهم يسحبون سفينة موسقة باحمال ثقيلة .

(*) بلاوات اسم قرية تبعد عن خرائب نمرود حوالي ١٢ كيلومترا نقبت فيها البعثة البريطانية سنة ١٩٥٦ فعثرت على صفائح من النحاس كانت تزين احد ابواب قصر الملك اشور ناصر بال الثاني وهذه الصفائح مزينة بمشاهد وصور منها صورة الملك نفسه .

وبذات الطريقة تشير شريعة حمورابي بصفة خاصة الى المعبر الذي اصبح فيما بعد ، دون شك ، يتحرك مثلما هو عليه الآن ، بامتداد جبل من احد جوانب النهر الى الجانب الآخر منه .

وبالتعاقب كان الزورق في الماء الساكن الذي يشبه مياه القنوات ، يسحب بالجمال غالبا ، وتلك طريقة توجد لها رسوم كثيرة . وقد يكون هذا حقا الاصل الاكدي لكلمة ملاح التي كانت تتألف من علامة للزورق ، وعلامة للروح والغدو ، لكي تميز الحركة المتواصلة من المجدف الى الكوئل وترتد مرة أخرى الى الرجل الذي يطوي الصارية .

واخيرا كانت هذه الزوارق الكبيرة تزود احيانا بالاشعة بصفة منتظمة وكانت تتألف على اكثر احتمال من الحصر مثلما كان يحدث ذلك في الشرق الاقصى .

وفي العصر الذي نتحدث عنه كان موقع السكان يحتله مجدف كبير في الكوئل ، أو أنه ، في الواقع ، قد يستغنى عنه تماما .

واذا ما حكمنا بالنصوص التي تتناول الحملات التي كانت الزوارق تنقلها ، بدا لنا ان طاقتها كانت صغيرة . وبهذه الوسيلة نعرف من عهد سلالة اور الثالثة زوارق في قنوات كانت تنقل ما يتراوح بين خمسة وخمسين الى مائة وخمسة وخمسين بشلا من القمح .

من بين النصوص الكثيرة التي نتحدث عن موضوع نقل التجارة في المياه ، بعض نصوص يرقى تأريخها الى العصر السومري (وهي اقدم من النصوص التي يشملها هذا الكتاب بصفة ملحوظة) تتناول كيفية صنع القارب .

وكانت هذه النصوص تستخدم عبارات واسعة جدا اصبحت الكثير من

معانيها غير معروف في الوقت الحاضر • ومع ذلك فإن محض وجودها دليل على مدى الاهمية التي كانت تستع بها الملاحه خلال الالف الثالث قبل الميلاد.

ينبغي لنا ان نتذكر بان ما نحذفه من امثال العبارات الفنية والتي تصبح مهملة لهذا السبب ، كانت تعتبر حقا شواهد على غنى اللغة وعلى مستوى مدنية الامة التي كانت تستخدمها •

فاذا ما قسنا مدنية السومريين بهذا المعيار مثل بقية المعايير الاخرى الكثيرة ، نجدها قد تطورت تطورا رفيعا مدهشا •

ولما كان بناء القارب من الاعمال الشهيرة ، فان اولئك الذين يحتاجون الى احد القوارب ، غالبا ما كانوا يلجأون الى استئجاره • ففي السنة السابعة عشرة من عهد حكم الملك نبوئيدوس مثلا ، استأجر شخص يدعى « مورانو » قاربا بطاقة قدرها مائة وخسون « غور »^(١٠) لغرض استعماله من لندن معبد « اينانا » في الوركاء بمقدار خمسة شواقل ونصف من الفضة لمدة شهر واحد ، من اليوم السادس من (ايلول) [اب - ايلول] الى اليوم السادس من تسري [ايلول - تشرين اول] • ولقد دفعت سلطات المعبد بدل الايجار سلفا ونص عقد الاستئجار على انه اذا ما ثبت بان بطاقة القارب اقل مما ذكر ، فان الدفع يتم تعديله وفقا لذلك •

(١٠) اما ستمائة او ثلاثمائة بشل طبقا لقيمة الغور •

القفة الكلك

هناك نوعان من القوارب تختص ببلاد الراقدين بقيت تستعمل حتى الوقت الحاضر . هذان النوعان هما القفة والكلك .

اما القفة فكانت نوعا من سلة مدورة تشبه السلة التي يستعملها العمال لحمل التراب والآجر على رؤوسهم وقد اطلق اسمها على قوارب من هذه الشاكلة . وهي في الواقع سلة من اغصان مدبة وذات قعر منبسط وغير عميق جدا . وكان القعر يغطى بالجلود ويغلف بنسالة الكتان وقطع من الصوف ، تضغط جميعها بشدة وتمزج بالطين الرقيق والقار الذي يضمن عدم تسرب الماء خلاله .

كان القارب يحرك من قبل رجل ورجلين بمجاديف قصيرة وهكذا يتحرك القارب متجها الى امام دون ان يدور حول نفسه .

وحين كانت هذه القوارب توسق بحمولات متنوعة لا ترتفع حافسة القارب عن سطح الماء الا بضغ بوصات .

ولم يكن ملاحو القفف يترددون في عبور الانهار سريعة الجريان من امثال نهر دجلة ، لكن هذه القفف كانت تستعمل بصفة اعتيادية في نقل السلع صعدا في النهر وانحدارا معه . وتشبه القفف التي رسمت في المنحوتات الاشورية الناتئة القفف التي تستعمل في الوقت الحاضر بصفة مطلقة .

اما الكلك فانه رمث يصنع اما من اقوى انواع القصب الذي ينمو بكثافة في الاهوار والتي تبلغ من الطول درجة تخفي الانسان تماما او - وهذا هو المفضل - من احسن انواع الخشب الذي يستطيع بناء الارماث الحصول عليه محليا . ويزداد تعويمه بربط جلود الماعز المنفوخة تحت سطحه ، والتي تجعله قادرا على حمل وزن كبير . وعندئذ يطوف الرمث الموسق في

النهر باتجاه التيار ويتم تحريكه وتوجيهه بالصارية معا الى ان يبلغ بعض النقاط في جنوبي بلاد الرافدين •

وهناك اماكن للتوقف فيها حيث يتم تفريغ الحمولة ، ويفكك الكلك ، ثم تباع اخشابها (وهي اكثر ندرة في جنوبي العراق منها في شماله) ، وتطوى جلود الماعز وتنقل على الحمير ، اما الملاح الذي تحول الى قائد للقافلة فانه يعود الى النقطة التي بدأ منها حيث يبدأ هناك بالعملية كلها مجددا •

ولم يكن كل واحد يملك قاربا ، ولكن كل فرد غالبا ما تحدث له مناسبة عبور شبكة القنوات التي تكون جد عريضة وجد عميقة بشكل ظاهر حين يراد خوضها ، شريطة ان لا يكون القارب ذا حمولة ثقيلة ، كما ان في مقدورهم استعمال « الاطواف » التي تتألف بكل بساطة من كتلة من القصب تشد سوية عند نهاية كل واحدة منها وتكون منبسطة في الوسط • وهذه الاطواف لا يمكنك ان تعبر بها دون ان تبذل اقدامك ، لكنها لا تغرق •

واخيرا فان غير الماهرين في السباحة يستطيعون الاعتماد على جلود الماعز • وهذه تشبه القرب التي يستعملها السقاة ورشاشو الماء في الشرق ، وهي من جلد حيوان يقطع رأسه واطرافه ، وبذلك يحتفظ بشكله الطبيعي • ويتم نفخ الجلد كلما وجد ذلك ضروريا ، وبالإمساك به أو وضعه تحت الصدر ، يستطيع البالي ان يعبر دون ان يتعرض لخطر الغرق • وتوجد منحوتة نائنة تصور جيش اشوريا يعبر النهر بهذه الطريقة [لوح ٣ ب] •

وتستعمل الجلود لاغراض مختلفة يوميا ، من امثال حفظ الزيت أو الخمر • وهناك رقيم مؤرخ في السنة الثالثة من حكم الملك نبونيدس ملك بابل يمثل ايضا لابائى عشر ظرفا منفوخا •

صيد السمك

كذلك كانت القنوات مفيدة ايضا كمصدر للسمك • وغالبا ما يشار الى صيد السمك على انه احدى الحرف ، ففي مصبات النهر على مقربة من الخليج العربي كان ما يتم صيده من الاسماك يبعث به للبيع في مدن المنطقة ، غير ان المدن التي تقع بعيدا جدا عن هذا كانت تصيد السمك من القنوات والبرك • [بركة اسماك] •

وبين نحت ناتى اشوري بركة صغيرة مدورة تسقى بماء احد الجداول وقد اعتنى النحات كثيرا بان يظهر بجلاء مظهر السمك الذي تحتويه تلك البركة ، وكأنه ظاهر على سطح الماء •

وكان صيد الاسماك يتم بصفة عامة بواسطة الخيط ، غير ان هناك انواع مختلفة من الشباك كانت تستخدم ، وكانت هذه تدعم التجارة بشكل حي ، مما سنتحدث عنه ثانية عندما نصل الى صانعي السلال •

ان البركة التي صورت على هذه المنحوتة الخاصة ، منتظمة الشكل الى درجة انها تبدو في صورة مقلاة خاصة تسقى بفرع جدول من احدى القنوات •

وهناك منحوتة اخرى اقدم في تأريخها بحوالي النبي سنة من العصر الاشوري ، مصورة على نصب في المقابر الملكية بمدينة اور ، عرفت باسم « الراية » ذات اشكال صغيرة من اللالىء الكبيرة على ارضية من حجر اللازورد • فهذا المشهد يصور موكبا من الحمالين ، اما من الذين فرضت عليهم الجزية أو من الارقاء ، وهم يحملون غنائم النصر الذي يخلده النصب وبين هؤلاء احدهم وهو يحمل سمكة ضخمة •

البساتين

لا توجد بعد وصف القنوات التي يعتمد على مياهها خصب البلاد ، سوى خطوة قصيرة للوصول الى البساتين والمناطق المزروعة التي تزداد اهميتها بالنسبة الى بعدها عن المدن .

ولكي نحكم بالاستناد الى البساتين القائمة حوالي بغداد وفي واحات افريقيا الشمالية حيث تكون التربة واحوال المناخ مماثلة لما هو موجود منها في بلاد الرافدين ، لابد وان كانت هذه الحدائق مؤلفة من اراض مستطيلة في بلاد الرافدين ، لابد وان كانت هذه الحدائق مؤلفة من اراض مستطيلة التي كانت ذاتها تستظل بعدد قليل من اشجار النخيل .

ولقد سجل منتوج هذه البساتين في نصوص وعلى نصب حيث يتوفر لنا وصف معاصر لواحد منها دونه كتبه ملك بابل مردوك أبال اديننا والذي اشتهر بصفة عامة باسم ميروداش — بلدان(*) .

(*) مردوك أبال ادين : اسم اطلق على عدة ملوك الاول منهم حكم في الفترة ١١٨٧ — ١١٧٥ قبل الميلاد وهو من السلالة الكشمية والثاني حكم في الفترة ٧٢٢ — ٧١١ قبل الميلاد وهو من السلالة العاشرة ذكر اسمه على حجر حدود وعلى سيف محفوظان في المتحف البريطاني وفي متحف اللوفر .

بستان ميروداش بلدان

يوضح النص ان هذا البستان لم يكن متنزها ملكيا بل نوعا من بستان خضار . ولا يوفر هذا النص معلومات نافعة عن انواع الخضار التي كانت تؤكل في ذلك التاريخ حسب بل انه يلقي الضوء ايضا على طريقة التصنيف النباتي التي كان البابليون يستعملونها .

لقد كانت النباتات تجمع حسب الانواع (والاحرى بما قرره الكاتب من ذات الانواع) ، وكانت تصنف اما بالاشارة الى بعض المميزات العامة المحددة ، أو بالاشارة الى استعمالها بكل بساطة . وهكذا كان الثوم والبصل والكراث تؤلف طائفة واحدة ، بينما تؤلف الاعشاب العطرية كالنعناع والريحان طائفة أخرى .

وهناك طائفة ثالثة تتألف من التوابل من امثال الزعفران والكزبرة والسذاب (وكذلك يجب الرومان هذه التوابل حبا عظيما) والزعر ، والفستق . وقد ورد ذكر الصمغ أيضا ومثل ذلك القرع والبطيخ الذي كان ينمو على اشكال متنوعة كثيرة في الشرق .

وهناك الخضراوات أيضا من امثال اللوتس والهندباء . كما يوجد عدد مدهش من اعشاب قوية الرائحة من امثال الحبة السوداء ونوع من انواع الجزر .

وكانت الخضراوات تحتوي على العدنس ومن بينها انواع اقل مذاقا من امثال الشوندر واللفت .

وما عدا ذلك كانت قوائم الاشوريين تشتمل على بعض الخضراوات التي بقيت من دون تشخيص ، في حين تم تشخيص البعض الاخر منها بطريقة العدنس ليس الا .

وتشتمل اشجار الفاكهة على النخيل (وسنتحدث كثيرا فيما بعد عن تجارة التمور) والرمان الذي لم يكن يحصل منه على الشراب حسب بل كان يثمن بدرجة عالية كيما يهدى الى الملوك مثلما تستطيع ان تشاهد ذلك على منحوتة ناتئة من خرسباد تصور كل الاستعدادات المتخذة لاقامة وليمة في القصر .

وهناك اشجار المشمش ايضا ، واشجار الخوخ والكمثرى والاجاص (والاخير منسوب الى بلاد فارس ويسمى في اللغة اللاتينية باسم « التفاح الفارسي ») ، واخيرا اشجار التين . فهناك انواع كثيرة من التين التي تبدأ بالنضوج بصفة متعاقبة ابتداء من شهر حزيران حتى فصل الخريف ، غير ان سكان الشرق يعترفون بان هذه الانواع مغايرة للتين الاثيني . فكمثل هذه الفواكه تنمو بصفة رئيسة في منطقة اواسط بلاد بابل واشور حيث يكون المناخ ملائما لها .

ويبدو ان هيرودوتس لا بد وان جاب بلاد الرافدين في تأريخ ظهرت فيه اشجار التين والكروم والزيتون بصفة عملية لكنها ما تزال غير شائعة ، لانه وان كان قد لاحظ ان هذه الاشجار لم تكن موجودة هناك الا انها كانت مصورة على المنحوتات الاشورية مثال ذلك شجرة التين المرسومة على احدى المنحوتات من خرسباد .

وكان الزيت يستخلص من نبات السمسم ذلك لانه في العصر الذي يتناوله هذا الكتاب كانت قد جرت اقلمة شجرة الزيتون قبل قرون قليلة سابقة . وقد تم تحسين ما كان موجودا منها عن طريق الزراعة المكثفة وقد نجح ذلك بصفة خاصة في بلاد آشور والاقطار المجاورة لها . وهذه الشجرة مصورة في المنحوتات الناتئة ، وان الجنود الاشوريين قد قاموا ، وهم في

حملاتهم العسكرية ، باستئصال اشجار الزيتون في احدى النقاط بهدف افقار بلاد العدو •

في هذا التاريخ كانت اشجار الكروم قد وصلت الى بلاد اشور حديثا . فهناك نصوص تشير الى بيع الخمر ، وان اشجار الكرم تشاهد مصورة على منحوتات في المتحف البريطاني يعود تأريخها الى عهد اشور بانيبال • وهي ملتفة حول جذوع اشجار في حديقة كان الملك يتناول طعامه فيها ، بل حتى في مشهد صيد حيث تم الاحتفاظ بالحيوانات الوحشية لغرض الصيد •

حوش المزرعة

كانت احواش المزارع تلحق بالحدائق ، وان النصب والنصوص تسجل الحيوانات التي تحتلها من امثال البط والاوز . [هنالك رقيم يرقى تأريخه الى سلالة اور الثالثة ، اي حوالي سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، يشير الى تهية الدجاج في مناسبة مولد ابنة الملك] .

ولقد صمم العراقيون احجار الوزن في شكل بطة التف رأسها ورقبتها كيما تستقر على ظهرها .

وفي خلال الالف الثاني قبل الميلاد كانت الدجاجة لم تدجن الا في سوريا وحدها ، غير انها غدت مألوفة في بلاد الرافدين في عصور الفرس والاشوريين .

هنالك كتابة لاحد الفرعنة تسجل الاشياء الثمينة ، أو الغريبة على الاقل ، التي جيء بها من الحملات العسكرية في سوريا ، تتحدث عن طائر يقبع على بيضة كل يوم .

وفي العصر البابلي الحديث وجد الديك بين الحيوانات المصورة على نقوش غائرة ، في حين ان الساسانيين ادخلوه في الصور الزخرفية على منسوجاتهم .

وكان الحمام يعيش عادة في ثقب تفتح مباشرة في جدران البيوت ، وقد عثر على هذا الترتيب في نموذج من الفخار ، محفوظ الآن في متحف اللوفر ، يعود الى معبد من قبرص في حين كان معبد الآلهة في « بافوس » (*) يأوي سربا كبيرا من الحمام .

(*) بافوس Paphos مدينة قديمة تقوم على الشاطئ الغربي من جزيرة قبرص اشتهرت بمعبدها . ويقال ان الذي اسس هذه المدينة هو اغاينور ملك اركاديا بعد عودته من حرب طروادة .

وكانت الطيور البرية التي يحتفظ بها احيانا كطيور اليفة ، تشتمل على ابي قردان والكركي ومالك الحزين (الذي عدت سبعة انواع منه) التي تعيش في الاهوار ، وكذلك البجع الذي كان يدرب على صيد الاسماك ، في حين كانت الحقول موطنًا لطائر السمان والشحارير والعصافير والقبرات .

وكان طائر السلوى نادرا ولوانه كان شائعا في سوريا ، غير ان الحجل والدراج كانت تربي في البلاد ، ونستطيع ان نرى الدراج يصطاد بالسهم في منحوتة من خرسباد من عهد الملك سرجون الثاني محفوظة الآن في متحف اللوفر وكانت هذه الصورة هي فاتحة الكتاب) •

وعن طريق المفارقة هنالك طيور قنص كثيرة من بينها العقبان والنسور والبوم التي يتطلب حفظها وجود اقفاص كبيرة في حين ينبغي ان تحفظ حاصلات الحقول التي نضجت حبوبها من غارات الغربان والفئران •

الزراعة على نطاق واسع وحاصلات الحبوب

حان الوقت لان نقيم المقاطعات الزراعية الكبيرة التي كانت الزراعة فيها تطبق على نطاق واسع . كان قوام المنتوج الذي يعنيه سكان العراق حين يتحدثون عن القمح ، هو الشعير . وكان هذا المنتوج ينمو بر يا . وقد سبق لنا ان وصفنا نطاق انتاجه ، وكان في بعض المواقع يوفر حصاداً لعدة مرات خلال سنة واحدة .

ولم يكن الشعير من اشهر المحصولات الطبيعية النافعة حسب وانما كان اعظمها وفرة ايضاً ، وعند انعدام النقود وكاداة للتبادل كان محصول الشعير يستخدم مقياساً مقبولاً للقيمة .

وكانت هذه الوظيفة الاساسية للحبوب في القضايا البشرية قد تم الاعتراف بها ثانية في احدى اللحظات الحرجة في التأريخ الفرنسي . فعندما اعيد تنظيم النقابة في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي ، ثبتت العقوبات التي فرضت على اعضائها في صفة حدود « عشرة الاف غرام من الحنطة » .

ويعتقد معظم الطبيعيين ان القمح النشوي المعروف باسم الحنطة المكتسبة كانت اصيلة في بلاد الرافدين لكنها لم تكن شائعة أو مهمة كالشعير . وكذلك كان الدخن يؤكل ايضاً .

الجاروف والمحراث

كانت القطع الصغيرة من الارض تحفر بمجاريف مصنوعة من حجر صلب حافاتها مثلمة في شكل فج لاس واحد من مجاريف • ولقد تم اكتشاف مثل هذا النوع من الادوات في منطقة « قطنة »(*) في سوريا •

اما في الحقول الواسعة فقد كان البابليون يستعملون المحراث الذي نشاهده مصورا صراحة على النصب القائمة حتى اليوم •

فالمحراث ذاته والقسم الجبهوي منه اذا ما نظر اليه من جانب واحد ، يبدو قائم الشكل ، لم يكن يصنع من الحديد وانما من الخشب الصلب يتم شحذه او ربما يربط به حجر مشحوذ •

ويحمل المحراث ساقاً عمودية تنتهي عند القمة في شكل صندوق ، لا بد ان يكون باذرة بذور ، ولذلك يمكن للبذر ان يهبط داخل الساق المجوفة ويسقط في قعر الاخدود الذي يحفره المحراث •

(*) قطنة منطقة زراعية معروفة في سوريا تقع الى الشمال الشرقي من مدينة حمص وقصبتها هي مدينة قطنة ذاتها • تقب فيها الكونت دي مليل دي بويسون • حاصرها سبى لوليوما ملك الحثيين ودمرها تدميراً كاملاً.

لقد كان دين بلاد الرافدين يمس الحياة في كل نقطة ، وان الرموز التي كانت تحمل اهمية دينية بالنسبة الى البابليين قد اصبحت تفسر الآن بانها مجرد صور زخرفية •

وهكذا فان الاشكال التي تبين احد الاسود ، او نسا يخلق بجناحيه ، أو محراثا ، أو شجرة تين ، التي امكن تمييزها في بقايا الزخارف الجدارية التي اكتشفت في خرسباد ، كل هذه كانت في الواقع اربعة رموز دينية ، أو توابع للآلهة •

وغالبا ما يرسم المحراث على احجار الحدود التي تحمل اجراءات هبة ارض ويرقى تاريخها الى العصر الكشي (النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد) •

والحقيقة ان واحدا من هذه الاحجار قد دون عليه اسم الآله الذي يرمز اليه المحراث ، وهو الاله السومري نغرسو الذي اصبحت فيما بعد الها للمعارك لكنه في هذا التاريخ كان ما يزال الها للزراعة •

وعلى ذات الحجر سوية مع بقايا كتابة ، يوجد ما اعتبرته سنبله قمح يحمل اسم الآلهة « شالا » وهي آلهة سومرية تم تشخيصها مؤخرا بانها الآلهة « بابو » (أو بابا) ولذلك اشتهرت باسم « سيدة سنبله القمح » •

دراسة القمح

تبدأ دراسة الحاصل بعد الحصاد • وهناك طريقتان لا معدى عنهما •
فالطريقة المصرية تكون باستعمال المدقة ، وغالباً ما يرى أوزيريس اله الزراعة
وهو يحمل مدقة وكأنها بمثابة بندقية • أما الطريقة الاخرى والتي كانت
مستعملة ايضاً في مصر ويبدو ان البابليين كانوا يفضلونها على غيرها ، فهي
دوس القمح الذي كان ينشر فوق ارضية للدراسة ومن ثم يداس بعدد من
اقدام الثيران أو الحمير التي كانت تتحرك بشكل دائري الى ان يفصل حب
القمح عن القشور تماماً •

هنالك فرق في هذه الطريقة الاخيرة تشتمل على ادوات بسيطة عرفها
الرومان باسم « مكنة الدرس » والتي يمكن ان ترى في بلاد الشرق الادنى
في الوقت الحاضر •

وهذه الالة تتألف من لوح سميك من الخشب الصلب ذات سطح
محزز تستقر على الارض ، وتكون نهاية جبهتها مرتفعة قليلاً وقد ادخلت في
هذه الحزوز اعداد كبيرة جداً من اسنان حجرية •
وعلى اللوح مقعد للشخص الذي يسوق الحيوانات التي تجر هذه
الالة التي تتدحرج فوق ارضية الدراسة الى ان يفصل الحب عن القشور •
والمعروف تماماً ان هذه الالة التي ما تزال تستعمل في منطقة الشرق
الادنى في الوقت الحاضر ، قد استعملت من قبل العراقيين في العصر الاشوري
الحديث لان هنالك دلائل تشير الى استعمالها محلياً في تأريخ موغل في
القدم (*) •

(*) هذه الالة التي يصفها المؤلف هي ذات الالة المعروفة باسم « جرجر » التي
كانت سائعة الاستعمال في العراق بعد الحرب العالمية الاولى وما زالت
تستعمل في بعض المناطق الزراعية وعلى الاخص في المناطق الشمالية
والشمالية الغربية . وكذلك في مصر وسوريا ايضاً •

من بين المقابر الملكية في اور واحد يدعى قبر الملكة اكتشفت فيه بقايا مركبة تجرها الحمر الوحشية . وهذه المركبة تؤلف جزءا من هدايا الدفن التي كانت تشمل الخدم والحيوانات التي يضحي بها احتفالا بمثل هذه المناسبة ، في حين كان قبر الملك يضم دلائل شاخصة لهيكل عربية وعجلاتها .

ومع ذلك فان المركبة التي وجدت في قبر الملكة يبدو عليها بانها كانت خالية من العجلات لانه لم يعثر على أثر لها . وعندما اعاد مكتشفها السر ليونارد وولى تشكيل بقاياها بدت وكأنها نوع من زلاقة او كرسي خشبي طويل فوق زحافات قصار ذات نقطة مرتفعة من امام .

فمثل هذه المركبة غير المألوفة قط والتي يمكن مقارنتها بصفة نسبية بالزلاقات التي وجدت في مقابر المصريين ، انما هي بحد ذاتها ذكرى ماض بعيد عندما كانت العجلة ما تزال غير معروفة .

ومع ذلك فان اعادة تركيبها من لدن ليونارد وولى ، وهي نتيجة لا مفر منها نجمت عن الملاحظة الدقيقة للبقايا الموجودة ، تصل الى درجة مقعد مرتفع له زحافات قصيرة . وعلى هذا فانه لا يشبه الزلاقة قطعاً . لان المظاهر الرئيسة فيه هي وجود بدن واطيء معلق وزحافات اكثر ضولا .

فاعادة تركيب هذا الكرسي يبدو في ظاهره مشابهاً تماماً للجرجر الروماني ، وان الشيء الملحوظ هو ان الكثير من الدلائل التي وجدت في القبر تشير الى مواد ذات اهمية سحرية وانها ترتبط بطقوس خصوبة الارض، من امثال الجواهر التي كانت تصنع على شاكلة سنابل القمح ، والرمان والثيران ففي مثل هذا المحيط لن يكون الجرجر ، اذا كان واحداً ، خارج هذا المكان .

بعد ان تتم عملية درس المحصول يتم خزن القمح في اهراء . ويبين دليل الانطباعات لاختتام اسطوانة قديمة من مدينة سوسة ان المزارعين قد

توصلوا في وقت مبكر جدا الى افضل شكل لاقامة الاهراء ، ونعني به
الاهراء الاسطوانية العالية ، وذلك شكل بقي في الواقع من دون ادنى تغيير
حتى الوقت الحاضر •

وكانت ترى بعض الاهراء وقد نصبت سلالم كيما تعين حملة القمح
على التسلق وافراغ اكياسهم في القمة ، في حين لا يوجد ادنى شك عن وجود
باب صغيرة في السقف تؤدي الى القمر بحيث يمكن اخراج الكميات المطلوبة
من القمح بسرعة •

ولا بد ان يلاحظ بان هذه الاهراء كانت تستقر على اساس خشبي
مشبك ، وذلك للوقاية ، دون ريب ، من رطوبة الارض وكذلك من هجمات
القوارض ، كما كان يثبت نوع من الحواجز في اعالي الاهراء •

بيع القمح واعارته

ادت المتاجرة بالقمح الذي كان مع التمور سوية يؤلف المواد الاساسية للتجارة ، الى استعمال عدد من الوثائق بصفة طبيعية مثل الايصالات ، والقروض ، والضرائب المستحقة الدفع بالقمح ، والتبادلات ، وسجلات الاتفاق على القمح المعد للاستهلاك من قبل الخدم أو الدواجن الحية . وفيما يلي بعض الامثلة القليلة على ذلك :

(أ) مكايل القمح الذي كان يجهز في دفعة واحدة خلال شهر سبوان الى معبد اينانا في الوركاء وفي السنة الثانية والثلاثين من حكم الملك بوخذ نصر .

(ب) معلومات بسيطة عن دين شعير . ولما كانت الكيسة تبلغ ١٣٦ (كورو)^(١) فانه يوجد ضامنان .

(ج) وعد بمقايضة الشعير مقابل كمية مساوية من التمور في معبد اينانا حيث تحفظ المستندات هناك ثم تعاد عندما تتم الصفقة .

(د) دين بشعير . فاذا لا يمكن تسديده بالحنطة فيجب ان يسدد بالفضة حسب الاسعار البابلية وذلك في السنة العاشرة من حكم الملك دارا .

واخيرا هناك تقرير بسجل تسخير بعض العمال الذين ارسلوا الى مدينة بابل لحراسة كمية من الشعير ، وتحذير اليهم بانهم في حالة تمردهم سوف يستجوبون من قبل محافظ مدينة بابل .

تقدم النصوص العديدة التي تتناول القروض ، سواء كانت لاغراض الطعام أو البذار ، اعظم المساعدات في محاولاتها الرامية الى وضع سجل

(١١) حوالي ٥٤٠ او ٢٧٠ بوشل طبقا لقيمة الكورو .

زمني ثابت ، ذلك لانها كانت على الدوام تتضمن فقرة تنص على ان يسدد.
المقترض القمح بكمية محددة من التمور في موسم الحصاد •

ولما كان البابليون يستعملون الان التقويم القمري فقد كانت شهورهم
تتعرض لاغلاق طفيفة وكانت تقع مصادفة في علاقة صحيحة بالنسبة الى
الفصول •

ومن ناحية ثانية وكما قيل قبل افي الوقت الذي يمكن فيه احتساب
تاريخ الخسوف فلكيا ، أو اختفاء الكواكب السيارة أو طلوعها اهليلجيا ،
فان مثل هذه الظاهرة تحدث بصفة دورية ، وان الخيار يقع بين تأريخين أو
ربما ثلاثة تواريخ لا معدى عنها •

مثال ذلك اننا اذا ما تصورنا باننا نستعمل تقويما قمريا بشهور اقصر
من مدتها الحقيقية ، واننا لا نعرف ايا من التأريخين القطعيين اللذين نختارهما،
فاذا ما وجدنا بان القمح ينبغي ان يسدد في شهر آب عند الحصاد ، فاننا
نستطيع مباشرة ان ننبذ التأريخ عندما يقع شهر آب في فصل الشتاء وتفضل
عليه شهر آب عندما يقع في فصله الصحيح • وهذا الحساب الذي يستند
الى التواريخ المدونة في الرقم الطينية يساعدنا على اختيار تأريخ واحد من
عدد من التواريخ البديلة الواضحة بدقة تامة •

الحيوانات الداجنة

الحمار

يمكن للمساعدة التي يقدمها الحيوان النافع في العمل ، ان تضاعف من منتوج الانسان . ولذلك فمن المهم ان نعرف ما هي الحيوانات التي كانت متوفرة لدى البابليين لهذا الغرض .

لقد كان الحمار في ذلك الوقت كما هو معروف الآن في كل انحاء الشرق ، والذي عرف منذ عصور قديمة جدا ، من اكثر الحيوانات التي تستعمل بصفة عامة في اعمال الجر او النقل . فهو لم يستبدل ابدا بالحصان الذي بقي على الدوام حيوانا ثيلا ، ولم يكن الواحد منه يربى مثلما اشتهر به الحصان الحديث الذي يجر العربات .

وحتى العصر الساساني لم تكن الدواب التي تربى بنجاح لحمل وزن جيد ، قادرة على ان تحمل الفارس بكامل عدته ، بالإضافة الى جلة الحصان التي تغطي بالواح معدنية . فعند ظهورها لأول مرة في عهد سلالة بابل الاولى ، تجد خيولا كانت تجر العربات الحربية . ولعل واحدا من الاسباب التي ادت الى نجاح الغزوات التي قام بها الحثيون في آسيا الصغرى ، والهوريون في القفقاس ، والكشيون في جبال زاغروس ، هو انهم جلبوا خيولهم معهم من ايجاد مرتفعة ، وان عرباتهم سريعة الحركة التي كانت تمثل في ذلك الوقت سلاحا غير معروف ، كانت ذات اثر فعال في الاستعمال وفي تقويض العدو .

واخيرا ، ولكن خلال العصر الاشوري (وطبعا كنتيجة للغزوات التي كان يقوم بها متطو الخيول الذين افتحوا اسيا الغربية في النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد) أصبح المشاة الذين يركبون الخيول عنصرا معترفا به في الجيش ، وقد تطور هذا في الحال الى الخيالة الحقيقية .

الحمار والحصان الوحشيان

كان الحمار الوحشي خلال الالف الثالث قبل الميلاد يستخدم للاغراض العسكرية التي لا يستطيع الحمار الاهلي ان ينهض بها اطلاقا .

وكانت قطعان من هذه الحيوانات ومن انواع عرفت باسم (الاخدي Onager) تجوب مناطق الريف طليقة .

ولقد كان الملوك الاشوريون يصطادون هذه الحمر ، وتبينها النحت الناتئة المحفوظة في المتحف البريطاني وهي تولى الادبار هاربة امام زخة من النبال .

ولقد لاحظ المؤرخون الاغريق ، وعلى الاخص « زينفون »(*) في كتابه « مسيرة العشرة الاف » بان هذه الحمر كانت ما تزال ترى في الارياض .

ويكون الحمار الوحشي اعلى من الحمار الاعتيادي بقليل ، وان اذنيه اكبر بصفة مميزة من اذني الحصان . اما ذيله ، وهو يشبه ذيل الحمار ، فانه اطول واكثر طراوة في حين يكون ذيل الحصان اقصر لكنه يبدو اطول بسبب طول شعر الذيل .

(*) زينفون Xenophon مؤرخ واديب وقائد عسكري يوناني اشتهر بمغامراته التي قاد بها عشرة الاف رجل من المرتزقة من بلاد اليونان وسوريا الى العراق لمساعدة كورش الصغير ملك فارس ضد اخيه اردشير . وعندما تغلب اردشير على اخيه كورش عاد زينفون ومن بقي معه من افراد حملته الى اليونان مارا بشمالى العراق صاعداً مع نهر دجلة . وقد دون مشاهداته في هذه الحملة في كتابه الشهير « الصعود Anabasis ويعرف الكتاب ايضا باسم « تقهر العشرة الاف جندي » .

والواضح انه عندما تكون الصورة صغيرة بحيث يتم خفها على ختم اسطواني ، فان من الصعب جدا تمييز فروق من هذا النوع ، غير ان الدليل المميز في التماثيل الكبيرة يمكن تشخيصه دوماً .

ولقد عثر في المقابر الملكية بمدينة اور والتي كانت تضم كنوزا كثيرة ، على لجام* مزين بتمثال صغير من الالكتروم يمثل دون تساؤل صورة حمار وحشي ، في حين دللت الفصوص التي اجريت على بقايا الحيوانات التي كانت تسحب زلاقة الملكة أو جرجرها ، بانها كانت من الحمر الوحشية دون ادنى ريب .

وعندما اصبحت الخيول شائعة في بلاد الرافدين ، فانها وصلت الى هناك من الشمال ومن الشمال الشرقي وكان السكان يعرفون ذلك جيدا ، لانهم كانوا - حيث لم ترد اية كلمة سومرية عنها - يصفونها بعبارة يمكن ان تترجم الى « حمار الشمال الشرقي » أو « الحمار الجبلي » . وكانت تلك في الواقع هي المنطقة التي استمرت ترد منها وقد اشتهرت بان اصبحت من اجل الانواع في اميا الصغرى أو اراضي فارس المستوية .

ونستطيع ان نقرأ في تاريخ هيرودوتس عن القيمة التي اشتهرت بها الخيول « النيسانية » في ماذي(*) والتي كانت اضخم من الانواع الاخرى .

وفي العصر الفارسي كان الحصان قد تأقلم تماما ، وكان مرزبان مدينة بابل الذي كان يحكم اغنى منطقة في الامبراطورية يمتلك اصطبلا للخيول التي تربى محليا ، والذي كان يضم ، حسبما ذكره هيرودتس ، ثمانمائة جواد وستة عشر ألف فرسا .

(*) نيسانية نسبة الى سهل نيسان الذي تقع فيه مدينة نيسابور اليرانية الشهيرة التي تخرج فيها عدد من كبار علماء المسلمين في الفقه والحديث والادب .

ولقد كان الهجين الذي حفظت مميزاته على النصب العراقية حيوانا متوسط الحجم رقيق الجسم نحيف الاطراف تنتصب قوامه الامامية اعلى من اطرافه الخلفية قليلا وذلك مظهر نجد الفنان قد سجله بكل عناية .

ويحتفظ متحف اللوفر بشكيمة جيدة من البرنز يعتقد بانها من اصل اشوري ، مركبة وذات قطع جانبية منحنية . وهذه الشكيمة ثقيلة وكبيرة لا بد وان كانت تتلف فم اي حصان ، وانه يصعب الاعتقاد بانها كانت تستعمل للحيوانات المدجنة بصفة خالصة كالخيول الاشورية .

واذا لم تكن هذه الشكيمة نذرا ، فان من المحتمل ان يقال عنها بانها تعود الى اواخر العهد الساساني عندما كانت الخيول في ذلك الوقت من انواع اكثر ضخامة . ومن المحتمل ان اقدم حصان تمت اقلته في بلاد الرافدين كان لا يختلف الا قليلا عن النوع الذي وجد في ايران جنوبي غربي عيلام .

وكان هذا النوع الاخير حصانا صغيرا من السهوب يشبه رأسه رأس جمل وناصيته قصيرة ومستقيمة يعرف باسم « حصان برزولسكي » .

هناك صورة من صدف لاحد هذه الخيول عثر عليها في مدينة سوسة . ولا بد ان كانت هذه الصورة تخص احد الانواع التي اكتشفت زينتها فيما عرف بقبور لورستان فيما وراء المنطقة التي وجدت فيها في بلاد فارس فقد كانت كثير من القبور تحتوي على شكائم لخيول كانت فيها .

وكان هذا يحدث مصادفة بقصد الاحتفال غير انها كانت معدة للاستعمال بصفة عامة . وكانت هذه الشكائم قد حفرت بدقة وهي تتألف من قضيب مستقيم يرتبط بقطعتين جانبيتين عريضتين جدا ثبتت بسيور من الجلد . وبما تجب ملاحظته ان المسافة بين القطعتين الجانبيتين اللتين يتحكم بهما عرض القضيب الافقي ، لا تتلاءم الا مع خيول صغيرة ذات افواه ضيقة ،

أي أنها حيوانات تختلف تماما عن الحيوانات التي تشير إليها الشكيسة المحفوظة في متحف اللوفر .

وما خلا شمالي العراق لم تكن الخيول تحفظ إطلاقا في اصطبلات خلال الاجواء اللطيفة وانما كانت تترك في باحات واسعة تثبت فيها اجزاء على ابعاد في الارض وتربط بها حلقة يمكن ان تربط الخيول بها .

لقد اكتشفت بقايا اصطبل ، قيل انه يعود الى الملك سليمان ، في مدينة « مجدو » بفلسطين(*) والتي كانت في العهد الملكي نقطة مرور مكثفة للتجارة الخيول .

تبين شواهد المنحوتات ان الخيول الاشورية في الوقت الذي كانت تمتطى فيه أو تسحب احدى العربات الاحتفالية ، فانها كانت تزود باغطية دقيقة الصنع أو تسحب احدى العربات الاحتفالية ، فانها كانت تزود باغطية دقيقة الصنع مغطاة بالريش والاهداب والاجراس وسوف نمود الى هذه عندما نصل الى وصف البلاط والجيش الاشوريين .

(*) مجدو : مدينة كنعانية تقع على السفح الشمالي لجبل الكرمل والى السهل المعروف باسم سهل اسدريلون .

الماشية

هناك عدد من اصناف مختلفة من الماشية كانت معروفة في بلاد الرافدين • واول هذه الانواع هو البقر الاصلي(*) • فهذا النوع الذي كان يجرى توزيعه على نطاق واسع له قرون كبيرة تنمو بشكل مستقيم من جبهته ثم تنحني الى وراء واخيرا تنحني مرة اخرى وتنتهي برؤوس مدببة موجهة الى امام • وكان هذا من اكثر الانواع شيوعا وهو جد الثور الحديث في بلاد الرافدين •

اما النوع الثاني فهو بقر الحراثة(**) أو الجاموس ذو القرون المندفة الى امام من الجبهة في انحناء كبيرة •

وكانت اسيا الصغرى هي موطن هذا النوع وقد وصل الى بلاد الرافدين في عهد السلالة الاكدية حيث كان يسكن النجاد بصفة رئيسة • وهو شرس بطبيعته وتمكن مشاهدته حتى الآن باعداد كبيرة في احواض نهري دجلة والفرات ومع ذلك فانه اقل انتشارا من البقر الاصلي • وهو يحمي نفسه من الحرارة بان يغطس رأسه في اي ثقب يجد الماء فيه ولا يترك سوى خشمه ظاهرا للتنفس •

وهناك نوع ثالث ، انقرض الآن ، هو الثور الوحشي الهائل الجسم الذي يختلف عن النوع السابق قليلا لكن له مشابهاة مع الثور الوحشي الامريكي •

والواقع ان هذا النوع ربما كان قد انقرض حتى في بداية العصر التاريخي لان ذكراه كانت على الدوام ترتبط بالابطال الاسطوريين وهو يصور الى جانبهم غالبا على النصب التي تسجل اعمالهم •

فالثيران المجنحة الكبرى ، والجن الحارسة التي كانت تحرس أبواب

مدينة خرسباد ، كلها كانت تمثل ذكرى الثور الوحشي الذي يمكن تمييزه بالشعر الكثيف الذي يغطي الصدر والرقبة والجوانب ، كما ان القوائم الامامية للثيران التي كانت ممثلة على تيجان الاعمدة خلال العصر الفارسي في مدينة سوسة أو مدينة برسيوليس ، كانت قد استخلصت من ذات المصدر .

ولقد اخذ الثور الوحشي الذي كان من اشرس الحيوانات في بلاد الرافدين ، يختفى لأول مرة في الانحاء الجنوبية . وقد بقيت بعض اصناف منه في الحدائق الامبراطورية في روسيا حتى قيام الثورة(*) وما يزال عدد محدود منها يحتفظ به بكل عناية في بولندا .

وكان اخر نوع منها هو الثور ذو السنام الذي جاء في الاصل من الهند . ومن المحتمل ان هذا النوع لم يعد شائعا الا في العصر الاخير ، لكن هناك بعض النصب التي تبرهن بانه لم يكن غير معروف ، ولو بصفة نادرة في تاريخ سابق جدا .

(*) لابد وان المؤلف يشير بذلك الى ثورة اكتوبر الاشتراكية التي قام بها الحزب البلشفي بزعامة لينين في السابع من تشرين الثاني سنة ١٩١٧ والتي ادت الى اول تطبيق عملي للنظام الاشتراكي الذي يقضي بنزع الملكية من كل الطبقات وحصرها بالدولة تحت شعار البروليتاريا .

الانعام والماعز وصناعة الالبان

تمت تربية انواع كثيرة من الانعام والماعز باعداد كبيرة جدا في بلاد ابل ، كما نستطيع ان تبين ذلك من اقدم النصب التذكارية فصاعدا .
وكان احد الانواع لا يقرون له ، بينما كانت لنوع اخر اذان طويلة معلقة . وهناك نوع ثالث له قرنان يبدو عليهما وكأنهما ينموان من نقطة واحدة .

وهذا النوع الثالث الذي نجده على الدوام مصورا على النصب التذكارية القديمة ، قد انقرض في بداية العصر التاريخي .

تقودنا الاشارة الى الابقار والنعاج والماعز الى صناعة الحليب . هناك منحوتة من معبد العبيد يرقى تأريخها الى سلالة أور الاولى (النصف الاول من الالف الثالث قبل الميلاد) تبين المراحل المتباينة لصناعة الالبان .

فعلى مقربة من مظلة مصنوعة من القصب (انظر ما سبق ذكره عن طريقة البناء) تجري عملية حلب الابقار ، وان الفلاح العراقي ، اي الحلاب ، يجلس — كما هو حاصل الآن — ليس بجانب البقرة أو المعزة بل خلفها .

وحينما يتم سحب الحليب كله يوضع في جرة كبيرة ضيقة العنق ، ثم يبدأ صاحب البقرة يخضه بحركة منتظمة . وهذه العملية تأخذ مكان عملية خض اللبن . فعندما تتجمع الزبدة يصب اللبن في وعاء آخر بواسطة مصفاة وذلك لغرض الامساك بالزبدة التي تعبأ بقوة في جرة واسعة الفم . وهذه العمليات المختلفة ما تزال تمارس حتى اليوم في هذه البلاد .

توصف كل الشحوم في اللغة الاشورية بالسمنة بكل بساطة . فحينما تكون العبارة غير موصوفة أو مقترنة بعبارة أخرى تعنى التفخيم ، فانها تعنى الزبدة .

وهناك اشكال أخرى من السمنة ، مثال ذلك السمن الذي يستخرج من نبات السمس ، توصف بالسمن ضمنا •

وقد صورت بعض عمليات صنع الزبدة التي جئنا على وصفها الآن على شكل مختصر من بعض الاختتام الاسطوانية • ويحدث في بعض الاحيان ان نجد صفا من دوائر صغيرة بجانب الراعي وقطيعه ، فهذه الدوائر تمثل اقراص الزبدة أو الجبنة في الاخرى •

وحين تكون القطعان ذات حجم واسع يوسم كل حيوان بوسم ماله • فقد كانت القطعان التي تملكها المعابد ترسم برمز الآله الذي كان يملكها. وهكذا نجد ان القطعان التي كانت تعود الى الآله مردوك توسم بعلامة مجرفة، وتلك التي تعود الى الآلهة عشتار توسم بنجمة • وعند بدء اندلاع الحرب العالمية الاولى كانت كل القطعان التي تعود الى السلطان(*) ما تزال توسم بعلامة هلال •

هناك الشيء القليل الذي يمكن ذكره عن الخزير • فهذا الحيوان لم يكن محرما لاسباب دينية كما حدث ذلك بالنسبة الى الدين الاسلامي ، وانما لانه لم تتم تربيته على نطاق واسع مثلما هو عليه الآن في اوربا الغربية •

(*) يقصد المؤلف بذلك السلطان العثماني وهو السلطان محمد رشاد الملقب محمد خان الخامس الذي تولى الحكم بعد خلع السلطان عبدالحميد الثاني سنة ١٩٠٨ على اثر الانقلاب الذي قامت به جمعية الاتحاد والترقي ، والتي كان للاستعمار واليهودية العالمية اثر كبير في ايصالها الى الحكم في الامبراطورية التركية •

الجمال

لا يمكن لاي تعر ان يكون تاما دون الاشارة الى الجمال الذي كان معروفا في البلاد منذ اقدم العصور . وقد ادخل الجمال في الاصل الى بلاد الرافدين من الجزيرة العربية ، لكنه لم يكن يستخدم على نطاق واسع حتى الالف الاول قبل الميلاد وعلى الاخص في العصر الذي يتناوله هذا الكتاب . ومع ان الجمال ما يزال غير معروف بصفة نسبية ، الا ان العراقيين كانوا يستعملون مصطلحا لوصفه ، مثلما فعلوا ذلك بالنسبة الى الحصان ، اذ كانوا يدعونه باسم « حمار البحر » أو « حمار الجنوب » .

ويندر ان اشير اليه في اية نصوص ، ويبدو وكأن الحمار في هذا التاريخ كان ما يزال يعتبر اكثر ملاءمة للنقل بالقوافل الكبيرة . ولقد استمر ارتباط الجمال بالبدو من العرب حيث تقبل احدى القبائل، عند الضرورة ، بكاملها مع ابلها .

وحينما اراد ملوك اشور اول الامر ، ومن بعدهم ملوك فارس غزو مصر ، تلك العملية التي تنطوي على اجتياز الطريق بين ذلك القطر وفلسطين ، توصلوا الى اتفاق مع العرب الذين تعهدوا بما لديهم من الابل ، ان يجهزوا الجيش بالموثن والماء .

ولقد نجم عن الحملات التأديبية التي شنها ملوك السلالة السرجونية ، والبابلية الحديثة ، الاستيلاء على اعداد كبيرة من الابل ، والتي هبطت اسعارها ، نتيجة لذلك ، هبوطا شديدا في الاسواق البابلية .

لقد كانت كل هذه الحيوانات الداجنة تراقب من قبل الرعاة الذين
تساعدهم كلابهم في ذلك فقد كان هؤلاء يسكنون في حظائر المواشي حيث
يجدون المأوى من حر النهار ، بل أكثر من ذلك أهمية ، يجدون الحماية
من الوحوش المفترسة التي كانت على الدوام تتشوق الى مهاجمة القطعان .

الرعاة وكلاب الاغنام

غالبا ما يشاهد الرعاة الذين يقودون الحيوانات من قطعانها ويحصلون سوطا ذا مقبض من الجلد السميك المضفور وهدب طويل ، مصورين على الاختتام الاسطوانية * اما كلابهم التي تتميز بينية قوية ورؤوس كبيرة والغاد ثقيلة والتي تذكرنا بـكلاب « بوردو »(*) ، فانها ترى غالبا على السواح فخارية ، غير ان من افضلها نوعية والتي تبين مميزات بتفصيل اوسع ، يمكن ان تشاهد في تمثال محفوظ في المتحف البريطاني يبين الاستعدادات الجارية للصيد يرقى تأريخه الى عهد حكم الملك اشور بانيبال ، أو في تمثال نذري صغير مؤرخ من عهد حكم الملك سوموايلو من سلالة بابل الاولى محفوظ الآن في متحف اللوفر *

ولم يكن الريف مأمونا في الغالب ، فنحن نعرف من ايصال مؤرخ في السنة الرابعة عشرة من حكم الملك نبو نيديس ، ان الرعاة وقطعانهم كانوا يتمتعون بالحراسة فهذه الوثيقة تسجل ان اربعة امانان وثلاثة ارباع امنن من الفضة قد تم ارسالها ليتم دفعها لقاء تجهيزات لاربعة حارسا عينوا لحراسة الرعاة ابتداء من شهر ايلول حتى شهر اذار *

(*) بوردو Bordeaux احدى المقاطعات الشهيرة في فرنسا وتشتهر بانتاج انواع فاخرة من الخمر .

بيوع الدواجن

هنالك عدد من النصوص التي تلقي الضوء على كل تفاصيل التجارة بالدواجن . فنحن نعرف مثلا الدور الذي كان الاطباء البيطريون يلعبونه وهم الذين وجدوا فعلا في اوائل عهد الملك حمورابي .

ولم تكن تدفع لهؤلاء البيطرين اجور ثابتة عن مختلف العمليات التي كانوا يجرونها حسب ، بل كان هنالك نطاق محدد ايضا للفرامات التي كانت تفرض عليهم اذا ما جرح الحيوان أو قتل نتيجة اهمالهم ، او بكل بساطة اذا لم تحقق معالجتهم العلاج الفعال .

ولقد كان لحيوانات المبارزة من كلا الجنسين في الطبقة التي تحظى بالجوائز ، والسلالات الاصلية ، اسماؤها الفردية الخاصة بها .

فهناك احد الثيران مثلا كان يسمى « شرور - ابي » وهذا يعني ان « الآله شرور هو ابي » أو بكل بساطة الوصف القائل « مجد حقل النصب » [انظر الفصل الثالث قسم الاحاجي من هذا الكتاب] .

وكانت الدواجن الصغيرة تصنف احيانا حسب الوان جلودها . وعلى هذا يتحدث احد النصوص عن ثمانين عشرة نعجة ، وواحد وعشرين حملا ، وسبعين فطيمة وغيرها ، ويذكر مجموع ثلثمائة وخمسة وعشرين رأس ماشية بيضاء ، وعشرة جداء كبار ، وخمس وسبعين معزة ، ومجموع خمسة وثمانين رأس ماشية سوداء ، كل ذلك في السنة السادسة والثلاثين من عهد حكم الملك نبوخذ نصر .

ويوجد عدد كبير من الايصالات بالحيوانات الميتة ولا بد ان تكون هذه الحيوانات غير صالحة للاكل لانه لم يرد سؤال عن تقديمها الى المعبد .

وتشير الاشارة الضمنية في النص التالي عن سبب الموت ، الى ان هذه قد تكون هي القضية ، « فما عدا بقية الدواجن التي تسلمها » ادينا « قتل نعجة واحدة وذلك في السنة الثانية عشرة من حكم الملك نبوخذ نصر » .

وقد ينتهي هذا القسم ببعض الاقتباسات من المقاضاة بشأن الحيوانات الداجنة . فهناك « حكم يخص سرقة نعجة موسومة بنجمة ، من الدواجن التي تعود الى عشتار الوركاء ضمن القطيع العائد الى بستاني الآلهة . لقد سرقت من قبل فلان وفلان في السنة الاولى من حكم الملك قمبيز ، وشوهدت في حوزتهما . ويجب ان يعاد هذا الحيوان من قبلهما ولقد امر الضابط الذي يحكم الوركاء ومدير « انا » وجمعية المواطنين الاحرار في مدينة بابل ، بانه في نهاية شهر تموز يجب ان يعيد فلان وفلان ثلاثين رأسا من الماشية الصغيرة ما عدا النعجة الموسومة بنجمة والتي شوهدت في حوزتهما ، الى الآلهة » « بلت » وانهما مسؤولان عن تنفيذ ذلك . في السنة الاولى من حكم الملك قمبيز » .

او للمرة الثانية موضوع مقاضاة « ان النعجة التي ولدت والمعزة تؤلفان معا رأمي ماشية ، وسما بوسم مجرفة وقلم كتابة (رمز الآلهين مردوك ونبو) تعودان الى قطيع بستاني الاله نبو ، قد تقلا من مسكن فلان وقد استدعت المحكمة فلان الذي ادعى في اليوم السادس من شهر آب في السنة الرابعة من حكم الملك كورش ، ان الحيوانات قد بيعا لي بمقدار شاقلين وثلاثة ارباع الشاقل من قبل مزارع (الآله) نبو » .

وقد استدعت المحكمة مزارع (الاله) نبو الذي ايفاد « انني بعت

هذين الحيوانين الى فلان مقابل الفضة وان فلان وحده ولا احد سواه قد
اشتراهما مني وقد ارسلت النقود الى قائدي^(١٢) . في السنة الرابعة من
حكم الملك كورش .

(١٢) يشير هذا الى تقسيم امتيادي للسكان ، ولاغراض الضريبة ، الو.
طوائف من عشرة او عشرين او مائة وذلك طبقا لوظائفهم او حرفهم .

الحيوانات الوحشية القنص

تتألف الحيوانات الوحشية التي يجب الوقاية منها ، من الاسود
والفهود والذئاب والضباع والثعالب والخنازير البرية وبنات اوى •

وكما رأينا قبلا فان المزارع التي كانت تطبق على نطاق واسع كان لها
حراس مسلحون ينهضون بتهيئة الدفاع ضد السراق والحيوانات المتوحشة
وحماية الرعاة • فقد كانت هذه الحيوانات بصفة عامة تهاجم القطعان
والاسراب في البساتين ، او كما تفعل الخنازير البرية ، في الحقول المزروعة ،
واذا لم تصب بجراح فانها لا تقوى عادة على الصمود امام الرجال • وهذا
يصدق على الاسود وهي من نوع اصغر من الانواع الافريقية ، وقد انقرضت
الآن في بلاد الرافدين •

ولسوف نعود في آخر هذا الكتاب الى وصف صيد الاسود في عهد
ملوك السلالة السرجونية • فهي تشاهد على بصمات الاختام الاسطوانية
وقد تورطت ازاء الصيادين الذين يوجهون اليها زخات من السهام الثقيلة
المريشة أو يندفعون نحوها وهم يحملون رماح الصيد •

وفي الوقت ذاته كانت المحاولات تبدو بصفة عامة للقبض على الحيوانات
المتوحشة وهي حية بهدف الاحتفاظ بها اليقة في المنازل وترويض اطفالها •
ولابد ان ذلك كان يتم باستعمال سهام مدببة بشكل غريب كان ما يزال
يجرى استعمالها في عصر القبور الملكية في اور ، والتي اكتشف فيها عدد
من هذه السهام ذات شكل مثلث وقد استبدل اللسان بقاعدة مثلث مقعرة
قليلا •

فهذا النوع من السهام يمكن ان يصيب الحيوانات الصغيرة بصدمة
وبذلك يسهل امساكها ، في حين يتم توهين الحيوانات الكبيرة بما تفقده
من الدم بصفة متكررة وبذلك يتم الامساك بها بيسر نسبيا •

وكانت المصائد تستعمل ايضا وهي تتألف من حفر خفية يتم حفرها في
الطرق المؤدية الى فتحات تتطلع اليها كل انواع الحيوانات ، لتطفئ
ظلمها ، حيث تكون عواقب ذلك مهلكة •

ومع ذلك فان بعض الحيوانات يمكن تدجينها كحيوانات اليفة ، ومن
بين ذلك الغزلان ، والظباء التي كانت قطعانها الكبيرة تجوب البلاد ، وكذلك
للنعام الذي كان شائعا في العهد الاشوري •

من اشهر الموضوعات التقليدية في النحت في العصر الاشوري الحديث ،
هو منازل البطل للحيوانات المتوحشة والذي احتلت النعامة مكانه بكل
صراحة •

طرق النقل

ادى بنا وصفنا للحياة في الريف الى تحويل انتباهنا نحو الملاحه في القنوات ، كما انه يوجهننا الى موضوع النقل البري •

غير انه في الوقت الذي تكون فيه الزيادة في وزن الاثقال التي يجرى نقلها في العالم الحديث ، تعتمد في النقل على زيادة ثابتة في عدد الطرق ، فاننا وجدنا ان مثل هذا الامر كان يصدق تماما على مسلك التجارة في القدم ، حين لم تكن هنالك — عدا بعض الطرق الكبيرة القليلة بين المراكز المهمة والتي لا نعرف اشكالها على وجه الدقة — طرق بالمعنى الحديث وانما مجرد دروب مزقتها وسائط النقل التي اوجدتها واملتها طبيعة الارض بصفة حيوية

ففي المناطق الصحراوية كانت تتم الاستفادة من التربة الصلدة ، اما في الامكنة الاخرى فكانت الدروب تتلوى بقصد الاستدارة حول العقبات التي تعترضها ولا سيما الاهوار وتقترب من الانهار في منطقة المخاضات •

وحين كان السطح الكلي للارض قد تفكك كلية نتيجة الاندثار كان الطريق الجديد يفتح ، ان امكن ، بجانب الطريق القديم ، فان اخفق في ذلك نشأ درب جديد تماما بصفة تدريجية •

كانت وسائط النقل في العصر الاشوري بصفة عامة قليلة في عددها وصغيرة جدا فهي تتألف لكل الاغراض والمقاصد من محض عربات صغيرة قابلة لحمل بضعة اكياس •

وما خلا العربات العسكرية في الواقع (سيرد وصفها في قسم العربات الملكية في الفصل الثاني من هذا الكتاب) يبدو واضحا بأنه حتى الوسائط التي كانت تنقل مخازن الجيش لم تكن جوهريّة تماما ، وإن قافلة الامتعة كانت تتألف في اعظم قسم منها ، من عربات خفيفة صوّرت على المنحوتات الاشورية .

وكانت تعقب الاسرى عربات صغيرة ذات عجلتين تسحبها الثيران والحمير ، وهي تحمل النساء والاطفال الذين تم اسرهم ، وكذلك القليل من الامتعة المنزلية .

القوافل

ومع ذلك بقيت القافلة تؤلف الوسائل الاساسية للنقل • فقد كانت الحيوانات تسير على انفراد فوق اراضي وعرة ، وكانت الجمير هي التي تقود نفسها وقد حملت حصتها من الاثقال •

لقد ادى ادخال الجمل الى بلاد الرافدين ، والذي يستطيع ان يحمل من الاثقال اكثر بكثير مما يحمله الحمار ، الى تأثير عظيم على حركة التجارة التي كانت تنقلها القوافل •

وفي مقدورنا ان نتأكد من مدى ما كان يعنيه هذا الامر في عصر متأخر (القرن الاول بعد الميلاد) من الرخاء الذي كانت تنعم به مملكة تدمر ، وعن طريق تمحيص ميزان الرسوم الكمركية التي نشرتها المدينة • فهذا الميزان يحدد الضرائب الواجبة الدفع عن السلع التي تنقلها الجمير والجمال بالتتابع ، وان الضرائب على السلع التي تنقلها الجمال تبلغ خمسة اضعاف تلك التي تنقلها الجمير •

لقد تعاظم النمو السريع للتجارة في بلاد اشور تعاظما قويا بوجود الابل ، التي لم يكن الواحد منها قبل العهد الاشوري ، يساوي اكثر من من وثلثي المن من الفضة ، والتي غدت شائعة الاستعمال نتيجة الحملات والغارات العسكرية التي كانت تشنها السلالة السرجونية ، الى درجة ان البعير الواحد لم يعد يساوي فعلا سوى نصف شاقل من الفضة •

الحياة اليومية تحية الصباح

اذا ما بحثنا الفروق الاساسية في المزاج بين البابليين والمصريين ، فان من العسير ان تدهشنا حقيقة ان من النادر بالنسبة الينا ان نمتلك ايا من الوثائق القليلة النادرة الغنية بالتفاصيل والتي تنبض احيانا بشعور مقبول من المرح ، نستخلص منها معلومات مفصلة عن الآخرين .

تحفل قبور المصريين بمنظر الحياة اليومية بالاضافة الى عبارات من تعليقات مرحة . فهم حتى في الموت ما يزالون يحتفظون باحساسهم بالمرح وبتلذذهم بالحياة .

وفي مفارقة ملسوسة نجد ان الاحساس بالحياة العراقية الداخلية عندما يأخذ طريقه في الظهور على احدى المنحوتات ، فانه لا يكون الا بصفة عرضية بالنسبة الى الموضوع الرئيس الذي يتمثل دوما في تمجيد الآلهة او احد الملوك . فليس هنالك من اهتمام واضح بعامة ابناء الشعب على غرار ذلك . وان الضوء الضئيل الذي يلتقي على بعض مظاهر الحياة العائلية قد وصل الينا مصادفة .

وهكذا فاتنا نستطيع من نص طبي عجيب ان نستشف بان العوائل البابلية كانت تقبل احداها الاخرى عندما تلقى تحية الصباح .

وكانت تأثيرات التمل بالخضور معروفة جيدا ، حيث كانت الفكرة الطبية تهتم بها اهتماما جيدا ، وتعالج السكر كما لو كان قضية نسيم حقيقي . فالقاعدة تعلن بكل اهمية (اذا ما تناول شخص ما كمية كبيرة من خمر قوية ، واذا ما اضطرب رأسه ، واذا ما نسي كلماته ، واصبح حديثه هذرا ، واذا ما شدت افكاره ، وتزججت عيناه . فان علاج ذلك هو ان تأخذ (تعقب ذلك قائمة تضم احد عشر دواء) وأن تسزجها بالزيت والخمر عند اقتراب

الآلهة « غولا »(*) (في المساء) • اما في الصباح وقبل ان تشرق الشمس ، وقبل ان يقدم اي فرد على تقبيل المريض ، فدعه يتناول الدواء فانه سوف يشفى) •

الزينة وقص الشعر واللحية

ان القسم الاكبر من الاهتمام بالزينة (التواليت) سوف يرد عند وصف حسنى الحال نسبيا ، فكما سترى فيما بعد كانت للقصور وبيوت الاغنياء حماماتها الخاصة بها ، غير ان عامة الشعب العامل كانت تمارس الاستحمام على ضفاف القنوات او في احواض في باحات المنازل ، ويحدث احيانا ان تغير هذا الاسلوب باستعمال حمامات بخارية مأخوذة عن الطراز السكيثي(*) ، والذي يتألف من ماء يتدفق فوق احجار مسخنة تسخيننا عاليا في غرفة مغلقة ، واستعمال التدليك والادوات الفخارية التي كانت تحل محل المحكات في العالم القديم •

ومع ذلك فقد كانت كل مستويات المجتمع ، ما عدا اوطأها جدا ، تعتبر ان المظهر الجوهري لزينتها ، هو ان تمسح البدن والشعر بالزيت ، وهذا يستخدم لغرضين هما تنعيم البشرة التي كانت تتشقق وتتصلب بفعل الجو الجاف والعواصف الرملية الظاهرة جدا ، وقتل الديدب في الشعر •

فالزيت يخنق الصئبان والطفليات التي كانت شديدة الوطأة في بلاد الرافدين مثلما هي عليه اليوم في الشرق وفي كثير من البلدان الغريبة ايضا •

(*) الالهة كولا Gula هي الالهة الصحة لدى السومريين وتصور دائما مع كلب يكون هو تابعها أو رمزها •

(*) السكيثيون هم الاقوام التي استوطنت اراضي روسيا الحالية ، وكانت لها صلاتها مع بلاد الرافدين القديمة ، وقد ذكر السكيثيون في المراجع العربية القديمة باسم الاشقوديين •

ذلك لان من الملاحظ ، كما تبين المنحوتات ذلك ، ان كل طبقات الشعب كانت تحتفظ باللحى الكثية والشعر الكثيف •

لقد كان السومريون حليقي اللحى نظافا . ولكن البابليين كانوا يحتفظون باللحى التي كان البعض منها قصيرا . في حين كانت لحى كبار الموظفين طويلة ومقصوفة بشكل مربع •

والواقع ان هذا كان هو الزي الشائع بين الرجال الكاملى النضج ، وذلك في مفارقة ظاهرة للشفاة الرقيقة . والذقون الحليقة لعدد كبير من الرجال •

عندما اكتشفت المنحوتات الآشورية سرعان ما لوحظ ان اولئك الرجال حليقي اللحى ، ذوي الوجوه المكتنزة التي تكشف عن ميل طفيف نحو السنّة ، كانوا من الخصايا الذين يشلون مظهرا مألوفاً في البلاطات الشرقية •

ومن ناحية اخرى لاحظ الباحثون ايضا وجود عدد كبير منهم . وانهم كانوا في الغالب يؤلفون وحدات عسكرية كاملة ، واخيرا كان المتفق عليه بصفة عامة ان الفرق كان مجرد طريقة مؤقتة لتمييز الفلمان ، او الفتيان (الذين يشتهرون بمظهرهم بين الخدم والجنود) عن الرجال الكبار الذين ينبغي ان يتألف منهم المحاربون في الجيش •

واذا ما تركنا جانبا اعضاء البلاط وكبار الموظفين الذين سنحصى طرائق حياتهم في القسم الثاني من هذا الكتاب فان المنحوتات الناتئة تبين لنا نوع اساليب تصفيف الشعر التي كانت موجودة في بلاد الرافدين في العهد الآشوري الفارسي •

ويبدو ان الاسلوب المفضل لدى السكان المحليين ، وان كان على نطاق اصغر واقل دقة ، هو اتباع الزي الذي اقره القصر ، في حين كان

الاسلوب الذي تبناه الاجانب الذين كانت تفص بهم البلاد نتيجة الرق وقوافل النقل ، كان اقل بساطة وتعقيدا .

الصابون

لا يمكن لوصف الزينة البابلية ان يكمل دون الاشارة الى منتوج الصابون الذي لا يمكن الاستغناء عنه ، والذي ادى اختفاؤه الى تنشيط السوق السوداء في فرنسا قبل سنوات قلائل خلت .

لم يكن البابليون يعرفون الصابون النقي رفيع الجودة ، لكنهم كانوا يستعملون اما مزيجا يصنع محليا ، او نوعا كان يباع بصفة عامة ويعوض عن المنتوج المحلي .

ففي اوائل عهد سلالة أور الثالثة كانت الرقم الطينية تشير ما بين المخصصات المعينة لبعض الافراد ، الى زيت نبات شخص بانه نوع من الحلفاء كان رماده يحتوى على الصودا او البوتاس وان هذا الرماد ما يزال يستعمل حتى اليوم في اعمال غسل الثياب .

فمزج هذا الرماد مع الزيت والطين ينتج منتوج لا يختلف عن الصابون في اوربا المحتلة . وكلنا نعلم ان هذا النوع من الصابون كان اقل تنظيفا من المدلعة .

الحلاق

يقودنا حديثنا عن الشعر واللحي الى مهنة الحلاق (غلابو Gallabu) والذي كان اسمه في اللغة السومرية معنى « اليد العليا » . فهو لم يكن يؤدي العمل الذي يؤديه الحلاق المصري حسب ، بل انه كان يقوم ايضا بحلق الكهنة والانتقاء معا بطريقة نصت عليها الطقوس ، وكذلك الارقاء اما لكي

يعتبر حلق قمة الرأس علامة تشخيص اضافية للعلامة الاعتيادية ، او لتهينة
البشرة حين يراد تطبيق الوسم •

تعطى اهمية رمزية للشخص الذي تتم حلاقته بهذه الصفة • ذلك ان
القوانين تنبئنا بأنه اذا ما انكر ولد ، او ولد متبنى ، ابويه بان قال لهما
« لست ابي ، ولست امي ، فانه يحق لهما ان يحلقا رأسه ويبيعا كزريق •

الباس الرجل

عندما تأتى الى الاهتمام بالملابس التي كان الرجال البابليون يلبسونها،
بتوفر لدينا وصف اورده هيرودوتس ليس للملبس البلاط ، وانما - وذلك
اقرب الى غرضنا الحالي - للملبس التي كان يرتديها رجل الشارع •

ومع ان، الرجالين في عصره كانوا اكثر ميزة من الرجالين في الوقت
الحاضر • فان هيرودوتس لا بد وان كان ، بوجهه نظرة الموضوعية ، يحاول
ان يعبر عن نفسه بعبارات صريحة الى سامعيه من الاغريقين • ففي كلماته
الخاصة « كان البابليون يرتدون في الدرجة الاولى اردية الكتان التي كانت
تهبط الى اقدامهم ، ثم تأتي الاردية الصوفية في الدرجة الثانية ، وفوق ذلك
تأتي العباءة » •

وكانوا ينتعلون الصنادل ، وهي خاصة ببلاد الرافدين ، والتي كانت
تحمل شيها بالاحذية التي كانت تستعمل في « بويوتيا » (١٣) •
وكانوا يدعون شعورهم طويلة ، ويلفون العمائم حول رؤوسهم ،
ويتعطرون بالطيب •

وكان كل فرد يحمل في يده ختما وعصا دقيقة الصنع ، حفرت عليها
بعض الادوات من امثال كبش او نمجة ، او وردة او زنبقة او نسر ، ولا يوجد
احد يحمل عصا دون اداتها الخاصة بها •

وكانت عادة حمل العصي التي وصفها هيرودوتس قد اكدتها شواهد المنحوتات . غير ان هذه لا تصور سوى الشخصيات المهمة كثيرا ليس الا ، وعلى الاخص الملك ، وان العصا التي تتحدث عنها هنا ليست عصاة للتوكأ عليها بل هي صولجان طويل يعد رمزا للقوة .

ومع ذلك فان ايا من الرسوم التي نمتلكها لا تبين اي دليل على العمل المتقن .

وليس هنالك من دليل مباشر يبين ما اذا كان الرجال الاحرار الذين لم تكن توجد مناسبة لتصويرهم على المنحوتات ، على حدة من اولئك الذين يؤلفون الحاشية الملكية ، ان هؤلاء الاحرار قد اعتادوا ان يحملوا العصي، ولكن من المعتقد تماما انهم كانوا يفعلون ذلك ، لان مثل هذا الاجراء لم يكن غير معروف في مناطق معينة من العالم السامي ، وفي الحبشة على سبيل المثال . Boeotia

ان مثل هذا الوصف ينطبق في الدرجة الاولى على حصى الحال من السكان ، والذين قد يلتقي المرء بهم في الشوارع وهم ماضون الى اشغالهم . اما الملابس التي كان الصناع والعمال يرتدونها ، فانها اقل هنداما ، وهي تتألف من جلباب يصل الى حد الركبة له نصف اردان ويشد بحزام عند الصدر . ومثل هذا الجلباب لم يكن يرتديه الصناع وحدهم حسب وانما الاجانب بصفة عامة .

فالعاملون في مجالات النقل أو البناء غالبا ما يشاهدون في المنحوتات وهم يرتدون مثل هذه الملابس .

ولعل من المصادفات العجيبة ان نجد تمثالين هائلين في خرسباد ، يعتقد بانهما يمثلان البطل غلغامش ، يرتدى احدهما مثل هذا الجلباب البسيط ، بينما يرتدي الآخر بالاضافة الى ذلك جلباباً طويلاً نصف مفتوح يصل الى

الارض . ويكون الجلباب الاول الذي تحته ظاهرا .

على ان معظم الملابس المتقنة الصنع تطرز احذى حافاتھا بحاشية مشرّبة .

وكانت الاحذية تتألف من شبشب منبسطة ذات كعب مطبق يشد على الكاحل بسير جلدى بين الاصبعين الاول والكبير .

ولسوف تتخلى هنا عن وصف المجوهرات التي كانت تلبس الى ان تأتي على تناول مجتمع القصر .

وكان الاسلوب الاعتيادي لتد الشعر لدى العامة عبارة عن شريط بسيط يلتف حول الجبهة ويبقى الشعر مشدودا . او أن يكون في بعض الاحيان ربطة معقدة يبدو عليها بانها تشل نوعا من مشد مصنوع من قطع ذات اشكال منفصلة .

وتشير العناية التي اظهر بها النحات هذا المثل مطابقا للرأس . الى انه لم يكن يحاول ان يرسم عمامة تكون كبيرة بشكل مفارق . ذلك لان العمامة كانت في الواقع معروفة في هذا العصر . لكن الشكل الذي كان الصانع يرتدونه يتألف . ليس من قطعة طويلة من معدن جيد تلف حول الرأس . بل من شريف فصير وضيق يعقد في قمة الرأس .

الازياء النسوية

كان لباس النساء شديد البساطة . فهو طويل ويخفى الجسم . ولا بد وان حدثت تطورات في الزي حتما ؛ لكن لم تحدث تغييرات مثيرة بشكل ملسوس ضيلة عصور طويلة من الزمن ، ولم يكن هناك ما يشبه التبدلات السريعة التي تعودنا عليها الان .

ففي العصر البابلي المبكر كانت ملابس النساء البابليات ، التي تتألف

من اثواب مشابهة تماما لتلك التي يلبسها الرجال ، قد اشتهرت بانها كانت على الدوام اكثر تطورا ، ولو بشكل طفيف ، من ملابس الرجال •

ففي المرحلة المبكرة كان الرجال في رسوم الاحتفالات الدينية غالباً ما يصورون عراة ، في حين تغطي الاطراف السفلى من النساء بقطعة من مادة جمعت في شكل وزرة •

اما في المرحلة الثانية فكان الرجال يرتدون قطعة من مادة مختلفة الطول تغطي النصف الاسفل من ابدانهم ، في حين تغطي الكتف اليسرى لدى النساء بطية من ملابس • اما في المرحلة النهائية من التطور ، وعندما كان الرجال يرتدون ملابس يشبه الكساء الروماني الذي لا يترك سوى الذراع اليمنى عارية ، فقد غدت كسفا النساء معا تغطيان بنهايات من مادة تتجمع من الامام •

الختم

كان الختم من الممتلكات التي لا يمكن الاستغناء عنها اطلاقا ، لانه كان الوسيلة التي يمكن بها تصديق احدى الوثائق التي يتم وضعها •

فلقد كان كل بابلي من خارج اوطا الطبقات يمتلك ختمه الخاص به والذي قد يكون واحدا من شكلين مغايرين ولعل اقدم الامثلة المعروفة لهذه الاختتام يرقى تأريخها حتى الى عصر قد سبق اختراع الكتابة ، ففي ذلك التأريخ كانت تستخدم كعلامة تشخيص شخصية ، وتستعمل بطرق مختلفة لا تختلف اطلاقا عن الاختتام الرسمية في الوقت الحاضر التي تكون فعاليتها ادبية اكثر منها عملية •

عندما كان العراقي يغادر منزله كان يربط الباب الى صارته بجبل يلصق عليه قطعة صغيرة من الطين ثم يختتمها بختمه • فهذا الختم يبين له عند عودته ما اذا كان احد قد زاره في غيابه •

وكانت الاختام تستعمل بذات الطريقة لختم الاوعية وعلى الاخص جرار الطعام . وقد تم اكتشاف عدد كبير من قطع الاختام المحطمة التي كانت تستعمل لحفظ محتويات الجرار ، اثناء التنقيبات .

فحين يتم ملء الجرة ، تغطى فتحة العنق بقطعة من الكتان تلف بشدة عدة مرات حول العنق . ثم يغطى ذلك كله فيما بعد بطبقة خفيفة من الطين يضع مالكا ختمه عليها في نقاط مختلفة .

ان من المهم بصفة خاصة ان نجد بان هذه الطريقة كانت تستعمل في عصر مبكر جدا ، ليس لانها دليل على درجة محدودة من التقدم حسب . بل اكثر من هذا انها كانت الدليل الذي يعرض الحالة النفسية للايمان والذي يمكن تفسيره بانه عقيدة مقبولة بصفة عامة لحفظ الثروة عن طريق القانون . فحينما نشرع بمحاولة لتحديد هذا القانون نجد انفسنا تجاه مشقة .

ان من المستحسن ان نظن بان وراء ذلك يكمن مفهوم . يمكن تقبله يسر ، للحماية الالهية التي كانت على الدوام تبرز كخطوة اولى لدى السكان البدائيين . فطبقا لهذا المبدأ تكون المدينة ملكا للالهة الذي اختير حاميا لها . ذلك ان حكام المدينة حتى وان كانوا يحملون لقب ملك ، فانهم ليسوا اكثر من نواب لاله الذي كانت سلطته المادية والادبية معا ، تظل رفيعة . فالمعبد هو مسكنه مثلما يكون القصر منزل الملك تماما ، وسلطاته هي سلطات بشر . او بالاحرى بشر سام .

لقد كان العراقي - وسوف نمحس مؤخرا في هذا الكتاب هذا المفهوم ذاته ونتائج - يتقبل تمثيل عمل ينطوي على حقيقة تستمر طالما بقي التمثيل ذاته . فاذا كان الختم فيما بعد يحمل علامة هي شعار مقبول تماما كتمثيل للاله ، وكانت البصمة قد تغيرت ، فان الضحية الاولى للاذى سيكون هو الآله الذي وضعت تلك المادة تحت حمايته ويتبع ذلك سخط الآله وعقابه .

ان من المعتقد بما فيه الكفاية ان تكون هذه الفكرة قد لعبت دورها في عملية حفظ الملكية عن طريق الختم وحده ، وان كسر ذلك الختم سوف يحرك السلطات المدنية ، دون ريب ، وهي المسؤولة بصفة مباشرة عن حماية السكان .

اما الشكل الثاني الذى كان عليه الختم ، والذي يكون في الواقع اكثر ملائمة للمواد اللينة التي يبصم الختم عليها ، فهو الختم الاسطواني الذى يتألف من اسطوانة صغيرة مصنوعة عادة من الحجر او الفخار عليها شعار او مشهد منسجم حفر على السطح المنحني . فاذا ما دحرج هذا الختم على طين طازج فان التعار يعاد رسمه بصفة محددة في شكل منحوتة بغض النظر عن مساحة السطح الذي يشملها ، وبذلك يضمن الحماية الكاملة والمطلقة التي تكون مصورة بالنسبة للمادة التي تحمل بصمته .

لقد اظهر سكان بلاد الرافدين خلال تأريخها الطويل ، في هذا الاجراء وليس اقل منه في اجراءات اخرى كثيرة ، نظرتهم المحافظة بالنظر الى شكل الختم الذى اختاروه .

ففي اوائل عصر فجر التأريخ كان اول طراز ظهر الى الوجود هو ختم البصم^(١٤) . ثم اعقب ذلك بصفة مباشرة ، الختم الاسطواني الذى بقي الطراز الوحيد المستعمل حتى نهاية العصر الآشورى الحديث ، عندما تم استبداله لدى البابليين بالعودة الى ختم البصم . ولقد استعمل الآشوريون والفرس كلا النوعين من هذه الاختام .

وفي خلال الفين وخمسائة سنة من تأريخ بلاد الرافدين كانت مواضيع الشعارات على الاختام قد تغيرت لانها وان كانت مرتبطة بها لكنها لم تعد تمثل روحيتها التي بقيت في اكثرية الحالات دينية في الدرجة الاولى .

(١٤) ختم البصم أو الطبع يقصد به الختم المنبسط الذي يكون ذا اشكال مربعة أو مستطيلة .

دليل اللوح

- ١ ، ٢ - ختم وبصة داريوس الاول (بالحجم الحقيقي) *
- ٣ - الآلهة عشتار سيدة المعارك تقف على اسد ويدها سهم مع اشجار نخيل
ورعول [القرنان الثامن الى السابع ق ٠م] *
- ٤ - ختم موشيش نورتا الملك والعفريت مع شجرة مقدسة ، وفي اعلى
القرص المجنح (رمز الآله آشور سنة ٥٨٠ قبل الميلاد) *
- ٥ - صياد راكب بيدلة عسكرية مع قرص شمسي وكوكبة الثريا *
- ٦ - شكل مجنح وثيران مجنحة (من القرن الثامن حتى القرن السابع قبل
الميلاد) *
- ٧ - ضابط يتناول وجبة طعام بسرعة وقد انتصب وامسك بسهم في يده *
وامامه خادم يذب الذباب * من القرن التاسع الى الثامن قبل الميلاد *
- ٨ - رقيم يدوكي يبين رسالة وبصة ختم *

وجبات الطعام ، الخبز

سوف تعطى وجبات الطعام في العراق الحديث فكرة ما عن ضام الفرد العراقي في العصر الآشوري * فلم تكن تفرد هناك غرفة على حدة كغرفة طعام ، وكانت وجبات الطعام يتم تناولها من صحن يوضع اما على الارض ، او على طاولة واطئة ، مثلما وحيشا يود الجائع ذلك ، وليس في ساعة محددة * وكانت الوجبات ذاتها وفي اعظم جزء منها معتدلة جدا ، كما ان الطبقات الفقيرة لم تكن افضل حالا في هذا الشأن مما هي عليه الان *

كان قوام الطعام هو الخبز ، اذا كانت تلك هي الترجمة الصحيحة لاحدى القوائم التي تخص الطعام * وعلى كل حال كانت المواد الغذائية هي

التي تحتل مكان الخبز ولو انا نستطيع ان نحس ما كانت هذه المواد تشبهه حقا . فكل ما نعرفه هو ان الخبز في بلاد الرافدين كان يساع ليس بالارغفة ولا بالوزن ، بل بالحجم ، وذلك سبب يدعو الى الاعتقاد بان الطعام موضوع البحث ربما كان نوعا من مادة دقيق خالية من النشأ ، تشبه العكك الايطالي .

ومع ان ذلك قد يصدق على اقدم عصر تاريخي ، فان الخبز في العصر الآشوري كان يخبز بالشكل الذي ما يزال يوجد به في الشرق ، ونعني به على شكل فطيرة مطبوخة قليلا يفصل طرفها بحرارة الموقد .

يوجد عدد من اصناف مختلفة من الخبز في الوقت الحاضر متوفرة في أنحاء متباعدة من بلدان الشرق الاوسط . ويصنع أحد هذه الانواع بالصاق قطع منبسطة من العجين على جدران فرن ساخن تظل معلقة بها الى ان تنضج .

وكانت القبائل البدوية من ناحية اخرى تتناول خبزا بخبز على شكل فطيرة على سطح موقد معدني(*) .

فهذا الموقد يطبق على النار بسطحه المحدب الى اعلى ثم تلقى فوقه طبقة رقيقة جدا من العجين بسرعة .

ومع ذلك فهناك نوع اخر من الخبز يتم تناوله في ايران . ويتألف هذا النوع من شرائح مسطحة يتم صنعها بنشر طبقة من العجين على مفرشة من ا حجار ساخنة جدا تصف فوق قطعة صلبة وناعمة من الارض . ذلك ان كتلة العجين التي تسلق قليلا بدلا من ان تنضج ، يجري تحريكها في نقاط تلامس بها الاحجار .

(*) يقصد بذلك الرعاء المعروف عندنا باسم «صاج» ويتكون من صحن معدني محدب الشكل يوضع فوق اثافي على النار ويخبز الخبز عليه .

وعندما كنا تنقب في إيران كنا نجد ان عمالنا غالبا لا يعرفون غير هذين النوعين الاخيرين من الخبز القديم هما في الواقع اكثر خشونة من النوع الاول الذي جئنا على وصفه ولو ان الاوربيين يفضلون في الغالب ان يكون الخبز على شكل فطائر • ولغرض تنويع وحدة النسق يتناول العمال كلا النوعين سوية •

لدينا حسابات يرقى تأريخها الى سلالة أور الثالثة ، تتناول كميات من الطعام الذي كان يوزع في يوم واحد من الشهر على عدد مختلف من الذين يحصلون عليه • فقد كان هؤلاء يحصلون عادة على كمية من الخبز لا تزيد على « الفالون » الا قليلا ، بالاضافة الى شيء من البصل الذي كان في ذلك الوقت مثلما هو عليه الان في الشرق ، يعتبر التابل الاعتيادي بالنسبة الى الخبز • وقد كان البصل يباع على شكل شدات مثل الثوم في الوقت الحاضر ، ويتم تناوله فجبا مثل الخيار •

الشراب ، الجعة وخمر شجر النخيل

كان الشراب يتم توزيعه ايضا بمعدل يزيد عن الفالون للفرد الواحد • ولم يكن هذا الشراب ليتألف من نوع من الجعة التي تستخلص من الشعير حسب ، وانما عصير شجرة النخيل الذي يتم الحصول عليه بشق اعلى جذع النخلة وجمع العصير المتساقط منها ، ففي هذه المرحلة يكون العصير غير ضار ، لكنه يخسر فيصبح مسكرا جدا بعد فترة يومين او ثلاثة ايام • ولقد كان البابليون يفرقون بين الشراب المسكر وغير المسكر^(١٥) •

الخمر

ينطوي الجواب على التساؤل عما اذا كان العراقيون والبابليون قد عرفوا الخمرة وشربوها ، على أن الكرم لم يكن قد تأقلم تماما في شمالي بلاد الرافدين حتى الالف الاولى قبل الميلاد •

ومع هذا فمن ذلك العصر فما بعد لم توجد اعداد كبيرة من الرقم الطينية نسجل المتاجرة بالخمر حسب ، بل وجدت كذلك غلال كروم منتظمة كانت شهرتها تتغير طبقا لمناطق اصولها تلك التي كانت تعمر من دون ان تتخسر ولا سيما الانواع المعتبرة بصفة رفيعة •

كانت شجرة الكرم تعتبر اصلا وكأنها قد نقلت من القطر الجبلي في الغرب ، وعلى الاخص من لبنان لان نموها هناك ما يزال يعد من بين اعلى الانواع التي يجري تقييما في الشرق •

ففي ملحمة غلغامش نجد البطل في تجواله حتى الساحل يصل البلد العجيب الذي تنمو فيه الكروم ، حيث يتحدث الشاعر بايجاز عن جمال شجيرة عناقيدها اللازوردية تستحق ان ينظر اليها •

والواقع ان غلغامش كان قد مر بكروم الإغتاب السوداء اللون • ومما تجدر الإشارة اليه انه كان يجد سبيله ، خلال أسفاره ، يقوده الى مكان شبه علوي الى ابواب حانة ينصح به بان يحيا حياة مريحة •

ولقد نسبت ذات الحرفة الى امرأة افترض بانها كانت المؤسس لاحدى السلالات الحاكمة القديمة والغنية في مدينة كيش على مقربة من مدينة بابل •

(١٥) هناك مدد من عصير الفواكه التي تحتوي على مادة السكر من امثال عصير العنب ، وكذلك العصير الذي يستخلصه أهل المكسيك من نبات الصبر الامريكي ويسمونه باللغة المكسيكية باسم (بلكه) Pulque ف عندما يوشك هذا النبات ان يزهر ، تبدأ ساق كبرها كبر شجرة صنبرة بالنمو من وسط النبتة والتي اذا ما تركت تصل الى ارتفاع تام ، تشرع بقطف رشاش متدفقة من أعلى • فاذا ما قطعت هذه الساق عندما تبدأ بالنمو فان العصير الذي كان سيفنذي الزهرة ، يبدأ بالتدفق لعدة أيام حيث يتم جمعه في أحواض • في هذه المرحلة يكون العصير حلو المذاق ناصع البياض ، لكن ما سرعان ما يسري التخمير اليه فيصبح مادة كحولية جد قوية •

ولما كانت شريعة حمورابي تبين ان الحرفة الحقيقية لبواب الحانة ليست محترمة اطلاقا ، فان هذه الاشارة دليل ثابت وصريح على وجود تجارة واسعة النطاق للخمر وجدت اصلا في الاقطار التي تتاخم شرقي البحر الابيض المتوسط .

لقد كان المعتاد خلال اقدم العصور في الشرق الادنى ان يرتبط التقدم الفنى الناجح او الاختراع باسم شخص ما يعتبر هو البادى ، وان كل الاحتمالات تبين ان بوابي الحانات هؤلاء كانوا يجسدون واحدا من اهم اشكال المتاجرة بين الساحل وداخلية البلاد .

كما ان هذا يقدم مثالا جيدا على غرام العراقيين ، بسل الساميين بصفة عامة في الواقع ، بالتوريات .

لقد حفرت على واجهة القيثارة التي اكتشفت في المقابر الملكية في اور ، صور عدد من الحيوانات في مواقف بشرية ، وشاركت في وظائف بشرية . وقد صور الحمار بصفة موسيقار مثلما صور به تماما في تمثال من العصر الروماني .

واذا ما عدنا الى المؤخرة نجد غزالا صغيرا يمسك بباريق خمر وقدرح، وان اهمية ذلك هي ان الكلمة الاكدية « سبيتو » Sābitu تستخدم لمعين هما « الغزال » و « بواب الحانة » .

اشجار النخيل

سبق ان رأينا بان الخمر المستحصل من أشجار النخيل كان يعتبر مظهرا مهما من مظاهر الاقتصاد العراقي ، وان علينا ان نتفق القليل من الوقت للاهتمام بشجرة النخيل وزراعتها لانها كانت واحدة من مصادر الثروة الطبيعية .

لقد عرف السكان منذ اقدم العصور كيف يحصلون من النخيل كل ما يمكن الحصول عليه ، وكيف يزرعوها .

هناك نص مؤرخ من عهد الملك شوسن(*) من سلالة اور الثالثة ، والذي نشأ دون ريب في مدينة « امّا » المدينة المنافسة لمدينة « لكش » ، يشير الى مزارع اشجار النخيل التي يحسن ارواؤها . فهذه المزارع كانت تقع بين المدينتين وقد قسمت الى ثمانية اقسام تعود الى الآله المحلي الذي كان يمثله ملاحظ لهذا الغرض -

كانت الاشجار في كل قسم تعد بالكيسات ، وكانت كل اشجار الفاكهة والزينة مؤشرة ، في حين ان عدم وجود اية اشارة الى فحول الشجر يشير الى ان اللقاح كان يجلب من مزارع نخيل اخرى .

ويشير النص الى المنتج بالكمية وليس بالوزن وبالاستناد الى عدد الاشجار يبدو ان وزن المنتج كان اكثر بقليل من نصف ما يمكن توقعه من ذات العدد من الاشجار حسب المعدل في الوقت الحاضر والذي يبلغ حوالي ثمانين « باوندا » للشجرة الواحدة .

ان هذا يشير الى ان اكرية الاشجار في المزرعة اما كانت فتية ، او ان طرق الزراعة قد حققت تقدما ملموسا منذ ذلك الوقت .

كان كل جزء من شجرة النخيل يخصص لنوع من الاستعمال . فقد كان الخشب يستعمل لانشاء المباني الخفيفة من امثال السقوف التي لم تكن

(*) الملك شوسن ويعرف باسم « قمل سن » أيضا هو الملك الرابع من سلالة اور الثالثة ، دام حكمه تسع سنوات من ١٩٧٨ الى ١٩٧٠ قبل الميلاد .

تتطلب سوى مسافة قليلة ، وكانت الانسجة المضفورة تؤلف جبالا ذات قوة ملحوظة . في حين كان السعف يستخدم لتغطية الاكواخ المصنوعة من جذوع النخيل ، وكذلك عندما يقص ويحزم سوية ، تصنع منه المكائس النافعة للاستعمال جدا بالنسبة الى الغبار الذي يعم الشرق كله .

ولم يكن التمر ذاته مجرد طعام حلو ، كما هو عليه الامر في اوربى الغربية ، وانما كان غذاء ، بل في الواقع كان المادة الرئيسة للغذاء في تلك المناطق التي تنمو النخيل فيها بوفرة .

وكانت التمور التي تجفف قبل حفظها ، يتم كبسها في جرار تتفاعل في داخلها وتبدأ بالتخمر ، مما يزيد من قيمتها الغذائية .

وأخيرا يمكن ان تمزج التمر مع الزيت وبذلك يمكن حفظها لمدة اطول في حين تزداد قيمتها الغذائية بصفة اكثر .

هنالك انواع كثيرة متباينة من اشجار النخيل التي تقدم اسواق الشرق منها خيارا واسعا للتمور .

اما النوى فانه يستعمل ، حين يجفف ، وقودا ، ولا سيما بالنسبة للصهر المعادن ، او كغذاء للابل عندما يتم طحنه ، وتلك حقيقة لا يدهش احد منها عندما يرى الحيوانات وهي تأكل اوراق شجرة التين الغربية ، والاشواك وغيرها .

واخيرا فان فرخ النخلة الذي ينمو في قمة الشجرة ، اذا ما قطع واكل وهو ما يزال صغيرا ، يؤلف خضارا شهيرا .

والحقيقة انه لم يكن من المدهش ان نجد آداب العالم القديم مليء بالاشارات والتعليقات الى اشجار النخيل . فالمؤرخ « سترابو » يشير الى اغنية فارسية تتحدث عن استعمال النخيل للثمالة وستين غرضا .

وقد اقتبس « القزويني » (*) من الحديث النبوي (**) « كرموا النخلة لانها عمتكم وقد اعطيت اسم شجرة مباركة لانها خلقت من بقايا الطين الذي خلق آدم منه » .

وقد ادت حقيقة تكوين النخلة من جنس واحد الى تحسين طرق الاخصاب ، حيث يقدم اهل البلاد على جمع الطلع من الازهار الذكور مخروطية الشكل ويشدونه في مكان معين في ازهار الإناث وهذا يؤدي الى زيادة المحاصيل التي قد تترك ، بدون ذلك ، الى محض الصدفة . تكون اوجه الجذوع خشنة . والطريقة الاعتيادية لتسلقها الى القمة ، والتي تشاهد غالبا على المنحوتات العراقية ، هي ان يربط المتسلق حبلًا حول جذع النخلة وحول بدنه معا ، ومن ثم ينحن الى الوراء ويبدأ بالصعود بخفة الى القمة ، حيث يبدأ الحبل بالارتفاع في كل خطوة وذلك يتحرك ذاته الى اهداف اعلى من تلك مباشرة .

ويمكن مشاهدة هذه العملية على لوح من الجص من قصر « ماري » يعود تأريخه الى بداية الالف الثاني قبل الميلاد ، والذي توجد عليه ، عدا الرسم الطبيعي لاشجار النخيل ، نقوش اغصان طويلة تتدلى منها عذوق الازهار من على ارتفاع ما فوق الارض . فهذه الاغصان تشبه تماما اغصان شجرة عود النبد . (انظر ما سبق ذكره عن نبات الصبر او الندي في الهامش) .

(*) القزويني صاحب عجائب المخلوقات : جمال الدين ابو يحيى زكريا ١٢٠٨-١٢٨٣م يتصل نسبه بالامام السابق انس بن مالك . ولدي قزوين . ورحل الى دمشق فتى ، ثم انتقل الى بغداد وتولى القضاء في مدينة واسط . والخلة ثم عاد الى بغداد فبقي فيها حتى سقوط الخلافة العباسية على يد هولاكو ، وتوفي ببغداد ، وكان من اعلام العرب في الجغرافيا ، وهو اول من كتب في الجغرافية الطبيعية . (**) اخطأ المؤلف اذ ذكر ان القزويني قد اقتبس من القرآن والصواب انه اقتبس أحد الاحاديث النبوية التي اوردها المؤلف مغلوطة أيضا . فالحديث النبوي يقول (اكرموا عمتكم النخلة فانها خلقت من فضلة طينة ابيكم آدم . وليس من الشجر ، شجرة اكرم على الله من شجرة ولدت تحتها مريم ابنة عمران . فاطموا نسائم الولد الرطب . فان لم يكن رطب فتمر) . من كتاب « كشف الغطاء » للمجلوني الجزء الاول ص ١٧١-١٧٢ .

عملية اخصاب النخيل المرسومة على المنحوتات

تصور بعض المنحوتات الآشورية بساتين النخيل في عملية تدمير يقوم بها الجنود (وذلك اول مثال على سياسة حرق الحرث او تسفيح الارض) •

وهناك منحوتات اخرى تبين مشهداً لا يمكن ان تدرك اهميته الحقيقية لاول مرة • فهذا المشهد يصور بعض الجن وهم يحملون وعاءا ذا مقبض صيغ على شاكلة جردل ، وقد امسكوا بالايدي اليمنى اداة مخروطية وهم يشيرون الى شبكة خطوط منقطة باشجار النخيل • ان هذا المشهد تصوير اسلوبي وملائم بصفة خاصة للشجرة المقدسة ، والتي هي نوع من النخيل •

ان سبب هذا المشهد سيتم بحثه في الفصل الذي يتناول الديانة ، وان كل ما يحتاج الى قوله الآن هو ان شجرة النخل التي صورت هنا كانت تظل كل مميزاتها الاعتيادية • فوريدات النخل لها مظهرها العام في صفة مروحة من ريش او مرجان ، ولقد غدا العنق فصا منبسطة محاطا بنوع من عريشة تثبت الوريدات الى جسم الشجرة وتربطها بتتابع منتظم •

ان حقيقة كون هذه الشجرة ، وان كانت منسقة الا انها شجرة نخل دون شك ، وان المادة التي كان الجن يحملونها تشبه في شكلها العنصر الذي يحمل طلع شجرة نخل ذكر ، قد ادت ببعض الباحثين الى ان يروا بان هذه المنحوتات كانت تشير الى عملية التلقيح التي كانت ثروة البلاد بالطعام تستمد منها •

ومع ذلك توجد اسباب تبرر عدم قبول مثل هذا الرأي • وهكذا نجد ان الجن كانوا يشيرون الى المواد المخروطية التي كانوا يحملونها حسب ، في الاتجاه العام للشجرة ، في حين ان التلقيح يعتمد على ازهار النخيل الذكور التي تم ربطها على النخلة الاتى وليس على تماس واحد خفيف • ففي كل

مكان تيين المنحوتات جنيا يقف خلف الملك الآشوري ويشير نحوه بالمادة
التي يحملها(*) .

ومن ناحية ثانية ينبغي لنا ان نتذكر ان القس في بعض الكنائس في
منطقة ماردين شمالي بلاد آشور ، يستعمل رشاشة ماء مقدس على شكل
محروط من شجر الارز عندما يروح يرش ماءه البهيج ، الامر الذي نستنتج
منه الى ان العمليتين لهما ذات الاهمية ، وان المنحوتات انما تمثل رشاشات
احتفالية (كانت احد مظاهر الدين الآشوري) من ماء يمنح الحياة ثم سحبه
من مصبات نهري دجلة والفرات ، في حين ان الوعاء ذي المقابض الذي كان
الجنى يحمله لم يكن سلة بل جردلا معدنيا يحوي ماء التطهير .

الخضراوات والاسماك واللحوم

هناك وجبة طعام افضل من تلك التي تتألف من البصل وحده ، هي
التي قد تحتوي على الخضراوات من امثال العدس ، الذي ينمو مثل
الفاصوليا في المنطقة دوما ، والدخن المسلوق ، والشعير الذي كان يعد مثلما
نعد نحن الرز ، وربما الذرة ايضا ، هذا في الوقت الذي اعرب فيه بعض
علماء النبات عن آرائهم في ان الذرة الصينية يمكن تشخيصها بين اكوام
النباتات المتفرعة من عائلة القمح المصورة على بعض المنحوتات الآشورية .
ان دراسة مفصلة لافضل التماثيل السالمة تيين بان الصحنون التي يتجمع
الناس حولها لتناول الطعام كانت تتوج بما يبدو بانها اهرام من القمح ومن
هذه الانواع على وجه الدقة .

وهناك خضراوات شائعة اخرى تحتوي على اليقطين والخيار والبطيخ
الذي كان عدده ونوعه يدهش المسافر الذي يزور الشرق لاول مرة

(*) ان هذه الصورة تمثل استخلاص المادة ، التي تذاب في الماء المقدس ،
من النخيل .

كان السمك الذى يؤكل طريا ومجففا ، عنصرا مهما في الطعام
الاستوري ، وهناك سلسلة واسعة من انواع صالحة للاكل يمكن العثور
عليها في حدود سنة الفين قبل الميلاد في مدينة لارسا ، وهي قد نشتتل على
قلة من اسماك البحر التي كانت تحفظ في الملح لنقلها ، كما ان البعض
منها كان يصطاد في الاهوار التي لم تكن تؤلف سوى مشاكل نقل اقل ومع
ذلك فان معظم السمك كان يصطاد محليا في القنوات •

كانت الاسماك الكبرى تجفف بطريقة تبينها احدى المنحوتات المصرية ،
اي انها كانت تفرغ من مصارينها ثم تشد من الرأس وتعلق على خيط بنفس
الطريقة المعمول بها حتى الان في بلاد النرويج •

اما الاسماك الصغيرة فكانت تترك تحت الشمس ومن ثم تضغط في
كتلة صلبة يمكن اقتطاع الكمية المطلوبة منها [هناك صورة اسرى يتناولون
وجبة طعام وصورة رجال يحملون الخضراوات لاحدى الولايم] •

من بين الاكتشافات الاخرى التي عثر عليها في تللو بعض قطع من هذه
الاسماك المجففة التي ما يزال يمكن تمييزها بيسر •

وحسبما نعرفه لم يكن اللحم يؤلف مادة مهمة في الطعام وان النصوص
التي تسجل الرسوم الواجبة الدفع عن احدى الشياه او حتى احد الثيران ،
تشير الى ان الحيوان موضوع البحث لم يكن يتم ذبحه في الغالب وانما
كان يقتل مصادفة مثلا • فضلا عن ذلك لا نجد في اكثر النصوص اشارة
عن جثة تم تسليمها الى القصاب لغرض البيع •

وكانت الطيور من الناحية الاخرى تؤكل ، واتنا خلال عصر سلالة
اور الثالثة ، نعرف بأن الاوز والبط كان يجري تجهيز القصر بها •

الجراد

كان الجراد يعتبر ، مثلما هو عليه الان ، من المواد الصالحة للاكل في
المناطق التي تقع في طريق غزواته ، وان منحوتة من خرسباد تبين خدما يقدمون
الجراد في سقايفد مثلما تقدم الضفادع الان في فرنسا تماما •

الجينة والعلويات والفاكهة

قد يكون هذا هو الموقع الذي تنبغي الإشارة فيه الى انواع عديدة مختلفة من الجينة واللبن الرائب . فقد كانت تقدم في القصر بأشكال متنوعة كثيرا . وقد اكتشف الكثير من القوالب التي كانت تصنع فيها ، في معمل الالبان بقصر ماري .

وكانت الحلويات سواء ما كان يحلى منها بالعسل ، او بالسكر المستخلص من اشجار النخيل والذي كان العراقيون يعتبرونه نوعا من العسل (*) ، موضوع صناعة مزهرة تشتمل على اللذائذ من امثال السمسّم الذي يقلى بالزيت . كذلك كان صانعو الحلويات يستعملون بذور السمسّم ايضا .

وما خلا التمور فان كل انواع الفاكهة كانت تؤكل بصفة عامة ، ومن بينها الرمان ، وثمر المشملة ، والتفاح ، والاجاص والمشمش والكمثرى والفستق ، وبعبارة موجزة ، ذات الانواع التي تنمو في اوربا الغربية (والتي جاء البعض منها ، من امثال الخوخ والتوت ، من الشرق) ، والتي ازدهرت في شمالي بلاد الرافدين .

لسنا نعرف ما اذا كان الاشوريون قد عرفوا الموز الذي ينمو على نطاق واسع في سوريا ، غير ان هذا كان محتملا على اقل تقدير ، ذلك لان هناك بعض المنحوتات الناتئة تبين ان من بين الطعام الذي كان يقدم على الموائد : مادة يبدو عليها انها مؤلفة من عدد من الاقسام التي تشبه الاصابع مرتبطة بقاعدتها ، وذلك ما يشبه غدق موز (هناك صورة وليمة الاشراف في الفصل القادم قسم المسرات والولائم) . فلذا ما صح ذلك فان هذا المسوز كان مستوردا على أكثر احتمال .

(*) يتعمد بذلك « الدبس » الذي يصنع من التمور حيث يتم غلي التمور في وعاء كبير على النار ، ومن ثم عصره وتصفيته ووضعها في الشمس مدة محددة كيما يروق ويشعن .

الفخاريات

تستعمل الفخاريات المعدة للاستعمال اليومي ، والتي كانت تصنع من الطين . على انكالك كانت موجودة في كل عصر من امثال الصحون والاطباق العميقة والضحلة : والحلل والاباريق •

وكان الزجاج معروفا في العصر الآشوري لكنه ظل نادرا ولم يكن يستعمل لصنع القناني أو اقداح الشراب •

وكانت الكؤوس الفخارية تستعمل بدلا من الاقداح الزجاجية في حين استعملت بدلا من القناني ، انواع من اباريق واكواب وزهريات ذات مقابض وجرار ضيقة الاغناق يمكن ان تختم بقطعة من قماش الكتان وبسدادة من الطين اذا كانت محتوياتها تتطلب الحفظ •

وقد اكتشفت اثناء التنقيبات مصافي خمر من هذا العصر اقل من اقدم العصور التاريخية عندما كان الشراب المخمر الذي يحتوي على رواسب كثيفة ، شائع الاستعمال • فقد كانت هذه الرواسب تحرك بالمصافي والاقماع وهي من ادق الامثلة التي عثر عليها في القبور الملكية في مدينة اور ، في حين ان تناول الشراب بوساطة الانابيب غالبا ما يشاهد على النصب التي وجدت في بلاد الرافدين •

هناك نوع غير اعتيادي من مصفاة خمر شخضت بين انواع عثر عليها في تبة سيالك قرب مدينة كاشان ، وفي تبة جيان قرب نهاوند(*) تتألف من نوع صنبور ثم تشكيله في صفة جزء من دائرة مقسم الى قسمين بحاجز

مخرم • وكانت هذه المصفاة تمسك من مقبض عمودي وعالٍ الى الحد المطلوب •

وكان الخمر يصيب منها في احدى النهايات ثم يمزج ويروق في نهاية اخرى في حين يسهل تجويف الوعاء حسب زاوية الميلان ، ان ينظم ما يتدفق منه •

وما تزال الفخاريات التي اكتشفت خلال التنقيبات من ذلك العصر تشتمل على عدد كبير من الزهريات بعضها ذوات قعور مديبة • ولا بد ان تكون هذه الزهريات قد صنعت لكي تقف منتصبة في ارض غير مستوية ، او أنها كانت توضع فوق حامل خشبي^(١٦) او دائرة من قش مضمور • غير ان وجود عدد كبير من زهريات ذوات قعور منبسطة يجعل من العسير ان نرى لماذا ان مثل هذا الشكل النافع كثيراً لم يتم اختياره بصفة شاملة •

اما بالنسبة الى ما اذا كان العراقيون يجلسون على المفارش او يضطجعون عليها ، فائنا نعرف ان الرومان الذين كانوا يقدسون المتكأ ، يزعمون بان هذه العادة قد نقلت عن الشرق •

وتدلل الوثائق الباقية عن هذا الموضوع ان افراد الطبقات العليا من العراقيين كانوا يجلسون على مقاعد ، اما الطبقات الدنيا فكانوا اما يجلسون القرفصاء أو يجلسون وسيقانهم متقاطعة •

(*) كاشان من المدن الحديثة في ايران تشتهر بصناعة السجاد الفاخر ، تقع بالقرب منها خرائب سبالك التي نقب فيها الآثارى الالمانى كرشان في الفترة ١٩٣٣-١٩٣٧ فمثر فيها على مستوطنات ومقابر قديمة •

اما نهاوند فانها من المدن الشهيرة في ايران تخرج فيها عدد كبير من علماء المسلمين والعرب • تقع بالقرب منها خرائب (تبه جيان) التي نقب فيها في الفترة ١٩٣١-١٩٣٢ •
(١٦) او من الفخار •

الشراب القسوي

كان الادمن على تناول الشراب . كما سبق أن رأينا ذلك . يؤدي في بعض الاحيان الى السكر ، وان هناك اوصافا . بنيت بكل وضوح على اساس الملاحظات الدقيقة ، لكل مرحلة من مراحل الاعراض او العلامات المحذرة على اقل تقدير .

فني فصيحة الخلق نجد الالهة اثناء وليه وتحت تأثير انسكرات . غدت ثرثرة ومهتاجة . وفي ملحمة البطل غلغامش نجد ان الرجل امتوحتس انكيدو الذي شاء ان يصبح رفيقا لغلغامش . يتم تقديمه الى الحضارة من لدن عاهرة معبد . وان احدى الافكار التي تعلمها هي تناول الشراب المخمر .

«لقد تناول الجمعة ، وقد تناولها سبع مرات وقد تحررت روحه وراح يهتف بصوت عال وقد امتلأ جسمه بحسن التكوين واشرق وجهه » .

وبالنظر الى الواقع فان ما كان العراقيون يمتلكونه من مشروباتهم المصنوعة من الشعير والخمر المستخلص من اشجار النخيل وكذلك الخمر الحقيقي . يؤلف سلسلة من الشراب يصعب ان تكون في مفعولها اقل تأثيرا من الاشربة الموجودة في الوقت الحاضر وان لم تكن مساوية لها في الكمية .

العمل والتجارة

العلاقات بين المشتري والبائع

لقد شاهدنا الحياة اليومية للعراقي الذي يسكن في البيت مع عائلته .
اما الان فينبغي لنا ان نراقبه في عالم اوسع هو عالم التجارة . ولهذا السبب
فاننا سنتصوره وهو يأخذ سبيله عبر المدينة بحثا عن التجار او اصحاب
الحرف .

ان وجهة نظر البابلي في العلاقة بين المشتري والبائع مطبقة بكل وضوح
في عبارات وصف بها كل شيء . فالبائع هو الشخص الذي يعطى وهو الذي
يسلم ، في حين ان المشتري هو الشخص الذي يشت السع .

فمثل هذا الوصف للدور الذي يؤديه المشتري يبدو ، ولا سيما
بالنسبة للتمكيز الاوربي ، تناقضا صريحا لفكرة التعامل التجاري الحديث
برمتها . ومع ذلك فانها في الواقع صحيحة جدا بالنسبة الى قانون العرض
والطلب الذي ينظم المعاملات في المجتمعات الحرة ، وان المشتري في الواقع
هو الذي يحدد السفر في اخر الامر سواء كان يرضخ لالحاح البائع (وفي
هذه الحالة يكون قبوله بالسعر قبولا بقيمة المادة التي اشترى او الخدمة
التي قدمت) او ما اذا كان يساوم في سبيله ثم يحصل عليه اخيرا بالسعر الذي
يَرْضاه هو .

مبدأ المسؤولية

كان من المظاهر المهمة جدا ، هو مفهوم المسؤولية في المادة المبيعة .
فالبائع يحاول على وجه التحديد ، ان يحرر نفسه من مثل هذه المسؤولية ،
وان الشيء الملاحظ بصفة عامة هو الميل في الوقت الحاضر بالنظر الى شركات
النقل البحري او سكك الحديد ، سواء كانت مملوكة بصفة عامة او فردية،

هو ان تتنصل وفقا لاقظمتها من المسؤولية بالنسبة لركابها ، في حين يندر ان تحدد الدولة ، ولو نسبيا ، مثل هذا التنصل •

ومن ناحية اخرى ففي بلاد الرافدين كانت حماية القانون تمتد في كل العصور الى مشتري المادة او المنتفع من الخدمة • فبالنسبة الى المعمار وصانع السفن والجراح وبائع احد الارقاء ، حددت المسؤولية التي تقع على هؤلاء جميعا في شريعة حمورابي ، وهناك امثلة في العصور البابلية الحديثة والفارسية ، على عقود كانت على الاقل تمثل تفكيرا قانونيا معاصرا ان لم تكن تمثل القانون الحقيقي ذاته •

فمنذ عهد حمورابي وما بعده كان المعمار الذي عهد اليه ببناء دار انهارت نتيجة خطأ في البناء وادت الى قتل مالکها ، نفسه عرضة لان يشنق ، في حين اذا ما قتل طفل رب البيت في ذلك الحادث يقتل طفل المعمار •

ومما يقابل ذلك تماما هو ان على صانع الزورق الذي تظهر فيه الخروق ان يصلحه على حسابه الخاص وان يدفع تعويضا عن الضرر الذي يصيب الحسولة نتيجة ذلك •

تنظيم العمل في بلاد الاناضول

كان بعض الافراد ينهمكون من وقت لآخر في احد الاعمال النجارية حيث ينجح المواطنون الاحرار ، والعبيد المعتقون وحتى الارقاء الحقيقيون الذين يعينون من قبل اسيادهم لاداء عمل محدد ، ينجح هؤلاء في بز كل منافسيهم • فهم يفتشون فروعا او دوائر ثانوية ، وبعبارة موجزة شركات مسيطر عليها بالمعنى التام لهذه الكلمة ذات مصالح كانت تتشعب في انحاء البلاد بل وتمتد الى ما وراء البحار •

ونستطيع ان نشير هنا الى ثلاثة امثلة على الاقل من ثلاث مناطق مختلفة،

من هذه الشركات التي كانت تنهك في اصناف واسعة من المعاملات وتمارس اعمال الصيرفة في ذات الوقت .

ففي «قول نبه» في الاناضول وعلى مقربة من مدينة «قيصرية» (١٧) تم اكتشاف سجلات جملة من التجار المهمين ، حفظت في غرف باحدى الابنية الضخمة تقع خارج المدن الحقيقية قليلا ، ويعود تاريخها الى بداية الالف الثاني قبل الميلاد .

وبمساعدة من هذه الرقم التي وصفت عامة بانها كبدوكية او آشورية استطعنا ان نعيد ترتيب معاملات شخص يدعى « بوشوكين » يبدو عليه بانه كان يزاول كل انواع الاعمال التجارية .

فلو سألنا عن السبب الذي حدا به هو وزملاؤه في دوائر مجاورة وكلهم يحملون اسماء سامية ، الى السكن في منطقة قيصرية بين سكان لم يكونوا في ذلك التاريخ من فرع مسامي ، فمن المحتمل ان يكون الجواب هو ان النفوذ الآشوري قد امتد في ذلك العصر حتى بلاد الاناضول وان التجار الساميين تحت حماية ذلك النفوذ كان في مقدورهم ان يزاولوا الاعمال التجارية في منطقة غنية لم تكن التجارة منتظمة فيها ، والتي كانت توفر لهم مطمحا في الحصول على ارباح عالية .

اهداف التجارة

وفضلا عن ذلك فلم يكن هذا هو اول تغلغل عراقي في بلاد الاناضول ، وان علينا ان نتذكر عدا مدونات الفتوح والحملات التي في ايدينا ، بان هناك شيئا ما أكثر من نزوات الحكام المتطلعين الى توسيع ممالكهم واشباع طموحهم . فقد كانت البواعث التجارية الثابتة تشير الى حملاتهم العسكرية .

Caesarea

(١٧) هي مدينة فيساريا القديمة

هناك دليل نصف اسطوري ونصف ديني يبين فتوحات الملك سرجون الاول(*) بقيت من العصر الاكدي الذي يسبق تأريخ الرقم الكبدوكية بعدة قرون ، توضح حدوث احدى الحملات العسكرية التي كانت اهدافها تجارية بشكل صريح . فطبقا لهذا البرهان كان البعض من التجار العراقيين يعودون الى وطنهم كيما يطلبوا الى سرجون ان يأتي ويحميهم في بلاد الاناضول النائية التي استوطنوا فيها .

وليس من شك في ان جنرالات الملك الذين اتخمتهم المعارك كانوا يلحون عليه بان لا يستجيب لمثل هذه المطالب ويحاججونه بان المسافات شاسعة جدا وان الطرق غير معروفة . وقد عرض التجار بان يقودوا هذه الحملات بانفسهم . وقد ثبت نجاح هذه الخطة فاصبحت بلاد الاناضول في مشاركة منتظمة وبذلك اضافت بلاد الرافدين منطقة اخرى الى نطاق نفوذها .

وكان السبب الذي يدفع بالاشوريين الى السيطرة على بلاد الاناضول يبرز بكل وضوح في اتساع الاعمال التجارية التي كان السادة «بوشوكين» وشركاؤه يمارسونها خلال بضعة قرون متأخرة . واننا سنكون مخطئين اذا ما افترضنا بان اندفاعات الذهب الى كاليفورنيا ، او كلونديك ، او التزامح على المعادن الثمينة في وقتنا الحاضر ، كانت ظاهرة عصرية .

فكل عصر له مقاطعته المماثلة لولاية (الدورادو)(**) التي تفيض ، او يعتقد بانها تفيض ، بالثروة التي تمتلئ بها جاراتها .

(*) هو سرجون الاكدي مؤسس السلالة السرجونية الحاكمة في الفترة ٢٤٧٠-٢٤١٢ قبل الميلاد ، عثر في نينوى على راس تمثال له . ويعرف سرجون باسم شروكين ، وقد حكم ٥٦ سنة في الفترة ٢٢٣٤-٢٢٧٩ قبل الميلاد .

(**) ولاية الدورادو Eldorado احدى الولايات الامريكية التي اكتشف الذهب فيها لأول مرة ولذلك اندفع اليها كل المغامرين والفلسفين مما بحثا عن الذهب في اراضيها .

لقد كانت مصر تملك الذهب لكنها لم تكن تملك الخشب • فمنذ عهد الملكة القديسة كان المصريون يسيرون الحملات ، التي كانت في ذات الوقت تجارية وعسكرية معا ، الى الساحل السوري للحصول على اخشاب الارز من لبنان مقابل العطور والبخور و سلع الزينة • وهذا الحادث قد كرس في اسطورة ايزيس التي كانت تبحث عن بدن زوجها اوزيريس والذي يتحدث كيف انها علمت نسوة البلاد على استعمال الزيوت المعطرة وعن قص الشعر ، وكانت تتلقى مقابل ذلك شجرة كبيرة ضمت جسم اوزيريس عندما نمت •

وكانت بلاد الرافدين يعوزها الخشب ايضا ولذلك كانت تحصل على ما تريده منه من ذات المصدر • وتلك هي اهمية القصة التي وردت في ملحمة غلغامش عن الحملة التي قام بها غلغامش الى بلاد الارز (وهي امانوس دون شك (*)) التي كان يحرسها الجبار « هيبابا » (**).

وكانت بلاد الرافدين تفتقر الى المعادن ايضا ولذلك نجد ان تجارها يسافرون الى ما وراء جبال طوروس في بحثهم عن النحاس ، والرصاص والحديد والفضة والذهب الذي لا يتوفر في تربتها •

وما لبث مفهوم الاقطار التي تحولت بالتدريج الى عزلة ومن دون اتصال بالعالم الخارجي ، وهو المفهوم الذي كان يمثل الى درجة ما الرأي الذي كان يتمسك به اوائل المؤرخين من العالم القديم ، ما لبث هذا المفهوم ان ادى الى ادراك اكثر صدقا لقضية مواصلات تلك الاقطار • ذلك ان

(*) امانوس Amanus يقصد بها جبال لبنان •

(**) هيبابا أو خمبابا Humbaba هو الآله الذي كان يحرس غابة اشجار الارز في جبال لبنان ، وقد استطاع كلكامش ان يقتله ويحصل بذلك على اخشاب الارز التي كان العراق يستوردها من هناك منذ القدم ، وذكر خمبابا باسم خواوا أيضا ، وقد صورت صورته على كثير من الألواح الصغرى •

القوافل التي كانت تتألف اول الامر من الحمير واخيرا من الابل كانت تتحرك بسرعة قبل ثلاثة آلاف سنة مثلما هي عليه في الوقت الحاضر ، وتمضى في سيرها ومن دون امان نادرا .

والزوارق الشراعية الكبيرة الخفيفة التي ما تزال تجرى بين الموانئ التجارية في سوريا ، ولو انها اصبحت متخلفة بكل بساطة عن البواخر التي تستطيع ان تمخر البحر من بيروت الى الاسكندرية في ليلة واحدة ، من النادر ان تختلف عن المراكب التي وان كانت اقل سرعة الا انها ليست اقل اعتماداً عليها ، والتي كانت في القدم تمخر ذات الطريق ، فتحتمل الشاطئ وترسو في كل ليلة عند رأس جبل يحجب الريح .

لقد كانت الانحاء المختلفة من الشرق القديم في تماس احدها مع الاخر تماما مثلما هي عليه اليوم ، واذا ما كانت الرحلة اقل سرعة كانت المخاطر اكبر قليلا .

لقد كان طريق الحرير الذي تعقبه ماركوبولو(*) يزود قبلا صناعاته الثمينة الى فارس الساسانية وبيزنطية . ولم يمض سوى قرن واحد منذ ان اخذت البواخر تقرب ارجاء البحار ، واخذت السلطات البحرية تمنحها الامان ، ومنذ حوالي ثلاثين سنة ليس الا شرعت السيارات تجوب لاول مرة طرق الشرق . اما قبل ذلك فقد كانت التجارة تسيّر مثلما كانت عليه قبل اربعة آلاف سنة خلت .

(*) ماركوبولو رحالة بندقية شهير ، رحل الى الصين وجاب انحاءها وامضى فيها سنوات عديدة ثم عاد الى وطنه واصبح قائد سفينة خاصة باهله . وقد امره اهالي جنوا ، فمكث في السجن عندهم عدة اعوام ، قص على احد رفاقه السجناء مشاهداته في الصين فكتبها ذلك السجن ونسبت الى ماركوبولو ، واصبحت تؤلف رحلته الشهيرة ، وكانت ولادة ماركو في البندقية سنة ١٢٥٥ . اما رفيقه في السجن الذي دون رحلته فيدمى « رستى تشيللو » .

وأخيرا كان يوجد وراء كل مظهر من مظاهر التوسع التجاري باعث قوي بشدة ، نستطيع ان تتجاوز اهميته يسر . لقد كان هذا الباعث يمثل الحاجة الى التوابل التي ما تزال تتواصل في الواقع ، وفي سبيل البخورات التي كانت تستهلك بمعدل هائل في كل طقس ديني ، ولذلك كانت من المنتجات ذات الالهمية القصوى .

لقد كان المصريون هم الذين سافروا الى بلاد (بنط) (ربما يقصد بها بلاد حضرموت وحير في جنوب غربي الجزيرة العربية) (*) وعادوا معهم باشجار البخور المصورة في معابد « دير البحري » (**).

وتجاوبا مع هذه الحاجة توطنت الشعوب البدوية كيما تحمي وتنظم القوافل التي كانت تتعرض للاغارة عليها مؤخرا . وكان هذا هو سر العظمة التي تمتع بها الانباط وتدمر ، والثروة التي اشتهرت بها حضرموت وحير ، والتي بقيت لوحدها تمتلك الذهب في حين فقدته جاراتها في الجزيرة العربية . يبدو لاول وهلة ان البواعث التاريخية ربما يظن بانها قد تغيرت تغيرا اساسيا منذ القدم . لكنها بقيت اساسا على حالتها داتها كما كانت هكذا دوما ، كما نرى ذلك بكل يسر ، حين تكشف الصدفة عن الاسباب التي ادت الى قيام الحملات العسكرية العظمية في الماضي .

واذن ماذا كان نطاق العمليات التي كان بوشوكين يمارسها ؟ لقد كان يتعامل بالمقاطعات الزراعية ، وكان يقدم النقود كقروض ، وكان يتعامل في الرصاص والفضة والملابس و « الحمير السود » مهما كان نوعا . وربما كانت هذه الحمير اقوى تربية ، او لان الحمير في بلاد الرافدين كانت يبيضاء

(*) 'بنط' Punt والذي اعتقده ان المقصود بهذه الكلمة هو بلاد البنط وهي اقرب الى مصر واسهل وصولا اليها من بلاد حضرموت التي تقع على البحر العربي .

(**) دير البحري يقع في منطقة « الاقصر » التي يقوم فيها « وادي الملوك » في مصر

اللون بصفة عامة ، وان مجرد اللون يعطي دلالة على اصولها • او ربما كانت هذه الكلمة محض ترجمة سامية للاسم الاسيوى الذى كان يطلق على الحصان الذى ما يزال ، رغم عملية التأقلم ، غير معروف في اودية نهري دجلة والفرات •

تنظيم القافلة

تلقى الرقم الكبدوكية قدرا كبيرا من الاضواء على تنظيم القوافل. وطرق تمويلها • فقد كان رجل التجارة يضع شروطه مع احد اصحاب القوافل المنتظمة ، او ربما مع تاجر موقت حيث يقوم هذا الاخير بجمع الحيوانات، وتنظيم امر طعامها ، وحزم السلع التي يراد نقلها • ثم يحدد يوم لحركة القافلة ، واذا تأخر التاجر عن اليوم المحدد فان مرتبه يتوقف من ذلك اليوم موضوع البحث •

وفي بعض الاحيان ينص العقد على ان مالك القافلة ينبغي له ان ينقل البضاعة الى وجهتها النهائية ، ولكن الترتيب الجاري في الغالب ، هو ان يسافر صاحب القافلة معها الى نقطة محددة من المسافة ومن ثم يسلم قافلته الى صاحب قافلة اخرى ، يمضى بها الى مسافة اخرى •

وقد يتلقى المالك الاول حمولة جديدة في مقابل ذلك ويعود ادراجه الى النقطة التي بدأ منها • ويحدث في بعض الاحيان ان يحول صاحب القافلة نفسه الى بائع متجول يستري السلع من الاقطار التي يمر بها ويجري فيها بيعه، كيما يبيعها ثانية في بلد آخر ومن ثم يكرر هذه العملية في طريق عودته •

وقد تتخذ الاجراءات المالية اشكالا متباينة • فاما ان يدفع المساعد كل النفقات ويأخذ كل الارباح ، ثم يدفع الى صاحب القافلة مرتبا محدودا ، او ان يحصل الاخير على نسبة من الارباح • وتطلب بعض الضمانات غالبا من صاحب القافلة الذي تكمن مصلحته في نجاح المغامرة •

وغالبا ما يجد سيد القافلة نفسه يحمل بعض المعادن من امثال الرصاص او الفضة ، التي كانت في ذلك العصر تمثل مجرد سلعة وليس تقدا . غير ان العلاقات بين مختلف فروع احدى الشركات تكون وثيقة مثال ذلك ان رسالة من احد رجال الاعمال في الاناضول قد يطلب فيها من مراسله في مكان بعيد ان يسلم كمية من القمح او المعادن الى حامل تلك الرسالة .

ان هذا يمثل في الطبع بكل بساطة نظام الصكوك او رسائل الائتمان . والواقع ان هناك احتمالا كبيرا في ان يكون « الفرسان تمبرلارز » (*) الذين عهد اليهم بصفة عامة باختراع الصيرفة كانوا يتسلمون ويطبّقون بكل بساطة على الفروع المتعددة لطاقتهم ، الطرق التي نسيت في اوربا لكنها ظلت سارية المفعول في الشرق منذ عهود قديمة .

الاعمال التجارية في نوزا(**)

والفترة الثانية التي نستطيع ان نحصل فيها على صورة جلية عن فعاليات احدى شركات الاعمال ، تقع اثناء سيادة شعوب اسيوية عرفت باسم الحوريين - الميتسانيين(***) في نوزا على مقربة من كركوك في بلاد آشور .

(*) تمبرلارز Knights Templars هم طائفة من الرسل الذين كانوا يتولون نقل الحوالات او الصكوك النقدية من مكان الى اخر في اوربا .

(*) نوزا وتلقظ نوزي ونوزو أيضا وتعرف خرائبها باسم يورغسان تبه ، وهي مدينة قديمة على بعد ثمانية أميال جنوبي شرقي كركوك ، نقيت فيها المدرسة الامريكية في بغداد وبعثة جامعة هارفارد فمشرت على حضارة مزدهرة وكثير من الرقم الطينية التي تبين تصرفات اهالي هذه المملكة (انظر كتابنا : السراق القديم طبعة ١٩٧٦ ، ففيه فصل مهم عن نوزا) .

(**) الحوريون . والميتسانيون : الحوريون استوطن اعالي بلاد الرافدين غير ان اهميته السياسية والحضارية ليست مؤكدة . اما الميتانيون فانهم شعب استوطن المنطقة المحصورة بين نهري دجلة والخابور ، وقد اشتهر بالقوة . يصفه خاصة من الالف الثاني حتى القرن الرابع عشر قبل الميلاد .

فنحن في هذه القضية أيضا مدينون بمعلوماتنا الى سجلات احدى الاسر من اناس اصحاب اعمال امتدت حوالى اربعة او خمسة اجيال . وقد تعاظمت قيمة هذه السجلات في نظرنا لكونها ترقى الى عصر مختلف ومحيط مغاير عن الرقم الكبدوكية ، فهي تكشف عن بعض الفوارق في التطبيق التجاري .

ذلك ان التاجر الكبير « تخب - تلا » كان يتعاطى كل شيء لكنه كان مع ذلك يدير جانبا منفصلا من التجارة خاصا به .

ففي العصر الذي نتحدث عنه كان نظام الاقطاع الذي بمقتضاه تمنح الارض من لدن الملك ، ما يزال ساري المفعول في بلاد آشور . وقد حصل هذا النظام معه الالتزام ببعض اشكال من الخدمة ، من اهمها العمل الاجباري والخدمة العسكرية ، غير ان هذا بقي معمولاً به بصفة مطلقة ولا يمكن تغير المالك الا بالوراثة .

وطبقا لذلك اقدم تخب تلالا على تطبيق عملية تبنى الآخرين بالجملة وعلى نطاق واسع . فقد كان اولاده الذين تبناهم يجلبون له الارض وهو يتفضل عليهم مقابل ذلك بهدية لا تساوي شيئا بالنسبة الى قيمة الارض في السوق السوداء .

موراشو النفصري

اما العصر الثالث الذي تستطيع ان تراقب فيه اعمال بيت كبير للاعمال التجارية ، فيقع في بداية الفترة الفارسية (النصف الثاني من الالف الخامس قبل الميلاد) ، او في نهاية العصر الذي يشمل هذا الكتاب .

لقد كان هذا البيت التجاري ملكا لشخص يدعى موراشو واولاده ، والذي كان يضم مئات البيانات . كانت عائلة موراشو يهودية ، وعندما استولى نبوخذنصر على بيت المقدس سنة ٥٨٧ قبل الميلاد ، واسر اهم السكان (من بينهم النبي ارميا) كانت اسرة موراشو بين اولئك الاسرى .

لقد اعدت هذه الاسرة العدة للثراء في منفاها هذا ولذلك امضت ازهى ايامها في مدينة نهر في عهد الملكين « خشايارشا الاول » (٤٦٤ - ٤٢٤ قبل الميلاد) ودارا الثاني (٤٢٣-٤٠٥ قبل الميلاد) (*) .

كُتبت الرقم التي تخص هذه الشركة التجارية بالحروف المسمارية غير ان عددا من الوثائق يحل . على وجه واحد ، خلاصة محتويات مؤلفة من كلمات ارامية قليلة كُتبت بالحبر . ففي هذا التاريخ وحده لم يكن سوى الافراد المثقفين ثقافة عالية يستطيعون الكتابة بالمسمارية والاكديّة . وكانت عامة الشعب يتكلمون الارامية واذا استطاعوا ان يكتبوا اطلاقا فانهم يكتبون بالآرامية ايضا .

ومن المحتمل ان تكون الرقم موضوعة البحث تمثل اضافير الشركة ، وان خلاصة المحتويات المدونة بالآرامية قد تعين الكتابة على وجود الوثيقة التي يريدونها وتقديسها الى احد اعضاء الشركة ممن يستطيعون قراءة الكتابة المسمارية .

هناك عدة نقاط ترتبط بطرائق تنظيم العمل . ذلك ان ارباب العمل الكثيري العدد من امثال انبيوتات الملكية او المعبد ، كانوا يمتلكون الارقاء الذين كانت توزع واجباتهم فيما بينهم .

وقد يحدث في مثل هذه الحالات ان لا تكون هنالك وثيقة تسجل

(*) اششوريش الاول او اردشير ، ويعرف لدى اليونان والرومان باسم ارتكسيريكيس Artaxerxes هو ابن دارا الاول الكبير ، تولى العرش بعد وفاة ابيه ، وخاض عدة معارك مع اليونانيين لكنّ الفشل كان مصيره .
اما دارا الثاني ، ويعرف باسم داريوس وداريوش فهو ابن اردشير الذي تولى الحكم بعد اردشير الاول ، وقد واصل خطة الحرب ضد اليونان ، وبمّث بابنه كورش على رأس جيش كبير الى بلاد اليونان حيث استطاع ان يتحالف مع الاسبارطيين وان يلحق ، نتيجة لذلك ، هزيمة شنيعة باليونانيين .

العمل الذي كان يتم انجازه فعلا ، ولكن اذا كان العمل ممثلا في اجر نوعي يستحقه الملك او العبد ، فقد يقدم بذلك طلب شكلي ، وبذلك نستطيع الاطلاع عليه من الرقم الطينية .

لم نبق اية اشارة للاعمال اليومية ، ولكن هنالك عقد ، ووعد بيع ، ووعد بدفع مبلغ في تاريخ محدد ، وتأجير منزل او بستان ، واسقاط دين كله ، او جزء منه . وتسليم بضاعة الى طرف ثالث عينه المشتري . فكل هذه القضايا قد ترسم لنا صورة وثيقة شكلية تساعدنا على زيادة معلوماتنا .

وعلى الرغم من وضع العمال المتسم بالخنوع فان من يستخدمونهم لم يكونوا في الواقع يمتلكون حقوقا غير محددة عليهم . فقد سبق لنا في فقرات سابقة ان رأينا اخطرا موجها الى متهم يسترعي الانتباه الى نتائج الاهمال . ففي هذا العصر كانت القوانين في حاجة الى ان تضمن بان العمل كان يتم انجازه على وجه صحيح .

معدلات الاجور

لا توجد معدلات محددة للاجر ، وان من العسير ان نقرر قيمته بدقة وذلك لان كل المدفوعات ، بسبب عدم توفر النقود ، كانت تتم بكميات من الشعير . وكان يقصد بهذا الحفاظ على العامل ، وان اي فائض من الشعير لا يأكله كان يتم استبداله بضروريات اخرى .

وفي عهود السلالة السرجونية الاولى ، والبابلية الحديثة والفارسية ، كانت العقود توثق بالقبضة التي وان لم تكن لتضرب في صفة تقود بالمعنى الحديث لذلك ، الا انها كانت دون ريب وعلى اقل تقدير على شكل الواح صغيرة او سبائك مختومة بشعار يضمن وزنها .

ومع ذلك فهذا الدليل يكفي لاكثر من مجرد التقدير الفج للقيم النسبية للسلع والخدمات .

حساب الخسائر والارباح

هنالك طراز واحد من الاجور لكنه كان اقل شيوعا ، اخذ يميل الى الاختفاء عند نهاية العصر الذي تحدث عنه .

هذا الطراز ، كما كان يطبق مثلا بالنسبة الى العامل ، ينطوي على اعطائه المواد الخام التي يحتاج اليها في العمل الذي يمارسه ، والسماح له بان يحصل بمثابة اجر ، على أي فائض يتبقى من تلك المواد بعد انجاز عمله .

وهكذا نجد خلال الحكم الاكدي الملكي ان صانع الدروع كان يتسلم مقدارا معيناً من معدن ليصنع منها الخوذ ، سوية مع جلود البقر للتغليف ، والصوف للبطانة الداخلية . ففي ذلك التاريخ كانت الخوذ تطبق على الرأس تماما ، وتؤدي من يرتديها الا اذا تم تبطينها .

فعندما كان الصانع يكمل الكمية المقررة من الخوذ ، يحتفظ ، كأجر خاص له ، بالفائض من المعدن والجلد ، والصوف .

ان النص الذي يسجل مثل هذه المعاملة يجعل في الامكان احتساب وزن الخوذة الواحدة في هذا التاريخ ، والحكم بأنه كان نفس وزن الخوذة التي بقي الفرسان يرتدونها حتى عهد متأخر .

واخيرا لما كان كبار اصحاب الاراضي من امثال القصر او المعابد يملكون معظم انحاء القطر ، فقد كان المالك يعتمد في الغالب الى تنويع الحوايت التي يشتري منها اتباعه ما يطلبونه من حاجيات .

وكان في اغلب الاحيان يدفع الى عماله بصفة غير مباشرة توزيعات مختلفة من الاقوات وتلك طريقة كانت شائعة خلال حكم سلالة اور الثالثة . ولقد سبق لنا ان اشرنا الى رقم طينية تسجل الحصاة التي يتسلمها كل متسلم مما نسميه بالخبز ، والشراب المخمر ، وفي بعض الاحيان كمية من التمور

ومقدار محدد من الزيت ، ورماد الصودا وذلك بدلا من الصابون دون ريب
[انظر ما سبق ذكره عن الصابون والخمر] •

المراقبون

كان العمل • بغض النظر عن الضرق التي ينظم بها • يتخبط وجود عدد
كبير من المراقبين • ففي عصر اوروكاجينا الذي كان من المصلحين الشهيرين
لم يعد هنالك • بامر خاص منه • مراقبون للسفن او لقطعان الماشية في كل
المنطقة التي كانت تخضع لسلطة مدينة لكش •

ان لدينا فكرة طريفة عن اولئك المراقبين الذي وجدوا في عهد سلالة
اور الثالثة والذين كان الواحد منهم يسمى « الرجل ذو العصا » وهو عنوان
يعطي صورة مشرقة •

وفضلا عن ذلك كان ملوك العهد الآشوري يعتنون عناية جيدة بان
يدعوا سجلا تصويريا لنقل ثيران مجنحة هائلة تحرس ابواب القصور ، من
بين المهام الجسيمة الاخرى التي كانوا يطلبون تنفيذها •

ففي المتحف البريطاني منحوتة تبين الموظف الذي عهد اليه بالعمل
المنصب على نقل تمثال هائل ربطت به صفوف ضويلة من الرجال ، ويحمل هذا
الموظف بوقه • مثل مراقب العمل العصري تماما الذي يحمل صفارته أثناء مد
قضبان سكة الحديد أو الاسلاك الكهربائية •

ففي نهاية العصر الذي تتناوله الان ، كانت فرق العمال تحت اشراف
مراقبين تمكس القابهم عدد الرجال الذين كانوا يعملون طبقا لوامرهم ،
والذين يتألفون من عشرة رجال او مائة •

نفقات المعيشة

لا يسكن لاي بحث في هذا الموضوع ان يوفر بالطبع اكثر من مجرد

جملة من الارقام • فهو لايمكن ان يقدم قاعدة مفيدة للمقارنة مع الاحوال الحديثة •

وينبغي لنا أن نبدأ بتوضيح نظام الاوزان والمقاييس الذي كان مطبقا بصفة عامة في بلاد بابل وأشور • فمثل هذا الوصف ضروري لانه ربما لا يوجد نظام شامل من هذا النوع في تاريخ كانت فيه مدن بلاد الرافدين تتمتع بدرجة من الاستقلال اوسع مما كانت تتمتع بها المدن الاوربية في العصور الوسطى •

ففي القرون الوسطى على سبيل المثال كان « غرام » (تورناي) (*) وغرام باريس ساري المفعول ، وكانت انظمة القياسات القديمة والجديدة موجودة جنبا الى جنب • وحتى في الوقت الحاضر ما يزال البشل (**) والستير (١٨) والبرتش والكوادرون ، مستعملة في فرنسا (**) الى جانب وحدات النظام المتري •

اما في بلاد الرافدين القديمة فالواقع انه وجدت ، الى جانب الوحدات المستعملة محليا ، سلسلة من الاوزان تدعى اوزان الملك « التي ربما كان البيت المالك يستعملها او لا يستعملها طبقا لما اذا كانت للدفع او الاستلام • ففي العهد الفارسي كان للصيرفي الكبير موراشو ، الذي التقينا به قلا ، نظام خاص به للاوزان والقياسات • فاذا ما اضفنا علاوة للعصر والبلاد فاننا نجد ان الوحدات التالية للقياسات مجسدة في عقود تجارية [المعادلات الانكليزية كلها تخمينية] •

(*) تورناي Tournais هي مدينة تورين الايطالية على اكثر احتمال •

(*) البشل مكيال انكليزي للحبوب يبلغ ٣٦٣٥ لترا •

(١٧) الستير مكيال للسوائل وللقمح يبلغ حوالي غالونين أو اثني عشر

بشلا ، وهناك مرادفات مماثلة بالنسبة للقاري الانكليزي • البرتش Perch

مقياس أطوال انكليزي يعادل الياردة •

(**) الكوادرون Quadroon مكيال رباعي •

جداول الاوزان

١ ————— ٦٠٠ ٣ اونس	١ شي (قمح) $\frac{2}{3}$ الحبة
١٠ اونس	١ شقلو (شاكل) ١٨٠ شي
١٨ اونس ^(*) ٦٧ لبرة	١ مانو (مينا) ٦٠ شقلو ١ بلتو (مالت) ٦٠ مانو

اما في العصر البابلي الحديث فان الحبة (شي) لم تعد تستعمل كوحدة اساسية ، وان الكميات الصغرى كان يمرر عنها كاجزاء من الشاكل واصغر جزء هو واحد من اربعة وعشرين من الشاكل او (ابول Obol) واحد .

(*) هو « المن » الكيل المعروف عندنا .

جدول المساحات

أ - سلا ٠٠٠٠

سلا أو « كا » $\frac{1}{4}$ بنت

١ - مسكتو Massikto أو (بي Pi) = ٦٠ كا ١١ غالون أو $\frac{1}{4}$ بشل
(وقد خفض المسكتو في العصر البابلي الحديث الى ٣٦ كا)

١ اميرو Imeru (حل حبار) = ١٠٠ كا $\frac{1}{4}$ ١٨ غالون أو
 $\frac{1}{4}$ ٢ بشل

وكان يستعمل في بلاد بابل مقياس يدعى « كور و Kurru » أو « غور

Gur « الذي يساوى ١٨٠ سلا (= ٣٣ غالون أو — ٤ بشل) • غير
١٠

ان ال (سلا) غالبا ما كان يقدر بمقدار ثلاثة ارباع البنت والذي يجعل
لغور حوالي ستة عشر غالونا أو بشلين (*) •

(*) ال • بنت Pint مكيال يعادل ٥٦٨ • من اللتر

مقاييس الاطوال

- ٢ بانو (اصبح) $\frac{1}{2}$ بوصة
 - اٲماتو (ذراع) = ٢٤ اٲبانو $\frac{1}{2}$ ١٥ بوصة
 - كانو (قصبه) = ٦ اماتو ٧ اقدام و $\frac{1}{2}$ ١٠ بوصة
 - غار = ١٢ اماتو ١٥ قدما و ٩ بوصات
 اما في بلاد بابل فقد كانت المقاييس التالية مستعملة ايضا •

- اشلو = ١٠ غار $\frac{1}{2}$ ١٥٧ قدم
 ($\frac{1}{2}$ ٥٢ يارد)
 يرو = ١٨٠٠ غار $\frac{1}{2}$ ٥ ميل

مقاييس المساحات

- مسارو = اغار مربع $\frac{1}{2}$ ٢٧ يارد مربع
 ■
 ايكو — من الفدان
 ٦
 ١ بورو ١٥ فدان

وكان يعبر عن مساحات الاراضي ايضا بمقادير كمية القمح المطلوبة لزراعتها ، اي بواسطة « بي Pi » و « اميرو Iméru » • ويتضح من هذه الفروق التي لم نلاحظ سوى الاساسية منها في هذه الجداول ، ان المقارنات لايمكن ان تتم بمقادير واسعة جدا •

مقاييس وحدة التبادل أو التحويل

كان الشعر ، كما اوضحنا ذلك قبل ، يمثل الاداة الرئيسة للتبادل ، وكان يعبر عن هذا في عصر متقدم مثلما يعبر عن سعر شراء القضة او الرصاص ، غير ان القضة ما لبثت ان اخذت تحتل بالتدريج مكانة الشعر ، ولم تكن لتقدر بالعملة لان هذه لم تكن قد اخترعت بعد ، وانما تقدر بالوزن بصفة خاصة .

ويمزى اختراع النقود الى بلاد « ليديا » بصفة عامة(*) غير ان اللحظة الحاسمة كانت اول مصادفة تم فيها التعامل في التجارة بمقادير سبائك القضة الصغيرة المختومة ببعض الشفارات من امثال رأس عشتار أو رأس شمش .

وكان سنجارب (٦٠٧ - ٦٨١ قبل الميلاد) يقوم بضرب النقود فصلا ومن قطع شعيرة عندما سجل في مدوناته التاريخية قائلا « لقد أمرت بصنع قالب من الطين ، وان يصب البرز فيه لصنع قطع من فئة نصف شاقل »

$$\frac{1}{7} = (\text{اونس})$$

وكانت أولى النقود الواسعة الاستعمال في غربي آسيا هي (الداركات)(**) الفارسية (نسبة الى الملك دارا) ، غير ان هذه العملات كانت ، منذ اللحظة الاولى التي اخترعت فيها ، تؤدي ذات الوظيفة التي كانت المسيكة المعدنية

(*) ليديا Lydia مملكة في اسيا الصغرى ، عاصمتها بدينة مرديس اشتهر ملكها قارون الذي ذكر في القرآن الكريم ، واسمه لدى الاوربيين كرويسوس في عهد الاخمينيين ، وقد هزم قارون أمام كورش ملك الاخمينيين ، وسقطت عاصمته بايدي الفرس سنة ٥٤٦ قبل الميلاد .

(**) ججع-دارك .

تؤديها في اقتصاديات اوربا الغربية خلال الثلاثين سنة الماضية ، ولم تتخل عنها خزينة الدولة الا عندما كانت تستعمل للتسويات بين بلدين ، أو لدفع اجور المرتزقة •

وكانت كل المعاملات الاخرى تتم بمقادير الفضة ، اما بالوزن او بالعملة المضروبة ابتداء من تأريخ الملوك السلوقيين وما بعده • وكانت الفضة ايضا مقاس وحدة القيمة ، فاذا ما سدد دين ما بالذهب جزئيا وبالفضة جزئيا فان نسبة مجموع ما دفع بالذهب يعبر عنها بمقادير الفضة •

يكشف تمحيص العقود في عهد الامبراطورية البابلية الحديثة عن المعدلات التالية للقيمة بين الفضة والذهب وبين الفضة والمعادن الاخرى •

الفضة	الذهب	التأريخ
١٥	١	السنة الرابعة من حكم الملك نبوخذنصر
١٢	١	السنة السابعة من حكم الملك نبوخذنصر
٨	١	السنة السابعة من حكم الملك نبوخذنصر
١٠	١	السنة الثامنة من حكم الملك نبوخذنصر
١٣ و ٨ ١/٢	١	السنة الثامنة من حكم الملك نبوخذنصر
١٢	١	السنة الحادية عشرة من حكم الملك نبوخذنصر

(ملاحظة : وقعت المعاملتان في ذات اليوم)

ان التوضيح الوحيد الممكن لهذه الفروق هو انها تعكس تقدير النسب التخمينية وتمثل نقاء الذهب والفضة بالتعاقب •

كانت القيمة المقارنة لوحدة من الفضة ، بالنسبة الى مقادير المعادن

الآخري كما يلي : النحاس ١٨٠ ، الرصاص ٤٠ الحديد الايجيني (من قبرص)
١٤٠ ، الحديد (من لبنان) ٣٦١ •

ان هذا يشير الى ان الرصاص كان يأتي في الدرجة الثانية من القيمة بالنسبة الى الفضة • ويعكس فرق السعر بين الحديد الايجيني او القبرصي او اللبناني ، الفرق في النوعية ، وان ذات السبب يكمن وراء فروق من خمسة اضعاف في قيمة الرصاص •

ان هذه النقاط تحتاج الى تأييد ثابت • ولذلك ينبغي لنا ان نتذكر بان مجرد قراءة احد العقود لا يمكن ان تعطينا معلومات دقيقة عن النسب ودرجات النقاء لمختلف المعادن المختصة في حين اننا لا نعرف في الغالب حتى الميزان الذي كان يستعمل لهذا الغرض •

ان واحدا من الامور القليلة التي نستطيع ان نقولها بشيء من التاكيد هو ان وزن الشاقل يعادل بصفة تقديرية وزن الربع الامريكي (٢٥ سنت) او اقل من « البني الواحد = ثلث اونس » بقليل •

قيمة السلع

نحن نعرف اسعار بعض السلع المحددة • ففي العصر البابلي الحديث كان « الغور » الواحد^(١٩) من التمر يساوي شاquila واحدا ، غير انه في العهد الفارسي اصبح يساوي شاقلين • وكان سعر الشعير في الاصل نفس سعر التمر • ولقد أصبح فيما بعد غاليا كثيرا لكن السعر كان يخضع

(١٩) في هذا القسم عد الغور مبادلا لاربعة بثلات • ولكن على القارىء ان يتذكر (ما ورد قبالا في جدول الاوزان) بان قيمته في بعض الماملات كانت تساوي بثلين ليس الا •

لتقلبات كبيرة خلال السنة ، ويهبط بمقدار كبير في موسم الحصاد .

وكان الثوم يباع بالشدات ويشير عقد مؤرخ من عهد الملك كورش الى ارسالية واحدة من الثوم تبلغ تسعة وثلاثين الف وخمسمائة شدة .

ولقد بقي السمسم غالي الثمن ، اذ كان يكلف ما بين ثمانية واثنى عشر شاقلا للغور الواحد او حوالى ثلاثة اضعاف الشعير ، في حين كان زيت السمسم يكلف اكثر من شاقل واحد لكمية تختلف من ستة وثلاثين (سلا) (٥٤ بنت او ٦ ٣/٤ غالون) الى ١٤٥ سلا (٢١٦ بنت او ٢٧ غالون) ، لكنه كان بصفة عامة اقرب الى الرقم الواطىء .

وكان الكرم ينمو في شمالي بلاد بابل في ذلك التاريخ ، وكان الخمر المستخلص منه ينافس الخمور التي كانت تستورد من منطقة « طور عابدين » (اسالو القديمة) (*) ومن سوريا . وكانت الخمرة الجيدة المصنوعة من العنب (كرانو Kurano) تساوى اكثر من ثمانية شواقل للجرة الواحدة ، في حين كان افخر انواع الخمور المستخرجة من التمور (شكرو Shikaro) تباع بما لا يقل عن الشاقل الواحد .

وكان الصوف الصقيل (شباتو Shipatu) يباع بمعدل ٢ مينا (٢ ١/٢ ليرة) بشاقل واحد خلال العهد الفارسي في حين كان الصوف الارجواني المصبوغ لا يكلف اكثر من خمسة عشر شاقلا .

ولا يوجد دليل في العقود الموجودة الان عن سعر القنب والكتان

(*) طور عابدين هي منطقة الجبال التي تعرف الآن باسم جبال طوروس وتمتد من شمال سوريا الى داخل بلاد تركيا .
(*) هي نفس كلمة « سكر » العربية أو شكر بالمانية العراقية .

ولو ان المؤرخ مترابو (الكتاب السادس عشر ١ ، ٧) قد اشار مؤخرًا الى صنعهما في بورسيبا (*) على مقربة من مدينة بابل .

وكان ثمن ثور واحد يتراوح ما بين عشرين الى ثلاثين شاقلا ، وثمان كبش او معزة حوالى شاقلين . وكان الحمار غالى الثمن اذ ان معدل سعره يصل الى حوالى ثلاثين شاقلا .

وكان سعر ما يتراوح بين خمسين الى مائة اجرة يبلغ شاقلا واحدا ، وكذلك سعر ستمائة مينا من الاسفلت (٦ هند رويت) (***) .

وكان الخشب مرتفع السعر كما هو متوقع . ففي عهد حكم نبوخذنصر كان ثمن اربع وعشرين قطعة من الخشب القبرصي يكلف سبعة وعشرين شاقلا ، وخمسة طالانات (٤ هندرويت) من خشب الارز ، نصف مينا . وهناك مقدار جيد من الادلة عن سعر المعادن ، وان احدى المعاملات تشمل الكميات التالية :

١٠ طالانات (٦ هندرويت) من النحاس المجلوب من قبرص بسعر ٣ مينا و ١ شاقل من الفضة .

٣٧ مينا (٤٠ ليرة) من الرصاص بسعر ١ شاقل ٥٥ .

١٦ مينا و ١٥ شاقل (١٧ ليرة) من الصوف المصبوغ بسعر ٢ مينا و ٣ شاقل .

(**) بورسيبا مدينة أثرية تقع جنوبي بابل وتبعد عن مدينة الحلة بحوالى عشرة أميال تعرف خرايبها باسم « برس نمرود » ورد ذكرها في شريعة حمورابي وفي كتب الفتح الاسلامي حيث وقعت عندها احدى المعارك مع الفرس ، وظلت القرية قائمة ، وقد اشتهرت في العصر العباسي بإنتاج انواع فاخرة من الثياب عرفت بالبرسية ، نقتب فيها بعثة المانية سنة ١٩٠٢ .

(***) الهندوزيت CWT قطران انكليزي يعادل ١١٢ رطلا .

٥٥ مينا (٦٠ ليرة) من حجر اللازورد بسعر $\frac{1}{4}$ مينا و $\frac{2}{3}$ ٦ شاقلا .
 ١٣٠ مينا (١ هندرويت ، ٣٠ ليرة) من الحديد القبرصي بسعر نصف
 مينا واثنين ونصف شاقلا .

٢٥٧ مينا (٢٢ هندرويت) من الحديد اللبناني بسعر ثلثي مينا
 وشاقلين وثلثي الشاقلا .

ويبين الجدول التالي التغيرات في اسعار الارقاء ولو اتنا لا نستطيع
 هنا ان نؤكد هذا بمقادير النقود المصرية .

معدل السعر في حكم الملك

٤٠ شاقلا	نبوخذ نصر
٥٠ شاقلا	نبونيدوس
٦٠ شاقلا	كورش
$1\frac{1}{4}$ مينا	قمييز
$1\frac{3}{4}$ مينا	دارا
٢ مينا	اخشويرش (اردشير)

ولقد ارتفعت قيمة المزارع والعقارات بشكل ثابت فيما كانت المائة
 غور (اكثر من نصف فدان بقليل) في اوائل العصر تساوي شاقلا واحدا ،
 لم يعد يشتري في عهد نبونيدوس بذلك المبلغ اكثر من عشرة الى عشرين
 غور (٢٦٠ او ٥٢٠ يارد مربع) .

وفي عهد كورش كان البستان الذي تبلغ مساحته مائتين وخمسين ياردا
 مربعا ، يكلف اكثر من شاقلين واقل من ثلاثة في عهد دارا .

وبيعت دار مع ارض صغيرة بخمسة عشر شاقلا للوحدة التي عرفت باسم « قصبة »(*) قبل العهد الفارسي . اما في عهد الملوك الفرس فقد ارتفع السعر الى اكثر من اربعين شاقلا .

واخيرا ندرج هنا اسعارا متنوعة للملابس وللاذوات المنزلية . فلباس النوم باثنين مينا ، وسر خمسين اداة صغيرة شاقلان ، واحدى عشرة كاسا نحاسية بشاقل واحد ، وكومتان منفصلتان مؤلفتان بالتابع من مجرفة حديدية وفأس واداتين غير محددتين ، واربعة كراسي وثلاثة اسرة ، بيعت كل كومة منهما بشاقلين في عهد حكم كل من نيونيدوس وكورش .

وكانت معدلات الاجور تختلف اختلافا واسعا . فقد كان حارسا معبد يتسلمان اربعة وثلاثين شاقلا عن مدة اثني عشر يوما .

وفي عهد الحكم الفارسي كان يدفع الى العبد ثلاثة شواقل في السنة ، وهو ذات المبلغ الذي كان يدفع الى اربعة عمال لم يوصفوا باهم من الارقاء .

ولما كان عدد الناس الذين يملكون رأس المال ليشتروا به ، قليلا فقد كان الاستئجار شائعا . ففي الامكان تأجير زورق بمبلغ نصف شاقل في اليوم ، وقد اصبح هذا الاجر شاقلا واحدا في عهد دارا .

وهذا السعر كان يوفر علاوة ، ذلك لان الزورق سوف يستعمل باستمرار في الواقع ، فاذا ما تم بيعه يبقى مهنلا لفتترات محدودة ولن يساوى حينذاك اكثر من مينا واحد او اثنين .

(*) القصبة بقياس طولى لتعديد مساحة الاراضي ولا يعلم مقداره . وكان الشائع ولا يزال حتى اليوم ان تقاس مساحة الشواطىء التي تزرع صيفا بطول خشبة المسجلة ، وهذا الطول عرضة للتلاعب من قبل الملتزمين عادة .

وكان احد الثيران يُؤجر بمقدار عشرة غور من الشعير سنويا او حوالى عشرة الى عشرين شاقلا ، ويؤجر الكوخ او الحانوت بمقدار غور من الشعير في السنة •

واخيرا كان يدفع عن ارواء بساتين النخيل ربع حاصل التمور ، على اساس ان مقدار الحاصل يكون متناسبا مع الارواء •

ان الانطباع العام الذي يمكن استخلاصه من آلاف العقود التي بقيت سالمة من العصر البابلي الحديث ، هو انه منذ ذلك العهد حتى العهد الفارسي ، حدث ارتفاع واضح في اسعار السلع والاراضي والبيوت •

وهكذا لم تكن بلاد الرافدين ، مثل عالم اليوم ، غريبة بالنسبة الى ارتفاعات السعر ، واقنا لنسج ذات الشكاوى عن الاسعار العالية في حين ان اصغر محاولة لمحاربة التضخم كانت تقاوم بشدة ، لان معدلات الاجور لم تكن تتمتع بذات حرية الحركة التي تتمتع بها في الوقت الحاضر • - المقصود بذلك زمن صدور هذا الكتاب بالانكليزية عام ١٩٥٤ - •

لقد قام المشرعون العراقيون بجملة محاولات لتثبيت الاسعار ، غير ان التحصيل الوثيق يوضح ان اي نجاح اصابوه في ذلك كان عرضيا ، وانهم لم يكونوا يعملون اكثر من ان يسجلوا برضاهم الاسعار الواطئة لبعض السلع ، في حين لم تكن حساباتهم بالنظر الى بقية السلع اكثر من اهتمامات طيبة مغايرة للواقع • ولا بد للزء ان يتذكر حلم هنري الرابع ملك فرنسا من ان على كل فرنسي ان يكون قادرا على ان يتناول فراخه في عشاء يوم الاحد !

لسنا بحاجة الى اكثر من ان نتذكر المصلح اوروكاجينا (النصف الاول من الالف الثالث قبل الميلاد) الذي حقق انخفاضا ملموسا في الاجور التي كان الكهنة يتقاضونها عن الجنائز ، والتي كانت تتألف من ثلاث كيلات من الشراب ، وثمانين رغيفا من الخبز ، وجدي واحد ، وسرير واحد ، بدلا

مما كانوا يتقاضونه قبلا وهو سبع كيلات تتألف من ثلاث كيلات من
الشراب ، وأربعمائة وعشرون رغيفا من الخبز ، ومائة وعشرون كيلة من
القمح ، وجلباب واحد ، وجدي واحد ، وسرير واحد .

وإذا ما حصرنا انفسنا بعصر متأخر فاتنا نجد (سن غاشد) (*) ملك
الوركاء (الذي حكم في القسم الاول من الالف الثاني قبل الميلاد) كان
يتطلع الى وضع سعر مقداره شاقل واحد لكل ثلاثة اغوار من القمح ، او
اثني عشر مينا من الصوف ، او عشرة مينا من النحاس ، او ثلاثين سلا من
الزيت .

ويسجل شمس ادد الاول (**) الذي حكم خلال عصر حمورابي
(بداية القرن الحادي عشر قبل الميلاد) ان في عهده كان السعر الاعتيادي في
مدينة آشور ، شاقلا واحدا من الفضة لكل غورين من القمح ، او اثني
عشر مينا من الصوف او عشرين سلا من الزيت .

فاذا ما ترجمنا هذه الاوزان المتعاقبة في عهد الحكيمين بعبارات عصرية
واضفنا اليها العلاوات ، فاتنا نجد هذه الارقام تعادل ما يلي :

عهد سن غاشد : ٢١ بشل من القمح ، او ١٣ لبرة من الصوف او ١١ لبرة
من النحاس ، او خمسة غالونات ونصف من الزيت تعادل اثنين من
سبعة من الاونس .

(*) الملك سن - غاشد اول ملك من ملوك سلالة الوركاء الساسية ، حكم

في الفترة ما بين ١٨٦٥ و ١٨٣٣ قبل الميلاد .

(*) شمس ادد الاول (شمس أد واشور) من اعظم ملوك بلاد الرافدين
حكم في الفترة ١٨٢٣-١٧٩١ قبل الميلاد ، وكان معاصرا وخصما عنيدا لحمورابي
ملك بابل . وردت معلومات كثيرة عنه في السجلات الملكية التي عُثِرَ عليها في مدينة
ماري .

عهد شمس ادد الاول : ١٤ بشل من القمح ، او ١٣ لبرة من الصوف ، او
ثلاثة غالونات وثلاثة ارباع الغالون من الزيت تعادل اثنين من سبعة
من الاونس من القضة •

ان هذا يشير الى وجود ارتفاع ملحوظ ، في عهد حكم شمس ادد الاول،
في اسعار الجبوب والزيت ، في حين بقيت اسعار الصوف والقضة ثابتة •

وكافت اسعار المعادن طيلة قرون عديدة عرضة للتغير دوما • والواقع حتى
في الوقت الحاضر عندما يكون سعر الذهب ثابتا بصفة نسبية في بعض الاحيان
على الاقل ، فان هذا الاستقرار يعود الى اتفاق دولي • وعلى النقيض من ذلك
فان اسعار المعادن من امثال النحاس الذي يتعرض لتأثيرات قانون العرض
والطلب ، ويكون ذا حساسية بالنسبة الى العوامل التي يتضمنها الانتاج فان
هذه الاسعار تكون عرضة لتقلبات صريحة وغنيقة •

النحاس والبرنز

من المهم ان تذكر بصفة واضحة التواريخ التي ادخلت فيها مختلف المعادن
لاول مرة • ففي بداية العصر التاريخي كان النحاس معروفا في بلاد الرافدين ،
وكان مصدره ارمينيا والافاضول او كبادوكيا • ولكن لم يعرف البرنز الذي
يتألف من سبيكة من القصدير والنحاس بصفة رئيسة •

ومع ان التحليل قد اظهر آثارا دقيقة من القصدير في بعض امثلة المعادن
التي يعود تاريخها الى هذا العصر ، فان بحثا آخر يكشف عن آثار معادن اخرى
ايضا • وكل هذه المعادن لم تكن نقية •

وحين ظهر البرنز لاول مرة في عصر الملك غوديا(*) وعهد سلالة اور

(*) غوديا من اشهر حكام مدينة ومملكة لكش ، عاش في العهد السومري
الحديث (القرن العادي والمشرين قبل الميلاد) صورة في حوالسي ثلاثين تمثالا
معظمها محفوظة في متحف اللوفر •

الثالثة^(٢٠) كان يصنع على شكل سبيكة مع حجر الكحل ، ومع القصدير احيانا .

وادی اكتشافه الى منح بلاد الرافدين معدنا ذات قیة واسعة جدا ، وذلك لصلابته . ولامكانية اختياره لسلسلة واسعة من الاغراض ، وفي ذات الوقت الذي اسبح فيه الحديد مألوفاً في التجارة . وذلك في حدود القرن الحادي عشر قبل الميلاد . كان يستعمل لمجموعة من الاغراض اضيق من تلك التي يستعمل البرنز فيها .

العديد والذهب والفضة

اول نوع من الحديد تم استعماله هو حديد النيازك الذي يتميز باحتوائه على النيكل . ومع ذلك فقد استبدل بحديد المناجم .

وكانت مصادر الذهب والفضة مثل بقية المعادن الاخرى، تقع في الشمال ، وقد بقيت مثلها عليه الامر في اوربا الحديثة ، معادن نادرة وترفية طيلة التاريخ البابلي .

ولقد بذلت جهود متواصلة لتقية الفضة وزيادة مقاومتها للتغيرات التي كانت تحدث باستمرار . وكان سكان بلاد الرافدين بصفة عامة وكما تبين الاسماء التي اطلقوها على معادهم ييأون الذهب مكانة فاخرة لانه قوي ومشرق وحامد . وفي الدرجة التالية تأتي الفضة المعدن الابيض الوضاء .

وكانت الفضة اصلا ، وكما رأينا ذلك قبلا ، مجرد سلعة يعبر عن قيمتها بسقادر من الشعير . غير ان هذا المفهوم ما لبث ان قضى عليه بالتدريج مفهوم معادلة وزن محدد من الفضة بقيمة السلع التي يتم بيعها . واخيرا كان يعبر

(٢٠) عرف البرنز في زمن المتأخر الملكية في اوراي في سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد زئو ان التحليل قد بين بان الادوات والاسلحة التي صنعت فيما بعد كانت تحتوي على كميات قليلة جدا من القصدير .

عن القيم غالبا في امبراطورية بابل الحديثة وامبراطورية فارس ، بمقادير من شواقل الفضة •

ولقد سبق ان عرفنا الصعوبة الموروثة في ان يتم في كل معاملة منفصلة وزن السلعة في كفة ميزان ووزن الفضة التي تمثل القيمة المعادلة في كفة اخرى ، وكيف ان ضرورة التأكد من نقاوة المعدن قد ادت بصفة حتمية الى استعمال الشواقل التي كانت تختتم بعلامة تضمن جودتها • ففي اليوم الاول الذي تم فيه عمل ذلك ، ثم اكتشاف مبدأ النقود •

ونتيجة للتنقيبات التي اجريت توفرت لدينا معلومات واسعة عن محتويات مشاغل عمال المعدن ، وصانعي الدروع وسباكي البرنز وصانعي الزهريات وصاغة الذهب وعن تفاصيل صناعتها • وكان قسم كبير من فعاليات هذه المشاغل يختص بصنع الاسلحة ، وانا سأنحصر هذه الامور بصفة اوثق عندما نبحث موضوع الجيش •

صب التماثيل وطلاؤها

ما تزال التماثيل وسطوح اللوح البرنزية التي صنعها سباكوا البرنز موجودة ، وقد تطلب صنعها حل مشاكل تقنية مختلفة أصبحت الان لا يؤبه بها •

ان قطعة ضيقة النطاق لا تشير الى اية صعوبات خاصة ، غير ان الامر يختلف تماما بالنسبة مثلا الى تمثال « نير - اشو » ملكة عيلام ، المحفوظ الان في متحف اللوفر ، والذي ما يزال حتى في وضعه المشوه الحالي ، يزن حوالي طنين •

ان حجم الانايك والافران المستعملة في السباكة العصرية يجعل من اليسير صنع تماثيل اكثر وزنا من هذا التمثال في درجة ثابتة من الحرارة حين

يصب المعدن المذاب • ولكن في ذلك العصر الذي صنع فيه التمثال ، وهو النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد ، لابد وان كانت بطارية الانابيب تتطلب ان تحمي بصفة مستمرة وان تبلغ ذات درجة الحرارة وان تنظم بحيث يتم افرائها بالتعاقب في الغالب دون فقدان الحرارة اثناء العملية •

ولابد ان يكون النجاح حصيدا بدائيات خائبة واخفاقات متعددة •
والواقع العملي ان تمثال نير - اشو كان على اكثر احتمال اول عملية صب في قسمين يؤلفان الوجه والقفا بالتتابع ، ومن ثم جرى لحمهما معا وقد تم برد آثار العملية • وعلى الرغم من سمكه فلم يكن يظن بأنه صلب بشكل واف ، وقد عولج هذا الامر بصب المزيد من المعدن في داخل التمثال، الذي قلب عاليه سافله لهذا الغرض •

وكانت الخطوة الاولى لذلك هي صب معدن ذائب في الجزء الاعلى من التمثال ومن ثم القاء وزن ثقيل فوقه ، قصد به تقوية المعدن الذائب لكي ينشر ذاته بيسر • ومن ثم يصب المزيد من المعدن الذائب فوق الكتلة كيما يتم ملء الجزء الاسفل من التمثال •

ومع ذلك فلم تكن المحاولة ناجحة كلية ، ومع ان قدرا كافيا من المعدن المذاب قد صب فيه الا انه لم يملأ بشكل واضح الاقسما جزئيا من السطح الداخلي للتمثال •

وفي اثناء غارة على سوسه اقتلع الرأس والكتف والذراع الايسر من التمثال بضربة هراوة ، وتلك هي اجزاء التمثال التي لم يصل المعدن المصبوب اليها تماما •

تشير درجة المهارة التقنية الظاهرة في هذا التمثال ، وفي المنحوتات الناتجة ، الى ان علم التعدين قد بلغ مرحلة مشابهة لما بقي عليه بصفة عامة حتى نهاية القرن التاسع عشر في اوربا الغربية •

ولكن قبل ان يبلغ هذه المرحلة التي بلغها ، كانت هناك مرحلة اسبق . استخدمت فيها المهارة اليدوية الواضحة للتغلب على المصاعب واخطاء الفنون الصناعية المتوفرة لدينا . وليست هنالك من حاجة لان نصف بالتفصيل الطريقة البدائية في نحت تمثال من خشب او في صنع حجر من القار يمكن صنعه يسر ومن ثم تغطيته بالواح رقيقة من معدن قابل للطرف صقيل ، لكي تصبح ملائمة تماما للتمثال ولتثبت في مكانها بسامير صغيرة .

المزهريات والمجوهرات

كانت المزهريات المعدنية الناتجة تصنع بطرق السطوح التي يراد ابرازها بشكل فائىء . فاذا ما احتاج الامر الى خفيات فان هذه اما ان تلحم الى الابدان ، او ان تثبت بخلاف ذلك في الموقع المطلوب بسامير ذات رؤوس كبيرة . وتؤلف الرؤوس نفسها عنصرا في الزخرفة .

واعتمادا على سمكها كانت المنحوتات الناتجة او الواح السطح اما بشكل فائىء او بحفر المعدن المسبوك بالازميل . وفي العصر الذي يتحدث هذا الكتاب عنه كانت المواد التي يبيعها الجوهريون تشتمل على الحلقات والاقراط والاساور ودبابيس الشعر . كذلك كانوا يبيعون ايضا القليل من المشابك ، غير ان طبيعة اللباس الآشوري في تلك الايام الذي كان يسيل الى ان يكون طويلا ومستقيما ، تجعل هذه المشابك من سلع الترف .

كانت الاقراط تصنع على شكل حلقات من عناقيد الاعناب ، ومن مخاريط مغطاة جزئيا برسم محبب ذي جناح متغير ، او من رؤوس حيوانية او بشرية .

وكانت هذه تصنع بصفة عامة من ورقة معدن جد رقيقة في احد الاشكال مع احجار ملونة وضاعة ، وبانواع مختلفة بصفة خاصة من العقيق التي عثر عليها في سلسلة من الظلال الجذابة .

وكانت الحلقات اما منبسطة او مخفورة وهي ترصف غالبا مع احد الاحجار .

هنالك عقد غير اعتيادي بقي سالما من التلف مؤرخ بالسنة الخامسة والثلاثين من حكم الملك احشوربش ، يجسد مبدأ المسؤولية التي اشرنا اليها قبلا .

لقد امرت شركة موراشو بصنع حلقة مرصعة بحجر فمين (ربما كان من الزمرد لان اسمه لا يختلف عن الكلمة العبرية التي تطلق على ذلك الحجر ، والتي عرفنا منها ترجمتها الاغريقية) ، وقد اعطى الجوهري ضمائنا بان الحجر اذا ما تحرك من موقعه طيلة خمس وعشرين سنة ، فانه سيدفع غرامة مقدارها عشرة مينا من الفضة (حوالى احد عشر باونا) .

وكانت الاساور تصنع من كل نوع من الاشكال ، اما في شكل حلزوني مفتوح ، او دائرة بسيطة ذات نهايات مفتوحة او مغلقة . فاذا كانت النهايات مفتوحة فانها تحفر في صفة رسم يشبه رأس حيوان ، اما اذا كانت مغلقة فانها تزين على الدوام برسم زخرفي آشورى مفضل يتمثل غالبا في شكل مل ، هو الوريدة المفردة أو المزدوجة .

وكانت لهذا العمل اهمية رمزية ترتبط بالشمس دون شك ، كما كانت شائعة جدا في المشدات المعدنية التي تشد عبر الجبهة لامسك الشعر في موضعه .

الفغاريسات

كانت السوق مشهد الكثير من الصناعات الأخرى عدا التي اشير اليها قبلا في هذا الكشف ، واحدى هذه الصناعات الشائعة جدا هي صناعة الفخار . لقد استعمل سكان بلاد الرافدين الطين ليس كمادة خام في بنساء منازلهم ، وللمستندات المكتوبة حسب ، وانما في صنع فخارياتهم ايضا . ويمكن العثور على مشابهات بين الصناعة العراقية لكل شكل تقريبا ما تزال مستعملة بصفة عامة ، ذلك لانه ما ان تثبت احدى الادوات ذات مرة فأندتها فلا يمكن التخلي عنها قط ، وان الاشكال الرئيسة لاونية الشراب والصحون والاقداح باقية ما بقي الجنس البشري .

ومع ذلك فلم يكن هذا مقدار النشاطات التي يمارسها صانع الفخار . فهو يصنع الجرار الكبيرة ايضا مثل تلك التي كانت تستعمل للخن في البلدان التي تنتج الزيت ، والتي كانت تخدم اغراضا متنوعة من امثال خزن الطعام والماء . كذلك كان يصنع حتى بعض التجهيزات المنزلية ايضا من امثال الافران .

وكان ينافس النجار كذلك وصانع السلال في صنع التوايت التي كانت احجامها ودقتها تقدم على الدوام ذليلا على المهارة العظمى التي يتمتع بها صانعها .

وكانت هذه التوايت تصنع في بعض الأحيان في شكل خوابي مربعة ذات اغطية ، وفي شكل صناديق احيانا أخرى مغلقة كلية ما عدا فتحة في الجزء الاعلى من العطاء مغطاة بعطاء مزيج زينت مختلف الواحه باشكال مختلفة ولا سيما الآلهة .

ولقد اصبح اول تابوت من هذا النوع ظهر في العصر البابلي الحديث،

أكثر شيوعاً في عهد الفرس ، ثم بلغ ذروة انتشاره في عهد الملوك القرطبيين
الأرشاق (*) .

صانع السلال

أوردنا عدة إشارات عن صنع السلال . وكانت هذه الحرفة مرتبطة
ارتباطاً وثيقاً بحرفة النسيج لأن عدداً من المنتجات قد يصنع بهذه الحرفة .
فقد كانت أشعة الزوارق مثلاً تصنع أما من قماش سميك كما يشق
المرء ذلك أو من نسيج نباتي محاك مثلاً ما تزال عليه حتى الآن في
بلدان الشرق الأقصى . ويصدق ذات الشيء على صناعة الحصر التي كانت
تستعمل ، كما تعلق لغرض زخرفة الأقسام الواطئة من جدران المنازل
وحمايتها باستعمال مسامير فخارية طويلة ذات رؤوس منحنية .

وهناك أدوات أخرى كان يصنعها صانع السلال من ضمنها الآليات
المدورة الشائعة في الشرق (والتي أعطت اسمها إلى الزوارق المدورة ، القف
التي تحدثنا عنها فيما سبق) ، وكذلك الصناديق ، وحتى المقاعد . ذلك
لأن المادة الخام التي كان صانع السلال يستخدمها تتدرج من الأنسجة التي
تشبه الجبال إلى أطول نوع من القصب ، ولذلك كانت هذه الأخيرة صلبة
بشكل مفرط وتستعمل إما في حالتها الطبيعية أو تقطع إلى الواح .

وكانت أرخص التوابل تصنع من الأغصان المضغوطة ، وعلى هذه
الشكلة كانت تصنع القوارب الفجة أو الأطواف بعبارة أدق ، والتي كانت

(*) القرطبيون الأرشاق (البربريون) شعب قديم طرد من إسبانيا إلى بلاد
روسيا الحالية فأنحدر إلى الجنوب واستوطن حوران (بلاد الحوريين) جنوبي
شرقي قزوين . وفي سنة ٢٥٠ قبل الميلاد أسس القرطبيون الأرشاق سلالة حاكمة
استمرت حتى سنة ٢٢٦ ميلادية حين أخلت السبيل أمام السلالة الساسانية ، ويعرف
القرطبيون باسم « الآشكانيين » نسبة إلى مؤسس السلالة « آشك » .

تألف من مجرد حزم من القصب تشد سوية بالرأس من نهاية كل واحدة منها وتتماشق وسط الاطواف باعمدة متقاطعة (انظر ما سبق في قسم وسائل النقل النهري) وبذلك توفر للراكب فيها بعض البلل لكنها لن تدعه يسقط في الماء تماما .

ويبدو ان سعر الحصر في عهد حكم سلالة اور الثالثة قد تم تحديده بالاشارة الى عدد الانسجة النباتية في مساحة معينة .

تجار الملابس

كانت تتوفر سلسلة واسعة من المواد في قسم الالبسة من السوق . وحتى الى سنة الف قبل الميلاد كان اللبس العراقي يتألف من ثوب داخلي يشبه القانيلة المصرية والتي كانت تدعى « ثوب الحشمة » والتي ترتدى فوقها قطع من مادة مستطيلة فصلت حسب الحجم المطلوب ، ويمكن تزينها بطرق مختلفة ، ثم يتم ربط اللبس كله بدبوس كبير .

اما في العصر الآشوري فقد كان الجلاب ، او على وجه الدقة عدة جلابيب قصيرة الاردان ، ترتدى احدها فوق الآخر .

ويبدو كما لو ان زي ارتداء الالبسة المخاطة والذي كان من الامور المعتادة في الاقطار التي تناخم بلاد الرافدين ، لا بد وان جرى بها من الخارج خلال الالف الثاني قبل الميلاد وقد اعقبها السراويل في تاريخ متأخر .

كانت الملابس تزين بالتطريز . وكانت تلك خاصية محلية ، وقد عرفت في العالم القديم بصفة عامة بانها « صنع بابل » .

وكانت اثواب الملوك واعضاء البلاط مطرزة بشكل مفرط .

وكان احدث شكل للالبسة هو الذي يترك مجال لا صغيرا لزيينة متدللة من زي اكثر قدما . غير ان ذكره ترتد الى الوشاح الذي كان يرتدى محسولا عبر الصدر وفوق الكتف وقد ثبتت الخناجر في طياته .

صانع الحلويات

كان وجود صانع الحلويات في اسواق العالم القديم لا يقبل عن وجوده في اسواق العالم الحديث . صحيح ان المستندات التجارية الباقية يصعب ان تشير اليه ، الا اننا نستطيع ان ندلل على وجوده بشكل تام من المعلومات التي توفرت لدينا عن صانعي الحلويات التابعين للمعابد ، والذين كانوا يصنعون الكعك المقدس الذي كان يتم تناوله باعداد كبيرة في اوقات المهرجانات ، وكذلك الكعك الذي كان المصلون للالهة عشتار يجمعونه ويتركونه لطير الحمام المخصص لها .

ولقد سبق لنا ان جئنا على وصف نموذج صغير لمبد فخاري من قبرص ، كانت جهته بشكلها الاعتيادي ذي التجاويف الصغيرة تشبه برج حمام حقيقي ، في حين تبين عملات نقدية من مدينة بافوس تحمل زينة المبد ، طيوراً سبق ان اشار اليها الكتاب الاقدمون ايضا .

كانت المواد الرئيسة التي يستخدمها صانع الحلويات ذات انواع متباينة من الدقيق المصنوع من الشعير ، والحنطة او الذرة ، والسكر المستخلص من التمور ، والعسل والزبدة المصنوعة من لبن النعاج او الماعز (ويندر صنعها من لبن الابقار) وبذور السمسم وزيت السمسم وماء الورد.

بائع الاغاني

يصعب تعداد قائمة الصنائع ، غير ان هناك صناعة واحدة بين الصناعات الدقيقة يبدو عليها بانها كانت شهيرة والتي يوفر احد النصوص اساساً لها . ونفنى بها حرفة صانع الاغاني سواء كانت مقدسة ام اعتيادية .

فهناك نص وان كان اقدم من العصر الذي تحدث عنه ، يتألف من مجموعة من عناوين اغاني او الايات الاولى منها على الاقل ونورد هنا قلة من هذه

« لقد برز اله النار ، سيد المارك • اواه يا سيدي ••

« ان حبلك اشبه بشذا عود الارز •••• »

« تعال الى جنينة الملك فهي ملاي باشجار الارز •••• »

« اواه يا بستاني حديقة الاماني •••• »

« آه ما اوفر ثمارها وكم هي مشعة زاهية •••• »

« لقد شهدت في الشوارع عاهرتين •••• »

لقد آن لنا الان ان نأتي على وصف المهن الذهنية التي كانت سكان
مدينة بابل يمارسونها • فقد كانت خدماتهم مطلوبة كل يوم لكنهم كانوا
يمكفون بشكل عميق على العلم والدين • وعلى هذا فلسوف نمحص اولاً
المبادئ الكبرى التي تبين المعتقدات التي كانت تتحكم بفعاليتهم ، ومن ثم
نأتي على وصف عوائلهم •

الفصل الثاني الملك والدولة القصر الملكي

قبل ان تناول وصف حياة احد ملوك بلاد بابل او آشور ، ينبغي لنا ان نحاول - حسبما تسمح به معلوماتنا عن القصور الملكية - اعادة تشكيل النمط المادي الذي كان الملك يعيش ويتحرك ضمنه .

لقد عرفنا المقاطع الرئيسية لهذه القصور قبلا ، وقد كشفت التنقيبات عن قسم منها ظل قائما وبشكل سالم نسبيا في الغالب .

كانت هذه القصور تبني من اللبن مثل بقية البيوت الاعيادية ، وقد اودى الزمن بها . وكانت الاجزاء العليا اول ما انهار منها في شكل خرائب داخل الاسوار وخارجها الى ان تهدمت قشرة الاجزاء السفلى منها تماما .

وكانت النتيجة المباشرة لذلك هي ان الانقاض المتداعية كانت تؤلف طبقة واقية تغطي بقايا القصر ، ومع اننا لا نعرف شكل الغرف العليا الا اننا نستطيع على الاقل ان نعرف المخطط الارضي ، ويتوفر لدينا الجزء الواسع من الجدران .

لدينا امثلة عديدة على هذه القصور في نمرود (مدينة كالح القديمة) وفي نينوى وفي مدينة بابل ، لكن الكثير منها قد تم التخلي عنها بعد ان دمرت تدميرا شديدا في حرب ، او هبت ، او حتى دمرتها النيران تماما . وقد حدث ان قصر خرمباد الذي كان اول قصر يتم اكتشافه ، كان واحدا من افضل القصور التي تم الحفاظ عليها ، ونظرا لان التنقيب فيه كان اكثر تسميكا من البقية فاتنا قد نعتبره نموذجا لاغراض الوصف الذي ينبغيه .

قصر خرسباد

كان الملك سرجون الثاني الذي يظن فيه خطأ بأنه كان مغتصبا للعرش في حين انه ينتمى في الواقع الى الاسرة الملكية ، يعتزم منذ زمن طويل ان يشيد قصراً خارج نينوى تقع خرائبه الآن قبالة مدينة الموصل الحديثة، التي تشتد الحرارة فيها ايام الصيف .

كان الموقع الذي اختاره هو قرية خرسباد الحديثة . وقد دعاه دور شروكين ، او « حصن سرجون » . ولما كان الجو هنا اكثر برودة واقل مضايقة منا عليه في نينوى ، فقد اصدر اوامره بان يتم بناء قصره والمدينة باتفاق الآراء .

ولقد كمل العمل ضمن بضع سنوات غير ان سرجون الذي كان حكمه قد اوشك على الانتهاء غالبا ، نادرا ما كان يسكن هناك . ويمكن التدليل على المصير المحتمل الذي اصاب القصر باثار النيران التي كانت ظاهرة في كل مكان منه . وليس من شك في ان قصورا اخرى عانت ذات المصير ، وانه لم يستحصل منه في الواقع اية اشياء يمكن نقلها بيسر والتي نقلت نتيجة اعمال النهب .

التنقيبات

من الجدير ان تذكر القصة عن الكيفية التي بدأت بها التنقيبات ، وتم انجازها . كان وكيل القنصل الفرنسي في الموصل هو المسيو « بوتا » الذي ولد في مدينة « ميلان » خلال العهد الذي اتحدت فيه هذه المدينة مع فرنسا تحت حكم الامبراطورية .

لقد اعتاد « بوتا » في مشيياته اليومية ان يعبر النهر ، ويصعد الروابي التي تناثرت على امتداد ضفة النهر الطويلة ، والتي كشفت فيه الريح وحوافر الخيل في الغالب ، عن قطع من الابنية القديمة .

لقد كانت هذه الاثار مهمة جدا لان تجذب المزيد من الاهتمام . غير ان « بوتا » الذي كان رجلا مثقفا ، كان يماشي المناقشات ، ومن ثم انتقل

الى موقع نينوى حيث شجعه المسيو (موهل Mohl) سكرتير الجمعية
الفرنسية الاسيوية على القيام بتحررات اخرى .

قرر بوتا ان يقوم باسبار تجريبية في الموقع ، وبدأ العمل فيه على
حسابه الخاص ، لكن ما عثر عليه ، لاسباب سوف تظهر مؤخرا ، لم يكن
مهما . واذا اصابته الخيبة واوشكت موارده على النفاد ، قرر التخلي عن
العمل نهائيا ، عندما اكد له بعض سكان قرية خرسباد التي تبعد حوالى
عشرة او احد عشر ميلا عن نينوى ، بانهم عثروا على تماثيل كبيرة اثناء
قيامهم باعمال البناء .

• اخذ بوتا سبيله نحو الموقع وبدأ بالتنقيب هناك في آذار ١٨٤٢ .
ولقد كان محظوظا جدا في اختياره نقطة بدايته ، لانه في اليوم الاول من
اعمال الحفر وصل الى السور الخارجي للقصر وبذلك ولد علم الآشوريات .

في ضوء هذه النتائج اخذت التنقيبات تحظى بالاهتمام الرسمي وتم
تمويلها من قبل الحكومة الفرنسية . ولم تكن المبالغ التي خصصت لهذا
الغرض كبيرا جدا ، غير ان قيمة الفرنك في تلك الايام لم تكن قد خفضت
ولان فترات المعيشة في الشرق كانت زهيدة جدا .

منح السلطان فرمانا يؤكد السماح باجراء التنقيبات غير ان هذه
التنقيبات كانت تعجبه بتشدد الاوساط الحكومية وغباؤها في الموصل . ففى
بعض الاحيان كانت خنادق التنقيبات تعتبر حصونا عسكريا . وفي بعض
الحالات كان البيت البسيط جدا الذى تقيم بمئة التنقيب فيه ، يعتبر قلعة
خطرة ، وكان ذلك يتطلب في الغالب تدخلات دبلوماسية .

كان موقع خرسباد في الواقع قد تم تنظيفه جزئيا ، وتم الكشف عن
المخطط الارضي لكن هذا المخطط ، طبقا للفكرة المقبولة آنذاك ، قد تم
رسمه في صفة مخطط غير متناسق لان فكرة القصر غير المتناسق بالنسبة
الى العقل الاوربي لم تكن مقبولة . (وذلك خطأ تماما) .

عهد الى فرنسي يدعى (فلاندين Flandin) بمهمة رسم كل شيء يكتشف في الارض ، وقد تجع عن ذلك انتاج مجموعة فاخرة من الرسوم تدعى « نصب نينوى » تقليدا لمجموعة اسبق خصصت لجلسة نابوليون على مصر .

وفي الوقت الذي كان فيه بوتا يعتقد بانه قد عثر على موقع مدينة نينوى التاريخية فانه في الواقع كان يتعجل كثيرا في التخلي عنها .

في هذه المرحلة اعدت السلطات البريطانية التي كانت تتطلع لدخول هذا الميدان ، العدة لتسلم موقع نينوى الذي تخلى عنه . الفرنسيون ، حيث تم التوصل الى اتفاق تحتفظ فيه فرنسا ، رغم ذلك ، بجزء من المنطقة .

وحالما شرع البريطانيون بالتنقيب حتى كشفوا عن قصر نينوى الذي كان يقع على عمق بوصات قليلة تحت المستوى الذي توقف بوتا عنده وقد حدث ذلك عندما بدأت المصاعب . لانه في الوقت الذي كان فيه بوتا وروولنسون(*) مدير التنقيبات الانكليزية خارج المنطقة ، جاب

(*) هنري رولنسون Henry Rawlinson ولد ١٨١٠-١٨٩٥ م ، ولد

في تشاؤلنفتون في ١١ نيسان ١٨١٠م وفي ١٨٢٧ ذهب الى الهند كتمليذ عسكري للعمل في شركة الهند الشرقية ، ثم ارسل بعد ست سنوات الى ايران ، وهناك اهتم بالحروف السامرية ونقل كثيرا من كتابات حجر يستون . عين في ١٨٤٠ وكيلا سياسيا في قندهار ثم نقل الى بغداد فاكمل نسخ كتابات يستون واعد عنها تذكرة خاصة . مع مجموعة من الآثار البابلية والاشورية والسامانية والسبئية الى المتحف البريطاني . شارك في التنقيب في العراق ونشر اربعة مجلدات في الفترة ما بين ١٨٧٠-١٨٨٤ عن كتابات حجر يستون . توفي في لندن ١٩ آذار ١٨٩٥ .

هرمز رسالاً(*)، الذي كان يقوم بأعمال الحفر الحقيقية، في إحدى الليالي، الجزء الذي خصص من المنطقة لفرنسا، ووصل مباشرة إلى أغنى قسم من الخرائب وتقصده به قصر آشور بانيبال ومكتبته التي يعتبرها المتحف البريطاني بحق واحدة من كنوزه الرئيسية.

بذل رولنسون، وهو رجل شريف تأثر كثيراً بما حدث، أفضل جهوده لتهدئة سخط الفرنسيين، بأن قدم إلى فرنسا جملة من نماذج ثمانية جميلة لقطع تم اكتشافها في التنقيبات البريطانية.

وفي الوقت ذاته أكمل بوتاً تنقياته الخاصة وبعد مصاعب مستعصية تم نقل الآثار التي اختارتها البعثة في كلك وزورق إلى الخليج العربي ومن هناك جرى شحنها بالبواخر إلى فرنسا. وما أن وصلت حتى تم عرضها في متحف اللوفر في طاقم من الغرف مشغولة الآن بسفينة من إماموس(**)، ومن ثم في طاقم زينه كل من برسييه وفوتتين(***) يواجه كنيسة «سبان جرمان لكسروا» حيث ما تزال فيه حتى الآن. وكان الملك لويس فليب الذي نحن مدينين له بإقامة أول متحف آشوري في أوروبا، قد افتتح هذه المجموعة في شهر أيار سنة ١٨٤٧****).

(**) هرمز رسام من عائلة رسام المسيحية المعروفة في الموصل كان ذا صلة مع القنصلية الانكليزية في الموصل. وعندما دخل الانكليز ميدان التنقيب في جرائب نينوى شارك هرمز رسام مشاركة واسعة معهم وأدى لهم خدمات كبيرة في هذا الشأن وعلى الأخص مع المنقب هنري لايارد. كما قام هرمز نفسه بعدة تنقيبات أخرى في تل أبو حبة والدير وإمام إبراهيم وغيرها.

(*) إماموس Amathus مدينة تقع على الساحل الجنوبي من جزيرة قبرص.

(**) برسييه Percier وفوتتين Fontaine، رسامان فرنسيان عهد إليهما إعادة رسم المنحوتات الآشورية التي عثر عليها الفرنسيون في نينوى وخرسباد.

(***) الملك لويس فليب: تولى الحكم في فرنسا سنة ١٨٣٠ بعد أن طرد شارل العاشر ولويس هذا هو ابن فليب دوق أورليان الذي أعدم في عهد الأرباب. وقد ساندت بريطانيا جرشه على أساس أن فرنسا عادت إلى الحكم الملكي. ودام حكم لويس فليب ثماني عشر سنة وسقط بثورة ١٨٤٨ في باريس.

النت جمهورية سنة ١٨٤٨ منصب القنصل في الموصل وبذلك توقفت التنقيبات ، واستعادت من هذا التوقف فائدة تامة جملة من البعثات الاجنبية التي توافدت على بلاد آشور .

وما ان اعيد النظام في فرنسا على يد الامير الرئيس حتى بدأ التفكير ثانية بشكل جدي في استئناف التنقيبات التي راح عالم الاكاديميات المتطلع الى الافادة من الارض المفقودة ، يطالب باستئنافها باصرار .

تسلم فكتور بلاس العمل في الموقع الذي تركه بوتو وقد عثر على نصب جديدة تطلبت نقلها الى متحف اللوفر . غير ان الحظ كان معاكسا له فسي هذه المصادفة . ذلك لان الاكلاك والزوارق المحملة بالآثار كانت مهددة من قبل السلايين المحليين الذين كانوا يتعقبونها على ضفاف النهر . ولغرض الوقاية من هجمات هؤلاء السلايين كانت الاكلاك والزوارق تقف في وسط النهر وهي تحت رحمة التيارات الجارفة من مياه الفيضان المبتلعة ولقد غرقت هذه الآثار دون استثناء وبذلك ضاعت الى الابد كل ثمار هذه السلسلة من التنقيبات في اعماق اطيان نهر دجلة(*) .

عندما بدأت التنقيبات لأول مرة ، كان التل الذي يضم الخرائب تقوم عليه احدى القرى . وقد نقلت هذه القرية الى السهل عندما كانت التنقيبات ماضية ثم اعيدت الى موضعها الاصلي بعد اتمام التنقيبات .

(*) تذكر الاخبار ان هذه الآثار قد غرقت على مقربة من مدينة القرنة نقطة التقاء دجلة بالفرات . وقد قامت احدى الشركات اليابانية سنة ١٩٧٤ - ١٩٧٥ بمحاولة لتحديد الموقع الذي غرقت فيه تلك الآثار والعمل على انتشالها غير ان البعثة رغم مابذلته من جهود وما انفقته من اموال لم توفق الى ذلك لان مجرى النهر الحالي في هذه المنطقة قد تغير كثيرا عن مجراه في النصف الاخير من القرن التاسع عشر ، وقد عادت البعثة الى اليابان لتعيد رسم خرائط جديدة لمجرى نهر دجلة ولتعاود البحث عن هذه الآثار المفقودة مرة اخرى .

كان اختيار بوتنا لعدد كبير من المنحوتات التي كشفت البعثة عنها محدودا بسبب مصاعب النقل . ولذلك اضطر الى ان يظف وراءه تلك المنحوتات التي دمرتها النيران في حين اختار اشهر تلك المنحوتات التي بقيت سالمة من العطب من امثال النيران المجنحة والتماثيل التذكارية . وبعد ان تم اكمال الرسوم الضرورية ملا الحفريات بالانقاض ودفن بصفة عملية اكثر النصب التي كشف عنها .

ليس هناك ادنى شك في ان مغامرة هنرى رسام ، ولا نريد ان نستعمل كلمة اقوى من هذه ، قد سلبت فرنسا كنزا لا يقدر بثمن ، ذلك لانه يوجد كل السبب في الاعتقاد بان الفرنسيين - بعد ان عرفوا النتائج التي حصل عليها الانكليز من الاذن الذى اعطى لهم - لابد وان يستأنفوا التنقيب في الموقع الذى خصص لهم .

غير ان فرنسا جاءت متأخرة مرة اخرى في خرمباد ، عندما غلصر الامريكيون بين الحريين على اذن بالتنقيب في موقع موجه من حكومة العراق .

اعادت البعثة الامريكية فتح الاماكن التي نقب فيها بوتنا قبلا . وباستعمالها مخططاته اصبحت قادرة على تجنب البدايات العقيمة ، غير ان ضررا جديا اصاب المنحوتات التي اصابها النيران ، وذلك نتيجة تعرضها الموجز للهواء سنة ١٨٤٢ ، وبذلك عثر على عدد منها غدا تالفا . ومن ناحية اخرى اظهر التنقيب في المناطق التي لم يتم الحفر فيها قبلا ، ان الموقع لم يكن يضم قصرا ملكيا في قلعة سرجون حسب بل قصر كبير الوزراء وبيوت كبار الموظفين ايضا .

كذلك استطاعت البعثة ان تؤكد الحقيقة التي كان يشك فيها قبلا نتيجة التحقيقات الاولى التي قام بها كل من بوتنا وبلاس ، بان المدينة لم

تكن كلها مأهولة تماما لان القصر لم يدم طويلا حتى اصبح يشمل مركز
عدد كبير من السكان •

مخطط القصر

كانت الرحلة الاولى في بناء القصر هي اتخاذ كل الاحتياطات التي
تطبقها العقيدة الدينية ، والتي سنعود اليها فيما بعد • ومن ثم اقيمت دكة
لتؤلف نوعا من منصة صممت لغرض رفع هيكل البناء فوق مجرى الماء
الذي ربما يقوض الجدران عندما يفيض النهر وروافده بعد ان تذوب
الثلوج •

ويقع نصف القصر الذي يشمل المدخل ، داخل اسوار تحيط المدينة ،
في حين ان البقية التي تم تحصينها قد اقيمت وراء هذه الاسوار وبذلك
اصبحت تؤلف حصنا يمتد داخل السهل •

بنيت الدكة من اللين ولغرض استقرارها تم بناؤها بجوانب منحدره •
وهي تحتوى على نظام جد متقدم للمجاري الداخلية التي كانت تضمن
انصباب كل المياه القذرة في مجارى • وقد تم الكشف عن هذا البناء الذي
شيد كله من الآجر • وسقفت المجارى باقواء مستدقة الرؤوس قليلا ، وهي
تتألف من مجموعة من المراتب التي تستقر كل واحدة منها على المرتبة التي
تحتها لغرض تجنب الحاجة الى نصب سقالة لان الخشب ما يزال نادرا في هذا
الجزء من بلاد الراقدين في حين كانت المجاري ذاتها تصنع من انابيب فخارية
متصلة •

لقد تم الحفاظ على هذا المظهر الخاص من العمارة الآشورية وتم تصميمه
بشكل فاخر وان اكثرية هذا النظام في الواقع يمكن استعماله في الوقت
الحاضر مع اصلاح بسيط او بدون •

كانت الباحات تيلط بالآجر المنسبط وبطبقة من القبار او التراب

المدكوك • وكنت الباحات تنحدر بشكل طفيف الى امام نحو الوسط كيما
يمكن تسرب الماء يسر •

وكانت تفتح انحناءات في جوانب الدكة كيما تهيم مدخلا لحيوانات
الجر وللعربات ، في حين يصعد المسافرون على الاقدام والوافدون من المدينة
سلب واسعا ومزخرفا بالنصب • ويؤدي السير حول الدكة بجانب القصر الى
الاسواق المحيطة بالمدينة •

وكانت الابراج تقام على ابعاد في هذه الاسوار وتمتد كلها حول القمة
في ضيق واسع يسيطر على الافق ويتسع بما فيه الكفاية كيما يسمح للقوات
ان تهب على عجل للدفاع •

وكانت واجهة القصر تمثل مظهر كتلة صلبة خالية من النوافذ مزينة
بتبائيل ضخمة صست لاضفاء تأثير نافع ووقائي على البناء كله ، وتتألف
من ازواج من النيران المجنحة ، والجن الطيبين الذين يحرسون الابواب ،
والذين كانت نظراتهم بحد ذاتها تضمن اخافة كل فاعلي الشر وطردهم •

تبرز البوابة في المقدمة من بين بقية البناء • وهي تفتح على ممر في
الجدار (انظر وصف ابواب المدينة في الفصل الاول) تم تخينه بصفة خاصة
في هذه النقطة ، وهذا في الواقع يهيء مدخلا الى الباحة الداخلية • وكانت
هذه الباحة عبارة عن مربع مكشوف له غرف عديدة تفتح عليه ويستعملها
اي من المراسلين او اصحاب السلع او الجند الذين يتطلبهم القصر •

وهناك ممر ضيق آخر يفتح خارج الباحة ويؤدي الى باحة اخرى •
وهذه الباحة • بنكس الساحة الخارجية ، ليست مربعة بل مستطيلة لها
ثلاثة مداخل منفصلة مقسمة بعمودين ضخمين في الجهة الداخلية الطويلة •
وتؤدي هذه المداخل الى غرفة مستطيلة اصغر من الباحة وهي تختوى على
المنصة او الجزء المرتفع من الارض الذي يقوم عرش الملك عليه • وهناك

انذار صحي للتأثير في الامراء الاجانب الذين يسمح لهم بالثون بين يدي الملك ، عند قاعدة العرش التي زينت بمختلف الرسوم التي تمثل حروب الملك واتصاراته ، من امثال هرم من رؤوس اعدائه المغلوبين ثم تكديسها عاليا امامه .

وهناك باحة ثالثة ايضا ذات مداخل منسقة لابد وان كانت تستعمل لاغراض رسمية .

علينا ان تذكر ان البناء برمته كما ظهر في مخطط بوتا وكأنه في استقامة تامة ، انما كان في الواقع منحرفا قليلا في شكله ومائلا الى جهة واحدة .

وينبغي ان لا يثير هذا الامر دهشتنا لانتا نعرف الان ان تماجننا الحديثة من التناسق والموازنة (ولو ان هذا لم يعد صحيحا تماما لان المصريين في بحثهم عن كل جديد لم يعودوا يترددون في العودة الى الماضي المنسي) لم تكن تعني شيئا بالنسبة الى الماضي الحقيق .

وكانت غرف الخزن تفتح على الباحة . وفي هذه الغرف عثر النقبون على مخزن كبير من جرار الزيت والطعام التي ما تزال محفوظة فيه . وكذلك احتياطي الدهان المطلوب لصيانة القصر والحديد الذي كان على شكل قضبان صغيرة . وكانت هذه القضبان في حالة جيدة تماما عندما تم اكتشافها الى درجة ان بوتا استخدمها لصنع الادوات التي احتاج اليها اثناء التقييات ، من امثال المعاول والمجارف واطارات عجلات العربات التي كانت تنقل فيها الموجودات التي يشر عليها الى النهر .

ومع ذلك يوجد مر آخر يؤدي الى مجموعة من المباني تتركب سلسلة من باحات مجاورة لثلاثة مبان محددة المعالم لكل واحد منها مدخل وغرفة مفردة وفي اقصى النهاية خلوة ذات دكة من الآجر .

وقد تم تشخيص هذه الخطوة على وجه الدقة بانها تمثل الحرم الذي

كان يضم شقق ثلاث ملكات بارزات ، في حين افترض بان دكة الآجر لا بد وان كانت مغطاة بأفرشة قاعمة ، وكانت تستخدم بمثابة سرير للنوم .

ويبدو أن هذا التشخيص كان أكثر صوابا لان شريعة الاسلام تنص على ان الرجل حين يتزوج أكثر من زوجة واحدة فلا بد من ان يعاملن بمداة تامة جدا ، وان المباني الثلاثة المشخصة تتطابق كلية مع هذا المبدأ (*) .

وفضلا عن ذلك كانت هذه الباحة مزينة تزيينا وفيرا بالآجر المزجج بالالوان الزرقاء والخضراء والصفراء وبصور نسر واسد وشجرة تسين ومحراث . وكان المدخل مزينا بأعمدة من اخشاب مقوسة غطيت بطبقة من البرنز الذي كسي بدوره بأوراق من الذهب كيما تمثل جذع شجرة النخل . وقد اوضحت المباني التي تم اكتشافها بان هذا المدخل كان يؤدي الى معابد احد القصور الخاصة وان الدكاك المرتفعة لم تكن اسرة وانما كانت هياكل . وكان وجود إحدى الزقورات الى جوار هذه المجموعة من المباني أمرا طبيعيا تماما في هذا المضمار .

القصور الثانوية

على مقربة من نهاية القصر وبميدا عن المدينة عثر المنقبون على نوع من منصة مستطيلة يمكن الوصول اليها بدرجات قليلة .

(*) لا تعرف ما اذا ثبت حتى الان ان ملوك العراق في العهود السورية والبابلية والاشورية وغيرها كانوا يتزوجون أكثر من امرأة أم لا . ولكن الشيء الثابت ان اباحة الدين الاسلامي للرجل بان تكون له في آن واحد أربع زوجات بشرط المساواة التامة بينهن ، كان يقصد به منع التمرري في الدرجة الاولى ، ورفع منزلة المرأة ومضاعفة الدور الذي تقوم به في خدمة المجتمع حين تصبح اما لأطفال تنهض بتربيتهم بالإضافة الى تهوؤها بأمر البيت وبمشاركتها الواسعة في مختلف ميادين العمل بما في ذلك مرافقة الجيوش السارية لنشر الاسلام في الاقطار التي لم يدخلها بعد .

ان هذه المنصة لم يتم تحديد مسفتها بشكل قطعي لكنني اجتهدت ان ارى فيها بقايا بناء مقتبس من خارج البلاد حيث كان الملوك يتباهون غالبا بهذه العبارات « لقد امرت ان يشاد [بت بلاني] (*) » وفقا للطرق الحثية » .

ولقد قيل ان بت بلاني هذه كانت مباني ذات شبابيك وجدت في سوريا في الوقت الذي كانت ما تزال فيه غير معروفة في بلاد آشور .

ولكن من البرهان الذي توفره بقايا هذه المباني في شمالي سوريا كان ال (بلاني) يحتوي دوما على غرف مستطيلة ذات درجات ترتقي الى احد الجوانب الطويلة . وخلف قبة الدرجات يوجد عمودان يدعسان سقفا مفسفوما وبذلك يؤلفان حجرة لها جانب واحد مفتوح بينما تكون الحجرة الثانية التي تمتح خلف الاولى معدة للاغراض المعاشية على اكثر احتمال . وعلى هذا قد تكون الدكة او المنصة المستطيلة في خرسباد تمثل بقايا مبنى من هذا النوع (٢١) .

وتجاور القصر على الجانب الذي يواجه المدينة مساكن اخرى واسعة وفخمة . من اهمها المسكن الذي كان يشغله شقيق الملك سرجون الذي كان يتخذ وزير اعظم له . وقد شيد هذا المسكن حسب المقطع العام الذي يتألف من عدة باحات احيط البعض منها بغرف للخرن ، والبعض الآخر بمخابي ، كما احيطت غيرها ايضا بشقق للاستقبال .

وتقابل هذ المسكن مباني اخرى لم يعرف الغرض الحقيقي من وجودها

(*) بت - بلاني Bil-Bilani طراز من البناء اشتهر في بلاد الاناضول او في شمالي سوريا استعمله الملوك الاشوريون في قصورهم تقليدا للابدية التي شاهدوها اثناء حملاتهم العسكرية خارج حدود بلاد آشور .

(٢١) انظر مقالة هنري فرنكفورت « اصل البت » بلاني . في مجلة (المراق السنة ١٤ الجزء الثاني ١٩٥٢) .

ولو انها كانت ذات صفة رسمية دون شك ، وكذلك المعبد المكرس للاله « نبو » الذى يدون مصائر البشر وهو اله الكتابة . فهذا المعبد باحرامه الخارجية والداخلية يمكن الوصول اليه عبر باحة كبيرة اقيمت فوق مستوى رابية اصطناعية مع دكة قصر الملك . وتتصب البناتان معا جنبا الى جنب ويجاورهما جسر حجري صغير ذي قنطرة غوطية الشكل .

الجنانن والعنانن المعلقة

كانت مجموعة المباني المشتتة على قصر الملك والمساكن الملكية المجاورة منه محاطة من جانب المدينة بسور متاخم فيه بوابتان من طراز اعتيادي وبذلك كانت منطقة القصر منعزلة فعلا من كل جانب .

في مدينة برسيبوليس التي كانت عاصمة السلالة الاخمينية الحاكمة ، تم فتح فتحات منظورة على ابعاد في صخرة رجة القصر . وهذه الفتحات لأبد وان كانت مليء بالتراب ، وزرعت فيها الاشجار كيما تؤلف جنية ، ويمكن مشاهدة ذات الترتيب في مدينة آشور ببلاد آشور ، حيث امر سنحاريب بانشاء حديقة واسعة جدا .

لقد سبق ان وصفنا (في الفصل الاول) حديقة الملك « مروداك بلدان » عندما تحدثنا عن الخضراوات في بلاد الرافدين .

وليس هناك ادنى سبب للشك في ان متما مماثلة تمت تهيئتها في خرنسباد . غير ان تربة المدينة كانت خفيفة ليس فيها طبقة صخرية عتيقة ولذلك لم يمد في الامكان بقاء اي اثر للخضار القديم .

عد القدامى دون ادنى تردد جنائن بابل المعلقة من بين العجائب السبع في العالم ، ولو ان التنقيبات التي كشفت عنها لا تعطى سوى أسس ضئيلة لمثل هذه المباني . . فربما كانت هذه الجنائن المدرجة قد اقيمت فوق تل

بجانب القصر تقع على شارع الموكب قريبا من بوابة عسناار(*) .

فعلنى هذا التل الصغير تم اكتشاف اثار آبار تشير الى ان سلسلة لا نهاية لها من الدلاء كانت تستعمل لرفع الماء الى اعلى نقطة من الدكاك .

فهذا البناء المدرج الذي ارتفع ذاته بموقع الجنائن على قمة التل الصغير، جعل قسم الاشجار تبدو ظاهرة فوق الاسوار من مسافات بعيدة ، وان هذا قد ساعد دون ريب على ادامة اسلوب الجنائن المعلقة .

ومع ذلك لا نستطيع ان نترك موضوع الجنائن دون ان نتحقق من ان ملوك آشور ، كانوا يستمتعون - ما عدا الحدائق المزروعة لمنافع خاصة - بجنائن نباتية مبتدعة تضم مجاميع من انواع غير اصلية ولا سيما النباتات والاشجار التي تنمو في جبال لبنان .

وبذات الطريقة تماما انشد ملوك مصر حملاتهم لجمع وجلب الانواع النادرة من النباتات .

هناك كدورو(٢٢) من مدينة سوسة محفوظ الان في متحف اللوفر وقد

(*) اورد عدد من المؤرخين القدامى منهم سترابو ، وديودورس الصقلي ، وكوينتوس كرتيوس واريان ويوسفس ، اوصافا مختلفة للجنائن المعلقة في بابل . ويفهم من هذه الاوصاف ان هذه الجنائن لم تكن بالشكل الذي ذكره مؤلف هذا الكتاب هنا وانما على النقيض من ذلك كانت هذه الجنائن مقامة فوق اروقة مجوفة . ولذلك سميت بالمعلقة . وجاء في احد كرايس مديرية الانار العامة في العراق (١٩٥٨) انه وجدت في الزاوية الشمالية الشرقية من القصر الجنوبي في بابل بقايا بناء يتالف من اربع عشرة حجرة متشابهة في شكلها وحجمها ، كل سبع حجرات منها تقع على رواق واحد ويحيط بهاجدار قوي سميك . دعر المنقبون في احدى هذه الحجرات على بشر لها ثلاث حفر الواحدة بجانب الاخرى وقد اعتبر المنقبون هذه الحجرات بانها هي مقر الجنائن المعلقة التي وجدت من عجائب الدنيا السبع في التاريخ القديم .

(٢٢) كدورو Kudurru حجر العرود .

عرف باسم الكدورو غير الكامل لانه مزين لكنه غير مكتوب ، يصور موكبا من الاجانب يحفون بمنتجات من اوطانهم ، من اشهرها صندوق يضم شجيرة مغطاة بالازهار . كذلك كان الاشخاص ايضا يقودون حيوانات لان ملوك آشور كانوا جد مغرمين بهدائق الحيوانات التي كانوا يحفظون فيها انواعا نادرة تم جلب توابعها وكافت موضوع بحث نشط .

هناك منحوتة مؤرخة من عهد آشور بانينال (القرن التاسع قبل الميلاد) تصور بعض المزمين بدفع الجزية وهم يجلبون القردة ، في حين ان الهدايا التي كان السكان الخاضعون لبلاد آشور يشاهدون وهم يجلبونها الى شلمناصر ، على مسلة سوداء ، كانت تشتمل على نوع من حيوانات ذات قرون ربما كان القيل من ابرزها . فعندما كان ملك اشور يتجه بحملاته العسكرية غربا ، ويتخذ طريقة بعيدا حتى شاطئ البحر الابيض المتوسط ، لم يكن يتوانى عن القيام برحلة بحرية قصيرة لغرض ان يرمز الى سيطرته على المحيط ، وان احد المتحدثين يضيف الى هذا ان الملك اصطاد حيوانا بحريا يدعى « الدلفين » (*) .

(*) الدولفين Dolphin نوع من السمك البحري يعرف في مصر باسم « ابني ملاح » .

الزخرفة والمنحوتات الناتئة

كان القصر الملكي في جوهره اكثر بقليل من كومة هائلة من الطين ، وهي المادة الخام التي لا تطاوع التفصيل الفني ، لكنها كانت مع ذلك مستودع الكنوز الملكية في بلاد آشور .

لقد بحثنا في فصل سابق من هذا الكتاب عما انبأتنا به المنحوتات الناتئة عن عظمة الاثاث ، في حين كانت ارضيات الغرف مفروشة بالسجاد الذي نستطيع ان نكون فكرة عنه من العتبات المنحنية .

وكانت جدران الغرف التي تقل اهميتها مزخرفة بقواعد واشرطة من اللون متباينة ولوالب ، ونقوش من الرخام بصفة عرضية . غير ان فخامتها الرئيسية تتمثل في وفرة المنحوتات الناتئة التي صورت في القاعات الممدة للاحتفال والتي تؤلف العمود القفري للمجموعات الآشورية المحفوظة في كل من لندن وبرلين وباريس . فهي تتألف من صفائح من الرمرر والجبس هشة جدا لانها عندما تم اقتلاعها كان الحجر ما يزال يحتفظ برطوبته الطبيعية ويأخذ في التصلب كلما جف .

ولسوء الحظ كان يعمد الى تكوين الجص بعملية التكلس وبقي ابناء البلاد عبر التاريخ يستعملونه لهذا الغرض في ابنتهم الخاصة .

بنيت الواح كبيرة من هذا الجبر في الاجزاء السفلى من جدران الغرف . ولم تكن تستعمل لصنع الافاريز التي كان الاغريقون مفرمين بها . وفي المجال العملي فان مثل هذه القطع الثقيلة لا يمكن ان تثبت بشكل مضبوط في طين الجدران غير المفخور ، وانما كانت عرضة للسقوط واسقاط وجه الجدار معها .

كانت الالواح توضع دوما بصفة صفائح عند مستوى الارض وغالبا

ما كانت تغطي قليلا في الارض تحت ضغط ثقلها وهناك مظاهر مختلفة من امثال الربطات تشير الى انها قد تحنت بعد ان تم تثبيتها في الموضع .

ولا بد ان يكون مجموع مساحة هذه المنحوتات كبيرا جدا (لقد تم احتسابها في خرسباد وحدها فظهر انها تغطي ما يقرب من فدان وثلاثة ارباع الفدان) الى درجة يبدو فيها لاول وهلة بان التصور يقف حائرا امام قوة احدى الامبراطوريات التى استطاعت ان تنجز مثل هذا الشيء الكثير في فترة قصيرة من الزمن ، ذلك لان بناء خرسباد لم يستغرق سوى خمس سنوات ليس الا .

غير انه ينبغي لنا ان نتحقق بان العمل قد تم تنظيمه بصفة خاصة تحت اشراف اعظم اقتصاد ممكن في الجهود . فقد صممت المشروعات الزخرفية لكل غرفة ، وكذلك الموضوعات العامة من قبل فنيين مبدعين . وبعد مرحلة التخطيط ، احيل العمل الى صناع ممن حذقوا صقل الحجر الخشن ، واعتمد كل واحد منهم على اختصاصه الشخصي . وهكذا نجد ان احده هؤلاء الصناع لا يعمل شيئا سوى التلطيخ ، في حين يقصر صانع آخر عمله على نحت تفاصيل الاشرطة او الاقدام .

والحقيقة ان المنحوتة برمتها كانت تنحت بصور خيالية بالنسبة لموجوداتها ، كما يقع ذلك بالنظر الى الزهريات الاغريقية ، وان ايدي وأرجل بعض الشخص كانت مقلوبة .

ولم تكن المنحوتات مصبوعة بالدهان كلها ، بل زوقت بلمسات عرضية من الالوان وعلى الاخص في بعض حلل الالبسة ، في حين كسي الجدار الذي فوقها اما بالكلس او تم تزيينه في الغالب جدا باشكال هندسية مصبوعة من معينات ومثلثات واغاريض متتابعة من الوريدات وبازهار اللوتس او البراعم ، او اخيرا بقرص او مستطيل مقعر الجانب تقوم على جوانبه الجحش او الثيران .

وكانت الموضوعات الاساسية للنحوت الناتئة محدودة جدا . فقد كان احدها يمثل ممارسة الملك للصيد وهي الرياضة التي كانت تشغل على وجه التأكيد جزءا كبيرا من وقت الملك .

ففي خلاصة لرحلات الصيد التي كان يقوم بها يعدد آشوربانيبال عددا من الحيوانات التي قتلها والتي تتألف من ثلاثين فيلا ومائتين وسبعة وخمسين حيوانا قتلت بالعربة ، وثلاثمائة وسبعين اسدا قتلت برماح الصيد .

اما الموضوعات الاخرى فكانت تمثل الولائم ، واستقبال المتساقين الى اداء الجزية ، واخيرا الحرب والتي يمكن ان توصف بانها قوام الصناعة الآشورية . وعندما نصل الى هذا الموضوع لتقدير اهميته سنجد باننا اعتمدنا اعتمادا كبيرا في ذلك على وفرة الادلة الوثائقية التي وفرتها لنا المنحوتات الناتئة ، ومن ناحية اخرى اخذت الزخرفة في بلاد بابل ليس صفة المنحوتات الناتئة بل صفائح الآجر المزجج . فقد تم العثور على كسر في غرفة اجتماع واسعة في قصر نبوخذنصر على شكل اشربة عمودية ذات الوان سوداء وزرقاء فوق خلفية خفيفة . تنتهي في شكل رأس له لولبان ملتفان من لون اصفر .

وسجل المؤرخون القدامى ان الجدران كانت مزينة بمشاهد الصيد وان لم يشر على بقايا منها ، فان مثل هذا الامر محتمل بصفة قاطعة تماما .

القصور الإقليمية

لقد حصرنا بحثنا كثيرا في نطاق الموقع الذي كان ملك بلاد آشور يقيم فيه عندما يكون موجودا في عاصمة ملكة ، لكنه كان يمتلك ايضا قصورا يستطيع ان يمكث فيها عندما يزور الإقليم .

ولعل واحدا من افضل هذه القصور الباقية هو تل الحجير مدينة تل

بارسيب الآشورية القديمة(*) في الشمال الغربي من الإمبراطورية الآشورية والتي تقع في المكان الذي ينحني فيه نهر الفرات بشكل حاد على مقربة من قرقميش(**).

وهذا القصر غير شهير من الناحية المعمارية لانه يحتوي على الاعتيادى من البالحات ذات الغرف او الشقق التي تفتتح عليها ، ولكن ليس له مخطط ارضي متجانس بشكل واضح ، في حين تبدو الممرات وكأنها قد صممت لتعقيد حركة المواصلات بدلا من تههدها .

غير ان المظهر غير المعتاد فيه يتمثل في عدم وجود النحوت الناتئة كلية في القسم الرئيس منه وان الزينة تتألف على افراد من رسوم اعادت اظهار كل موضوعات النحوت الناتئة .

هناك شك ضئيل في أن كلفة بناء القصور وزخرفتها من أمثال قصير خرسباد في نينوى ، كانت جوهرية جدا على الرغم من استخدام امرى الحرب الذين لا يكلفون شيئا سوى الاحتفاظ بهم ، لنقل مواد البناء ولتشغيل اعداد كبيرة من الصناع الذين كانوا ينقلون قسرا من بلادهم الخاصة بهم ، اكثر من عدد القنائين المدعين .

كانت النقود المتوفرة يحتفظ بها لبناء القصور في العاصمة وهذا يعني

(*) تل ، بارسب : اسمها المعطي تل أحمر ، مدينة قديمة تقع في الأراضي السورية على الضفة اليسرى من نهر الفرات وكانت عاصمة مملكة «بيت اديني» الآرامية . غزاها شلمنصر الثالث ملك آشور في القرن التاسع قبل الميلاد وسماها «كار شلمنصر» أي مدينة شلمنصر . نقب فيها الآثاري الفرنسي الشهير تورو دانجان سنة ١٩٣٤ وما بعدها مع جولة من الآثاريين وعثروا على آثار قديمة فيها .

(**) قرقيش : هي عاصمة مملكة العثيين التي ظهرت في بلاد الاناضول في الألف الأول قبل الميلاد . واطلاها الآن تدعى «بوغازكري» . نقب فيها السويديون وولي في أواخر سني العشرينات وأوائل الثلاثينات وعثر فيها على آثار قيمة ووضع كتابا خاصا عنها .

ان التصور الاقلية يجب ان تبني بزخارف ايسر واكل جهدا ، وانها
لا تشتمل على المشاكل التي يتبرها نقل الحجر الى مسافات طويلة .

لقد تلفت رسوم قصر تل احمر لسوء الحظ ، وان النساذج التي
وصلت منها الى المتاحف كانت قليلة وعلى شكل كسر .

ومع ذلك ففي اثناء التقيب استطاع « كافرو » المهندس المعماري لبعثة
تورو - دانجان(*) التي عثرت على الرسوم ، ان يستنسخها ويميدها بعناية
كبيرة وبهذه الصورة استطعنا ان نمتلك صورة صحيحة طبق الاصل لزخارف
القصر . وحين وصلت هذه الرسوم الى باريس تم عرضها اولا لمدة قصيرة
في متحف « الاورانجيرى » ومن ثم نقلت الى « المتحف الاستعماري » وبذلك
اعطت برهانا اوسع على ان متحف اللوفر لم يكن يتسع لاحتواء وعرض كل
مجموعاته . وليس هناك ادنى ريب في ان المشروع القصير الاجل الذي اعد
لاقامة متحف شرقي والذي كان يتطلع اليه في الامل المعقودة على الهدنة ،
لا بد وان يعاد بعثة مرة اخرى .

جعلت السطوح الداخلية للجدران ناعمة بقدر ما يسمح به مزيجها
المؤلف من الطين المفخور والقش المثلوم ، ومن ثم كسيت بطبقة من الجبس ،
في حين تم صبغ الصورة بايجاز ومن ثم قويت باللون ، ولو انها لم تصبغ
كليية .

وكان من سوء الطالع كثيرا ان تشققت طبقة الجبس وتلفت بسرور
الزمن ، وكانت نتيجة ذلك ان الصورة لم تعد تظهر ازاء خلفيتها ، في حين
كانت القطع التي اكتشفت عديدة الجدوى باستثناء الدليل المعماري .

(*) تورور دانجان Thureau-Dangin من العلماء الفرنسيين الكبار
الذين تخصصوا بدراسة المساريات . عكفت على دراسة الكتابات المسارية التي
اكتشفت في تللو ووضع عنها مؤلفا قيما بعنوان كتابات سومر واكد صدر سنة ١٩٠٥م
ولهذا الرجل فضلته الواسع في اكتشاف قواعد اللغة السومرية .

لا بد لنا ان نتذكر هذه الحقيقة عندما تأخذها بنظر الاعتبار وبمزيد من التفصيل . فهنا ، كما هو الامر في اي مكان آخر ، كان الفنانون يعملون بالآم معروفة كيما يتدعوا الموضوعات الزخرفية للقصور الرئيسة ، وهكذا نرى الملك جالسا على عرشه وهو يرتدى كامل حلته يستقبل السفراء ودافعي الجزية . فاحد المشاهد يبين اسدا مدجنا يقبع عند قاعدة العرش . فهذه الحيوانات كان يحتفظ بها اليقة في القديم .

هناك نص عن موقعة « قادش » (*) الحاسمة في سوريا ، والتي جوبه فيها رعميس الثاني ملك مصر بالحسين ، يصف شجاعة الفرعون الذي كان يقاتل بيد واحدة فعلا مجموعة من أعدائه ولكنه تلقى العون بهجمة من أسده الاليف .

وهناك مناظر اخرى تصور رحلات القنص الملكية باشكالها الاعتيادية من الدراما ووثبات الاسود . ففي هذا المصر لم تكن مشاهد الحرب قسدا تحولت بعد الى موضوع للزخرفة ، لكن في اثناء الاستعادة اللاحقة لتسل يارسب في عهد آشوربانيبال ، عندما اصبحت حروب الملوك موضوعا شائعا ، بدأت محاولة لتصوير هجمة انقضاخ قام بها حملة الرماح الاشوريون بهذه الطريقة .

ولكن مما لا شك فيه ان هذا لم يكن مقبولا وانه قد صور بموضوع اكثر انسجاما مع الزخرفة القائمة للقصر .

ولقد اكتشف الامريكيون بقايا مهمة من رسوم في قصر الوزير الاعظم في خرسباد (سبق ان ذكرنا بان هذا الوزير كان اخ الملك) ، واحد هذه الرسوم يمثل الملك منتصبا فوق قنطرة على شكل مسلة ، وهو مشهد غالينا ما تم ابرازه في نحوت القصور الملكية .

(*) قادش : من اهم المدن الفينيقية على شاطئ البحر الابيض المتوسط وهي تقع على نهر الماسي .

ويمكن تلخيص الموضوع بالقول ان النحت كان مقتصرًا بدرجة حيوية على اكبر القصور ذات الاهمية العظمى .

مفهوم الملكية

كان عامة الناس الذين راقينا اعمالهم اليومية في كفة اجتماعية واحدة في حين كان في الكفة الاخرى ، الملك وبلاطه والطبقات الحاكمة وكانت الثغرة فيما بينهم جد واسعة بحيث لا تعترف باية مقارنة . ومن الواضح ان يوما ما في حياة الملك لا يمكن ان يحل ادنى مشاهة ليوم من حياة رجل اعتيادي .

ولسوء الحظ يعوزنا السند الذي نود كثيرا ان نمتلكه ونعني به اليوميات التي كان يحتفظ بها افراد البلاط من امثال يوميات « فني برني » (*) . ولكن وان كانت كل براهيننا غير مباشرة بالضرورة فالتا نعرف كيف ان كل ساعة في الغالب من ايام معينة كان الملك يتفقا واتا بالنسبة لبقية الايام نعرف وظائفه الرئيسية .

ففي العصر الذي تحدث عنه كانت الملكية الاشورية والبابلية تستمد قوتها من تقليد صيغ بشكل ثابت ، فاولا وفي الغالب كانت الملكية لا تمثل سوى الشكل المستطاع للحكومة ، ومع ذلك فقد كان الملك كثيرا ما يخضع لنوع من قوة اعلى ، وبذلك قد يصبح غياب الحاكم امرا لا يمكن تصوره .

وقد اتضح هذا الامر يعض الملاحظات القصيرة التي اوردها احد الكتبة عن بعض اعداء الامبراطورية اولئك الغزاة الذين كانوا يترصون في

(*) فني برني Fanny Burney شخص فرنسي عثر على لوح من الفخار يمثل الهة عابرة مجنحة يحيط بها اسود ، ويوم وقد نسب هذا اللوح اليه فاصبح يعرف لدى الاثاريين باسم «لوح برني» .

البيان ان الشمال والى الشرق . او يجوبون السهوب التي تتأخم حوض بلاد
الرافدين .

يقول الكاتب بصفة قاطعة ان هؤلاء « لا مساكن لهم (بمعنى انهم
يعيشون في الخيام) ولا ملك لهم » . ففي هذا التاريخ كانت مفاهيم الملكية
- مها كانت الصفات الشخصية للسلوك ومفاهيم الدولة - غير منفصلة .

القواعد التي تتحكم باعتلاء العرش

تطبق معلوماتنا عن هذا الموضوع على وجود دولة وديانة متطورتين
تطورا رفعا . ومع ذلك نستطيع ان نستنتج وجود فترة مغفنة في القدم
يفضل قصيدة جد قديمة تصف العوائد المستقاة من عصر اسبق .

تحدث هذه القصيدة عن البطل غلغامش الملك الاسطوري للوركاء
والذي كان نوعا من هراقة البابليين والذي سجلت مغامراته بشكل عاطفي
في قصيدة ملحمة .

ان غلغامش هبه هذا الذي تج من اتحاد انسان وآلهة - وهذا توجد
اشارة الى تقليد اكثر قدما - قد صور في صفة رجل ذي قوة خارقة كسل
ما تتصوي عليه شراسة الوحش .

فهو يضطهد رعاياه ولكنه في ذات الوقت هو حاميه المولود الذي
نسر عن ذراعيه ضد اي تهديد بالانقراض موجه الى شعبه .

وهو يشن حملة ضد حارس غابة الارز اي في لبنان او امانوس وتلك
اشارة بالعبارة الاسطورية الى الحملات التي كان يقصد بها اقتناص طريق
التجارة امام السلع من امثال الاخشاب التي لم تكن متوفرة في بلاد الرافدين .

وهو يحارب قطعان رعاياه من الحيوانات المتوحشة . وهو الصياد الذي

لا يهاب ، وهو يجسد صفات الرئيس البدائي كالحارس القظ المتحمس لمصالح مجتمعة .

ان ذكرى هذا العصر البعيد يمكن التحسس بها من حقيقة ان حق الصيد لم يكن يتمتع به سوى النبلاء وحدهم . فعندما يقتنص ملك آشور اسودا بالقوس والنشاب فانه يمارس في هذه الرياضة امرا كان من واجباته فبلا كملك .

الترشيح السماوي

كان اعتلاء العرش خلال اواسط الالف الاول قبل الميلاد لا يعتمد على اللياقة الملكية حسب وانما على ترشيح من الآلهة أيضا .

وليس من شك في ان هذه العقيدة تعود اصلا الى ضغوط وضوابط صريحة ومفاجئة ولا سيما في الشرق لان مبدأ الوراثة هو المعسوف به لكن جذوره تعود الى الماضي السحيق جدا .

وكان المعروف بصفة شاملة ان السلطة الملكية مودعة في ايدي الآلهة، وان هذه كان يرمز اليها بلباس الرأس والصلاح التي كانت تطرح - كشعارات للسلطة - امام عرش « انو » في السماء .

وقد وضحت هذه النقطة في نصيدة اخرى (سيرد ذكرها) في قسم الشعر الغنائي في الفصل الثالث من هذا الكتاب والتي يعد فيها « ايتانا » (*) العدة للقيام برحلة الى السموات كي يسرق هه الشعارات بالقوة .

(*) الاله انو والاله ايتانا . انو هو راعي مجسم الآلهة لسكان بلاد الرافدين القديمة وكان مقره في معبد عرف باسمه في مدينة الوركاء . اما الاله « ايتانا » فهو الاله الرامي في الاوساط الدينية السومرية وفيه ملق في السيام .

فهو يبدأ الرحلة بمعونة نسر انقذه من عدوه الثعبان ، لكنه مثل
ايكاروس آخر (*) قدر له ان لا يبلغ السماء ويتطلب عليه دوار الرأس
فيسقط محطما على الارض .

وعندما لا يستطيع اشغال العرش ، اما لان السلالة الحاكمة تكون
قد بلغت نهايتها او بسبب غزو بربري ، فان الملكية تعتبر آنذاك وكأنها قد
صعدت الى السماء .

عند هذه النقطة كان ينبغي للالهة ان تشير الى رجل حسب اختيارها .
ولذلك كان الملوك من اقدم المصور يعتمدون بالقابهم على الذين تم اختيارهم
بهذه الطريقة . وقد يحرض مختلف الآلهة في مختلف الاوساط السياسية
ولكن المفهوم بصفة عامة هو ان « ابليل » حاكم الارض هو الذي يقدم
الاستئناف النهائي اليه .

وفي عصر متأخر اخذت هذه السلطة تنتقل بصفة طبيعية الى الاله الذي
كان يحكم المدينة ، وقد ادى هذا الى ان تقدم الاستئنافات الى عدد كبير من
الالهة عن طريق الملوك المطالبين بان يكونوا موضوع هذا الاختيار السماوي

ولكن بحلول منتصف الالف الاول قبل الميلاد عندما تم ابتلاع المدن
القرية من قبل دولتين عظميين هما آشور وبابل اصبحت آلهتها المحترمة
من امثال آشور ومردوك تعتبر وكأنها كانت تتطلع بطف الى الملك الطفل
حين مولده ، ولهذا يذكر حمورابي ان « شمس » آله العدل كان يتطلع اليه
فيما بعد عطوفا بعينه البراقين ! .

وباتساع هذه الفكرة اصبحت في مقدور الملك ان يتم اختياره في لحظة

(*) ايكاروس : بطل اسطورة يونانية وهو ايكاروس بن ديدalos ، هرب
من السجن فعلق في السماء حتى اصبغ على مقربة من الشمس واذا ذاك فاق جناحاه
المصنوعان من الشمع فسقط في البحر .

الاستقبال . فهدت كلمات من حارب تقول « ان الآلهة قد اختارتني عندما كنت
ما ازال في رحم امي التي ولدتي ! » .

ويمكن اختيار الملك حتى بفترة طويلة قبل مولده فعندما استولى
الغيلاميون في الالف الثاني قبل الميلاد على العراق ونقلوا معهم تمثال
الالهة عشتار في حملة عسكرية ناجحة ، اختارت الالهة ان تعاد الى الاله إناثا
وكان هذا الاله هو الذي اختار - بعد الف وخمسمائة سنة مؤخرًا -
آشوربانيبال ملك بلاد آشور . وكان يصحب الاختيار اسم ملائم للملكية.
اسم حسن .

ولقد سبق لاناثم (*) الذي عاش في النصف الاول من الالف الثالث
قبل الميلاد والذي نحن مدينون له بمسلة العقبان ان فاخر بمثل هذه التسمية .

يظهر من هذا ان التسمية وان كان من المهم ان تنسب الى خط ملكي
وان كان بسبب الشرعة التي تيسر السيل امام وراثة العرش ، الا ان هذا
بعد ذاته لم يكن كافيا ، لان الاهمية العليا في هذا الامر تتعلق باختيار
الالهة .

ولقد وضع المفتصبون للعروش من أمثال « نرغلصر » البابلي (**) أو
« لوغال زغيسي » (***) الذي أنهى سيادة السلالة الاكدية الحاكمة ، مثل
هذا الادعاء على اساس الاعتبار المفضل للالهة وعلى اسم مناسب له .

(*) اناثم ، ملك لكش خلف اكورغال في الحكم سنة ٢٧٠٠ قبل الميلاد .
(**) نرغلصر Nerglissar ويعرف باسم نرغال شر أو نرغال صور
هو الملك الرابع من ملوك العهد البابلي الاخير حكم مدة اربع سنوات في الفترة
٥٦٠-٥٥٦ قبل الميلاد .

(***) لوغال زغيسي قضى على أوروكاجينا ملك لكش وضم لكش الى مملكته
الوركاء وذلك في حدود سنة ٢٣٢٥ قبل الميلاد .

وكانت التسمية الالهية تعنى بالضرورة ان الفرد المختار كملك كان الممثل الشخصي للاله الذي يحكم المدينة ، وهو عبارة عن نائبه حاكم عن لكي يحكم بمكان الآله ونياية عنه وهكذا كان الملك يحتفظ على الدوام بمسؤولية مواجهة تخص عبادة الالهة وتصرف تاجير للشؤون وان هذه المسؤولية الأخيرة هي في الواقع مظهر واحد حسب للمسؤولية الاولى .

ولهذا السبب كان حكام المدن في العصر القديم يحتفظون بلقب نائب (في السومرية « باتسي » وهو يقرأ الآن بمثابة انسي) وانهم لم يحصلوا الا بالتدرج على لقب ملك (لوغال الذي يبنى الرجل الكبير) ، في حين ان ادعائهم بالقاب اضافية من امثال ملك « للمناطق الأربع » [النقاط الارضية للملك] او « ملك العالم » التي كان يزعمونها بالمناطق التي تقع الى الشمال من بلاد الرافدين والتي تسكنها قبائل لم يتم التطب عليها ، فمثل هذه القاب كانت مجرد القاب تابعة للصفة الاساسية للشخص الذي اختارهم الآله وجعله ممثلا له على الارض .

ملك آشور لم يكن آلهما

لم يعرض ملك آشور مثل هذه الادعاءات بالالوهية الشخصية مثلما كان يفعل ذلك فراعته مصر او حتى الملك الحي الذي امر نفسه بان يلقب « صاحبة الجلالة الشمس ، شمسي » .

وليس من شك في ان طمس الملك المتذللين لابد وان كانوا يسيئون الملك بانه هو شمسه ، واقنا نجد امرأة تدعى حمورابي شمسي « او « حمورابي هو شمسي » . لكن ينبغي لنا ان نتحقق بانه في الوقت الذي قد يكون فيه الملك هو النور الذي يحركه فاته لم يكن هو الآله الذي كان مصدر ذلك النور ، وان من النادر جدا ان نجد مثالا للملك يدعي الالوهية مع الآلهه شمسي .

ففي عصور محدودة من تاريخ العراق من امثال عصر سلالة اور الثالثة ، ومن ثم اضاف بعض الملوك ربما تحت التأثير المصري ، الى اسمائهم علامة تدل على الالهية ، في حين اصبح مثل هذا الاجراء في نهاية العصر الاشوري واول العصر البابلي الحديث مهملًا تمامًا ولم يبق منه سوى صفة ادعاء وقتي غريب بان يكون الملك ابن هذا الآلهة او تلك الآلهة ، وهو ادعاء يصعب الاعتراف به لان ام الملك كانت تشاهد في البلاد .

لم يتردد فراغة مصر عن الادعاء بانحدارهم من الآلهة على الرغم من حقيقة ان كل فرد كان يعرف اسلافهم على العرش .

ولقد سبق لبعض ملوك بلاد الرافدين من امثال «اغوم - كاك ريمي» (*) و « ادين - داغان » (**) ان ادعوا بانهم من « عرق الآلهة » شقمونة « (***) او « ابن الاله داغان » (****) . غير ان هذا لا بد وان يكون لقبًا شكليًا خالصًا لان غوديا ملك لكش يصف نفسه على التعاقب بأنه ابن « غمدوغ » (نينا) ونن سن ، و « بابا » .

هذا في حين اتنا نجد في العصر الاشوري الاخير ان آشوربانيبال يزعم في مناسبات مختلفة ان امه هي اثليل ، و « بلت نينوى » و « عشتار اربيل » .

(*) اغوم كاك ريمي Agum-Kak-Rime وهو اغوم الثاني ،

تاسع ملوك الكشيين استولى على بابل في سنة ١٥٩٥ ق.م - دام حكمه ١٨ سنة من ١٦٠٢ - ١٥٨٥ ق.م .

(**) ادين داغان Idin Dagan هو اشمي داغان الاول من ملوك العهد القديم في آشور حكم مدة اربعين سنة في الفترة ١٧٢٠ - ١٦٨١ ق.م .

(***) الاله شقمونة : اله الكشيين وهو الذي يقرب على اخصاب قطعان الماشية .

(****) الاله داغان : اله سومري عبد في مدينتي ماري وطرقه في موردينا .

ينبغي لنا ان لا نرى في هذا سوى ذكرى بعيدة لاصل الملكية السماوية والاختيار السماوي ، والتأكيد بان السلطة السماوية قد اودعت الى ملك بكل كماله قبل مولده .

هناك صفتان اكثر شيوعا بين كل الصفات التي يفترض ان يحوزها الملك ، ونعني بهما القوة والفهم ، وهذه الصفة الاخيرة مهمة بصفة خاصة .

ذلك لان مالك الحكمة والمعرفة يكون قد تلقى موهبة الاذان العظمى ، فقد كان من الطبيعي تماما للملك ان يوهب مثل هذه الصفات كانه لم يكن مجرد سليل سماوي بل ان الالهة قد ارضعته .

ولقد امتلك آشوربانيبال هذه الصفة التي وهبها له الآله « نيو » الذي ظهر له في المنام عندما كان قلقا بشأن حصيلة احدى الحملات العسكرية .

فقد راح الاله يذكر الملك بانه ، اي نيو ، قد عهد الى الملك وهو طفل بان ترضعه الآلهة عشتار ، وانه اضاف الى ذلك قوله « من الحيوانات الاربعة ازاء فيه اثنان قد رضعا واثنان اخفيا وجهيهما » .

لقد اضافت هذه الحادثة اهمية لتبيان ان فكرة الالهات المتعددات الحيوانات كان منتشرة قبلا في بلاد الرافدين ، كما انتشرت مؤخرا في آسيا الصغرى وفي روما ، دون الحاجة الى التطلع الى تأثير مصري خاص ، فسي القطر الاخير كانت « حاطور » ، آلهة الخصب ، ممثلة ايضا في صورة بقرة .

وكان وريث العرش الذي يفترض فيه بانه قد ولد من آلهة ورضع من ثديها يتم تهذيبه كأمير ملائم وينمو تحت اظفار معلميه ، والذي اعتقده ان التهذيب الصحيح لطفل ذي مولد نبيل ، قد تم تلخيصه على منحوتة ناتئة حشية جديدة محفوظة في متحف اللوفر . وتبين هذه المنحوتة صبيا صغيرا حسن الملبس يقف على ركبتي امرأة جالسة عليها عباءة طويلة تغطي قفا رأسها وتصل الى قدميها . وهذه العباءة تبرهن على انها من طبقة رفيعة لانه لم يكن يسمح للخدم بارتداء

عباءة من هذا النوع . وعند حافة القسم الاعلى من المنحوتة وبجانب صورة الامير الصغير ، نحت الفنان صقرا له جبل مربوط حول قدمه ، والى جانب كتاب مفلق لابد وان كان يمثل رقما طينية ذات وجوه داخلية من الشمع كانت تستعمل لكتابة الحروف الآرامية .

فهذان الرمزان ، الصيد والتعليم ، التهذيب الجسمي والعقلي معا ، يبدوان في نظري باهما الخلاصة الكاملة لعملية التربية المثالية للامير .

تسمية احد الاخسلاف

في الوقت المناسب يستدعي الملك الحاكم البارزين من المواطنين وحتى بعض العوام من ابناء الشعب ثم يعلن بصفة شكلية بان الامير هو وريثه .
ويقسم الجميع بانهم سيقبلون به ، ووسط مشاهد الحماسة يدخل الوريث المرتقب عندئذ الى ال (بت - رديسو) او البيت الذي خصص لاستعمال مطلق يمارسه الوارث الشرعي للعرش .

ولقد عين كل من اسرحدون وآشوربانيسال وريثين مرتقبين بهذه الطريقة وأشار كلاهما بصفة خاصة الى الحشود التي حضرت الاحتفال التي ابتلعتها الوفود القادمة من كل انحاء الامبراطورية .

ولقد رسم مشهد مماثل على منحوتة حثية حديثة اخرى عثر عليها في قرقميش على نهر الفرات شمالي شرقي مدينة حلب . ويبين هذا المشهد الملك وهو يمسك ابنه من يده ويقدمه الى الجيش . ويقف اخوة الامير الصغار خلفه ويحاول اصغرهم ان يشي في حين تحمل احدى المرضعات اصغر طفل مولود جلب معه حيوانه الاليف ايضا .

ولم يكن الاحتفال الشكلي من هذم النوعية يترك الى خيار مطلق من جانب الملك وانما يمكن ان يمارس بعد خيار مطلق من جانب الملك وانفسا

يمكن أن يمارس بعد أن تتم استشارة الآلهة فعلا من قبل الكهنة وتمنح موافقتها وما أن يحدث ذلك حتى يبدأ ورث العرض ينوب عن والده في بعض الوظائف وأن يقود حملة عسكرية .

وهكذا قفى الوقت الذي كان فيه نبوخذ نصر ما يزال ورثا مرتقا ليس الا ، نراه يقود مفرزة من الجنود لمرافقة الماذيين الذين كان أبوه يأمنل بمساعدتهم أن يجعل من نفسه سيدا لبلاد آشور . وتوجد في متحف اللوفر رسالة مشوهة يبدو فيها بأنه يستدعي أتباعه .

من الطبيعي تباما في الحالة التي يقوم فيها احد المفتصين ، ليس ولدا لرجل ، بالاستيلاء على العرش ، أن يجبر رفاقه على أن يحدثوا اية اشارة الى قضية الشرعية ، وأن يحصروا انفسهم بدعوات من الآلهة الى العرش وبالتأيد الذي ينظره به .

ان مثالا سابقا من هذا النوع يمثله سرجون العظيم ملك أكد الذي جاء به احد البستانيين ، وتلك حقيقة يشير الملك اليها ، ويضيف عليها بأنه في الوقت الذي كان يعمل فيه بستانيا ، كان محبوبا من قبل عشتار ، ويختتم اشارته بقوله « لقد بقيت اتمتع بالسلطة الملكية لكذا عدد من السنين » .

التسويج

بعد وفاة احد الملوك يقام حفل من نوعين مدني وعسكري بالاضافة الى حفل اخر ذي صفة دينية ، وذلك لتسويج ورثه المعين حقا لهذا العرش . ويحدث الاحتفال الاخير في معبد الآله آشور في مدينة آشور ذاتها . ويأخذ الملك الجديد مقعده على عرشه وفي الوقت الذي يتقدم فيه الجند وهم يحملون العرش على اكتافهم ، ينقر كاهن آشور على ذق ويهتف عاليا « آشور ملك » وذلك العرض أن يشخص دون شك شخصية الملك الجديد بإعلان من الآلهة .

واذ يدخل الملك المعبد يهبط من على عرشه ويتمدد بكامل طوله على الارض ثم يقدم الولاء للاله ويلقي عند قاعدة تمثاله بلباس وذهب وفضة تكون كلها ملكا للكاهن . وبعد ذلك تبدأ النذور .

اتنا لن نفرض النظر عن الدور الرئيس الذي يلعبه الملك في الاحتفال ، والذي يمارس فيه وظيفة احد الكهنة ، ولا سيما في تنظيم المائدة للنذور التي تكرس لاستعمال الآله آشور . ومع ذلك فحين يكمل الملك هذا الدور يبدأ الكهنة بحفل التوزيع الحقيقي الذي يؤكد فيه الملك ، بطريق المفارقة ، صفته كمثل ارضي للاله . وخلال هذا الاحتفال يتسلم الملك التاج وشعارات الملكية التي تكون حتى تلك اللحظة قد تم ترتيبها امام هيكل الاله تقليداً للسمات التي ترمز الى السلطة والتي يعتقد بان طرح على مائدة امام عرش « انو » في السماء .

عندئذ يعود الملك الذي دهنه الاله الآن بالمروخ ، الى قصره وسط تهليل شامل يؤكد له بتوزيع الهدايا . حتى اذا ما جلس على عرشه راح يتسلم تبريكات كل النبلاء في حين يلقي كل واحد من افراد الطبقة العليا باوسمته امامه من امثال شعار السلطة ، والكيس او القيثارة لان الموسيقى الرئيس السلطة ، والكيس او القيثارة لان الموسيقى الرئيس كان بمددوما شخصاً عظيم الاهمية في البلاطات الشرقية . . ويسجد هؤلاء امام الملك الذي بأمرهم بان يراقبوا واجبات دوائرهم .

في خلال وضع عشرات من السنين وصل اليها بشكل غريب هذا الاحتفال ، بالاجراءات التي كانت تقام لتوزيع سلطان تركيا ، والذي يقدم خلاله الرئيس الاعلى للدراويش الراقصين الى السلطان الجديد سيف عثمان كرمز لسلطته .

هناك فقرات موجزة تشير بقوة الى وجود مشاهدات مقاربة اثناء الاحتفال بالتوزيع في مدينة بابل . فمن المحتمل ان يكون نوعا السمات الملكية ، وهما

لباس الراس والصولجان او السلاح اللذان يميزان في النصوص ، قد قصد
يهما التذكير بالمظهرين المزدوجين للملك كحاكم في اوقات السلم وكقائد في
الحرب ، وان هذه السمة المزدوجة قد ترمز الى مملكتي-سومر واكد اللتين
اتحدتا في ظل حكم واحد في عصر سابق جدا .

وما ان يتم تقبل الملك بمثابة نائب عن الآله فان الاسلحة التي قدمت
اليه بصفة شكلية ترمز الى التزامه بالدفاع عن الآله ، وتلك بهمة من اليسير
ممارستها ما دامت الاسلحة الالهية تمنحه الحصانة .

هناك كسرة من مسلة محفوظة في المتحف البريطاني يعود تاريخها الى
عهد الملك « تغلات - بلسر »(*) تصور يدين خارجتين من قرص شمسي
يمثل الآله ، تمسك احدهما بسهم ، وتومي الاخرى الى الملك .

فالفكرة الضمنية التي تشير الى ان الاله يدعو الملك كي يتسلم سلاحه
كانت شائعة منذ زمن طويل في الشرق ، ففي مصر مثلا كان الفنانون في
عصر متقدم مثل عهد حكم «توت عنخ امون»(**) يرسمون أشعة الشمس
في صفة أذرع تحتضن الملك .

سوف نجد عندما نأتي الى بحث الديانة الآشورية بالتفصيل ، ان
المؤمنين الصادقين كانوا على الدوام منهمكين بالحاجة الى الظفر برضا الآله
الذي يعتبرونه الصفة التي يعتمد عليها في الوقاية .

(*) تغلات بلسر: اسم لثلاثين الملوك الاشوريين اولهم تغلات بلد والاول حكم
٣٩ سنة في الفترة ١١١٢-١٠٧٤ ق.م. وتغلات بلسر الثاني حكم ٢٢ سنة في الفترة
٩٦٤-٩٣٣ ق.م. والاخير تغلات بلسر الثالث حكم ١٩ سنة في الفترة الواقعة بين
٧٤٥-٧٢٧ ق.م. والمقصود هنا هو تغلات بلسر الثالث .

(**) توت عنخ امون: من مشاهير فراعنة مصر. استيطاع المنقب الانكليزي
«كارتر» ان يكتشف في سنة ١٩٢٣ مقبرته الشهيرة في تل الحجاره بوادي اسوان
وان يعثر فيها على نفائس الاثار الفرعونية .

لقد كان مثل هذا الاعتقاد يصدق على الملك تماماً عندما يذكر في كتاباته بان الالهة تنظر اليه بعين العطف ، او حتى عندما يتباهى بحب الآلهات ، أو حين يعمد في الغالب الى اعلان نفسه بانه الزوج المحبوب لاحداهن ، فان مثل هذا التأكيد اكثر من مجرد التدليل على رفعة ذلك لان كلمات احد سكان العراق كانت تخلق الحقائق وان الحقائق تصيب الواقع بفضل الكلام . وما خلا ذلك كان الدور الذي يلعبه الملك في بعض الاحتفالات يمنحه ، دون شك ، اسما طيبة لمثل هذا الادعاء .

الواجبات الدينية في يوم ملكي . ملابس الملك

يطرح المشهد على الوجه التالي : كيف يمضي مثل هذا الشخص الذي نصفه دنيوي وبالأحرى اكثر من نصف ديني يومه ؟ في بلاد الشرق حتى الفنى يستيقظ من نومه مبكرا اكثر مما هو معتاد في اوربا الغربية وذلك لغرض اظهار عدم الاكتراث النسبي . ومما ان يستيقظ الملك حتى يمضي الى المرافق الصحية في حمامات كان كل قصر في القدم يمتلكها كمادة جارية .

وقد يحاط الملك بطائفة من الخدم ومصنفي الشعر والحلاقين ، كما قد تقدم ملابسه اليه . وكان ملابسه يخضع في الاصل الى موافقة دقيقة لان الطالع ، او علم الايام الملائمة وغير الملائمة ، ينص على انه ينبغي للملك في بعض الايام المحددة ان لا يغير ملابسه ، وبالنظر الى البسة اخرى محددة مصنوعة من مادة او لون خاص .

والشيء المعتاد هو ان يرتدى الملك جلبابا طويلا مطرزا قصير الارفان مصنوعا من الصوف او القطن بل وحتى من الكتان او الحرير . وقد يصبغ الصوف بصفة متساوية او يكون نصف ملون . اما القطن الذي كان الآشوريون يدعونه باسم « صوف الشجر » فكان مصدر المواد

رفيعة القيمة تتقبل الصبغ بشكل جيد وعلى الاخضر اللون الارجواني الذي كان الفينيقيون يتاجرون به على نطاق واسع . وكان لدى الفينيسين تسير ماشاة الظل الحقيقي المطلوب حين يجف في الشمس وذلك ابتداء من اللون الليلقي الى اللون الوردي الفاتح غالبا فاللون الارجواني العميق .

ويعتقد بعض الباحثين بان الكتان كان مستعملا . غير انه وان كانت المستندات التجارية الباقية تشير بشكل ثابت الى الصوف فاننا لم نصادف الكتان وهذا يشير الى انه كان يستورد وانه لم يكن شائع الاستعمال تماما . وكان الحرير ينتج في الصين في ذلك التاريخ . وكان معروفا بندرته جتسى في العصر البابلي الحديث ، وكان يتم نقله مرحلة فمرحلة عبر الطريق الذي عرف مؤخرا باسم « طريق الحرير » .

ينبغي لنا ان نتذكر ان العالم القديم على الرغم من نقص الادوات المصرية والكاشفات الكيماوية لديه ، فانه كان قادرا تماما على تمييز المواد الخام النادرة بصفة طبيعية ، ولو انها لم تكن جذابة بصفة ظاهرية .

لقد عثر على كميات قليلة من الحديد في الاهرامات . ومع ان الحديد لم يكن شائع الاستعمال في منطقة حوض البحر الابيض المتوسط وفي بلاد الرافدين قبل الالف الاول قبل الميلاد ، إلا انه كان يصدر قبالا من قبل الحثيين خلال النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد .

ولقد صنع احد رقم الاسس في قصر سرجون بمدينة خرسباد من مادة كاربونات المغنيسيوم . وهناك مزهية نذرية من المقابر الملكية في اور ، والتي كان يظن بانها تستحق ان توضع بجانب الذهب والفضة ، كانت مصنوعة من مادة الكلس . فهذان الحجر ان كانا نادرين في بلاد الرافدين ، كان الملك يرتدى فوق بلباسه الداخلية جلبابا مفتوحا غنيا بالتطريز والاهداب ، وحزاما يكون اما عريضا او منبسطا يلبسه تحت بحالة الكتف

الجلدية التي تحمل سيفا قصيرا ، او على شكل وشاح مضفور يفرس
خنجر فيه .

ويجب ان يكون التطريز الذي يصنع من خيوط معدنية وصوفية متباينة
الالوان ، ذا منظر عجيب ذلك لان بلاد الرافدين كانت - كما سبق ان
قلنا - مشهورة بهذه الصناعة .

لقد انقرضت صناعة التطريز البابلية تماما ما عدا قطعة منه اكتشفت
يوما ما في بعض القبور القائمة في الجو الواقع في مصر . ومع ذلك نستطيع
ان نحصل على فكرة دقيقة عنه من الآثار الآشورية التي نستطيع ان نتقبلها
كبرهان يعتمد عليه .

لقد كان الفنانون يستخدمون الصبر والعناية الفائقة في اعادة تصوير
ما كانوا يشاهدونه ، وكان تصورهم يخضع لرقابة شديدة .

وهناك دليل غير مباشر للبرهنة على هذه الحقيقة يتمثل في التماثيل
الساسانية التي نحتت في مغارة (طاق وبستان) الكبيرة على مقربة من مدينة
كرمنشاه العصرية .

ويمتد بعض الباحثين ان الملك الذي كان مسؤولا عن انتاج هذا
العمل الفني هو كسرى الثاني (٢٣) (*) (٢٢٨-٥٩٠ م) بينما يعتقد اخرون
انه هو بيروز (٤٥٧-٤٨٤ م) فهذه التماثيل ترى وهي ترتدى جلابيب
مغطاة بالمطرزات وان المظهر البارز في الصورة هو الطاووس التين ، وهو
علاق خرافي له قوائم امامية لحيوان وحشي واطراف خلفية تنتهي بلمة من
ريش منسق على شكل ذيل طاووس . وكان هذا يحدث بصفة صريحة بمثابة

(٢٢) الذي اشتهر باسم ابرويز .

(*) خسرو او كسرى الثاني ابرويز الملك الثامن والمشرور من السلالة
الساسانية حكم في الفترة ٥٢٩-٥٩٠ ميلادية .

صورة زخرفية في الفن الساساني وقد يفترض فيه تماما بان الفنان قد حوله الى نحت فائىء يظن انه في حاجة الى الزخرفة .

وقد حدث ان غدت المتاحف والمجموعات الاوربية مليئة بنماذج من المواد الساسانية . فقد كان الجميع يتطلعون اليها بشوق اكثر لانها كانت مصنوعة من الحرير الذي لم يكن يصنع آنذاك في اوربا ، وانها قد وصلت الى هناك اثناء العصور الوسطى باعداد كبيرة وبجملة من الوسائل ، بعضها عن طريق التجارة والبعض الاخر بصفة هدايا ملكية ، والبعض منها بمثابة اردية غالية الثمن لمخططات القديسين الائمة .

هناك نوعان موجودان الان في متحف الفن الزخرفي بباريس يحملان زخرفة مميزة مماثلة للزخرفة المنقوشة على جلباب الملك في طاق وبستان ، نسج أحدهما في لونين أخضرين ، بينما نسج النوع الاخر من ألوان زرقاء قائمة ، وخضراء وبنفسجية وخطيبية .

وعلى هذا نستطيع ان نعتد على دقة الفنانين عندما يرسمون ملك بلاد آشور وهو يرتدى البسة مطرزة تطريزا متقنا . ذلك لان منحوتة واحدة من كثير منها قد يستعمل بمثابة مثال لذلك .

فعلى هذه المنحوتة نشاهد - كعناصر في الشكل - جنيا مجنحا في وضع حركة مبرمة وهو يمسك باحدى يديه كأسا وفي اليد الاخرى ضفيرة مؤلفة من حلقة مضغوطة حلزونية نستطيع ان نفترض ، بالاعتماد على منحوتات اخرى ، بانها تمثل مياه فجوة نحت الارض .

تقوم في اسفل هذه شجرة مقدسة ذات اغصان افقية يقف على جانبيها
جنيان مجنحان يرشاتها بماء مطهر .

وقد احيطت هذه الصور بشاهد اخرى مصورة وبلاضافة الى
الشجرة المقدسة والجن والثور المجنح هناك مجموعة تحتوي على جني
مجنح رأسه وصدره الى امام وهو يركع بكل وضوح لكنه في الواقع العملي
يرى موقف جريان عرضي ، وهو يسك في كل من يديه بمظب اسد امسك
بشور وراح ينهش صدره . والرسم يرمته منسق وقد طلي بحاشية من براعم
زهر اللوتس والشجيرات المزخرفة باشجار النخيل والتي تنهض منها الزهور .

كان شعر الملك يقص على هيئة طربوش تمتد فوقه قطعة معدنية ذات
نهايات معقدة تتدلى الى الوراء . وكان يتعل في قدميه صنادل مفتوحة تدع
واجهة القدم عارية مع اقشوة للاصبع الكبير تشد الى الكاحل بسير من
الجلد يمر بين الاصابع .

كاف لحية الملك ، وجزء منها كاذب ، متموجة ، وقد رتبت في شكل
صفوف افقية من عكنات . ولقد تفرق شعره على قمة رأسه وتدل بفزارة
والتواء على كفيه .

ومع ان لدينا وثائق قليلة نستطيع منها ان تتعقب التطورات الدقيقة
لهذا الزي في عهد السلالة الاشورية الاخيرة ، فان المقاطع الواسعة واضحة
تماما .

لقد كان الشعر يقص بصفة اقصر في كل عهد من عهود الحكم ، في
حين كان لباس رأس الملك في عهد آشوربانيال اكبر بقليل من الطربوش
البسيط الذي كان في عهد اخر الملوك لآشورين المتأخرين يشبه غالبا لباس
الرأس الذي يرتديه الدراويش . فقد كانت قمته على الدوام مديبة .

المجوهرات والاسلحة

تكشف صياغة المجوهرات عن اصالة ضئيلة . ذلك لان العقيق ،
واليشم ، والجزع المعتادة ، كانت هي الاحجار الثمينة الاستعمال غالبا .

وكانت الاساور مفتوحة النهايات او المفلقة تلبس في الذراع وفي
الرسغ ، بالاضافة الى حلقات كثيرة يلبسها الرجال ويتم تشكيلها بصفة
علاقات وصلبان او عناقيد من العنب مجوفة ومصنوعة بدقة .

وكانت الاساور المفلقة واشربة الرأس التي يسكن لبسها مع التاج
او بدونه ، تزين بصفة متنوعة ، بصورة زر اقحواة مفردة او مزدوجة ، في
حين كانت نهايات الاساور المفتوحة تصنع بشكل جميل على هيئة رؤوس
عجول او وعول او اسود . وكانت ذات الصور تستعمل بصفة عامة لمقابض
المدى التي كانت تعلق في الحزام . وكانت للفلائد رؤوس ذهبية قد تكون
مدورة او في شكل ساعة رملية ذات سطح اما صقيل او مخطط ويتم ربطها
باحجار العقيق او احجار اخرى مختلفة او حتى بحبات من الزجاج .

فبمثل هذه السلسلة المحددة من المواد ، تعتمد اية مزينة تسلكها مثل
هذه الحلبي ، على تركيبها ، وهي تستند في تأثيرها الى البحث المتواصل عن
كل ما هو جديد .

كان الدرع الاحتفالي للملك ، اذا ما ميز عن درعه القتالي ، فخصا
بصفة استثنائية . كان السيف عريضا وقصيرا ومطلعا في غيد مزينة بصورة
اسدين رايعين احدهما قبالة الاخر .

وكانت هذه الصورة تستعمل منذ العصر المبكر ، وهي تؤلف قبضة
الخنجر النحاسي الذي عثر عليه في تلو وغدا الان مفقودا . فلقد كان هذا
واحدا من اقدم الامثلة على المقابض التي كانت تصنع على شكل اسود تبرز
موسى من افواهها .

وكانت مقابض المدي التي تحل في الاحزمة منحوتة نحتاً جميلاً جداً ،
ويمكن التعرف على اثنتين منها مزينة بالوريدات والضماير والشجيرات
المزهرة على ذات النحت الناتئ مثل المطرز الذي تم وصفه في قسم سابق .

وكانت الملابس والاسلحة معا تزين بدقة وبذات النحوت الناتئة :
ولذلك يجب المرء ويتساءل ما اذا كانت المطرزات تتألف في الواقع من
ذهب منسوج أو خيوط من الفضة ، ولكن الشيء المحتمل انها
تتألف من صفائح رقيقة من المعدن حفرت وصنعت في شكل منحوتة مثل
ورقة الذهب التي وجدت في (مسينا) لكنها أكثر منها دقة .

ولابد ان كان السهم يصنع من خشب نادر وكانت كل نهاية منه تغلف
بالعاج الذي كان ينحت ، بصفة عامة ، في شكل رأس بطة ، وتلك صورة
وجدت ايضا على اعالي الكراسي التي تشبه احيانا كراسي المخيم . وكانت
هذه شائعة تماما في مصر . وفي عيلام مثلما هي عليه في وادي الرافدين ،
كانت احجار الوزن تصنع على شكل بطات تستدير رؤوسها الملتوية لتستقر
على ظهر الطائر .

العربات الملكية

نعرف ثلاثة أصناف من العربات الملكية ، فالاولى هي عربة الحرب ،
ذات هيكل ثقيل وواسع ، وعجلات مدعمة بصفة خاصة [هناك لوح يصور
اشوربانيال في عربته وهو يتلقى استسلام مدينة بابل] .

ففي متحف اللوفر منحوتة يرقى تأريخها الى عهد حكم سرجون تين
ان محور العربة الذي صمم لمجموعة من اربعة خيول ، له عمود دعم خاص
بسبب الارتجاج الذي قد يتعرض له .

يتوفر لدينا بصفة ثانية المزيد من رسوم عربات الاحتفال ولعل واحدة
من افضل الامثلة المعروفة هي عربة اشوريانيال التي توجد نسخ منها في
عدة متاحف من ضمنها متحف اللوفر .

لقد صنعت هذه العربة على ذات الاسس العامة للعربة الحربية ، غير ان
عجلاتها التي غلفت بالحديد لتحول دون اندثارها المحتم ، قد وضعت ابعد
الى الخلف تحت الهيكل في سبيل التقليل من الاهتزاز .

ومع ذلك فان الفرق الرئيس هو ان الهيكل وعمود الاسناد المنحني
قليلا ، قد تم تزيينهما بشكل مفرط .

وكانت الخيول حتى في الحالة التي تربط فيها بالعربات الحربية ،
تسرج بعدة مزينة عادة بالثرائب والاجراس والفلوس وكانت هذه الخيول
تزركش بصفة اتم ، عندما تسحب عربات الاحتفال .

ولعل اعظم مظهر مثير للعربة الملكية هي المظلة التي تظللها . فلم
تكن هذه الزينة عديمة المعنى . وانما كانت رمزا للصف الفاخر كثيرا ،
وكانت تجلج بالمطرزات حتما .

هناك زمان كانا يستعملان في البلاط الآشوري ما يزالان مستعملان
حتى اليوم . اولهما المظلة التي ما تزال تستعمل لتظلل سلطان مراكش ،
وقد وهبت الى بعض الكنائس بمثابة علامة شرف . والاخرى هي المروحة
السقمية التي تشاهد في البلاط البابوي في شكل مروحة ، وتستعمل مروحة
من ريش النعام ذات قبضة طويلة في الموكب البابوي اثناء الاحتفالات
الكبرى .

وهناك طراز ثالث من العريات الملكية مصورة على منحوتة ناتئة من قصر سرجون في خرسباد ومحفوطة الآن في متحف اللوفر ، يمكن وصفها بكرسي يقوم على عجالات فهي في شكلها تشير الى مسند مدعم عال ، ومشابهة لعرش يكون فيه المقعد مدعما بصف واحد أو أكثر من صور بشرية صغيرة في موقف العديد من الاطالسة التي تشل مختلف دافعي الضربة من شعوب الامبراطورية الذين يساندون الملك .

ففي عصر متأخر طور الملوك الاخمينيون الفكرة التي اخذوها بعد مرحلة مثل اية فكرة اخرى ، من الآشوريين ، فاصبح دافعوا الضربة لا يسندون العرش الحقيقي بل القاعدة التي يقوم عليها .

هناك نقطة اخرى جديرة بالملاحظة بالنسبة الى منحوتة عربية آشوربانيال، وتلك النقطة هي وجود مرافق الملك الذي يقف بقربها ويده على احدى عتلات العجلات ، ويدفعها كدلالة على الاحترام والطاعة .

وحتى في وقت متأخر مثل عهد عبدالحميد آخر سلطان عظيم لتركيا(*) عندما كان يخرج من المسجد يوم الجمعة للسلام على العامة ، يصعد المرتفع الذي يؤدي الى القصر ، يسلك المرافقون احدهم بالآخر على حدة ، رغبة منهم في دفع عجلة العرية ولو ان مساعدتهم تلك ليست ضرورية .

وما عدا اسلحته التي يدعها غالبا الى مرافقيه لحملها ، كان الملك يحمل ايضا نوعا من قضيب في شكل صولجان احتفالي كرمز للسلطة . ويتألف هذا

(*) السلطان عبدالحميد الثاني ، هو السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين آل عثمان ولد سنة ١٨٢٩م وتولى الملك بعد اخيه مراد سنة ١٨٦٥ ، وقد خلع بعد الانقلاب الذي قام به رجال حزب الاتحاد والترقي سنة ١٩٠٨ . وكان لليهود والانتكيز اثرهم البارز في ذلك الانقلاب لان السلطان عبدالحميد ابي ، بكل المقريبات والاضغوط ، ان يسمح بهجرة اليهود الى فلسطين او ان يمكنهم من شراء الاراضي فيها . وقد نفى عبدالحميد الى سلانيك وسجن في قصر الالابيني حتى اعيد عند حرب البلقان الى الاستانة وكانت مدة حكمه ٣٣ سنة وسبعة اشهر و ١٣ يوما .

القضيب من كرة من الحجر والمعدن مثبتة في قبضة طويلة وتنتهي بسير قصير
للحمل او شرشبة شرط .

والشعار الثاني للملوكية يتثل في قضيب ينتهي بهلال معدني ذي حافة
خارجية مسننه . لقد كان القضيب نسخة محورة بشكل خالص من « الخطاف »
وهو الاسم الذي اطلقه الاغريقون عليه عندما واجهوه لأول مرة . ولقد
كان هذا مستعملا على نطاق واسع من لدن السومريين ، ونحن نعرف كل
مراحل تطوره . فقد بدأ اشبه بمنجل مفلطح وكان يتألف من قطعة من
الخشب تثبت فيها قطع حادة من الصوان بالقار . واخيرا وبعد اكتشاف
المعدن اصبحت الموصى تصنع من البرنز . وفي النهاية اصبح السلاح يصنع
كله من المعدن على شكل حسام شرقي يدعى « يطقان » (*) . وكما هو
الامر في اليطقان كانت الحافة القاطعة للخطاف هي الجانب الخارجي للموصى .
وكان السيف والخطاف في بعض المناسبات يستبدلان بعضا طويلة
كانت هي الاخرى شعارا للسلطة الملكية .

الاثاث الملكي

تحمل النحوت الناتئة شواهد على غنى الاثاث الملكي الذي كان نادرا
مثلا هو عليه الحال الان في الشرق ، والذي ينحصر فعلا في سرير ومائدة
ومقاعد ، وادوات للاستعمال اليومي التي يجب ان تحفظ في صناديق او في
صوان الجدران ، ثم تقدم الى الملك عندما تتم الحاجة اليها .

هناك منحوتة في المتحف البريطاني لوليمة اقيمت في حدائق نينوى
بعد هزيمة « تيومان » ملك عيلام « اللوح ١١ » .

فالملك آشوربانيبال شبه متكئ على مقعد ، وعند قدمه جلست الملكة

(*) اليطقان Yataghan , Yatagan يقصد به السيف المحدث ذو العدين .

على عرش اشبه بكرسي ذي مساند • ويمسك الملك والملكة معا بكؤوس وقد انتشيا باصوات الموسيقى ، في الوقت الذي كان فيه الخدم يهللون للملك والملكة ، او يقدمون لهما الحلوى •

ينتصب المقعد عاليا جدا عن الارض وله رأس مثبت اشبه بالرؤوس التي غدت مألوفة في عهد الامبراطورية الفرنسية [هناك صورة تمثل «وليمية آشور بانيال وملكته في الحدائق الملكية • لاحظ رأس تيومان مدلى الى أسفل على شجرة»] •

فالمالك الذي غطى اطرافه السفلى بسجادة ، والذي استند على المقعد، قد خلع تاجه الثقيل ، ولم يضع على رأسه سوى شريط مزين • وعلى النقيض من ذلك كانت الملكة تلبس تاجا واطنا ذا فتحات وقد سحب ببطء على رأسها اشبه بالعصابة • وقد تدلى شعرها ، مثل شعر الملك ، في خصلات فوق كتفيها، وضارعت ملابسها ملابسها ما عدا بالنسبة الى العباءة التي تدلت على ظهرها والتي يمكن سحبها فوق بدنها • ولم تكن تلبس نعلا بل شبشباً ، وقد جلست على عرش حقيقي له منصة عالية امامها •

اما المائدة القريبة من المقعد والتي تحمل الحلوى ، فقد كانت مرتفعة وصلبة لها قدم حفرت عليها مخالب اسد ، في حين ان الفنان — بالنظر الى الدقة الزائدة — قد صورها وكأنها تستقر على قاعدة منبسطة ، وتدعمها مخاريط من شجر الصنوبر متجهة الى اسفل •

والمثقف عليه بصفة عامة ان مخاريط شجر الصنوبر (او بالاحرى مخاريط شجر الارز التي كانت غالبا ما تستعمل في الاحتفالات الدينية) ، والتي كانت تستخدم عادة بصفة دعائم لللاثاث ، كانت تؤلف مظهرا لقوة سحرية ارتبطت بهذه النقطة • ففي مثل هذه الحالة كان يقصد بها ان تحمي الملك من هجمات جن الارض ، وتبعد عنه آثار الشرور •

وتحمل محفات الكراسي العالية افاريز مزينة بشكل متوال من خطين

منحنيين يشبه الهلال اسند ظهرا لظهر ، ومرتبطين من الوسط بخط • فكل نصف من الشكل يمثل لوالب تاج عمود قبرصي يزين دعامة برنزية (للعرش والمائدة) عثر عليها في منطقة « وان » (٢٣) ومحفوطة الآن في المتحف البريطاني • وهذا مثال آخر على دقة المنحوتات •

ويرى سهم الملك وكناتته ملقنين على منضدة او طاً بجانب رأس المقعد ، وقد زينت قماتها في كل زاوية بنقوش بارزة حفرت على شكل رؤوس عجول ، وتلك صورة طالما وجدت على اذرع الكراسي •

يقودنا اثاث الملك الى ان نأخذ بنظر الاعتبار ترتيبات مأكله • فسا خلا الطراز الغربي الذي تفوق على الازياء المحلية لا توجد في الشرق غرف طعام منفصلة ، وان الطعام يتم حمله في صحنون الى اي مكان يحدث ان يكون الشخص الذي يتناول الطعام جالسا فيه ، وهذا ما نشاهده في منحوتات خرسباد ، فهناك موكب من الخدم يحملون المائدة والكرسي (كانت العادة الاشورية ان تأكل وانت جالس ، اما المقعد الذي سبق وصفه فهو المكان الذي يستريح فيه الملك) ، ويؤتى بأواني الماء للفصل قبل تناول الوجبة ، وبعض هذه الاواني من كؤوس على شكل رؤوس اسود •

وهناك موكب آخر من الخدم يحملون الرمان والتين والاعناب ، في حين يوجد آخرون غيرهم يحملون الجراد على سفود من الخشب ، مما كان الملك والفلاح يتناولانه سوياً [انظر ما سبق ذكره عن الجراد في الفصل الاول من هذا الكتاب] •

يبقى بعد هذا ان نشير الى عتبات الابواب الحجرية التي كانت تنحت تقليدا للسجاد • فالنموذج الموجود منها في متحف اللوفر مزين بدوائر متشابكة ، في حين ان الحاشية التي تحمل الصورة التقليدية لزهرة اللوتس ،

(٢٣) في شرقي تركيا • وتعتبر هذه المواد قد جاءت من نمرود •

يبدو عليها بانها قد احيطت بشرائب من النسيج اشبه بما هو موجود منها
في السجاد المصري .

العلاج

لا نعرف سوى الشيء الضئيل عن بعض انواع المصوغات الاشورية
التي لم تكن تصنع على نطاق واسع . ولكن عندما اصبح كل شيء يقصد به
استعماله من قبل الملك شخصا ، مزينا بشكل متقن ، فقد اعتدنا تماما على
الصفائح العاجية التي كانت تستعمل لتزيين الصوابين والاثاث الملكي .

لقد كتب الكثير عن عاج الشرق الادنى والذي كان يرد في الواقع من
مصادر متنوعة تنوعا واسعا ، سواء كان مستوردا بصفة جاهزة ، ام كان يتم
نقشه من قبل حرفيين اجانب بعد استيراده .

فانواع العاج هذه تعرض سلسلة واسعة من الآثار ، لكنها تعد على
اية حالة من الطرف المنمنمة .

فنحن نستطيع ان نقرأ في التوراة ان حزئيل Hazae ملبسك دمشق
اثناء كفاحه ضد بلاد آشور في النصف الثاني من القرن التاسع قبل الميلاد ،
قد اضطر الى ان يتخلى عن محفة رسمية مزينة بالعاج ، وان هناك سببا يدعو
الى الاعتقاد بان تلك المحفة هي البقايا الحقيقية التي عثر عليها في احد القصور
الاشورية في ارسلان طاش ، مدينة « حداتو » القديمة في القسم الاعلى
من سوريا (*) .

(*) حداتو مدينة قديمة تقع على بعد اربعين كيلومترا من الضفة الشرقية
لنهر الفرات ، والى الشمال الشرقي من مدينة حلب بحوالي مائة وخمسين كيلومترا
تحت فيها بعثات مختلفة فعثر على منحوتات حثية ومنحوتات اشورية من عهد تغلات
بيلسر الاشوري ويعرف موقعها الان باسم « ارسلان طاش » .

لقد انجز بعض النقص بشكل ناتئ على ارضية صلبة وهو يشير الى تأثير مصري واضح ، في حين كان البعض منه عملا مكشوفاً يلحح الى تأثير ايجي ، بينا تشير الاجزاء الاخرى الى تأثيرات محلية .

و حين تأخذ بنظر الاعتبار ايضا ، ما تم العثور عليه في « مجدو » و « الضفة الغربية » في فلسطين ، وفي نمرود مدينة كلخ القديمة في بلاد آشور (**) وحتى في معبد « ارتيمس » في افسوس (***). يتضح لنا ان صناعة العاج كانت منتشرة انتشارا واسعا ، وانها كانت مطبقة بصفة عامة في مناطق متناثرة بشكل واسع من غربي آسيا .

ولقد اكتشف « دي مكينم » (****) كمية كبيرة من كسر من العناج في التنقيبات التي اجريت في سوسة نقشت عليها اشكال دوائر حلزونية بكل بساطة . فهذه كانت ترين في وقت ما ، قضيب عربة دون ريب .

اما بالنسبة لمصادر العاج ، فان لدينا من ثلحية سجلات مهمة للملوك المصريين مؤرخة من الالف الثاني قبل الميلاد ، عن اصطيادهم القيلة في شمالي سوريا ، في حين ان اولئك الصيادين الاقوياء آخر ملوك الامبراطورية

(**) كالح او نمرود ثمانية العواصم الاشورية عرفت باسم كالح وكلحو في التوراة جعلها اشورنا صريال الثاني عاصمة له . تقع على الجانب الشرقي من دجلة كشفت التنقيبات فيها عن اثار عظيمة لقصور ومعابد وغيرها .

(***) معبد ارتيمس في افسوس : افسوس من مدن ليديا القديمة اي اسيا الصغرى وقد عرفت باسم سلجوق وكانت من الثغور المهمة . وفيها اقيم معبد شهير للالهة ارتيمس .

(*) دي مكينم (رولان) Demecqunem (١٨٧٧-١٩٥٨) مهندس فرنسي اشترك في البعثة الاثرية التي نقت في سوسة بايران حيث خلف دي مورغان هناك في سنة ١٩١٢ وظل يواصل اعمال التنقيب في ذات الموقع حتى سنة ١٩٥٤ .

الاشورية ، لم يشيروا - من الناحية الاخرى - الى الحيوان اطلاقاً(*) .

ولكن حتى وان كانت الفيلة قد انقرضت في نهاية العصر الذي تحدث عنه ، فان التجارة مع الشرق الافصى كانت ثابتة ، واتنا دون شك يجب ان تتجه الى الشرق للبحث عن مصادر العاج ، وما خلا ذلك ، فانه كان يرد من اعلى بلاد مصر بكل بساطة .

المتع ، والولائم والموسيقى والرقص

سبق لمنحوتة آشوربانيبال في حدائقه ان اعطتنا فكرة عن التسلية . فالمنظر يؤلف حديقة في قصر نينوى عامرة بأشجار النخيل والسرو والكروم التي ترتفع عالياً فوق السلم الملكي .

ليس لدينا اي شك في ان الملك والمملكة كان يحتفلان بهزيمة تيومان

ملك عيلام على ايدي القوات الاشورية ، وان منحوتة المعركة المحفوظة الان في المتحف البريطاني ، تبين في الواقع رسولا يغادر الى نينوى بمنتهى السرعة وهو يحمل رأس الملك المدحور ، في حين علق الرأس في منحوتة الاحتفالات على شجرة تقابل مباشرة آشوربانيبال الذي تعاطف سروره بهذا الحفل الرفيع بشكل واضح .

وغالباً ما يصور الملك في الفن العراقي وهو يمسك بقدح ولكن هذا لا يمثل عيداً على الدوام ، وانما هو على الاكثر يصب السائل المقدس عرفاناً بالشكر للآلهة بمناسبة الصيد والانتصار في الحرب . واكثر من هذا فان

(*) اخطأ مؤلف الكتاب كثيراً في اعطاء هذا الرأي ، فالذي ثبت من المدونات الاشورية ان بعضاً من ملوك اشور وعلى الاخص اشور بانيبال واشور ناصر بال ، كانوا يصطادون الفيلة في الاجزاء الشمالية من سوريا . وقد تأكد هذا في الفصل الثامن من كتاب العراق القديم ، الذي وضعه طائفة من علماء الآثار السوفيت ، وقام سليم طه التكريتي بترجمته واصداره ضمن منشورات وزارة الاعلام في اوائل سنة ١٩٧٦ .

المحتوى الآثاري في هذه الحالة الخاصة لا يحتمل اي شك .

كانت الموسيقى التي اغرم بها سكان الشرق على الدوام وما يزالون غراما شديدا ، مظهرا اساسيا للمتعة على غرار تلك التي جرت في حديقة نينوى ، وان المنحوتات تبين الآلات الموسيقية التي كانت مستعملة في بلاد الرافدين .
خلال العصر الذي نتحدث عنه .

لقد كانت الاوتار والتطيل والنفخ معروفة جيدا ، وان الاول منها يحتوي قيثارة رباعية . وكان يتم العزف بهذه الآلة اثناء المشي ، كما كانت توجد قيثارة قابلة للحمل ذات سماعة مغطاة بالجلد . وقد عرفت الآلات متماثلة في مصر حيث كانت اوراق البردى تستعمل احيانا بدلا من الجلد كذلك وجد نوع من الرباب الصغير له سماعة صغيرة جدا ، واوتار مربوطة في نهاية مقبض طويل جدا ، وهناك آلات اخرى متماثلة ما تزال تستعمل في العراق وفي ايران .

كان التطيل يتم بالضرب على انواع مختلفة من الطبول تتدرج من النقارات القابلة للحمل الى طبول ذات ابعاد واسعة .

لدينا الواح فخارية تصور بعض الموسيقيين وهم ينقرون النقارات بايديهم ، في حين يحمل الآخرون طبالات اصغر بشكل واضح من الطبول الحديثة ، والتي ينقرونها بايديهم وبعض هذه الآلات مصنوعة كلها من المعدن من امثال الصنج ، والصلصلة التي كانت مألوفة كثيرا في العراق ، وشائعة ايضا في مصر .

لقد نحتت جوقة موسيقى حيوانية على واجهة قيثارة عثر عليها في القبور الملكية بمدينة اور ، وكان العازف على الصلصلة يعتقد فيه بأنه يربوع صغير . وكانت آلات النفخ تؤلف انواع من نايات مفردة او مزدوجة ، وكذلك من مزامير دون ريب .

ويظهر الموسيقيون الذين يعزفون على آلاتهم ، في عدد من النصب من
الأمثال المنحوتة المحفوظة في متحف اللوفر والتي يعزف فيها أربعة موسيقيين
في الوقت الذي توقف فيه الجيش للاستراحة . وكان الطبالون والعازفون
على المعازف والقيثارات والضاربون على الصنوج يقابل أحدهم الآخر في
صفة مزدوجة وهم يتقدمون ويتراجعون بالتناوب .

ونرى على لوح يصور الاستيلاء على « مدكتو » في عيلام(*) سكان
المدينة وهم يسرون في موكب امام الفاتحين ، الموسيقيون في المقدمة والسكان
صفارا وكبارا من ورائهم وراحوا يصفقون في ذات الوقت مع اصوات
الموسيقى . [يوجد لوح فيه موسيقيون يصحبون الجيش في مسيرته] .

وكان الرقص يصاحب الغناء والموسيقى غالبا ، ويكون عادة في شكل
ما يزال يشاهد حتى الان في الشرق ولاسيما في سوريا ، حيث يواجه صفان
من الراقصين احدهما الآخر ، ويتقدمان ويتراجعان بالتناوب في حين يصاحب
المشاهدون الموسيقى بصيحاتهم وتصفيقهم .

وهناك رقصات تقلد اعمال الحرب مثلا ، حيث يتوفر لدينا لوح فخاري
يبين رجلين يحمل كل واحد منهما عصا تذكرنا نوعا ما بمسطرة مطوية تفتح
على زاوية منفرجة .

ولم اتقبل الرأي القائل بان هذه كانت اسلحة خشبية لانه وان كانت
هذه الآلهة تمزى في الغالب الى العراقيين ، الا انه لا يوجد برهان على انهم
كانوا يمتلكونها .

والذي اعتقده ان هذه الأدوات هي في الأخرى ما يعرف بعصي الرقص ،
والتي عثر على عدد كبير منها أثناء التنقيب في مصر . وقد ازدهرت هذه

(*) مدكتو Madaktu قيل عنها انها كانت بالقرب من سوسة

الادوات في مجاميع من حركات معقدة يمارسها الراقصون الذين يصادموها
سوية للتدليل على الايقاع .

واخيرا يبين لوح فخاري يرقى تأريخه الى عهد سلالة بابل الاولى ،
مشهدا عجيبا تمسك فيه امرأة عارية بنوع من فيثارة وتنتصب فوق كرسي
عال ، في الوقت الذي يوجد فيه عند قدميها شخص ذكر يرتدى ثوبا قصيرا
ويمارس ما قد يوصف بأنه رقص روسي في الوقت الذي يقابل فيه نفسه مع
صوت الطنبور .

ليست لدينا اية نواة لمعنى هذا المشهد الذي قد يمثل اما رقصة
شعائرية ، او كاهنة تقوم بدور شريك راقص واتنا نستطيع ان نستخلص من
هذا ان بعض رقصات من هذه النوعية لا بد وان كانت موجودة حقا .

يشير وجود الواح تظهر الشخوص في موقف ملاكمين الى ان الملائكة
كانت مثلما هي عليه الان - من المناظر الشائعة . ومع ذلك فلا بد وان كان
هنالك صراع مخجل يتكرر بحذر ، لان احد الالواح يبين رجلين يضربان
طبلا كبيرا بجانب المتلاكمين في توقيت مع حركاتهما [متلاكمون وضاربو
الطبول والصنوج] .

واخيرا كان الاشوريون ، مثل المصريين والايحيين مغرمين جدا بالالعب
التي تشبه الالعب العصرية التي قد يمارسها لاعب واحد او اكثر .

هناك طاقم جميل في متحف اللوفر وعدد من طواقم اخرى ، اكثر سبقا
في تأريخها ، عثر عليها في القبور الملكية في اور . كانت محتويات احد القبور
تتألف مما كان صاحب القبر يستعمله باستمرار على الارض ، في سبيل ان
يوفر له راحاته المطلوبة في العالم الآخر ، وان التكرار الذي وجدت به
هذه اللعب في اور ، دليل جلي على سعة انتشارها في بلاد الرافدين .

وقد تلخص اوقات فراغ احد ملوك آشور في الوقت الذي يصغى الى الموسيقى والرقص وألعاب الجلوس واقامة الولائم لنبلائه .

لدينا صورة عن واحدة من امثال هذه الولائم على منحوتة من خرسباد . فالنبلاء الذين اعدت لهم وجبة الطعام على موائد صغيرة تتسع الواحدة منها لاربعة اشخاص ، كانوا يلبسون الملابس الملائمة لطبقتهم ، ونعنى بذلك ثوبا ذا وشاح طويل مهذب يلتف حول ابدانهم ، وهم يجلسون على كراسي امام مائدة وضع عليها صحن غريب يشبه حزمة من عرائيس الذرة ، وهو يذكرنا بشكل طفيف بعذق من الموز لم يرسم جيدا .

لقد استقرت ايديهم اليسرى على ركبهم ، في حين رفعوا في وقت واحد بايديهم اليمنى كؤوسا على شكل رأس اسد وانهم يشربون ، على وجه الدقة ، نخب والي نعمتهم ، الملك .

والشيء الغريب في هذا المنظر ان كل الضيوف يجلسون على كراسي عالية ، واقدامهم على الارض اشبه بالناس في المشارب العصرية [ينبغي مقارنة هذا المشهد بالتطبيق الذي مر وصفه في الفصل الاول من هذا الكتاب] .

الصيد

كان كل ملك غيورا على الصيد ، وان ما كان في وقت من الاوقات واجبه كهام للقبيلة ، قد غدا لهوا غير مجرد من الخطر على الرغم من الاحتياطات التي كان يحاط بها والتي تكررت الى حد ممل على منحوتات عدد كبير من القصور .

ولم نجد الملك يصطاد الطيور وتلك رياضة لا تحتاج الى شيء ما سوى الدهاء ، ولذلك فان هذه تافهة بحيث تستحق الاهتمام . غير ان اهالي آشور كانوا يحبونها ، فتراهم في بعض الاحيان يصويون نحو الأهداف ، وفي

أحيان أخرى يسددون سهامهم وقسيهم نحو الدراج •

ومع ذلك فهناك مشهد محير على منحوتة محفوظة في متحف اللوفر تبين اثنين من الصيادين يمارسان فنهما في إحدى الغابات • ويقف أحدهما وهو حليق بشكل نظيف في مقدمة الصورة ، بينما يبدو على الثاني ، وهو ملتج ، بأنه على بعدما ، لأنه اصغر من الشخص الذي يقف في المقدمة ، والذي لا يسكن مع ذلك ان يكون هو الملك على الرغم من القياس الذي نحت به ، اذ ليست له لحية ولأن ملبسه لا يدل على الكبرياء . والتفسير المحتمل للفرق في حجم الشخصين هو ان هذا الشخص لا بد ان يكون احد الامراء ، وان لم يكن الاشوريون في هذه المنحوتة قد نجحوا في تحقيق المفهوم المصري للمنظور [انظر ما يرد في نهاية الفصل الثالث من هذا الكتاب] •

في الفترة بين عهد آشورناصربال وعهد آشوربانيبال ، أي من القرن التاسع الى القرن السابع قبل الميلاد ، لم يغير النحت الاشوري الإقاراداة التمثيل المعتاد لصيد الحيوانات الوحشية ، وراح يتعقب النهج الثابت بالقيادة ومع ان الملوك الآشوريين المتأخرين لم يمارسوا صيد الحيوانات الوحشية ، والذي اصبح فيما بعد الرياضة المفضلة لدى الساسانيين ، فقد بقيت السهول موطن الثيران الوحشية من الانواع الاصلية التي تعبر اجدادا لقطعان الثيران المحلية . وكذلك ثيران المصارعة الاسبانية (ثيران الغاندرياس Ganderias) وكذلك القطعان الهائلة من الحمر الوحشية التي كانت تزود بلاد الرافدين بحيوانات الجز ، قبل ان يتم تدجين الخيل •

كان الملك يطارد الحمر الوحشية على ظهر جواد ، وبعد ان يطعنها بسهامه يقتلها بقوسه او رمح الصيد الذي يحمله ، او يرغم احد الضغار منها أحيانا على الجري بجانب عربته ثم يمسك به بحيا •

وكانت الماعز الوحشية ايضا تصاد وتمسك • فنحن نرى منظر الصيد امامنا • فالمطاردون يطلقون كلاهم الوحشية الضخمة ، الشرسة مثل طريدها ، وقد حملوا عصيهم واوتدتهم على اكفهم ، تعقبهم بغال تحصل مؤنا اخرى وذلك لاكمال الحلقة التي لن تستطيع الحيوانات ان تفسر منها • لقد صور هذا النوع من الصيد على اختام اسطوانية من سوسة مؤرخة من حوالى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد •

غير ان الصيد بالمعنى الحقيقي للكلمة هو صيد الاسود • فكما سبق لنا ان ذكرنا في الصفحات الاول من بداية كتابنا هذا ، كانت الاسود من نوع اصفر من تلك الموجودة في شمال افريقيا لكنها خطيرة مع ذلك ، ما تزال موجودة باعداد كبيرة في بلاد الرافدين في عهد الملوك الآشوريين المتأخرين، وكانت توفر للملوك رياضتهم المحببة •

وفضلا عن ذلك كان ملك آشور يستورد اسودا غريبة حقا ، ذكورا واناثا من افريقيا ، ويضعها في ساحات اللعب حيث تظل تعيش فيها بسلام الى اليوم الذي تموت فيه ، بين غابة ذات اشجار متنوعة وكروم رخيصة والآن علينا ان نتصور يوم الصيد •

المطاردون الذين لم تتغير مهمتهم طيلة قرون ، يسوقون الطرائد نحو الصيادين ، في حين يمسك خدم آخرون بالاسود في ساحات اللعب ويضعونها في اقفاص وراء اعمدة خشبية سميكة ، ينتصب فوقها على ارتفاع مأمون ، خادم في قبه صغيرة مهمته رفع الباب واطلاق الطريدة فالاسود التي جنتها هجمات كلاب الصيد وضربات الضارين تغدو متشوقة للقتال • ويتعقبها الملك في عربته وقد جلس سائقه الى جنبه ووقف حارس قريبا منه ، وقد نشبت فيها سهامه : على ان المنحوتة لم تبين بالتفصيل مدى مقتلها •

وكانت الاسود كثيرة الى درجة ان الارض سرعان ما تغطى باجسامها •

والكثير منها ميت حقا ، لكن لدينا بعض النحوتات المحفوظة الان في المتحف البريطاني . - تصور الحيوانات في حشجة الموت ، فنحن نرى أسدا ذاك لبلدة طويلة وقد نفذ السهم عبر رتيته فاقمى وتدل رأسه وهو ينث الدم . وهناك محوثة اوسع شهرة تبين لبوة جريئة شل طرفاها الخلفيان بضربة سهم في الخاصرة . واذا راحت تتحرك دون جدوى فقد كورت نفسها على مقدميها . في آخر محاولة لكي تسحب نفسها ولتنقش من الصياد وتهدهه حتى في لحظة مماثها .

غير ان الاسد في بعض الاحيان لا يصاب بجرح مميت ولذلك يهاجم مطارده هائجا . واذا ذاك تنطلق الخيول بالعربات وتتلقى الملك ، ورمحه في يده . هجمة الحيوان ، فينفذ رمحه فيه .

وفي بعض الاحيان يهرع زميله لمساعدته في الاجهاز نهائيا على الحيوان حيث تتطلب الحاجة حقا جهود رجلين لمقاومة مثل هذا العدو الهائل .

ومع ذلك ففي مناسبات اخرى يقاتل الملك راجلا ، وان الصور التي نحفظ بها عن هذه العملية قد تجعلنا نشك في صحتها . فما ان يثب الاسد ليوجه ضربه الى رأس الصياد ، يمسك الملك بلبده ثم يغرس سيفه في بده . لقد وجد هذا الموضوع ملائما بشكل واضح ، وقد استعمل في عهد آشوربانيال ، وكان ملك فارس في قصور الاخمينيين ممثلا نفسه في الغالب في مثل هذا الموقف .

وهكذا نجد ان الحيوان في مشهد صراع مع جبار خرافي يرمز الى الصراع بين الخير والشر ، يثب امام الملك ، في حين يمسك الاخير . على الرغم من المخالب التي تمزق لحمه ، بالمهاجم عن قرنه ويعالجه بضربة من سيفه . وهكذا يستمر الصيد الى نهايته ويستطيع الملك ان يحصي حصيلة اليوم

بشكل مرض ، بينا تقوم فرق الخدم برفع وجمع الاسود الميتة من الارض التي طرحت عليها .

يصور المشهد كله مزيجا من الصدق والكذب في فن بلاد الرافدين . وهكذا وان كان الملك في مثل هذا التاريخ لم يصور على نطاق اكبر من رعايا، الا ان قوته الفارقة واهميته ظاهرة في كل مكان . فهو يقاتل الاسد في قتال متعادل ولا يجد مشقة في ذبحه ، في حين يستحيل الاسد نفسه الى مجرد حيوان للعب يستطيع الملك ان يمسك به ، ويرفعه من لبدته لكي يتلقى الضربة القاتلة .

اننا نتذكر كيف ان غلامش ، ابن الآلهة ، قد امسك بثور وحشي من ساقه الخلفية ، ورفع في الهواء ودق عنقه بضربة من كعبه .

ولكن ما ان انتهى الصراع حتى عدنا الى العالم الحقيقي مرة اخرى واحتجنا الى جملة من الرجال لحمل كل واحدة من ضحايا رياضة ذلك اليوم .

على ان هذا ليس هو نهاية الصيد . فبالنسبة الى التفكير الآشوري من الممكن ان يكون الاسد اكثر خطرا وهو ميت منه حيا ، لان روحه الحنقة قد تتعقب الصياد وتنتقم لميته الضحية .

وعلى هذا فان العمل النهائي الذي ينبغي للملك ان يقوم به وهو محاط بحاشيته ، ان يقترب من الحيوانات الميتة ويصب عليها الماء المقدس تكفيرا واستغفارا عن الاذى الذي سببه لها .

ولقد دون الكاتب وكأنه يصدر عن فم الملك النص الكامل للشعائر الدينية ، بشكل معتنى به كيما يصف الحصلة الطافرة للصيد ، للالهة القيمة على الملك .

حاشية الملك

كان افراد البلاط . وفيهم كثير ممن يتقلدون مناصب كبيرة او صغيرة لخدمة الملك مباشرة او لخدمة عائلته ، هم ذوو الامتيازات الذين كانوا يحضرون معه مختلف هذه المناسبات .

وقد يستل هؤلاء على حكام المحافظات وكبار الضباط في مثل هذه المناسبات عندما لا يكونون في محافظتهم ، وكذلك الموظفون المسؤولون عن ادارة المزارع الملكية ، والمحاسبون ، ورؤساء سقاة المدام ، ورؤساء الحرس ، ورئيس الاصطبلات ، ورئيس المطابخ ، ورئيس الخيل . ورئيس الموسيقى ، وغيرهم من الضباط والكهنة ذوي الرتب العالية .

وكان اهم طبقات الموظفين رفعة هو الوزير الاكبر ، الذي يكون في الغالب اقرب قرب للملك ، والذي يمجده ويمكته من مراقبة اعماله ييسر أكثر . حتى لو انه كان يدير ولاية شاسعة .

فهو سيد الخزينة . والمسؤول سوية عن تلبية حاجيات البلاط والقطر ، وكذلك المسؤول عن جمع الضرائب التي كانت تفرض من قبل جامعي الضريبة وتأخذ صفة مدفوعات عينية كالشعر والصوف والخشب والخيول والدواجن ، ولو ان هذه الضرائب كان ينبغي دفعها بالفضة في بعض الاحيان .

وعلى هذا الاساس نجد مدنا مثل « ارباد » و « كوي » « ومجلدو » (*) تفرض عليها ضريبة بمقدار ثلاثين وخمسة عشر طالين من الفضة بالتعاقب ، في حين تقدر الضريبة المفروضة على قرقيمش بمائة طالين من الذهب . ولو اتنا لا نعرف مدى الوقت الذي تجري فيه هذه المدفوعات .

(*) مدينة ارباد Arpad عاصمة الاقليم القديم « بت اغوسي » الذي يقع جنوبي غربي مملكة الحثيين - اما كوي فهو اقليم صغير كان يقع على خليج الاسكندرونة ، والى الشمال الغربي من اقليم بت اغوسي .

وبالإضافة الى الضريبة المباشرة ، واهمال اولئك الذين كانوا ينتفعون وفقا لنظام الالتزام (الذي كان موجودا في اوائل الالف الثاني قبل الميلاد ، ويزمن طويل قبل ان يظهر النظام الاقطاعي) والذي يوفر اعفاءات معينة ، فإن نظام العمل الاجباري لخدمة الملك كان مطبقا .

كانت امكانية شراء الاعفاء من هذه الضريبة تختلف نسبيا بالنظر الى نجاح الحملات العسكرية ووفرة او ندرة العمال الاجانب .

ولكن حين توسعت مناهج البناء الملكية ، ازداد الطلبات على العمل ، وكانت نتيجة ذلك ان نبوخذنصر الذي وضع خططا للبناء مثل فتوحاته التي كان يتصورها على نطاق واسع ، وجد نفسه مضطرا الى ان يصادر خدمات رعاياه الخاصين به لتنفيذ مخططاته .

كان على كل افراد البلاط ان يدفعوا الضرائب . وكان الدفع يأخذ عادة

صفة ضمام ولو ان الملابس والفضة كانت تدفع في بعض الاحيان ايضا . تتوفر لدينا القائمة التالية عن المرتبات التي كان يتقاضاها بعض الموظفين اثناء حكم سلالة سرجون والتي تلقي ضوءا كاشفا على الاوضاع النسبية لدوائهم .

المنصب	مينا من الفضة	ملابس من نوع فاخر	ملابس من نوع عادي
رئيس اركان الجيش	١٠	٥	٥
الوزير الاول	٦	٣	٢
رئيس القضاة	٣	٣	٠
وزير اصغر	٣	٣	٠
رئيس السنقاة	٤	٣	٣
رئيس حجاب القصر	٥	٣	٢
مفتش القصر	١	١	٠

نستطيع ان نرى من هذه القائمة ان رئيس اركان الجيش الذي يسمى « تورتان » يتمتع بمنصب فريد في اهميته ، وذلك هو الشيء الوحيد المتوقع في دولة تتطلع الى الحرب باعتبارها المصدر الرئيس للايرادات ، في حين نجد من الناحية الاخرى ان رئيس القضاة كان يتناول مرتبا اقل من مرتب رئيس سقاة المدام ، ورئيس حجاب القصر .

وعلى الرغم من حقيقة ان الملك كان يتحسس الخوف بان امثال تلك التمايم المخصصة التي اعدت لكي تضمن الاستقبال الملائم عندما يكرم حاملها باستقباله من لدن الحضور ولو انه كان ممثلا دينوريا للاله ، فأتنا سنرى بانه كان ابعد عن ممارسة السلطة المطلقة في كل الاحوال ، وان افراد حاشيته لن يترددوا في اخباره بالحقيقة (انظر ما سيرد عن العلوم في الفصل الثالث من هذا الكتاب)

ادارة الدولة ، الدبلوماسية

كان الملك من الوجهة النظرية على الاقل • هو الذي ، يشرع القوانين،
ويثبت التقويم ، والضرائب ، ويتخذ القرارات بشأن الحرب والسلم ، وان
العمل الاولي يتم من الوجهة التطبيقية من قبل موظفي البلاط بمساعدة
جيش من الكتبة •

وكان في تصريفه الشؤون من يوم الى يوم ، يتلقى نصح اقربائه حين
يتم عقد اجتماع عال ، ومن بعض افراد البلاط الذين كانوا يؤلفون معا
نوعا من مجلس ، وذلك نظام تطور في البلاط الحيث تطورا ارفع بكثير من
البلاط الآشوري •

ومن المحتمل ان يعزى اقتباس الآشوريين لهذا العرف الى تأني
الاتصالات الطويلة بين بلاد آشور والشعوب الآسيوية والاوربية الهندية.
ويظهر ان مثل العرف لم يظهر بدرجة معادلة من الاهمية في بلاد بابل •

ومع ذلك فما عدا مظاهر حياة الملك التي فحصرناها القيت على عاتقه
تبعات اخرى ذات اهمية حيوية للامبراطورية ، ونعني بها الدبلوماسية
والحرب •

لقد كان الملك يستقبل السفراء ، ودافعي الضرائب الذين تأتي اعداد
كبيرة منهم من كل انحاء الامبراطورية الآشورية الحديثة • فالملك يجلس
على عرشه المرتفع في غرفة استقبال كبرى في القصر وقد اقمى اسده المدجن
عند قدميه واحاط به وزراءه وافراد البلاط والحرس ، وهو يرتدي كامل
اردته الرسمية ، وهو يستقبل بكل مهابة سفراء الدول العظمى التي يستطيع
مع حكامها ، الملوك العظام ان يعاملهم بحديث دبلوماسي بمثابة الاخوة •

وفي ذات الوقت عندما يقدم السفراء اوراق اعتمادهم ، فانهم يطرحون

عند اقدام الملك الهدايا الثمينة التي جلبوها له من الذهب والفضة والمعدات الثمينة ، او الاحجار الكريمة ، او يستعرضون امامه الخيول المختارة من بلدانهم وعلى الاخص العبيد المختارين او الحيوانات النادرة ، او النباتات .
وقد ينحنون كثيرا امام الملك لكنهم لا يركعون ولا ينكبسون على وجوههم ، كما كان متوقعا القيام بذلك في البلاط المصري .

ولقد كان رسل البلدان الصغيرة حسب ، او العديد من دافعي الجزية الذين لا يعاملون مع بلاد آشور على قدم المساواة ، هم الذين يحطون من شأنهم . فلقد دونت في سجلات الوقائع الملكية حركات هذه السفارات بطريقة اسيء استعمالها بصفة متمدة ، في حين كانت الحوافز الحقيقية ، كالتجالات التجارية ، او نقل القوات بحثا عن التوازن في القوى ، تهر من دون اشارة ، او تتنكر في صفة ولاء .

هناك مثلا ملك ناء ، هو ملك ليديا راوده حلم ، في عهد حكم شوربانيال ، بان يعرف عظمة الملك الآشوري . وان يرسل اليه سيفارة ، في حين كان الواقع البسيط يتطلب ايجاد جهة مشتركة على عجل ضد « السميريين » (*) الذين كانوا يعيشون فسادا في شمالي بلاد آشور وفي جنوبي آسيا الصغرى .

ويحدث في احيان اخرى ايضا ، ان يطلب احد السفراء - بحثا عن السلامة - او يعرض يد ابنة ملكية للزواج .

ان معلوماتنا عن التقاليد التي استعمالها الحثيون تضيء لنا الطريق عن الصنيع التي كانت تحكم الاتحادات بين بيتين ملكيين . فقد يكون كسلا

(*) السميريون Cimmerian شعب قديم موطنه جزيرة القرم في البحر الاسود عبر جبال القوقاز في القرن الثامن قبل الميلاد وغزا القسم الشمالي من بلاد آشور والجزء الشمالي الغربي من بلاد العراق .

الملكين راغبين تماما في الزيجة لكن ايا منهما لم يظهر ادنى دلالة على نفاق صبره . ولذلك يبدأ الصهر المنتظر بالرفض . ويتجدد الطلب بعد فترة مناسبة وتتناسب رفض عديدة مع رفعة الغرض من التقارب واهميته . واخيرا تصل المفاوضات الى نهاية ، وتفادر العروس الى بلد زوجها تصحبها حاشية محتمة وتحمل معها الهدايا الثمينة .

تحتوى مجاميع النقود في كل انحاء اوربا على عدد من الاوسمة التي ضربت لتمجيد الزيجات الملكية وتخليدها ، حيث كان هذا الاجراء لا يختلف الا قليلا عن البلاط المصري .

فمنذ اواسط الالف الثاني قبل الميلاد وما بعده ، وعندما كان فراغة الاسرة الثامنة عشرة الحاكمة قد تزوجوا باميرات ميثينيات في سبيل ضمان الحصول على حلفاء لهم في سوريا العليا ، صنعوا لهم جملان منحوتة لتخليد هذا الحادث .

استقبال دافعي الضرائب

الموضوع الثاني الذي حوته المنحوتات الناتئة هو استقبال دافعي الضرائب والذي قصد به اخافة الزائرين الذين يكونون في حضرة الملك .

فالملك وهو يرتدي كامل ثيابه الرسمية يشاهد واقفا او جالسا ويمسك بعضا طويلة هي شعار رتبته . ومن خلفه يتجمع حملة سيفه واسلحته ومراوحه ، وامامه كعلاء السفراء او دافعو الضرائب الذين يحملون الهدايا او الجزية من امثال الاواني المصنوعة من المعادن الثمينة والزينة بالنقوش الفاخرة ، والمصنوعات ، وقضبان من الابنوس او المجوهرات ، او في بعض الاحيان صناديق مجوهرات مصنوعة على شكل غابات صغيرة وبذلك يرمزون الى هدية مدينتهم الى ملك آشور . ويحدث في بعض الاحيان ان

يجلب الرسل معهم ، عربات وخيولا • وتتناثر هنا وهناك سطور موجزة
المنص وصفي •

جزية من ارض لبنيان

تسجل منحوتات خرسباد احدى الحملات المتوسطة في صفتها بين
الهبات التي يجلبها دافعوا الجزية ، والعمليات العسكرية الكبرى التي سنائي
على وصفها فيما بعد •

وكانت هذه تمثل نقل حمولة من الخشب بطريق الماء ، ومع اننا
لا نعرف اهميتها على وجه الدقة ، فاننا لسنا في شك من اهميتها ، ما دامت
كل دقائق الزينة في خرسباد ، قد صممت للتأكيد على عظمة الملك ، فاننا
نستطيع ان نستخلص بصدق ان وصول هذه الحمولة لا بد وان كانت حدثا
مهما عادة • ولا بد لنا ان نتذكر ان بناء القصر كان بحد ذاته حدثا ذا اهمية
كبيرة •

من بين المواد المطلوبة كان الطين يتم توفيره في موقع البناء ، في حين
كان الحجر ، الذي لم يستعمله المعمارون الا بصفة محدودة ، بالقياس الى
الوضع في الجنوب ، متوفرا تماما •

اما الخشب فقد كان نادرا ومع ان انواع من الخشب التي تنمو في
الشمال يمكن جلبها مثل الحجر الى موقع البناء ، الا انها لا توفر البقوى
الكافية لتغطية الغرف المصممة •

فقد كانت اشجار الصنوبر او بصفة خاصة اشجار الارز التي
كانت تؤلف الثروة الطبيعية لبوريا ، تؤلف المصدر الوحيد للاغصدة من
الحجوم المطلوبة ، ولذلك كانت مطالب الاقدمين الفريدة في الواقع ، تنتهي
بشريد لبنان وجبال لبنان من احتياطيها من الاجشاب ، بحيث أصبحت

اشجار الارز في هذه الايام يمكن تعدادها باحد وازواج ، في حين ان الباقي منها مدين بنجاته الى انتقاله الى بعض البقع النادرة .

لقد كان المصريون يرسلون الحملات باستمرار الى سوريا للحصول على اشجار الارز ، التي كانوا يستعملونها معا في صنع الاشرعة لسفنهم ، وصنع صناديق المومياء ، في حين كان العصير الذي يطلق عليه اسم « دم الارز » ذا شهرة عالية .

لقد كان امرا طبيعيا بالنسبة الى سرجون ان يتجه الى سوريا للحصول على الخشب الذي كان يحتاج اليه ، وسواء كان اراده كجزية ، او بسبب مشاكل النقل الجسيمة ، فان الشيء الواقع هو ان الحملة كانت تعتبر ذات اهمية كافية تستحق التدوين بشكل ثابت .

تين المنحوتة الاولى فرق العمال المسخرين الذين يرتدون جلابيب قصيرة ويحملون حزما طويلة تتدلى على جبال من فوق اكتافهم ، وهم يهبطون من جبل تشاهد منحدراته ظاهرة بصفة مباشرة الى جانبهم . فهذا المنظر يمثل نقل اخشاب الارز من الجبال الى الساحل .

اما المنحوتة الثانية فتبين اخشاباً محملة على زوارق ذات مقادم وكوائل قوية ورسوم رؤوس حيوانية .

والمنحوتة الثالثة في المجموعة اعظمها اهمية [اللوح ١٥] . فهي تبين عمارة بحرية في مسيرتها . فالزوارق التي جهزت بمجاديف طويلة تمخر في خط الى امام ، وقد صورت حمولة الخشب بشكل ملائم وكأها تستقر على المقادم والكوائل في الوقت الذي تم فيه ربط المزيد من الخشب بالجبال . وفي وسط الامواج التي مثلت بشكل مكثف من خطوط متموجة ، نستطيع ان نرى تشبيكه من اسماك وجمبرى واصداف ، سوية مع آلة البحر الذي له بدن شيخ البحر ، وجنى صالح يصحب الحملة في صفة نور مجنح .

وفي حوالى النصف من المنحوتة توجد جزيرة منبسطة جدا عليها حصن ،
واعلى منها قليلا حيث تتوقع ان نجد الساحل ، ينتصب حصن ثان على
ارتفاع ملموس .

انتي اقرر ان هذه المنحوتة قد قصد بها ان تكون لمسة لون محلي ،
واها تمثل منظرا حقيقيا ، واذا ما كنت مصيبا في هذا ، فان علينا ان نتطلع
الى بعض المواقع في فينيقيا التي توجد فيها جزيرة بمستوى الماء على مسافة من
الساحل ، ويقوم فيها حصن فوق تل عند حافة الماء .

هناك موقع واحد ، وواحد حسب يفي بهذه الشروط ونعني به مدينة
صيدا والتي كان بناء الاكروبولس فيها يقوم في الموقع الذي تقوم فيه
قلعة سان لويس المخربة ، في حين كانت الجزيرة الصخرية والمستوية والمنبسطة
في ذات الوقت تؤلف موقع الحصن .

لقد كانت هذه الجزيرة هي التي كان ملك صيدا يلتجئ اليها في جهوده
للخلاص من ملك آشور ، مثل سمكة في وسط البحر .

اما الصدفة التي رسمتها المنحوتة في وسط الامواج فان لها اهمية خاصة ،
لان فينيقيا كانت موطن الصبغ الارجواني الشهير ، وكانت صيدا احدي المدن
المتخصصة كلية بهذه الصناعة . وكان الساحل على كلا جانبي المدينة يرتفع
في شكل كهوف ظاهرة مؤلفة من الاصداف التي كانت ترمى بعد استعمالها .

اما المجموعة الرابعة فانها مناقضة للاولى وهي تبين اخشابا غير مخملية
ثم نقلها في طريق جبلي .

ويمكن تلخيص معنى المجموعة كلها بالقول ان الارز كان يقطع فوق
الجبيل وينقل في ارسالية عبر الطريق الساحلي لفينيقيا كلها حيث يتم تقطيعه
في الشمال ثم ينقل باقصر طريق ممكن ليصل الى الانهار وبذلك يتم نقله
الى نينوى [هناك صورة تمثل نقل حمولة من الاخشاب من لبنان ارسالية
/ من صيدا] .

الحرب

وآخر مهام الملك ، وليس اقلها ، هي الحملات العسكرية . وقد صورت مظاهرها الرئيسية على منحوتات ناتئة ، في حين صورت المظاهر التي هي اكثر تفصيلا على نطاق اصغر ، مثال ذلك الصفائح البرنزية التي تشبه تلك التي يرقى تأريخها الى عهد الملك شلمانصر الثالث ، والتي عثر عليها في قرية بلاوات الصغيرة العديمة الاهمية ، والتي جلبت اليها لسبب غير واضح ، لانه لا يمكن ان يوجد اي قصر هناك^(٢٤) .

ولقد ثبتت الصفائح بسامير لها رؤوس وريدات على الواح خشبية .
لباب كبيرة مزدوجة . ومعظم هذه الصفائح محفوظة في المتحف البريطاني ، في حين قسمت بقيتها بين متحف اللوفر ، ومجموعة دي كلرك ومتحف اسطنبول .

تحت امرة الآله

نستطيع ان نعيد تشكيل الحروب التي خاضها الملوك الآشوريون بدقة تامة وذلك بمساعدة هذه السلسلة المتغيرة من الوثائق وتسجيلات المعارك .

ولا بد لنا ان ندهش من حقيقة ان الباعث الواقعي لاثارة الحرب غير مقبول به صراحة . وعلى هذا فلا يوجد هناك ادنى شك ، مثلما هو الامر في الوقت الحاضر ، بان هذه البواعث كانت اقتصادية في الدرجة الاولى ، وان ما جرض عليها اما الحاجة الى التوسع ، او بسبب المداخل التي يبدو عليها بانها قد اغلقت فيما اعتبر يانه اتجاه حيوي .

(٢٤) غير ان البروفسور ملوان الذي زار المنطقة مؤخرا (ربيع ١٩٥٢) قد لاحظ ربوة كبيرة هناك ، ربما تغفي تحتها اجد القصور . اما المحل الذي نقلت منه الابواب البرنزية فما يزال غير محدد .

غير ان مثل هذا لم يتم توضيحه صراحة • وعندما كان الملك يعلن الحرب على بلد مجاور فانه انما يفعل ذلك اطاعة لاوامر الآله آشور ، اما لان الآله يأمره بذلك ، او لان المعاهدات المودعة تحت حماية الآله لم تعد محترمة حقاً •

ويمثل الملك في الحملات العسكرية دور نائب للاله • فهو قائده ويطله المختار •

وكما نعلم ذلك جيداً كانت الاسباب ، من الإثارة وخرق المعاهدات والتهديد بالتطويق ، لاعلان الحرب هي نفس ما عليه اليوم حيث حلت العوامل الفكرية محل ارادة الآله آشور •

وغالباً ما تحتوي دياجعة سجل احدي المعارك على بيان بان هذه الحرب قد شنت بأمر من الآله • ولكن كان يحتاج الى المزيد من ذلك لان اليوم يجب ان يكون ملائماً لشن الحرب ، وفي هذه المناسبة ينبغي لنا ان نلاحظ ياهتمام ، ولو بدهشة ، ان الوقت الملائم يتجاوب بشكل ملموس مع ما يعتبره رجال التبعية ، الفصل الملائم بصفة اكثر ، اي الملاءمة مع معظم الاحوال الارضية الصالحة وافضل التطلعات الى الاحتفاظ بجيش مجهز غير خطوط مواصلاته •

الجيش

كان الجيش الآشوري الملكي يعتمد على التجنيد الذي لم يكن يفرض على كل اصحاب التزم الاراضي حسب وانما كل الملائمين من رجال القتال الذين كانت تجبر القرى على تهيئتهم في صفة ضريبة •

كذلك كان الجيش يضم القوات المتطوعة التي تتصف بالتشوق الى اعمال النهب ، والاستعداد للهجوم بنفس الاستعداد للحرب تماماً • لقد كانت هذه القوات تسليحاً خفيفاً اذ لم تكن مع القوات

الضاربة ، وكانت مهمتها الخاصة ، ان تتغلغل عبر صفوف العدو لتحول التردد الى هزيمة ، ومن ثم تنقص على معسكر العدو لنهيه .

وتتألف القوات الضاربة من وحدات مختلفة الاشكال فهناك اولاً « الكبردو Qurdu » او الوحدات القوية التي يمكن ان توصف بانها الحرس الخاص المؤلف من محاربين وقتيين مسؤولين عن سلامة الملك الشخصية ، ويعدون من الناس الذين يعتمد عليهم تماماً .

اما قوة الجيش المقاتلة ، ما عدا الاسلحة التي تحملها القوى المتطوعة المزودة باسلحة خفيفة ، والتي لا تتوفر فيها الدروع الدفاعية ، والتي تتكون اسلحتها الهجومية من مجرد الهراوات والمقاليع ، ان هذه القوة تعتمد على رماة النبال والرامي الراكبين ، والمهندسين والمخفية .

وكان المشاة الراكبون يستخدمون من كانوا يبلغون مناصبهم المعينة وكذلك حملة الرماح المزودين برماح طويلة خفيفة ، وفؤوسا كبيرة للقيام بعمليات التقويض او لمجابهة اضرارهم من قوات العدو ، وكذلك رجال المدفعية الذين يقومون بتشغيل الآلات المصممة لاحداث ثغرات في الاسوار المقابلة (هناك صورة تمثل كل هذه الاصناف) .

ونرى على المنحوتات التي تصور المعارك ، الجنود الملتحين وحليقي الوجوه الذين ينهضون بهام مميزة بصفة حيوية . وهذا دليل آخر على خطأ الرأي القديم القائل بان الاشخاص حليقي اللحى انما كانوا يمثلون الخصايا ، والواقع انهم كانوا يمثلون مجرد الشبان من الرجال (فتيان الاغريق) ، على خلاف المحاربين الملتحين وكان التمييز قائما بين القوات الاعتيادية والاحتياطية .

وفي العصر الآشوري الحديث بلغت الملابس التي كان الجنود يرتدونها اعلى نقطة من التأثير ، وقد استبدلت الملابس الطويلة المفلقة التي عرفت في عصر آشور بانبيال بثوب قصير يصل الى ما تحت الفخذ ، والذي يدعى

الذراعين نصف عاريتين •

ولم يعد الجنود حفاة ، وانما كانوا يلبسون احذية عالية في حين كانوا يلبسون الخوذ في رؤوسهم والتي ما يزال شكلها حيا الى اليوم في الذروع الهندية المحلية والتي تثبت تماما حول الرأس وترتفع في صفة مخروط الى نقطة حادة •

وكانت الاحذية المزورة تقي اقدام الجنود من الارض الوعرة ، وتمنع الكدمات ، في حين صمم شكل الخوذة بحيث تنحرف النبال عنها دون ان تحدث ضررا جديا • ففي بعض الاحيان تستبدل الخوذة بقبعة ملائمة لجمجمة الرأس تبرز منها قطع للوجنات ، او بالاحرى الخوذة التي يلبسها الطيارون •

وتتألف حماية الجسم الرئيسة من ترس طويل غير متقن الصنع بقدر حجم الانسان له موخرة منحنية كما تؤلف نوعا من وقاء • والواضح ان هذا الترس كان يصنع من حزم مضفورة ومبطنة من صفصاف الشلال المشدودة شدا وثيقا ، وان الغرض من هذا الوقاء هو حماية رامي السهام من النبال المطلق التي قد تسقط بصفة عمودية غالبا • ومما تجدر الاشارة اليه هو ان هذا الوقاء قد تقلص نتيجة عدم امكانية سحبه ، لانه كان يحتاج الى من يحمله •

كان سلاح الهجوم المعتاد هو السهم • وكان هذا منحنيا ومن حجم متوسط • وغالبا ما تشير التمحسسات الوثيقة للمنحنيات الناتجة الى ان يد رامي السهام قد امتدت الى ما وراء رأسه حين يسحب قوسه ، لان وتر القوس المتوتر يمكن ان يشاهد بجلاء امام رأس رامي السهم ، لكنه يختفي في النقطة التي ينبغي ان يكون ظاهرا بها امام وجهه •

ان هذا من شأنه ان يمثل حركته بدلية مستحيلة تقريبا ، ولذا التمييز

الحقيقي لذلك هو ملائمة فنية بسيطة لان الوتر لا يمكن اظهاره لانه يبدو مصيبا في المكان الذي ينبغي ان يكون فيه حقا ، واذا ما نظر الى يدي رامي السهم فاننا نرى انهما تماما في الموضع الذي تتوقع ان نجدتهما فيه .

كان رماة السهام يركبون الخيول احيانا ، وفي مثل هذه الاحوال كانوا يطلقون سهامهم عندما تكون خيولهم ما تزال واقفة ، او حين يترجلون منها

وكان الخيالة من الناحية الاخرى يسلحون برماح من اطوال معتدلة ، ويقاثلون وهم على ظهور الخيل فعلا وكان حملة السهام والرماح معا يزودون بخنجر قصير مسطح الحد ، يفرسونه في احزمتهم في حين تكون تروسهم محدبة باستمرار بحيث تنطلق النبال بعيدا عنهم دون أن يصابوا بضرر .

ويتدرج الخيالة ورماة السهام في بعض الاحيان فوق الاجزاء العليا من ابدانهم ، بدروع من الكتان او الجلد مخاطة بصفائح معدنية تسمح في بعض الاحيان بحرية الحركة وتوفر الوقاية . وهذا النوع من الدروع كان مستعملا بصفة عامة في اوربا في اواخر المصور الوسطى عندما كانت تسمى بالدروع المزودة . اما الخيالة فاهم ، وان لم تكن لديهم ركائب للسروج ، الا انهم لا يركبون الخيل عارية ، وانما كانوا يستطونها فوق سروج مجللة لينة .

وفي منتصف الطريق فعلا بين الخيالة ورماة السهام ، تأتي العربات التي يسحب الواحد منها حصانان او بالاحرى اكثر من ذلك ، اذا كان المسافرون ذوي اهمية كافية .

ومع ذلك فان قيمة العربة من وجهة النظر العسكرية تبدو محدودة ، لانها تتطلب - ما عدا الرجل الذي يطلق السهام منها - سائقا ، وشخصين آخرين يحملان تروسا مدورة لحماية الشخصين الفعالين . ولما كانت مقدمة العربة ذات هيكل صلب فانها لا تستطيع أن تغير الاتجاه بشكل حاد حين

تقرب من احدى العقبات ، وان المداورة المعاكسة الصحيحة هي مداورة المضارع عندما يواجهه ثور ، اي ان يخطو جانباً ويبلعه يمضي من دون اذى . وغالبا ما يتم تصوير العسكريين الخبراء بالالغام ، والذين كانوا يلعبون دورا مهما جدا في حروب الحصار ، وهم يلبسون خوذا من ذات الشكل الذي كان المحاربون الاغريق يلبسونها ، والتي تشبه تماما الخوذ التي يلبسها رجال الاطفاء الفرنسيون في الوقت الحاضر بل حتى الفرسان الفرنسيون المدرعون في الايام الاخيرة نسبيا ، والتي لها علاقتها بالماضي البسيط جدا .

لقد كانت مهمة هؤلاء اللغامين تفويض الحصون وفتح فجوات فيها للهجوم . وتتألف طريقتهم من فتح حفرة كبيرة بشكل واق بعمل الاخشاب تحت سور او برج ومن ثم تغليف الحفرة باخشاب خفيفة لكيلا يتدلى السور في تلك الحفرة . وفي الوقت ذاته يبذل ساكنو المدينة المحاصرة ، جهودا متساوية لثورة الالغام المقاتلة وذلك بحفر فجوة تحت فجوة خصومهم لكي يحولوا دون اي تقدم اخر في الالغام .

ففي مدينة دورا يوروبوس على نهر الفرات ، والتي كانت تخضع في عصرها لتدمير ، واحتلتها الرومان مؤخرا ، كشفت التنقيبات عن آثار خفية لصراع كبير بين الرومان والفرس بأسلحة المدافعين والمهاجمين التي تخطط نتيجة انهيار الاسوار .

وكانت المدفعية المعاصرة تتألف من اسلحة الحصار التي لم تتغير صفتها تقريبا حتى اختراع الاسلحة النارية . فكانت احدى الآلات تتألف من منصة على عجلات تجعل المهاجمين في مستوى السور ومواجهته بذات الاساليب الاعتيادية للمعركة العادية فوق الارض .

ومع ذلك آلة اخرى كانت تغطي بالجلد وترقى بالماء باستمرار لتحميها من

الاستعانة بفعل جبل متقد ومشاعل كانت تلقى عليها من قبل المدافعين ، وتحمل القوات التي كانت تحرك كبشاً لهدم الاسوار يتألف من عمود طويل وثقيل يفوس تحت البناء العالي ويتقدم الى الخلف والى الامام .

لقد كانت القوة الضاربة تستطيع ان تحدث دماراً حقيقياً شديداً جداً في اسوار الحصون التي وجدت في ذلك العصر . وكان المدافعون يردون على هذه الهجمات بالطريقة التقليدية ، اي أن يحاولوا الاستيلاء على الكبش الخشبي بالرجال والسلاسل وبذلك يبطلون عمله .

لا يتحرك الجيش الى القتال الا في الاشهر التي يقول قراء الطالع واصحاب الفأل بانها ملائمة للحملة العسكرية . لقد كان الملك هو رئيس اركان الجيش في واقع الامر . لكنه اذا اختار ان لا يمارس القيادة ، يتولاها في مكانه القائد العام او « التورتون » . وعندما يتحرك الجيش يسير الاقوياء من الرجال « كردو » الى جانب الملك .

وتشير شواهد المنحوتات الناتئة الى ان قوات الحرس كانت هي القوات الوحيدة المدربة تدريباً صحيحاً ، والتي تسير بخطى منتدبة وتحافظ على النظام الصالح للانصاف .

ففي مؤخرة ارتال العربات تأتي آلات الحصار الا اذا كانت قد رسمت في الواقع في مشهد حقيقي لعمليات حسبما تتطلب ذلك الاحوال الخاصة . فحين الوصول الى احد الانهار تعبر العربات وشاحنات الامتعة اما على جسر من الزوارق او على طوف خفيف ، بينما تسبح الخيول والرجال سوية ، ويستعمل الرجال جلود اغنام منفوخة يضعونها بين سيقانهم ويجدفون بأذرعهم .

المعسكر

تستريح القوات خلال فترة توقف قصيرة ، اما اذا ما اضطرت الى اطالة

الاستراحة لسبب ما ، فعندئذ لابد من بناء معسكر محصن

ويكون هذا المعسكر عادة دائريا معززا بالابراج • وتبنى الخيام في الوسط • وكانت الخيمة الملكية اكثرها اتقانا ، وهي تغطي - مثل عربة الاطفال الحديثة - برادق متنقل مواجه تجاه الريح او الشمس •

وكانت الخيام التي يستعملها بقية افراد الجيش او الضباط على الاقل ، مشابهة كثيرا للخيام المستعملة في الوقت الحاضر ، فهي على شكل مدور • ولها ركيزة وسطية لوضع العمود فيها •

وكانت المطابخ تزود دوما ، وتبين بمض المنحوتات جنودا منهمكين في اداء انواع من المهام ، فاحدهم يسلخ شاة والاخر يوقد النار ويروح لها بما يشبه راية صغيرة ، وثالث يراقب طاوة واسعة •

وهناك جنود اخرون قد يشغلون بحس الخيول التي كانت تترك في الغراء اثناء الليل عادة ، وعلى الاقل عندما يكون الجو حارا • وقد كشفت التفتيات عن حلقات لربط الخيول مثبتة في جدران ابنية خارجية في باحات قصر كبير ، او مثبتة في الارض احيانا •

لسنا بحاجة الى الافاضة في تفاصيل احدى عمليات الحصار • وذلك ان فعاليات اللغامين واكباش هدم الاسوار ، كان يتبعها ضرب حصار مغلق حسب الاستطاعة ، وذلك بهدف تجويع الحامية المدافعة اما الجواسيس او اي شخص قد يحاول ان يتخذ طريقه عبر الحصار ، فكانت تقطع اعناقهم ، ويستعرضون فوق الاسوار ، ولاثارة الخوف في نفوس المدافعين •

اعمال النهب

كان الاستيلاء على قلعة معادية ، او دخول الملك الآشوري غير فتحة في الاسوار ، اندارا بنهب المدينة • فالشرقات التي يطلق منها الزيت الملطي ، والنفط الملهب ، وصواريخ الاحجار ، سرعان ما يتم حقن بعضها ، وتجرّد غرف

القصر ويوته من محتوياتها وتشعل فيها النيران دون مقاومة •

وحين يرى السكان ان المقاومة توشك ان تنتهي غالباً ما يخشون
ممتلكاتهم الثمينة ، ولو ان الكثير منهم موقنون بانهم لن يستعيدوها ابداً •

وبمرور الزمن تظهر بعض هذه الكنوز للنور ، وما يزال هذا شأنها حتى
اليوم ، حين تجد الاشياء مسيلها الى المتاحف • اما الكنوز الاخرى فانها
تضيع الى الابد • ولا يلخر الجشع الآشوري لا ذهباً ولا فضة •

وينصب عرش الملك امام ابواب المدينة ، ويتم استعراض الاسرى امامه
يقودهم ملك المدينة المستسلمة الذي يتحمل اعظم تعذيب مبرح ، كان تقطع
عيناه ، او ان يحصر في قفص ، الى ان يأمر ملك آشور بوضع نهاية لآلامه
الطويلة • [هناك صورة تمثل سنحاريب على عرشه أمام أبواب مدينة لأكش] •

لقد امر سرجون باحراق ملك دمشق المنحدر حياً امامه • اما زوجات
الملك المغلوب وبناته فيكون مصيرهن الى بيت الحريم الآشوري ، ومن لم
يكن منهن من اصل نبيل يحول الى رقيق •

وفي الوقت ذاته يبدأ الجند بذبح السكان ، والاتيان برؤوس الضحايا
في حضرة الملك ، حيث يتم احصاؤها من قبل الكتبة •

ولم يكن كل الاسرى من الرجال ليقتلون ، ذلك لان الصبيان والصناع
يقادون الى الاسر ، حيث يعهد اليهم باشق الاعمال في مشاريع البناء الملكية ،
حيث تسبب المستقعات التي تغطي مساحات شاسعة من ارض بلاد الرافدين ،
نسبة عالية جداً من الوفيات • اما بقية السكان فكانوا يستأصلون ، ويبعث
بهم الى أقاصي الامبراطورية ، وهو عمل تم التخلي عنه بتقديم المدينة لكتبه
اتعش بشرف في القرن العشرين الميلادي • ولقد كان هدفه الظاهر هو تأهيل
المناطق الخالية في البلاد لكن قصد به في ذات الوقت ان يؤكد بان القادمين

الجدد هم غرباء لا اصل لهم بين الشعوب التي تحيط بهم وانهم اذا ما تمردوا
فلن ينالوا اية مساعدة .

لقد كان الامر الشائع تماما بالنسبة الى صفار اعضاء الاسرة المالكة ان
يتم نقلهم الى بلاط الفاتح ، ويتربون هناك على الخوف على أقل شيء ان لم
يكن الحب لبلاد آشور . فمن اوضاعهم الاصلية كرهائن في البلاط يمكن
لهم ان يتقدموا الى نقطة اخيرة يدعون فيها الى التصرف باملاكهم الموروثة
لهم كجزية لسيدهم شرطة ان يبرهنوا باقتسامهم ، ولو بصفة ظاهرية على
الاقل ، بانهم قد « تأثروا » (*) الى درجة تكفى للظفر بثقة الفاتح .

كانت تعقب الظفر في الحرب احتفالات يشارك فيها الجيش والشعب
سوية ، فتقدم فيها التبريكات والنذور الى الآلهة ، في الوقت الذي يحتفظ
فيه باحتياطي من اعشار المنتجات الطبيعية والمواد الثمينة ومن الاسرى ايضا
لاستعماله من قبل المعابد .

وكانت عملية ذبح الاسرى ، وهي لم تكن عملية انتقام بقدر ما تكون
عملية ندور للآلهة ، مطيقة في الديانات الاصلية .

لقد كانت الشخصية الآشورية ذكية جدا وتذكر كيف تتخطى عن احتكار كل
ذي قيمة ، لكنها كانت تتقبل الالتزام بصفة مطلقة ، بان تقدم على اطلاق جزء
من رأس المال المدينة به الى الآلهة التي منحت النصر .

لدينا معلومات مفصلة تفصيلا واسما عن الحملات العسكرية الناجحة
غير ان الافراد الذين اعدوا هذه الوقائع التاريخية لم يذكروا كلمة واحدة
عن الهزائم او التكتسات ، في حين ينبغي لنا ان نتاول على الدوام تقديرهم
للاتصارات باحتياط ملموس .

فلدينا على سبيل المثال ، ثلاثة مصادر رسمية منفصلة عن واحد من
اتصارات شلمنصر الثالث ، وعن عدد من الامرى يختلف مائة في المائة .

(*) هذه الكلمة ترجمة حرفية للكلمة الانكليزية Assyrianized التي تعني انه اصبح آشوريا ، مثلما نقول « تميعر » اي اصبح نميريا ، ونعزق
اي اصبح عراقيا .

حملة سرجون الثامنة

لأجل دراسة حملة عسكرية نموذجية يمكننا ان نختار الحملة الثامنة من عهد حكم الملك - سرجون - والتي قادها الى الشرق وإلى الشمال الشرقي من املاكه ؛ وتظهر الدراسة الطبوغرافية للحملة ان - اشور - كانت تعتبر الاقطار الواقعة على حدودها كمستودعات عديدة ، ولذلك اقتحمتها متدركة بمختلف الاعذار ، لكي تجهز الامبراطورية بما كانت تحتاج اليه فكان المسرح الرئيسي لهذه الحملة الخاصة والتي وقعت عام ٧١٤ ق.م هو منطقة - أراتو - المنبئة والتي تمثلها اليوم (ارمينيا المعاصرة) . ففي عام ٧٢٤ ق.م اعتلى الملك العرش وهذا ما يظهر ان الحملات كادت ان تكون وقائع حولية .

علينا الا نخطئ الظن فنقول ان العاهل الاشوري اتخذ قرار المباشرة بالحملة معتمدا على الطوالع وعلى اختيار الفصل المناسب والتواريخ الخاصة بالغامرات العسكرية حسب . لقد كان تحت تصرفه جهاز استخبارات كما انه اعد للحملة الارمنية اعدادا مفصلا تفصيلا شديدا ، وكرس لها كل اهتمامه . ولدينا عدد من الرسائل المرسلة من قبل موظف كبير في الجبهة ، والتي هي في الحقيقة تقارير عن نوايا ونشاط الخصم . وتضم هذه التقارير كل المعلومات المفيدة ، وهكذا وجوبا على استفسار العاهل الاشوري عما كان يفعله الملك الارمني ، قالت احدى الرسائل « ان وصوله (اي الملك الارمني) قد أعلن أثناء احتفال ديني » ولما كان سرجون قد أصدر أوامره القاضية بوجود عدم اشتراك اي من انصاره في تلك الاحتفالات فان كاتب الرسالة يطمئن الملك قائلا بانه سيرضى في تأدية واجبه كما فعل في الماضي .

لقد حدثت سلسلة من الغارات على الحدود وكان نصيبها من النجاح والفشل متفاوتا . ولكن الشغل الشاغل للملك كان دائما ان يتعرف على ما

حدث لاشخاص معينين كانوا يعتبرون من العناصر الخطرة والذين لم تعرف
اماكن وجودهم .

كانت المعلومات تجمع بطريقة بسيطة ، هي طريقة ارسال الجواسيس
الذين يقومون بارسال التقارير التي كانت تذكر ان القوات الارمينية تتمركز
متجمعة على وجه الدقة في اماكن مقابلة لاماكن تركز القوات الاشورية .
ويضيف هؤلاء قائلين ان الجيوش الاشورية متدمرة ، وان البلاد وعرة ولا
يمكن عبورها الا بواسطة الاطواف والارماث . والحقيقة ، وكما سئرى
من الوصف الرسمي للحملة ، فان من المحتمل ان تكون هذه الصعوبات
ظاهرية اكثر منها حقيقية ، وان من الجائز وجود مبالغة متمعده في الوصف
لقرض التقليل من مسؤولية مقدمي المعلومات في حالة فشل الحملة . وقد
اسكن التغلب عمليا على كل هذه المشاكل دون صعوبة ، كما ان تدمير
الجيوش تحول الى حماسة خالصة .

يقسم متحف اللوفر في باريس وصف الحملة الذي عثر عليه في مدينة
اشور وقد ترجم ودرس دراسة نقدية من قبل (تورو داجان) . وخلافا
لغيره من السجلات الملكية ، لم يكن ذلك الوصف وصفا تاريخيا ، بل كان ،
وبصفة غير اعتيادية جدا ، يمثل رسالة ارسلها الملك من مرقء في كالج ، الى
الآله - آشور - في معبده في مدينة - آشور - وقد تضمنت تلك الرسالة
ومنها للحملة . وما هذه الرسالة في الحقيقة الا تقرير مرفوع الى الآله ،
فمنذما تلخص النص غير الطلوف جدا سوف تشير الى النقاط المهمة فيه .
يستعمل الملك صيغة التكلم المفرد ، وهو يرسل رسالتك مباشرة ، وبكل
وقار ، الى الآله آشور ، ابي الآله الرب الجبار الذي يسكن في المعبد
المعروف باسم - جبل البلدان العظيم - وهو بعد كل ذلك لا يرسل تحياته
الى الآله آشور وجده حسب بل الى الآلهة الاخرى التي تختص بالمصير

والى الآلهات اللواتي لهن هياكل في المعبد ، ويطلب الملك بأن تبلغ تحياته الى المدينة ، واهلها والى بلاطه ، ويتمنى السلام التام لنفسه ، وهو الملك سرجون خادم الآلهة العظماء ، كما يتمنى السلام لجيشه . لقد تم تنفيذ الحملة ، لكنه يربط ذلك بالحماية الألهية التي مكنته من تحقيق هذا الامر في شهر - دوزو - وهو الشهر المكرس ل - نينورتا - الابن الجبار الاكبر ل - انليل - انه الشهر الذي جعله اله الحكمة - كما يضيف سرجون ذلك قائلاً ، « موعدا اجمع فيه جيشي واعده للقتال ، ولقد انطلقت من - كالخ - مدينتي الملكية » .

ثم يمضي في وصف الصعاب التي واجهها لضمان عبور الانهار التي كانت في حالة فيضان شديد ، وكيف ان جيوشه عبرت تلك الانهار كما عبرت الزابن الكبير والصغير (الاعلى والاسفل) دون ان يعتري الجنود اي خوف ، بل ان تلك الانهار بدت لهم وكأنها اقنية ضيقة . ثم دخل منطقة الجبال وكانت شعارات الآلهة تحمل امامه ، ويمضي فيقول : « بالرغم من ان تلك الجبال كانت عالية ومغطاة بنوع كثيف من الاشجار ، وبالرغم من وجود الوديان المربعة بظلامها الذي يشبه ظلام غابة الأرز حيث لم يراي ضوء هناك ، فقد تقدمت » .

أستدعي جنود الهندسة لتشييد الطريق وبسبب من وجود الملك على رأسهم ، انطلق الفرسان والمشاة وكذلك العربات الحربية فوق الجبال كالنسور ، وجاء بعدهم بناة المعسكر ، وجنود الانشاءات ، وفي الاخير جاءت الجمال والبغال حاملة الامتعة والتي كانت تقطع السفوح كالماعز المولودة على الجبال ، وبعد عملية الصعود هذه استمتع الجيش براحة أستحقها وعسكر على قمة الجبل .

بعد العبور الناجح للعديد من المياه الفائرة الجارفة والواسعة ، وكثير

من المرات الجبلية العالية ، وصلت الحملة ارض العدو ، أدرك ملك
(المنشيين) (*) الخطر ، فوقف امام سرجون متضرعا ومعه النبلاء وكبار
قومه ومستشاريه وعائلته وعرض تقديم جزية من الماشية وخيول العربات
مع سائقها ؛ وفي وصف اشوري منق يستمر الكلام ليذكر ان هذا الملك
قبل اقدام الفاتح • وأصاب نفس الذعر احد صغار الامراء المحليين ، فراح
يتصرف وكأنه حاكم لمدينة آشورية ، فمضى يمد الجيش بالخير والطحين ،
ثم شرع يلتمس من سرجون ان يعيد الحدود السابقة لبلاده والتي كادت ان
تسقط بأيدي جاره القوي •

اعلن سرجون ، بفضل القوة السامية التي منحه اياها كل من آشور
ومردوخ ، قبوله لهذا الطلب ، واشترك الآشوريون والمنشيون في وليمة
اقامت لهذا الغرض ، في حين ارسل مختلف الامراء الجزية الى سرجون
الذي نصب عليهم حاكما آشوريا •

ورأى احد امراء (المنشيين) المنشين تقدم الاشوريين من الجبال
المجاورة ، فلاذ بالفرار مع اصحابه ، ولم يظهر بعد ذلك • ومن الواضح انه
آثر ان ينجو بجلده ، على العيش في بلاطه ، والتمتع بثرواته فترك جيشه
يذبح عن بكرة أبيه •

وتعدد الوثيقة ، وبلا استنكار ، سجايا سرجون لتبرير الطلبات التي
يقدمها الى الاله ولكي تذكره بانه جدير بالحماية • فهي تقول بانه حريص
على اطاعة قوانين (شمس) ، وانه يصفي باجلال الى كلنات الالهة الكبار ،
ولا يتجاوز وصاياها ، وانه مستقيم ورؤوف ويكره الباطل ولا ينطق بسوء
او بكلمة جارحة ؛ ثم تختتم العبارة بما يلي :

« ولما لم اكن لاقيت - روساس - الأرمني في معركة متوازنة لحشد

(*) أي ملك بت منئي أو مناي وهي منطقة تقع الى الغرب والجنوب من
بعية اورميا •

الآن ، فقد رفعت يدي الى السماء ضارعا اليها ان تمكيني من الحاق الهزيمة
به لكي اجمله يتحمل نتائج كلماته المهينة ولكي اسحقه تحت وطأة
آثامه » .

وحدثت المعجزة اذ سمع الآلهة آشور هذا الدعاء فتجددت رجولة
الجيوش الآشورية التي أنهكتها العمليات واليأس الناتج من عدم الثقة
بخطط التموين . هكذا كانت ثقة سرجون بنفسه . فهو قلما كان ينظر
الى صفوف العدو المتراصة امامه . ولقد رمى بنفسه عليها كالسهم المارق
من القوس ملحقا بها هزيمة شنعاء ، وحصل على الكثير من الغنائم ،
بأسر - مائتين وستين - من اقارب - روساس - ملك - أورارتو -
الذي قفز فوق فرس قريب منه وانطلق هاربا بجيشه ، وقد فعل ذلك بعد
ان فقد خيله وتخلي عن عربته الحربية طالبا السلامة .

وسقطت المعازل واحدا اثر واحد ، ولف اللهب المدن بعد ان احرق
الاشوريون المحاصيل ، ونهبوا مخازن الغلال وكانهم جراد منتشر . ثم
يمضي سرجون ليقول :- « لقد قدت حيوانات معسكري نحو الريف
القريب من المدينة فدمرت هذه الحيوانات المحاصيل التي كانت هناك كما
دمرت السهول » . وبعد ان اكتسحت الارض اكتساحا مناسباً شرع
سرجون في مسيرة العودة الى آشور دون ان يجد حاجة الى محاربة احد
يل ودون ان يجد أية مقاومة .

ثار الملك - أورزانا - ملك مصاصير(*) ، على سرجون . وقد وصفت
حياة هذا الملك بكونها حافلة بالاثم والظلم وقد تقضى هذا الملك اليمين
الذي اداه بحضور الالهة آشور وشمس ونبو ومردوخ . كما انه لم يرسل

(*) مصاصير : Musasir كانت محصورة بين شرقي بحر الخزر

(قزوين) وجنوبي بحيرة (وان) .

اية هدايا ولم يأت ليقبل اقدام سرجون ، بل انه لم يرسل تحياته مع اي رسول . وهكذا فان مثل هذا التصرف قد استحق العقاب السريع الملائم .

كان الطريق الشرقي الذي سلكه سرجون في بداية الحملة ، يدور حول بحيرتي — أورميا و — وان — وقد تضاعف طول طريق العودة بسبب تعقب سرجون في مسيرته نهر دجلة . هنا اتخذ سرجون ما كان يبدو قرارا مفاجئا ، أو أنه عانى الكثير لاختفائه . فلقد ارسل الجزء الأكبر من جيوشه الى ارض الوطن ، ولم يبق معه الا المشاة ، والنا من الفرسان ، وراح يضرب شرقا وكأنه يريد الساحل الغربي من بحيرة أورميا . وكانت الخدعة موفقة تماما ، اذ لم يجد سكان — مضاصير — متسعا من الوقت لاختفاء كنوزهم في مكان أمين .

نهب مصاصير

وجب عبور الجبال ، مرة ثانية ، خلال طريق غير قابل بطبيعته لان تتجازه العربات الحربية . ولهذا اصبح من الضروري ربط عربية الملك بحبال ، في حين اضطر الفرسان الى ان يشقوا طريقهم خلال الخنادق بشكل صف متفرد . سقطت مدينة - مصاصير - فأمر سرجون بترحيل السكان كما امر بأن يضم الى الغنائم تماثيل الاله - هالديا - وهو الاله الاسمي للمدينة . وبعد هروب الملك وقعت زوجته واطفاله وبقية العائلة في الأسر بالاضافة الى (٦١١٠) فردا من السكان . وغنم سرجون ، زيادة على ذلك ، اثنا عشر بغلا ، و (٣٨٠) حمارا ورأسا غير مصنف من الماشية ، وحل سرجون نفسه في القصر الملكي حيث فتح ابواب الخزانة واستولى على ما فيها من ذهب وفضة وبرونز وورصاص وعقيق ولازورد وعاج واخشاب نادرة ، واوسمة ملكية واسلحة خاصة بالاحتفالات . ولم ينج معبد - هالديا - من النهب هو الآخر ، ذلك لان - سرجون - نهب كل كنوزه وكان من بينها ستة دروع ذهبية كانت معلقة حول الباب ، وكانت اواسط تلك الدروع منقوشة باشكال دائرية كبيرة بهيئة رؤوس كلاب ، ثم تماثيل كبيرة لبقرة توضع عجلا ، بالاضافة الى بعض الاواني المعدنية التي كانت موضوعة في المدخل المؤدي الى الابواب ... الى غير ذلك من المواد الثمينة التي يصعب تعدادها بسبب قيام الجيوش هي الاخرى باعمال النهب .

يبدو هذا الفصل الخاص بوصف الحملة الثامنة اكثر امتاعا من المعتاد لان النصب التي كشف عنها في خرسباد قد أتت على ذكر هذه الحوادث الحقيقية وتظهر تلك النصب المعبد بسقفه المنحدر ، وهذا يذكرنا بان المشهد حدث في الجبال ، كما تظهر الجنود وهم منهمكون في نقل الدروع ، في حين تقف الصحون الكبيرة والبقرة عند الباب . وفي جهة

أخرى يظهر الجنود وهم يحطمون تمثالا بالفؤوس وينصرف اخرون الى وزن الشطايا بميزان كبير ذي كفتين وقضيب • وعندما سمع الملك الهارب - روساس - بالنكبة حزن اشد الحزن ذلك لان سرجون انزل بالمنطقة الشقاء المهين •

يختتم سرجون رسالته الى الاله - آشور - بذكر عدد من الاشتباكات الصغيرة التي يوصف فيها الملك وهو يهاجم الاعداء ، وكأنه كلب غضوب . كما تأتي الرسالة على ذكر قائمة باسماء المحاربين الذين سقطوا في المعركة . والذين من اجلهم اصدر اوامره الى كبير ضباط القصر بتخليد ذكراهم في حضرة الاله •

لقد كتب اللوح من قبل كبير كتبة الملك والذي كان كاتباً ماهراً ووزيراً من وزراء سرجون ، بالإضافة الى كونه ابناً لـاحد كتاب الملك السابقين • وعند قراءة الوصف بأكمله يحصل القارئ على انطباعين يمثل الأول في الاسباب الذي يستعمله سرجون في وصف انجازاته ، والذي لا يدأئيه الا كلمات الخضوع الشديد الذي يئديه عند تقديمه الشكر الى الاله آشور • ويدعي سرجون انه بتنفيذه المهام لم يكن إلا معينا من قبل الاله ويهيم ان ينفذ اوامره واليه يعزو كل شيء • اما الانطباع الثاني فيتمثل في الطريقة الواضحة جدا التي تنهجها قوائم تصدادق الفنائم لكي تظهر مدى نظرة الاشوريين الى الحرب باعتبارها وسيلة اعمال تجارية • لقد كان النهب عندهم احد مصادر الدخل المنظورة • وعندما تكون الحرب مضمرة لايرادات فانها تعتبر من الفرص النادرة جدا •

الحرب ضد عيلام ونهب سوسة

هناك مثال آخر من نمط ثان عن الحملات التي تختلف عن الحملة السابقة الموجهة ضد - مصاصير - والتي كانت حملة تأديبية بصفة اساسية هي حملة - آشور بانيبال - عام ٦٤٥ ق م على عيلام(*) فكما هو مألوف فان احد عناصرها كانت الرغبة في الكسب على الرغم من كونه عنصرا قليل الشأن نسبيا ، وقد رافقته كراهية شديدة خالصة ، ورغبة تكاد تكون جنونية في الانتقام . لقد جمع الملك المعلومات قبل نزوله الى الميدان ، وعندما اختتمت الحملة اخذ يتلقى التقارير عن عمليات قادته المساعدين والذين كانوا يهاجمون الاطراف في الوقت الذي كان هو نفسه يتقدم نحو المدينة العاصمة . وقد حملت تلك التقارير انباء الانتصارات والغنائم وفك اسر الاشوريين الذين كانوا اسرى عند العيلاميين .

لدينا رسالة عن احد اتباع اشور بانيبال والذي يدعي بانه كتبها من - بلاد البحر - المتاخمة لعيلام . وتضم هذه الرسالة معلومات عن وجود - نبو - بل - شوماتي(**) - عدو الاشوريين . وها نحن نقبض بعض الفقرات منها :-

« لقد اعادني الملك ، سيدي ، الى الحياة بواسطة العديد من آيات حسن النية التي كشفها لي وهل انا الا ذلك الكلب الحقير ولست ابنا لاحد ... ماذا يمكنني ان افعل للملك غير ان اتفزع لآلهة السماء والارض العظماء كل يوم لتحفظ حياته .. لقد رفع الملك ، سيدي ، من قدري الى السماء » .

(*) هنالك لوح يصور نهب مدينة مصاصير من قبل سرجون الثاني سنة ٧١٤ ق م .
(**) نبو - بل - شوماني : ملك البحر ويقصد بها المنطقة الواقعة على الخليج العربي .

ويستمر الكاتب في حديثه ذاكرًا للملك بأنه جعل - شعب بلاد البحر - يؤدي يمين الولاء للملك . ويختتم رسالته بإعلام الملك بوجود التمردات داخل بلاد عيلام مما سهل الطريق أمام تقدم الجيش الاشوري وبالطبع فإن الفضل في تحضيرات الحملة البالغة السرية ، يعود الى الذهب الاشوري والى التمردات العديدة والخيانات الكثيرة التي سببت الانقسامات داخل البلد والتي انتفع بها الفاتحون .

وعندما احتلت العاصمة اتخذ اشور بانيال من القصر الملكي مكانًا لاقامته ، حيث اقام الاحتفالات بالنصر ، واستولى على كنوز ملوك عيلام الموروثة ، كما احتجز الاثاث الى حد سرير النوم ، وافرغ الاصطبل مما فيه من خيل وبغال .

ولسنا بحاجة الى الاطالة في السرد الذي يقودنا الى ان نتذكر ما فعله سرجون بمصاصير ولكن يجدر بنا ان ننظر فيما حل من خراب . تقول الرسالة :-

« لقد دمرت زقورات معبد سوسة الذي كان مبنيا بالطابوق المزجج ، كما احترق قبابه المستطيلة التي كانت من البرونز اللامع وقلت الى بلاد اشور - شوشيناك - آله الكهنة في عيلام والذي كان يقيم وحده في مكان منزول ، ولا يستطيع احد من البشر ان يرى اعماله ؛ هذا بالاضافة الى الآلهة والالهات الصغار والثروات . لقد قلت اثنين وثلاثين تمثالًا للملوك من ذهب وفضة وبرونز ورخام مع التماثيل الكبيرة التي كانت تحرس المعبد ، وكذلك الثيران التي كانت عند الباب . لقد دمرت معابد عيلام -

تدميرا تاما ، وثرت آلهتها مع الرياح الهابة من الجهات الاربع ؛ ودخل جنودي بساكنيها المقدسة والتي لم يسمح لاحد بالمرور فيها ، كما لم يسبق أن دخلها غريب ، وهتك الجنود ستار تلك البساتين وأحرقوها ، أما أنا فقد نبشت قبور ملوكهم القابرين واللاحقين لأنهم لم يحترموا آشور وعشتار ، تدميرا وجعلتها خاوية خالية مفتوحة للشمس ، أما عظامهم فقد حملتها الى بلاد آشور بعد أن تركت أشباحها دون راحة والى الابد ، وبذلك حرمتها مما يقدم لها من ماء وطمأنينة .

وخلال تدمير عيلام هذا أقتلعت العائلة المالكة أسيرة مع عوائل النبلاء . وأمر - آشور بانينال - بنثر الملح ، وزرع الاعشاب الضارة فوق آلهتي ، كما أنهم سخروا من أجدادي الملوك ، ولأجل ذلك دمرت تلك القبور خراب المدينة . ومسكت والى الابد اصوات الشعب السعيد ، وصيحات الفرح ، ووقع حوافر الحيوانات التي كانت تنقل اليها الناس . وصار موقع المدينة موطنًا للحمر الوحشية والغزلان ووحوش القلابة . وفي غضون ذلك استعاد آشور بانينال تمثال الآلهة - نانا - والذي كانت عيلام تحتفظ به منذ (١٦٣٥) سنة وعيلام ، في ظر آشور بانينال مكان غير مناسب لهذه الآلهة التي كانت تتطلع الى مجيء الملك الاشوري الذي اعلنت عنه قائلة بانه هو الذي سيخرجها من - عيلام - اليائسة ليأخذها الى معبد - إي - اثا .

وعانى كبير آلهة - سوسة - الأمر بدوره ، وعلى الرغم من الاحترام الشديد الذي اظهره له الملك الا انه اذله حين اخذه بيده داعيا اياه الى الرحيل ثم اودعه في مدينة الوركاء .

اعطي المكان الافضل للالهة المختلفة • اما الجنود فقد امتصهم الجيش
الاشوري ، ووزع بقية الاسرى كما توزع الاغنام على المعابد والموظفين
والنبلاء •

الى هنا يجوز لنا ان نترك الحديث عن الحملة على عيلام التي تعرضت
الى عنف لم يشهد التاريخ مثيلا له الا في القليل النادر • لقد كان من المألوف
ان يدنس المتصرون معابد العدو ، ولكن ليس مألوا ان يقوم هذا المنتصر
بنيش ونهب المقابر الملكية • ولقد ارتاح آشور بانيبال حين اعتقد بانه قد
ازال عدوه الكريه من الوجود تماما •

السفن الحربية

يتوفر لدينا العديد من صور السفن الحربية . وكانت المجاذيف تستعمل في تحريك القسم الاكبر من الزوارق بالرغم من امكانية استعمال الاشرعة . والشكل الغالب لهذه الزوارق هو الزورق مستدق الرأس ذو القاعدة قوية البناء . وكان من الممكن رؤيتها ممتدة الى امام مع مستوى الماء تقريبا ليسهل استعمالها في مهاجمة سفن العدو اما الجدافون فانهم يظلون بعيدين عن الانظار ومحصنين . وزيادة على ذلك وتحسبا لاستعمالات المستقبل ، كانت السفينة تزود بحصينا . بالدروع الدائرية التي يلبسها الجنود الذين تحملهم السفينة .

يتوفر لدينا وصف جميل لحملة بحرية سَيزها - سنحارب - لضرب سكان الشواطئ من اهل عيلام ، الذين كانوا يظنون بانهم في منأى من الهجوم . وبناءً على ذلك ولتوفير الوقت فانه أمر رعاياه الفينيين ببناء اسطول له على نهري دجلة والفرات في وقت واحد . وتجمعت الزوارق في النهرين ولما كان هذان النهران غير صالحين للملاحة نوع معين من الزوارق فقد سحبت الى البر ، وتقلت فوق العربات المدولبة . ومن الواضح ان الزوارق كانت صغيرة الحجم على الرغم من الاعداد البشرية التي استخدمت في هذه العملية . وعلى ما يظهر فان الحملة لاقت نجاحا محدودا على الرغم من اللغة الرنانة التي استخدمت في وصفها .

الفصل الثالث

الفكر في بلاد ما بين النهرين

مفاهيم عامة

يمكن اعتبار هذا الفصل بأنه صلب الكتاب • لقد تفحصنا حتى الآن تصرفات وعادات سكان بلاد ما بين النهرين ، ولاحظنا اين تشابهت واين اختلفت ، عن تصرفات وعادات الشعوب الاخرى • وعلينا الآن ان نحاول قراءة افكارهم وان نفهم وندرك نظرتهم الى الكون ، والى مكانهم فيه ، وذلك لكي نفهم ليس موقعهم من القوى التي اعتقدوا بانها تتحكم فيهم حسب ، بل ولنفهم ايضا بعد نظرتهم الى انفسهم على اساس اعتمادهم على تلك القوى ؛ ثم نفهم ماذا كانوا يتوقعون منها •

ولقد كانت هذه بالتأكيد هي النقطة الرئيسة في بحثنا هذا جميعه • ان الجواب على تساؤلنا هذا سيؤلف ، بالطبع ، قناعتنا عن طبيعة الاشوريين في ظل سلاله سرجون وعن البابليين من زمن نبوخذ نصر • فنحن لا نستطيع ان نقرأ الجواب في وثيقة منفردة ، ولكن الكتابات الكثيرة سوف توضح كثيرا جدا ، الجانب الفكري للانسان البابلي • وسنحاول اولا ان نرسم الخطوط العريضة للصورة ثم نكمل التفاصيل في بقية الفصل •

علينا اولا ان نتعرف على الفرق العميق بين اساليب الفكر البابليسي والغربي • يركز الفكر الغربي على اسس استقرائية واستنتاجية • ويلعب التعليل القياسي دورا ثانويا في هذا الفكر • ومن جهة أخرى فان التعليل البابلي يستند الى القياس وهذا ما يفرض لنا السبب الرئيسي للممارسة الواسعة النطاق للكهانة والسحر اللذين كانا يعتبران فرعين من العلم ، كما

فسر لنا المظهر الكهنوتي للطب الذي كان ، والى حد كبير ، تعبيراً آخر عن نفس الفكرة .

وبقد ما تعلم كانت طريقتهم في التصنيف العلمي ، سواءً فهي ميدان علم النبات أو الكتابة المسماة ، مشتقة من الاسلوب القياسي . وهذا يعني في الحقيقة وجود خطر اخذ القشور دون اللباب .

يمكن هذا القول في جذور الايمان البابلي الاسامي بالتماثل في تركيب الارض والسماء ، وفي اعتماد احدهما على الاخرى . فمن الطبيعي ان تقول ان هذا قد ادى الى الاعتقاد بان اي تصرف في احد الوسطين يتج بالضرورة نظيره في الوسط الاخر . لقد كانت السماء والارض متحدتين اتحاداً لا انفصام له . ولكن اذا كانت الالتزامات المنفذة من قبل الاولى قد رفضت كلياً او جزئياً من قبل الثانية فلن يكون باستطاعة السماء ان تهمل أو تزيل - النظر - المتولد على الارض . ولنا نبأ هنا حين تعتمد استعمال عبارة « الالتزامات » . ذلك لان اية مدرسة دينية لم تهمل في اثبات حقيقة ان غرض الالهة من خلق الانسان هو لكي يني المعابد ، ويمارس عبادتها فيها . وهذا هو الذي نريد ان نقوله عن خضوع الانسان الشديد لآلهته ، كما يجدر بنا ان نقول بان المواطن البابلي لم يكن يتوقع الكارثة النهائية . ان العالم يجب ان يستمر ما دامت الالهة لا تستطيع ان تستغني عن الكائنات البشرية .

لقد اعتقد البابليون ان العصر الاقدم جاء بعد خلق العالم . وقد وصف هذا العصر في ملحمة كلكامش . وكان مقام الالهة اثناء هذا العصر في السماء كما سكنت ايضا في معبدها على الارض . وكان لبطانة الالهة من الكهنة ما يقابلها في بطانة القصر الملكي . وحين عاودت الالهة الصعود الى السماء ثانية ظلت الصلاة تعتبر حلقة الوصل التي توحد كلا العالمين في حين

كانت الكهانة ، أو لغة العلامات ، يوحى بها الى البشر كوسيلة للاتصال يعرفون بواسطتها مشيئة الالهة التي اصبحت ظهورها على الارض نادرا . ولكني ينهل على الانسان معرفة نصيبه ، اوحت السماء بطريقة أخرى تساعد على ذلك . وهذه الطريقة هي — السحر — اما البرهان النهائي على ان الكهانة والسحر كانا عنصرين مقبولين في الديانة الرسمية ، فيمكن أن نراه في الحقيقة القائلة بان السابغة كانت تجري تحت رعاية شمس وادد ، وان اللاحق كان يجري تحت رعاية — ايا — ومردوخ وهما قد تم قبولهما كالهة عظام في مجمع الالهة في بلاد الرافدين .

لقد افضت هذه الظروف الى توازن دقيق لا شك فيه بين الارض والسماء . فكان عند البابليين نوع من التصور ، على الرغم من كونه غير دقيق ، عن تقسيم الكائنات الى ممالكها الطبيعية المختلفة . فقد وزعوا في شكل حصص كل كائن حي أو غير حي ، وكذلك كل شيء مصنوع ، فوضعه في مجال عمل الهه الخاص به ثم أقر نظام دقيق من العلاقات بين السماء والارض . واعتمد الدين في طوره البدائي جدا على تضاعف عدد هذه العلاقات بسبب الاعتقاد القائل ان الإنسان يستطيع ان يتوقع ما يشاء عن طريق ادائه لعمل معين ، لان هذا العمل سيتسبب في وجود نظيره في السماء . مثال ذلك الماء المقدس الذي كان يستقى به المطر أو حدوث الفيضان أو الزواج بين الالهة والممثل في الزواج بين الكهان وهو تكرار للعملية بين الالهة مما ينتج عنه ولادة الاطفال .

وزيادة على ذلك فان اية مدرسة دينية بابلية لم تعترف بإمكانية معاكسة خلق العالم لما نسميه (مبدأ الاسم) .

مبدأ الاسم

يمكن تلخيص هذا المبدأ بالقاعدة الأساسية التي تقول بأنه لا يمكن ان يوجد شيء دون ان يكون له اسم . تبدأ ملحمة الخلق بالتأكيد على انه في البداية لم يكن توجد سوى الهيولى ولم يكن هناك شيء له اسم .

﴿ عندما كانت السموات من فوقنا بلا اسماء

ولم يكن تحتها من مسكن يدعى بالاسم

ولم يكن لأي شيء اسم ما . ﴾

وما دام لم يكن ثمة شيء له اسم فانه لم يكن موجودا . ومما لا شك فيه ان هذا هو السبب الذي يفسر لنا ما نقرأه في سفر التكوين من التوراة (الاصحاح الثاني) من ان الله تعالى استدعى الحيوانات بعد خلقها امام آدم لكي يعطيها اسماءها وبذلك يضيف عليها وجودها الفردي .

فالعبرة الاكدية التي تقول (كل شيء يحمل اسما) تشير الى الشمول العام ، كما انها تعبير عن هذا الايمان بحد ذاته . واذا ما اعتبرنا هذه العبارة نوعا من الاسلوب الفكري فانها تتماثل تماثلا شديدا مع نظرية - شوبنهاور - (*) القائلة انه لا يمكن ان توجد العلة دون المعلول . ويصور شوبنهاور نظريته هذه بافترضه وجود بحيرة اكبر من اية بحيرة عرفت حتى الان وذلك في قارة لم يرتادها احد . ثم يمضي ليقول انه لما لم يكن احد تغفل الى داخل هذه القارة فان البحيرة تعتبر غير موجودة من وجهة النظر الفلسفية .

وشارك المصريون البابليين في نظرتهم اذ اعتقدوا ان اسم اي شيء

(*) شوبنهاور (١٧٨٨-١٨٦٠) فيلسوف الماني صاحب مذهب التشاؤم .

يشاركه في طبيعته الاساسية • واما في كتاب - الموتى - فان العبارتين
التاليتين لم تستعملا جزافا وبلا مبالاة • فهاتان العبارتان تقولان :
« لم أمت ولم يمت اسمي » •

ونجد ان افلاطون يركن الى نفس الخط من التعليل ويرى في المعلولات
انعكاسا لاسمها الصحيح • والواضح انه اصبح من المبادئ المسلم بها ان
الاسماء هي من نتائج الاشياء ويمكننا تلخيص التكوين كما يلي :-

ان اسم الشخص او الشيء تمثيل حقيقي له • وهكذا فان الاسم
يصبح المعلول نفسه ، ولكن بصورة اقل حقيقة واكثر قابلية على التكيف
وهذا موضع شك كثير امام المعالجة الفكرية • واختصارا فان هذا الاسم
سيشكل البديل العقلي •

وبناءً على ذلك فان الاسم الذي تناقش موضوعه والذي نعتبره صورة
المعلول ، يبدو انه هو العنصر الجوهرى لهذا المعلول ، وله نفس العلاقة
الطبيعية معه والتي تشبه ظل الجسم أو انعكاسه •

ما يزال المجتمع الحديث يشارك في هذه النظرية عند ممارسة السلطة
العامة ، ذلك لان الشخص الذي لا اسم له انما هو « فرد لا يكتسب وجوده
الشرعي الا بعد ان يتسلح بالبطاقة الشخصية ، وهذا يبين لنا ان النتيجة
الرئيسة لاي اسم هي ان حامل هذا الاسم يصبح معروفا ، وهنا يفقد
عرضة للتجريح أو النقد » •

الصوت ، الاسماء الشخصية

ثبتت التجربة انك اذا صحت مناديا باسم معين مثل -- جون -- أو -- بطرس -- ووسط جمع من الناس ، فسيذفع صياحك هذا الكثير من حملة هذا الاسم الى ان يلتفتوا يمنة ويسرى ، ليروا من المنادي . وهكذا فان الاسم هو اداة تستطيع ان تستثير القدرة الدائمة تقريبا والتي تمنحها معرفة الاسم . ولكن هذه القدرة محدودة عمليا بسبب استحالة التكرار الدائم . واذا ما دون الاسم ، اكتسبت معرفة المعلول صفة الثبات . وكذلك القول بالنسبة للتأثير الذي تستطيع ان تحدثه تلك المعرفة . ان الصوت يستدعي الى حيز العمل القدرة المكتسبة بواسطة المعرفة ، في حين نجد ان تدوين الاسم يظهر خصائصه ويبرزه بصورة غير محدودة اي انه في الحقيقة وسيلة لقدرة دائمة .

وما دمننا نقبل القول ان اسم الشخص أو الشيء يتضمن الصفات التي يعبر عنها ، فانه من الطبيعي ان تنسب الصفة الجيدة الى اي شيء يكتسب اسما . وهذا ما دعاه العراقيون القدماء « بالاسم الحسن » ، وكان في الاصل مساويا للمصير الحسن الذي يلقاه صاحبه ، والذي اضى عليه اسمه نفوذا حسنا مدى حياته . وتنطبق نفس العملية ، وبدرجة متساوية ، على الفلاح أو الامير الذي يعطي اسما لاطفاله .

لقد استعد الملوك العراقيون القدماء للدعاء بانهم ابناء الآلهات . وكانوا يشددون على اهمية الاسم الحسن الذي تلقوه من امهاتهم . وكانت الالهة تتبادل كلمات مديح هؤلاء الملوك . لقد تحدث الاله -- نكيرسو -- في معبد -- الوركاء -- مع الالهة -- بابا -- حول موضوع -- اوروكاجينا -- وتتمثل كل هذه العبارة الطويلة في اسم علم مفيد اعطاء -- اوروكاجينا --

الى حجر مقدس ونقشه عليه • ويشبه هذا الحجر الزيتونى وهو موجود في المعبد • وكل من يردد هذا الاسم سيزيد من قدرة هذا العمل وبذلك ينتفع واهب الاسم بهذا التردد • وكان أورو كاجينا — هو الذي اصلح مدينة لكش •

وهذا هو السبب الذي دفع — غوديا — حاكم مدينة لكش — الى ان يسمي احد الاعمدة المنقوشة المقامة في المعبد الذي بني ل — تينكيرسو — باسم ملك الاعصار •

أما الشوارع فانها هي الاخرى كانت تحمل أسماء ، هدف من ورائها الى كسب النفوذ الحسن للمدينة • وكان من بين تلك الاسماء اسماء مثل : (لا وطأته اقدام العدو) ، وهذا هو اسم طريق الموكب في بابل • ثم اسماء القنوات مثل (حمورابي مصدر الخير للانسان) واسماء الابواب والاسوار مثل (بعل بناء ، بعل ينعم عليه) وانتقلت هذه الممارسة الى الشعب ، اذ اتخذ أفرادهم أسماء تدل على البركة أو الرغبة أو الانعام الالهى وما شاكله • ويظهر هذا واضحا في اسماء ملوك الاشوريين أو البابليين • فمثلا يعني اسم مرجون (الملك الشرعى الراسخ) ويعني اسم سنحاريب (الاله سن يزيد عدد الاخوان) واسرحدون (اعطى اشور اخا) وآشور بانبيال (اشور خالق الابن) • ويعني اسم نبوخذ نصر (يا نبو : احم الذرية) • ونجد ان لبعض الاسماء ما يعادلها في الانماء الحديثة ، مثل — عشتار — ابني و (إلو — يائي) يكادان يشبهان في المعنى الاسمين : (تيودور) و (تيودوسيوس) •

طريقة النطق بالتعاويد

حين نريد ان نستدعي شخصا ما لا نكتفي بلفظ اسمه حسب ، بل نستعمل نعمة خاصة تضمن لنا الطاعة . والحقيقة ان الصوت يجدي في بعض الظروف . ولقد ادرك المصريون هذه الحقيقة فكانوا يقولون انه يجب ، من اجل لفظ الصيغ المقدسة عندهم ، ان نستعمل صوتا حقيقيا لا يشبه الصوت الذي يستعمله المغني ، بل الصوت المستعمل وقت الصلاة أو الدعاء . وهذا هو ما يريد سكان بين النهرين ان يعبروا عنه باشارتهم الى الطريقة الصحيحة للنطق بالتعاويد والحقيقة انهم ما كانوا يستعملون الفعل (قل) بل الفعل (لبسو) والذي يعني (انطق أو اهمس) ، ويمكن ان يعني (غن أو دمدم) اما في الصلاة فقد استعملت طريقة كلام تختلف عن غيرها وهذه صورة واضحة في جميع الاديان تقريبا . وتضفي الشعائر البابلية اهمية خاصة على هذه الطريقة عند قراءة الرقي والتعاويد . فمثلا يستعمل الهمس عند قراءة التعويذة التالية : « ليرحك الحكماء ، اهل التعاويد » .

القدرة على الكتابة والرسم والنحت والغناء والرقص

استعملت الكتابة ، كما اسلفنا القول ، لتثبيت ما تمثله الاصوات المختلفة من قوة وقدرة ، والتي تنطق باسم معين . وقد صورت هذه الوسيلة المراحل البدائية لأضفاء الحياة على التماثيل التي توضع في المعابد . ويوجد تمثال - غوديا - في متحف - اللوفر - بباريس كما تنتشر تماثيل مختلفة الصفات في الكثير من متاحف العالم . اما الغرض الذي يؤديه تمثال غوديا في المعبد فهو لكي ينوب عنه امام الآلهة بصورة ابدية . ويوضع هذا التمثال في المعبد ليحل محل - غوديا - في الصلاة بين يدي الآله في كل الاوقات . وكلمات الصلاة أو الدعاء منقوشة بحروف بارزة في مقدمة رداء التمثال .

لقد كانت قدرة الكلمة المكتوبة عظيمة جدا . وكذلك كانت معرفة الآلهة الشاملة . ولذلك فلم يكن ثمة داعي لكتابة الصلوات في المكان الذي يمكن ان يراه الناس افرادا أو جماعات .

توجد في خرسباد مجموعة من المنحوتات الناتئة تحمل كتابات على ظهرها وكانت هذه المنحوتات تدفن في الحائط دائما ، وعندما قام الملك — بودعشتارت — ملك صيدا بتقوية اساسات معبد — اشمون — باقامة جدار ساند نقش اسمه على كل قطعة من الحجارة . وقد ارتأى ان تكون الكتابة في الوجه المخفي وبذلك لا ترى بالعين . وكانت الحروف المحفورة ما تزال محتفظة بحدائثها البدائية عندما ازيل الحائط بعد عشرين قرنا من بنائه الاصلي ، فاذا كان الدافع الرئيس لاختفاء الكتابة المنقوشة هو الخوف عليها من عبث الاشرار فانها كانت تخفى احيانا عن قصد لجعل المارة يتشوقون لقراءتها وسنبحث هذه النقطة في الصفحات القادمة عندما نعالج موضوع الخطوط السرية للكتابة المنقوشة على الألواح الحجرية المصرية والتي فك اسرارها درايتون

E. Dryton

أهمية اخفاء الاسم الحقيقي

ما دامت معرفة اسم الشخص تضفي قوة على حامل الاسم فمن الطبيعي ان يختص حامل الاسم من جعل اسمه معروفا . فمثلا نجد ان المصريين يسمون الطفل باسم معين ثم ينادونه باسم اخر طوال حياته . وقد عثر على لوح يعود لاحد كبار الكهنة وزوجته من عهد البطالسة . وقد ذكر في هذا اللوح ان طفلهما سمي - امحوتب - ولكنه كان ينادى باسم - بيتوباسته - .

قد يبدو ان هذا الخوف لا مبرر له . ولكن المصريين يأتون بالبراهين القاطعة بحقيقة هذا الخوف . فهم يقولون انه عندما شاخ الاله - رع - وضعف تعلمت - ايزيس - التي كانت ساحرة كيف تمزج لعاب بعض الالهة بالتراب . لتصنع منهما - افعوأنا - تضعه في الطريق الذي يجب ان يمشي فيه - رع - . وقد لدغ ذلك الإفعوان الإلهي - رع - في عقبه ، وفي سورة غضبه استدعى اليه - ايزيس - التي ادعت بانها لا تستطيع ان تعالجه ما لم تعرف اسمه الحقيقي . وبفضل هذه المعرفة ارتفعت - ايزيس - الى مصاف الالهة .

لم يكن حمل اسم ثان في ظروف معينة ناجما عن الرغبة في التخفي وقد جرت العادة في العصر السلوقي على اقتباس الاسماء اليونانية ، وتظاهروا بعض الاشخاص بحمل الاسماء المأوثة وغالبا ما كان بعض الاشخاص يدعي بان هذه الاسماء هبة من الملك ، وبالطبع فان الهدف هو خلق شخصية جديدة مفخمة .

وبالرغم من الاشتمزار الذي يظهره الادب الاشوري - البابلي من افشاء اي سر من اسرارهم ، الا ان بعض التدوينات كانت ضرورية ، وقد

بذلت جهود كثيرة لجعل هذه التدوينات غامضة بقدر المستطاع • لقد كان الخوف شديدا من الافشاء غير المتعمد للاسرار ، حتى ولو كانت التدوينات معدة لاستعمال الكهان وحدهم • وغالبا ما كانت تلك التدوينات تختتم بهذه الصيغ المقدسة :-

قد يرى حديث النعمة هذه الشعائر التي تؤديها ولن يراها الغريب الذي لا يختلط بسادة الكهانة ؛ فاذا ما تجاوز احد هذه القاعدة فلتقصر ايام هذه الارض • على المبتدئ ان يوضح هذه الشعائر للمبتدئين • واما من كان غير مبتدئ فعليه ان لا يعرفها فان ذلك مكروه عند الالهة - آنو -
و - ائليل - و - أيا - •

سلطان الاعداد

يعتبر سلطان الاعداد نتيجة طبيعية لسلطان الاسم . وكافت الاعداد تعتبر وسيلة من وسائل التعبير فتضفي صفاتها الخاصة بها على الشيء الذي ترتبط به . وبسبب من خاصية الاعداد الملازمة لها ، والتي تؤلف مجموعة متنوعة غير منتهية ، وبسبب من امكانية الوصول الى نتيجة عددية واحدة بطرائق حسابية مختلفة ، نقول بسبب ذلك كله كادت الاعداد ان تكتسب الصفة المقدسة التي ادت الى اعتبارها احد انواع اللغة القادرة على التعبير عن كل فكرة .

يتجلى احد مظاهر سلطان الاعداد في الترتيب العددي للسلطة البيئية للالهة . فمن بين هذه الالهة يعتبر الاله - آنو - الرب الاعلى . او - رب الارباب - وهذا بحد ذاته علامة من علامات القدم . وكان - آنو - يمتلك العدد الكامل - ٦٠ - اما العدد الذي كان ينسب لكل اله فانه يلائم المكانة التي يحتلها في النظام العام الذي اعدته الآلهة والذي تنتهي هي اليه .

ادرك سكان بلاد بين النهرين ، بعد ذلك ، فكرة اعطاء القيمة العددية لكل علامة في لوائحهم الترتيبية التي تحمل هذه العلامات . وكان هدفهم من ذلك ان يكون كل اسم قابلا للتعبير عنه بالاعداد . وهكذا فانه ، أثناء بناء قصر خرمباد ، اوجد سرجون آصرة بينه وبين السور الذي يمكن بواسطته الدفاع عن القصر وذلك حين قال :-

لقد بنيت السور وجعلت محيطه ١٦٢٨٣ ذراعا وهو العدد الدال على اسمي .

وكان هذا النظام شائع الاستعمال تقريبا . ووجد نص يعطي شرحا لتعظيم عشتار وهو يرجع في تاريخه الى العهد السلوقي ويحمل هذا النص نقوشا باصطلاحات عديدة لاسم صاحب اللوح واسم والده . وهذه الاصطلاحات العددية هي :- (٢ - ٣٥ - ٥٣ - ٢٤ - ٤٤ ابن ٢٥ - ١١ - ٢٠ - ٤٢) .

ولسوء الحظ عثر على هذا اللوح الذي يضم هذه الاعداد الالفاز تالفا في مدينة - سوسة - . وقد قام بنشره ، رغم التلف الشديد ، الأب - فان دير مير - وقد نبهني عليه ج. دوسان - ووضعت مقابل الاعداد المقاطع الابجدية المطابقة مثل :- مي . با - ال. ل أ . الخ .

تشير نهاية الوثيقة الى مزيد من الادلة على حب البابليين للجناس اللفظي ذلك لاننا نجد الكلمة - شارا - مقابل العلامة العددية الخاصة بالعدد - ٣٦٠٠ - والتي تحمل الاسم - شار - والذي يعني - الملك - .

ونعود فنقول ان هناك لوحا آخر يعرف باسم - لوح إيساغيلا - وقد ترجم هذا اللوح بعدة طرق ويعطي هذا اللوح ابعاد المعبد والزقورات . وفي نهاية قائمة الاعداد تكرر النقوش الحظر المفروض على تفسير مدلولها لغير المجريين . فنحن مضطرون الى ان نستنتج بان الابعاد المسجلة رمزية ليس الا وتضم معنى غامضا .

يعود الفضل في اختراع هذه الطريقة الغامضة الى العراقيين القدماء . وقد شاع استعمال هذه الطريقة بين الرومانيين واليونانيين الذين اسموها ايسوبسفيا وقد كان هؤلاء قادرين على ايجاد هذه الطريقة الى درجة الكمال بما كان عندهم من كتابة ابجدية استعملت بعض احرفها كأعداد وساعد هذا بالتالي على اضافة قيمة لكل حرف . ثم استعمل هؤلاء نفس عملية

التعليل هذه على الاعداد تماما كما فعلوا مع الاسماء ، فادركوا بعدئذ فكرة جمع القيمة العددية للحروف التي تشكل الكلمة ، وقارنوا النتيجة مع قيمة الكلمات الاخرى وبهذه الطريقة اقاموا علاقات عددية بل وحتى معادلات متطابقة بين الكلمات . . وبهذه الحاجة سبق الحكم على - نيرون - لكي يقتل امه . وسبب ذلك ان الحروف التي تكون اسمه اضيفت الى كلمة - قاتل امه - وقد اكرر من استعمال طريقة التعليل هذه وآمن بها عن قناعة الادريون(*) ، وآباء الكنيسة . وبناءً على ذلك ظهر الروح المقدس عند تعميد المسيح بصورة حامية وعددها هو - ٨٠١ - .

ولما كان حاصل جمع القيمة العددية للحرفين اليونانيين (أوسانت) اي « القا » و « اوميكا » هو ٨٠١ ايضا ، فان الادعاء بالقول انا القا واوميكا يجب ان يكون تأكيداً للتأولث أو التثليث فقد تم التدليل على احسان الله ، طبقاً لما ذكره تيوفنيس كرميوس في موعظته ٤٤ ، بالتلازم عن طريق القيمة العددية لـ (ثيوس) ، الآله ، و « اكاثوس » اي الصالح ، في حين انه يذكر ايضا في موعظته ٣٦ ، انه لما كانت الشباك تسحب كل ال ١٥٣ نوعاً مختلفاً من السمك في كرفة معجزة للاسماك ، ولما كانت هذه الاسماك تمثل الكنيسة العالمية فان « ريكا » يجب ان يرمز الى تلك الكنيسة ما دامت القيمة العددية لها هي ١٥٣ ايضا .

لقد كانت الطريقة سائرة الى ان ثبت في نقطتها النهائية من قبل الاجبار في القبله والذين كانوا يعرفونها باسم (جياتريا Gematria) وهو على اكثر احتمال تحريف جيومتريا Geometria الى علم الهندسة .

(*) الادريون او العارفون جماعة من الفلاسفة تقول بان المادة شر وان الخير يأتي من المعرفة الروحية للاشياء .

التورية المنطوقة والمكتوبة

لتجنيس الحروف في بدء الكلمات المتابعة فضل كبير على تنوع مبدأ أو نظرية الاسم والاعداد التي وجدت في الماضي البعيد . وطلق على هذا التجنيس اليوم اسم - التورية - سواء المكتوبة منها ام المنطوقة ، وبعبارة ادق ما يسمى بجمود الاسم والاعداد . ويواجهنا الآن تمييز حاد . فنحن قد فسر عبارة - التلاعب بالالفاظ - على اساس ما تعنيه من قضاء الوقت بالتسلية دون الاهتمام بالاعمق من الدلالة . لقد نظر البابليون واسلافهم الروحيون اي السومريون الى الامر نظرة جادة تماما . فنحن نعتبرها حجارة حين يذكرنا شكلها او لونها بشيء اخر ، وانها مجرد قلعة من قلعات الطبيعة ولكن البابليين كانوا يعتبرونها علامة وانذارا بوجود علاقة ايجابية بين المادتين وتشتد قوة هذه العلاقة اذا ما اصبحت لها اسماء ماثلة .

لقد استمرت في هذه الفترة قدرة الطبقات المثقفة على التلاعب بالكلمات المنطوقة والمكتوبة .

الإحاجي

كانت نفس النظرة هي السبب في نشوء تذوق الإحاجيات التي اعتاد مختلف الأمراء ان يسألوا بعضهم بعضا عن معانيها وذلك رغبة منهم لاثبات تفوقهم الذهني الذي كان في ذلك التاريخ يعادل في قيمته القوة البدنية المتفوقة . غير ان ذلك يحتمل ان يكون رفضا لدفع الغرامة التي كان ثمن الهزيمة يمثل في الغالب الدليل لخصومات مكشوفة مباشرة تقريبا .

فحين نريد ان نبحث قضية الطوفان (التي سترد الاشارة اليها في هذا الفصل) سوف نتهيا لنا فرصة لاقتباس الجواب الذي اعطاه اوتا نبشتم(*) عندما سئل عن السبب الذي جعله يبيع استعداداته للرحيل .

لقد اكد للناس في ذات الوقت بالوعد بان الدينا ستمطر عليهم الـ (كبتو Kibtu) والـ (ككوكو Kikku) اي القمح والجبر .

غير ان الجواب كان يحتوي على التورية والاحجية معا لان الكلمات تعنى « العزن » و « سوء الطالع » وكانت القضية قضية اختيار المماني الصحيحة .

فنحن نجد ثورا من سلالة اصيلة كان يعد تفاحة في نظر صاحبه ويدعى « شرور - ابي » وهذا ما يقصد به « الآله شرور هو ابي » أو بصفة اقل ادعاء « مجد حقل القصب » (انظر ما سبق في الفصل الاول) .

وفي مصر في عهد سيادة الهكسوس(**) وطبقا لاوراق البردي التي عرفت باسم مجموعة ساليير الاولى ، بعث الملك ايبسي بالرسالة التالية

(*) اوتانبشتم ، هو الاسم السومري للنبي نوح الذي فصل ذكره في القرآن الكريم باعتباره المنقذ من الطوفان العظيم . وقد ورد اسمه في ملحمة كلكامش .

(**) الهكسوس أو الرعاة جماعة من الشعوب السامية خرجت من اطراف الجزيرة العربية الى مصر فاسقطت حكم الفراغة واستولت على البلاد برمتها وانشأت سلالة حاكمة خاصة بها لمدة عدة قرون .

الى « سكينري » الذي تفصله عنه بلاد مصر كلها ، يقول له فيها « غادر مستنقع الجاموس الذي يقع على مقربة من طيبة لان الضوضاء هناك تصل الى « افارين » وتمنعني من النوم ! » ولم يكن سكينري ليسدرك الجواب الصحيح وادى الحادث الى نشوب الحرب .

وطرح شمشون الاحجية التالية على ثلاثين من الشبان الفلسطينيين « خرج اللحم من الآكل وخرجت الحلاوة من القوي » . فاذا ما خسر فان الغرامة ستكون جلبابا وثوبا لكل واحد منهم وبتحرير من الفتيان ! فضى شمشون الى زوجته بجواب الاحجية . فقد مر على اسد ميت استقر سرب من النحل الى جانبه (وذلك امر غريب لان النحل لا يحط على لحم متعفن) . وقد سارعت زوجته فافضت بالسر الى الشبان الذين اجابوا متسائلين « اي شيء هو احلى من العسل ، أو من هو اقوى من الاسد ؟ » .

وقد قال لهم شمشون : انكم اذا لم تحرثوا بمجرتي ، اي ابنة البقرة ، فخلن تعثروا على جواب لاجيتي » .

ومن ثم اخذته روح الرب فهبط الى « اسكلون » (*) وهناك ذبح ثلاثين رجلا واخذ ملابسهم وبذلك وفر الملابس لاولئك الذين اجابوا على الاحجية .

وتتحدث التقاليد عن ان ملكة سبأ التي سمعت بحكمة سليمان الشهيرة ، قد وفدت عليه من بلد بعيد ، لتجرب حكمته وتسأله بعض الاحاجي (**).

(*) هي مدينة مسقلان الشهيرة في فلسطين ، وقد ظهر منها عدد كبير من علماء المسلمين في التاريخ والفقه والادب .

(**) فصل القرآن الكريم قصة ملكة سبأ هذه تفصيلا دقيقا لا يدع مجالا للشك والتلاعب فيها . فقد بعث سليمان الى ملكة سبأ يدعوهما ان تخضع لسلطانه فلما ابته بعث اليها بطائر الهدد فاحضرها في طرفه عين ومعها عرشها الذي كانت ترتفع عليه في عامستها واذ ذاك آمنت بسليمان نبيا من انبياء الله .

والتقاليد الاكديّة والسومرية مليئة بمثل هذا النوع من الاحاجي وهي مدينة بوجودها الى صفة متشابهة من اللغة المكتوبة والمنطوقة . فقد كانت الكتابة السومرية في اقدم صيغة لها ، والتي اختارها الساميون فيما بعد ، لغة تصويرية ورمزية ، اي ان العلامات كانت تمثل اما مادة حقيقية أو فكرة ولسوف نين في هذا الفصل كيف أصبحت تمثل المواد أو الافكار المتعددة .

غير ان العلامة السومرية كانت في طبيعتها الاصلية نوعا من احجية ، وان الكتبة كانوا يعتمدون غالبا في ان يكتبوها بالصيغة التي تكلف براعة القارئ الكثير من العناء .

وهكذا وعلى سبيل المثال ففي الوقت الذي يمكن ان يكتب فيه اسم صحيح مثل مردوخ شوم اودين والذي يعنى « منح الى مردوخ اسم » ، اي نسب ، بشكل متقطع فان الكلمتين معا « اسم » و « يعطي » قد تم تمثيلهما بالعلامة «مو» وان الكاتب ربما فضل أن يكتب «مردوخ مو مو» .

وعلى غرار ذلك الاسم « سن - ابي - اوسور » اي « ياسن احم الأخ » فانه يحتوي على عنصرين « احم » و « اخ » كلاهما قابلان لان يكتب بالعلامة « باب Pap » ، ولذلك فقد يكتب الكاتب « سن - باب - باب » .

وقد تم اقتباس مثال من هذا النوع في القسم الذي يتناول قراءة القال . في الفصل الرابع .

ففي الامثلة التالية نستطيع ان نرى الكتبة يستعملون هذين المظهرين

من اللغة المكتوبة والمنطوقة ، وينهمكون في بحث غامض عن علم الاشتقاق ،
وذلك لغرض ان يخفوا معنى كتاباتهم والتي لا بد وان كانت على اية حالة
غير مفهومة بالنسبة لغير المبتدئين •

ويصبح مثل هذا الامر اقل دهشة في ضوء ما كان يطبقه جيرانهم ،
اي المصريون الذين كانوا يستعملون في بعض الاحيان نوعا من القانون
الهيروغليفي في الوقت الذي نعتبر فيه الحروف الهيروغليفية وحدها صيانة
روافية •

لباس مردوخ

لقد أجرى السيد ج. دوسان بحثا حول هذا الموضوع الذي يكشف عن عبقرية الطريقة التي استخدمها الكتبة وان كانت هذه الطريقة ما تزال في مرحلتها المبكرة ؛ وسنكرس جهودنا لدراسة مثال من إحدى الطريقتين اللتين كانتا ، على ما يبدو ، أكثر الطرق شيوعا في الاستعمال (انظر الفهرس) . يظهر المثال الاول الكاتب وهو يفكر على ما يبدو ، تفكيرا اعتباطيا ثم يهتدي الى استنتاج غير متوقع تماما حين يدرك صدفة الامكانيات الكامنة في عباراته . وهكذا نجد في - قصيدة الخليقة - ان مجمع الالهة يقرر ان يفوض الى مردوخ السلطات العليا وتدفع الرئيس مردوخ الى ان يبحث من تأكيد ملموس من الالهة ومن ثم تضع الالهة عباءة وسط مجلسهم وتقول للاله مردوخ مولودها الاول : تأمرك بالهدم واعادة البناء (٢٥) وسيحدث ذلك . قل الكلمة وحدها وستختفي العبادة وقل الكلمة للمرة الثانية ومستظهر العبادة من جديد » .

وما ان نطق مردوخ بالكلمة حتى اختفت العبادة وما ان نطق بها للمرة الثانية حتى عادت العبادة الى الظهور .

ان اختيار العبادة لمثل هذا الامتحان يمثل ، بلا شك ، ثمرة بحث معقد للاشتقاق ويؤيد ذلك وجود فقرة متأخرة في نفس القصيدة . وتملا اسماء مردوخ الخمسون اللوح السابع ونتيجة للمهارة الرفيعة فقد طورت العملية الى الدرجة التي ادت الى الاسلوب الخاص بالاشتقاق .

لم يكن المقطع الثاني من اسم مردوخ مخالفا للكلمة السومرية توك Tug والتي تعني - العبادة - في حين يمكن ان تعني كلمة مار MAR

(٢٥) اي بناء خلق جديد يحل محل الغلق القديم .

(المكان) وهذه هي الغاية التي قصدتها الالهة من وضع اللباس فيما بينها .
وليس هذا كل ما في الامر ذلك لان كلمة -دوك- Dur تعني ايضا
- يتكلم - في حين تعني كلمة - مار - معنى معاكسا علي خط مستقيم
لل كلمات اي ينتج ويخلق ويوحى ، وهذا ما يفسر لنا معنى الجزء الثاني من
الاقتباس . هنالك سبب يدعونا الى الايمان بان هذه كانت هي الطريقة
التي تمثل تفكير الكاتب . ذلك لان هذا الكاتب كان يترك الاسم الحقيقي
لالله في القائمة التي تضم كنى والقاب مردوخ ، والتي تعظمه وتسميه
بالخالق . وتليها كنى اخرى تملحه وتسميه بالدمر . ويظهر في القائمة
كلها تأثير المهارة الاشتقاقية . ويقتبس - دوسان - اثناء دراسته للموضوع
فقرتين من اللوح السادس الذي يوصف فيه مردوخ وصفا موجزا بكونه
الخالق والدمر والملوء رافة وشفقة الذي يظهر النية الحسنة للالهة . لقد
احسن صوغ هذه الاوصاف لكي تعبر عن المعاني التي يضمها المقطعان
- مار - و - دوك - .

تعطينا هذه المعاني المختلفة - المادة - التي يمكن ان تكون.
- العبارة - قد ركبت منها ، وعند مواجهة اية كلمة مفترضة فان الكاتب
يستعمل اجزاءها الممكنة لها كالموسيقي الذي يستكشف عناصر العبارة.
الموسيقية في مجموعة من العناصر المتباينة ، وهو ، في سبيل ذلك ، يتابع
كل نقطة حتى نهايتها المنطقية دون ان يحجب رؤيته عن الموضوع الاصلي .
لقد بين - دوسان - التصنع الجوهرى في العملية والذي لا يترك مجالا
لاية مهارة ادبية خالصة او اي الهام شعري . واذا يبدو لنا هذا حقيقيا فقد
كان هدف البابليين تفكيك المعنى الواحد للحصول على معاني اخرى عديدة؛

بخلق اسم جديد بواسطة عملية اشتقاقية • وهكذا وبفضل مبدأ الاسم فانهم يتسببون في ايجاد حقيقة جديدة • قد نعتبر مثل هذه التأملات عملا غير مجدي ولكنه بالنسبة للبابلين يعادل اكتشاف عنصر جديد بواسطة المجهر ، بل ان هذا العمل عندهم حقيقي كحقيقة الكائن البشري وانه يظهر اللحظة اكتشافه ، وان دنيا الانسان اتسعت نتيجة ذلك اتساعا مناسباً •

وللكاتب وسائل اخرى تحت تصرفه • فقد رأيناه يضغط المعنى الاصلي للكلمة لكي يستخلص منها المعاني الخفية • فبدلاً من مراقبته وهو يتابع هذه المعاني الخفية متابعة سهلة علينا ان نراقبه وهو يعمل على خطوط اخرى ، وان لا نسمي ذلك كلمة أو فكرة بل كتابة •

برغيب ، ملك كتك

— Braygyb, King of Ktk —

حافظت المسلة الآرامية التي اكتشفت في (مفرى) القرية من حلب(*) على نص معاهدة عقدت بين - ماتي - إلو - Mati - Ilu ملك (انجاد) ، وبين - برغيب ملك - كتك - وثبت مقارنة هذه المعاهدة مع المعاهدة التي فرضها الملك اشور - نيراري الخامس (٧٥٣ - ٧٤٦ ق م) على الملك (متي - إلو) ان الملكين قد شملتهما المعاهدة . ولكن من الصعب ان نفهم لماذا اتخذ ملك اشور اسما شديدا الغرابة . ومن المعقول ان نفترض بانه اراد ان يستعمل اسما مستعارا في تعامله مع الملك - متي - إلو - الذي كان يشك فيه كثيرا . ولكن كيف امكن تحويل - اشور - نيراري - ملك اشور - الى برغيب - ملك كتك ؟

يقدم السيد (ج . دوسان) حلا للمشكلة بواسطة البلاد الذي كتب بالعلامات - كور - والتي تعني - البلاد و - اش - ل - آشور - و - كي - وهي لاحقة تنتهي بها اسماء البلدان . وغالبا ما تحتوي اسماء البلدان على اكثر من قيمة لاشاراتها . ويصدق هذا القول على العلامة الثانية من السلسلة المذكورة آنفا الا وهي - اش - التي تصبح - دل أو تل . وينقش الكتاب هذه العلامات الثلاث محولين اياها الى الآرامية بواسطة عملية تعتمد ليس الا على اخذ الحروف الابتدائية ، وعلى الاختص الحروف K, t, K اما شرح اسم الملك فانه يسير على نفس النهج . اذ ان العلامة المسمارية ل - نيراري - معقدة وتتألف من علامتين منفردتين متتابعتين وهما : بير (Bir) و - گاب (Gab) او - گا - Ga -

(*) سفيري Sefire

وقد ادت التقاليد الآرامية الى حذف حرف العلة فكانت (برگ Brg)
ومما لا شك فيه ان اللفظ المهموس يمثل الحرف - a - الذي تدعو اليه
الحاجة لغرض التلفظ ، واخيرا فان المقطع - إب - - yb - يمثل الترجمة
الحرفية الآرامية للعنصر الالهي الذي يقوم مقام - اشور - وهكذا فقد
اخفي بطريقة متشابهة الاسم الخاص بالعاهل واسم بلاده واصبح الاسمان
في منأى عن اي تدنيس قد يهدد من يحملهما . وهذا مثال اخر من ابتداع
الكتاب الذين ازدهرت تقاليدهم في مدارسهم ليس في بلاد اشور وحدها
ولكن فيما وراء حدودها ، وذلك في الوقت الذي بدأ فيه هوى البلاد يتعد
عن الاشوريين وبخاصة عن الكتابة المسارية ولصالح الكتابة الآرامية .

وهناك طريقة ثالثة للتلاعب بالكلمات التي يراد لها ان تبقى سرا .
وتتمثل هذه الطريقة في القراءة العكسية للكلمات ، اي من الخلف الى الامام ،
وتجري القراءة اما حرفا حرفا ، واما مقطعا فمقطعا . ونتيجة لهذه الطريقة
ابدى (ف . شاييل (V. Scheil) اقتراحا قال فيه ان الاسم الحقيقي للملك
المجوسي - غاسبار - Gaspar - هو - راسباغ - وهو اسم مكتب كبير
الساقين في البلاط الفارسي .

يمكن قراءة العناصر السومرية للاسم - سين - ابتداء من الخلف ،
وهذا يعني ان الاسم - إزرو - يقلب اولاً الى - زوان - ثم الى
- سين - وبنفس الطريقة نقول عن كالم لو - الرجل العظيم - ومعكوسها
- لو كالم - الملك .

الرموز الاشورية

كل دين كان يمثل الهته واعمالهم بعبارات مادية قد صورهم كذلك في صفة تصويرية مستقرة ووفقا لذلك اضيفت على الالهة المتنوعين صفات بدنية ومعنوية ثابتة . وبالطبع فان السبب الرئيسي لذلك هو انه عند وصف الاله باصطلاحات مقبولة فان هذا الوصف ملزم بان يتطابق مع نمط فريد . وفي الوقت الذي تصمم فيه تماثيل الالهة لفائدة عموم المؤمنين بها فانها يجب ان تكون ثابتة الشكل لكي يمكن معرفتها . وامتزجت عادة وضع علامة متميزة مع هذه التماثيل أو بعضا من توابعها بالاضافة الى ان هذه التماثيل نفسها كانت تخلق نوعا من الرموز التي تقرب التمثال وتضعه في ذهن الناظر ، حتى ولو كان هذا التمثال قد صور تصويرا غامضا .

كانت هذه عادة سكان ما بين النهرين الذين صنعوا التماثيل بالحجم الطبيعي . وسنبعث المدي الذي بلغته رموزهم في تمثيل الالهة . ولكن العلاقة الشديدة القائمة بين السماء والارض كانت تعني ان كل جسم مخلوق لا بد ان ينتمي الى احد الالهة ، وان كل اداة وكل جسم وكل عنصر يستخدم عند الاحتفال ، له تفسيره الخاص به . علينا الا نوهن من هذا اذا ما تذكرنا ان مثل هذه العلاقات لا زالت حية في علم التنجيم الذي ما زال له العديد من الذين كرسوا انفسهم له .

وهكذا ووفقا لمصطلحات علم التنجيم الحديث يعتبر المشتري سيارا مذكرا وحارا وفاعل خير ، وهو يمث فكرة العدل والدين كما انه مسؤول عن الناس طوال القامة وبصورة خاصة ذوي الشعر الاحمر المائل الى السمرة (الاصفر) . واما بالنسبة للمهنة فانه يتعامل مع القضاة واصحاب الاعمال العامة ورجال الكنيسة . وهو على علاقة بامراض الكبد وخفقان القلب . وبنفس الطريقة فان - الكيش - علامة اصلية من علامات برج الحمل في

السماء ، وهو مذكر ومرتبط بالنار ، ومسؤول عن الاشخاص الصريحين المستقلين والمتبسطين ، وهم ذوو الشعر الاسمر والقامات المربوعة ، كما انه يتحكم في الرأس والوجه والامراض التي تصيبها • وهو على علاقة خاصة ببلدان انكلترا والمانيا والدانمارك وفلسطين وسوريا ومدن نابولي بوفلورنسا (في ايطاليا) ولونه احمر ويومه الثلاثاء واما حجارته فهي نوع من الياقوت الازرق • وهكذا بالنسبة لبقية الكواكب السيارة والعلامات الموجودة في منطقة البروج في السماء •

وأمن سكان العراق القدماء يمثل هذه فذلك اعتبروها ذات اهمية كبرى بالنسبة لاحتفالاتهم ، وهم يريدون منا الا نعتبرها مجرد شعوذة لا معنى لها ، وعلى النقيض من هذا الظن فان كل امر مفصل كان موضع كثير من التفكير ، وكانت صفاته تحدد تحديدا دقيقا ، تساعد المؤمن بها على ان يستكشف عالما جديدا كاملا اثناء ادائه مراسيم الاحتفال •

تلقي بعض الالواح والتي تعرف باسم - التعليقات - الاضواء على هذه الرموز ، ونحن لا نريد ان نشغل انفسنا بها جميعا ولكن سنقتصر على بعض الامثلة زيادة في التوضيح •

اننا نعرف ان وعاء الماء المقدس (اغابو) يرمز الى ملكة التعاويذ ، اي شجرة الطرفاء ، و - انو - ، الى اكليل النخلة و - تموز - الى القصب ، وننورتا الى شجرة الارز ، و - ادد - الى الفضة وهي (القمر) ، والذهب هو الشمس ، والنحاس هو - ايا - والرصاص هو نينماه ، والمجرة هي الآله - أوراس - والشملة هي كيبيل والجبس هي ننورتا • واما العاصفة فترمز الى السلاح ذي الرؤوس السبعة لشجرة الغار ، والشيء بالشيء يذكر فان الخرافات لا تزال تعتبر شجرة الغار ابعد من ان يصيها البرق •

وعند قراءة التعاويذ فان انواعا عديدة من الاشكال توصف بانها الصور

والصلب وركبة المريض • ولعله من غير المفيد التعمق في هذا الموضوع ولكن من الممكن ان تتصور انه عند سكب الماء المقدس للحصول على المطر من آله الخصوبة العظيم ، فان استعمال اثناء الشراب - اغابو - مع وضع قطعة من شجرة الطرفاء أو جذع النخل في الاناء النحاسي الذي سيسكب فيه الماء المقدس ، كل هذه الاعمال تتطلب حضور الالهة التي من اجلها. تحدث هذه الاعمال وهكذا تصبح صلاة المؤمن اكثر فعالية وجدوى •

المعرفة

الكتابة ، تربية وتعليم الكاتب

تقدم الكتابة في العراق القديم ميدانا شيقا للدراسة اذ ان عددا كبيرا غير مألوف من الوثائق المكتوبة ما تزال موجودة ، كما تمس الكتابة الحياة اليومية في جميع تقاطعها . اما تعقيد هذه الكتابة وصعوبتها ، والتي هي اكبر بكثير من التعقيدات والصعوبات الموجودة في النقوش الفريية ، فانها تعني ان الكتابة من الاعمال الفكرية المقتصرة على جماعة معينة وبخاصة طبقة الكتبة الذين يتحملون مسؤولية المحافظة على المعرفة ونشرها والذين كانوا يرتبطون من قريب أو بعيد بالكهانة ، حيث يمكن الحصول على الكتاب من كل الطبقات الاجتماعية . ولكن هناك حقيقة تقول انه كان من بينهم ابناء واقارب لحكام المدن والامراء .

والواقع انه لم تتوفر لنا صورة كاملة تظهر لنا ما كان عليه الكتاب العراقيون القدماء ، كذلك التي يرسمها الكاتب المصري نقلا عن زملائه . ومع ذلك فنحن نقول ان المهنة كانت صعبة بلا شك ، وكان من العسير ان تتقن وانها كانت تتطلب دراسات طويلة . والحقيقة ان هناك مثلا يقبول ان على الكاتب الذي يريد الكتابة ان ينهض مع الشمس . لقد كان الكاتب المؤهل يلقي الاحترام الشديد . واذا اردنا ان نبث عن المعنى الخفي في المثل السابق فانا نقول ان الكاتب الذي له مهارة معترف بها يشرق كالشمس يقول احد سجلات اشور بانبيال منح اذنين عظيمتين (اي ذكاء شديدا) من قبل - نبو - وقرنته (قاشميت) .

ويبدو ان الاشوريين كانوا يساوون الذكاء بالذاكرة ، وقد مكن هذا الذكاء اشور بانبيال من ان يعرف ويتقن علامات الكتابة المسمارية .

(يستعمل الكاتب في تعبيره عن هذه العلامات نفس الكلمة التي يستعملها لوصف الترقيش على جلد النمر) • لقد كان هناك العديد من المتطلعين الى مثل هذه المهنة التي تثير الحسد ، ولم تخل المهنة من كاتبات كن يزاولنها • ولاسباب ستظهر حالا كان الكتاب يتخصصون في احد الفروع المتنوعة كالمعابد والاعمال التجارية والجيش والطب ، والكهانة ، وكان هؤلاء المتخصصون يبدأون دراساتهم في سن مبكرة •

تكاد الحفريات تكشف في الغالب من بين محتوياتها كالمعابد ، عن الواح تضم تمارين كتابية مارسها الاطفال وقد وجدت مثل هذه الالواح في — سيار — و — ماري — (تل الحريري) حيث كشف عن مدرسة حقيقية يدرس فيها الكتاب الصغار • وكانت المدرسة تتألف من غرفة متوسطة الحجم ذات مقاعد طينية ثابتة ، وعدد من الاواني الفخارية الكبيرة والتي سنترف عليها فيما بعد (٢٦) • كان على التلاميذ في هذه المدرسة ان يرددوا العبارات التي صيغت لهم من قبل ، كما كان عليهم ان يستسخوها عن جملة نموذجية مكتوبة في اعلى لوحهم ، في حين يستمرون في الاستظهار التدريجي لتعايير مختلفة ترتبط بالعمل الذي يتخصصون فيه • كانت المعرفة تتألف في القدرة على الاتاج ، ودون تنبيه ، في عبارات معينة ومناسبة لموقف معين وكذلك مع اتقان هذه العبارات اتقاناً يجعلهم قادرين على ربط هذه العبارات مع بعضها بشكل مستقيم • وكان لكل حقل ادبي مفرداته الخاصة به • وكان الكاتب يعتبر جيداً اذا ما اتقن معرفته جيداً • وهذا يتطلب منه الذاكرة وليس الفكر الاصيل • وكان الشيء الذي يسأل عنه هو تنظيم المعلومات التي يحملها في دماغه تنظيمًا صحيحًا •

(٢٦) للحصول على وصف مفصل معزز بالصور انظر المقالة العنونة « اقدم مدرسة في العالم » نشرت في الملحق الادبي لجريدة التايمس اللندنية في اعداد الصادر في ٣١ تشرين اول سنة ١٩٥٢

قد نجد الامر صعبا عندما نواجه باعمال فنية كالنقوش قليلة البروز .
وسبب ذلك هو اننا قد لا نعرف يد اي فنان ساهمت في صنع مثل هذه.
الاعمال . ويصدق نفس القول ، بصورة متساوية ، على الوثائق المكتوبة .
ومما لا شك فيه انه ما من كاتب يسلم باصالة يمكن ان تعتبر في غير مكانها .
ان هذا يوضح لنا لماذا كان على الكتاب ان يتخصصوا . ذلك لانهم وان
كانوا سيتفوقون بصورة ممتازة في حقل محدود من المعرفة الا انهم
سيكونون قليلي الفائدة اذا ما اصبحوا « ذوي سبع صنائع » .
كانت المدارس التدريبية موجودة دائما في البنايات الملحقة بالمعابد .
وفي العهد البابلي الحديث نجد ان الكتاب (والاسم المعتاد لهم هو توبشار
Tupshar ومعناه من يكتب على اللوح) كانوا يوصفون في العقود
بكلمة — شانگو — Shangu ومعناها الكاهن (*) .

لن نكون مبالغين في الخطأ اذا ما فكرنا بوجود صف من الكتاب
يبدو وكأنه مدرسة يداوم فيها الطلاب . ويمثل هؤلاء الطلاب كتبة تحت
التدريب وهم يجلسون على مقاعد ويتلقون من استاذهم لوحا دوت عليه
جملة يستظهرونها ويستنسخونها في وقت معا . اما التمارين المعطاة لهم
فكانت على العموم منقوشة فوق لوح محدب قليلا . وهذا يفسر لنا سبب
وجود احواض الماء الصغيرة القابلة للنقل والموضوعة بين المقاعد . وتحفظ
في هذه الاحواض كميات ضرورية من الطين الذي يعجن ويكيف حسب
الطلب .

وفي العهد الاشوري الحديث ، كانت وثائق العقود مستطيلة الشكل
بصفة عامة وكان عرضها اكبر من عرض اللوح المستعملة في الرسائل
العادية ، والتي يكون احد وجوه الواحها محدبا قليلا كالوسادة الصغيرة .

(*) هذه الكلمة البابلية مأخوذة عن الكلمة السومرية سانغا
وتعني الكاهن أيضا .

الكتابة المسمارية - صورة من المتحف البريطاني

اما اللوح التي استعملت في الامور المتعلقة بالمعابد فقد كانت اكبر حجما قليلا من اللوح السالفة . وكانت الطريقة الواقعية التي اتبعها الكاتب تتمثل في ان يأخذ الكاتب اداة الكتابة (وهي عادة وبكل بساطة قطعة من القصب) تكون احدى نهايتها مقطوعة قطعاً مائلاً يشبه القطع الموجود على فوهة الناي . ووظيفة هذه الاداة ليس لتتبع العلامات بل لرسمها على اللوح . وعند الكتابة تبسط نهاية الاداة قليلا أو كثيرا على الطين ، وتصاغ الرموز بواسطة سلسلة من الضربات الخفيفة ، ومن نتيجة هذه الضربات تتكون ذيول ذات اطوال متباينة ، ويتوقف ذلك على الزاوية التي يمسك بها الكاتب الاداة وهذا هو السبب الذي يجعل الرموز تشبه المسامير ، ومن اجله سميت الكتابة بالكتابة المسمارية .

بعد الانتهاء من كتابة اللوح يترك ليجف . وكان مثل هذا اللوح عرضة لان يتهشم ولاجل اطالة عمره بصورة غير محدودة فانه يشوى في تنور فيتحول الى طابوقة صغيرة قادرة على تحمل عواذي الزمن والرطوبة ولا تتحطم الا اذا ضربت ضربا شديدا .

ان كل من يجرب الكتابة بواسطة المرقم(*) على الواح الطين سوف يكتشف ان كتابة اي شخص تشبه كتابة الشخص الاخر ، وان ليس

(*) هو القلم الذي تكون احدى نهايته مستدقة .

للبيصمات الاسفينية اية خاصة فردية • كانت الوسيلة التي تتبع انذاك للاطمئنان على سلامة النصوص المكتوبة ، وحفظها من التلف ، هي في ان توضع الرسالة أو العقد في داخل غلاف طيني دقيق كان يؤدي خدمة تشبه الخدمة التي تؤديها اغلفة أو ظروف الرسائل الحديثة • واما عن الرسالة فان عنوان المرسل اليه كان يكتب انذاك خارج الرسالة ، اي على الغلاف ويفتم بختم المرسل • واما العقود فانها كانت تختتم باختام الشهود مع وجود نبذة من النص على الغلاف واذا كان الغلاف غير مكسور فان الرسالة والعقد لا يصيهما التلف •

اما الوثائق المطولة قليلا والتي تتطلب بضعة الواح فانها كانت ، بعد ان تكمل كتابتها ، توضع فوق رفوف مسننة ، وتنقش الكلمات الاولى من النصوص على حوافي الالواح • وهذه الطريقة تشبه الطريقة الحديثة المتبعة في تنظيم المناشير البابوية حسب كلماتها الافتتاحية •

لم يكن الخط المسماري ، في الحقيقة ، اكثر من اشكال اسفينية وخطوط • وهو ، بلا شك ، من اكثر الخطوط استعمالا في الزمن القديم • فقد استعمل ، على الرغم من بعض التباينات ، في البقاع الممتدة من اواسط آسيا الصغرى حتى بلاد فارس ، اما الكتابة المصرية ، أو على الاقل شكلها الهيروغليفي ، فانها عانت شيئا من التغير عبر التاريخ ، وكان هذا التغير يميل دائما باتجاه الخط الاشعاعي المبسط ، ثم اصبح ، بعد وقت مناسب ، يؤلف نوعين من الخطوط : اولهما الخط الخاص بالكهنة ، وثانيهما الخط الخاص بعامة الشعب أو - الخط الديموطي •

أما الخط المسماري فانه كان يستعمل في مساحة محددة ، الا انه ما ان يثبت ويستقر حتى تختفي منه التباينات ولو انه كان قبلا عرضة لكثير من التغيرات الواسعة •

تطور الكتابة

حلت الغاز الكتابة الاشورية قبل مائة عام تقريبا وبعد ذلك بعشرين أو ثلاثين سنة ظهر نوع من الشك سببه الرأي القائل ان الخط الاشوري سليل منحط لنوع معين من الخطوط التي تختلف عنه كلية والذي يشبه الى حد معين الخطين المصري والصيني .

وكان هذا الخط نفسه قد عانى هو الآخر تغيرا جذريا عن شكله السوري . لقد تعزز هذا الرأي عند اكتشاف عدد قليل من اللوحات التي اوحى بان بعض العلامات كانت لها اشكال مختلفة تماما ، وذلك في فترة اسبق .

وظلت الامور على هذا الحال الى قبل عشرين سنة(*) حين مكن اكتشاف عدد من الوثائق من اقرار مشكلة اصل هذه الكتابة .

لقد ظلت حضارة بلاد بين النهرين ولعهد طويل امتد انى ما لا يقل عن الف عام ، تجهل الكتابة واستعمال المعادن(٢٧) . ويعرف هذا العصر باسم - عصر العبيد - وتقع نهايته في عام ٣٤٠٠ ق م ، وبالرغم من ان فن الكتابة لم يكن معروفا بعد الا ان اسس هذا الفن قد ارسيت في المقاطع الصورية المعبرة عن الافكار . وقد امكن الحصول من مقابر - سوسة - والتي تعود الى عصر العبيد على فخاريات ذات زخارف سود مرسومة فوق ارضية خضراء مصغرة . ويبدو ان الرسوم ثمة جهد كبير ، ويوحى تطورها بان

(*) بالنسبة الى الوقت الذي نشر فيه هذا الكتاب باللغة الفرنسية وذلك سنة ١٩٥٤

(٢٧) تشير الدلائل المتوفرة في الوقت الحاضر الى ان استعمال المعادن كان معروفا في ذلك العهد وان لم يكن شائما .

هناك صلة مع ماض بعيد الغور ، اما مواضيع الرسوم فمأخوذة من اوساط الحيوانات ، وقد ادت الجهود التي بذلها الفنان لانتاج هذه الاشكال الى معالجتها على اسس هندسية ، ويمكن اثبات هذا من وجود كل مرحلة متوسطة بين الامثلة الاحتياطية . خذ مثلا افريرا من الطيور المائية فنجد في المرحلة الاولى ان الاقدام غير موجودة ، وان الرقاب مشرأة بشكل يجعلها تبدو وكأنها نوطات موسيقية . اما في المرحلة الثانية فان الفنان يجرد الجسم ولا يترك شيئا الا مجموعة من الخطوط العمودية (الرقبة) المنتهية بما يشبه المنقار .

اما الوعول فانها ترقق الى درجة تجعلها مجرد مثلثين متلاحقين . ويبدو الرأس والذنب مجرد زوائد غريبة . كما ان القرون قد كبرت بصورة غير متناسبة ، اذ جعلت في شكل دائرة فخمة على رأس الحيوان وغالبا ما كانت هذه الدائرة تحتوي على دائرة اصغر منها ، او على مربع .

ويضم هذان الشكلان بدورهما شكلا مختلفا للتصاميم . فتارة سلسلة من الخطوط المتوجة ، وتارة اغصان مورقة . ويتوضح معنى هذه الزخرفة من الفخارية موضوعة البحث والتي يراد منها ان تحفظ الطعام والشراب في الحياة الاخرى .

وجدير بالذكر ان المصريين كانوا يرسمون مشاهد من حياة الانسان الميت . وهم قد فعلوا ذلك في القبور من العهد المبكرة وعلى دكاك دفن الموتى ، وكان الهدف من هذه المشاهد هو ان يعيشها الميت وانه قد يتغذى على حصاده . اما سكان - سوسة - والذين كانت قبورهم تحفر مباشرة في الارض ولا تبقي مجالا للرسم ، فانهم كانوا يرسمون مثل هذه المشاهد ولكن بصورة مختصرة ، على اسطح الزهريات وكانوا يعتقدون انهم بهذه الوسيلة يمكنون الموتى من ان يتغذوا على الطيور المائية التي اصطادوها

واخذوها (ويضمن اسر هذه الطيور بعملية رسمها على فخارياتهم * انظر ما سبق في هذا الفصل *) كما انهم سيتمكنون من اصطياد الوعول والامسالك بها من ذقونها (وهذا ما يشير اليه الفصن داخل دائرة القرون) ويكون الصيد في الارض المنبسطة او عند المورد ، (وهذا ما يشير اليه شكل المربعات والخطوط المتوجة والتي هي رمز الماء ، وهذه اقدم طريقة اتبعها المصريون وكذلك العراقيون القدماء في الرمز الى الماء) *

قد لا يمكن اعتبار هذه الرسوم كتابة بل انها تمثل نوعا من المرحلة التمهيدية المبكرة والتي استعمل فيها التصوير للتعبير عن الافكار بواسطة الصور . ويبدو ان هناك تماثلا مع التصوير الادبي الصيني . واذا ما نظرنا الى الامر بمعزل عن غيره فان هذه الطريقة لا تبدو تعبيرية بصورة جيدة على الرغم من وجود جدول مائي وشجرة مزهرة وسحاب وواحد أو اثنين من الطيور المائية . ولكن العادة جرت على اعتبار ان كل صورة من المجموعة لها معنى عميق يقود الناظر الى ابعاد مما يرى . فنحن نجد مثلا ان انواع الاشجار تمثل الربيع ، كما ان الطريقة التي رسمت بها السحب تحمل معنى مرور العاصفة ، اما الطيور فتشير الى وقت النهار . وهكذا يمتد عالم كامل من وراء المظهر الشكلي ، ويعاد خلق الكون بواسطة الخيال . ولم يكن عمل الرسام اكثر من ان يلمح اليها *

وزيادة على ذلك فان هذا المفهوم عن التصوير كتمهيد للكتابة يتناسب تماما مع ما نستطيع ان نتعلمه من النصب التذكارية القديمة والمعاصرة والتي تكشف عن نفس الخصائص التي تكشف عنها الرموز المكتوبة وهكذا فاننا نجد في نصب (اطلق عليه اسم القاعدة الدائرية محفوظة في متحف اللوفر) ان الابهام يظهر طويلا طويلا غير متناسب وهو يتجه الى الورااء (وتظهر الالواح الصدفية التي اكتشفت في كيش) القدم مقوسا تقوسا

مبالغا فيه ، وتتجه الاصابع الى اعلى ، ولا تظهر حظيرة الغنم ، المرسومة عليها ، والمحفورة ، نفس الصورة المظلة التي تشبه الجرس ، وذلك اذا ما نظر اليها من الجانب القصير الذي يضم المدخل ، ويظهر في هذه الحظيرة العمود الاوسط لها والمؤلف من مجموعة من القصب .

اما في العهد اللاحق فنجد ان هناك كتابة في الحضارة المعروفة باسم حضارة - الوركاء - (حوالي ٣٤٠٠ - ٣٣٠٠ ق م) وهي معاصرة لاستعمال الاختام والمعادن ؛ ولم يكن الخط في اول اطواره اكثر من وسيلة حسائية تستخدم بعض العلامات لتظهر العدد المشمول في العملية بجانب الاجسام التي كان رسمها مبسطا . وبكلمة اخرى فانا نقول ان ذلك الخط كان كتابة صورية حقيقية . واذ كان من السهل التعرف على بعض الاجسام الا ان هناك اجساما اخرى تخلق مشكلة صعبة جدا ، ويمكننا ان نفهم هذا بسهولة ما دام ان كل جنس يتطلب علامة منفصلة . وبناءا على ذلك فان العديد من السوائل المختلفة تتطلب ادوات مختلفة كاتوانع الاواني التي يسهل تمييزها ، وقد اكتشفت (٦٢٠) لوحة من هذا العصر وهي تكشف عما مجموعه (٨٩١) علامة مختلفة .

يعرف العهد الذي تلا العهد السابق ذكره باسم - عصر جمدة نصر - وقد دام حتى عام ٣٠٠٠ ق م . وهو لا يتميز الا بظهور نوع جديد من الفخاريات وما عدا ذلك فانه يمثل تطورا طبيعيا للعصر السابق ليس الا . وتوقفت في هذا العصر عملية ازدياد العلامات ، وقد بلغ عددها - ٤٣٧ - علامة ، ويعرف العصر الذي جاء بعد العصر المذكور باسم - عصر فجر السلالات المبكر - وقد شهد هذا العصر عملية الاختبار في العمل ، ومع ان الكتبة لم يقللوا من عدد العلامات حقا ، الا ان البعض منها كان يستعمل بصورة مستمرة . وامكن الوصول بعد ذلك الى درجة اكتفي عندها بثلاثمائة علامة ، واعتبر هذا العدد كافيا لقراءة النص العادي .

يشير هذا العذر بالرغم من ضخامته الى انقاص لا بأس به في عدد
علامات عصر الوركاء البالغ عددها تسعمائة علامة .

لا نعرف المبادئ التي كان سكان العراق القدماء يصنفون بموجبها
لوائح ابجديتهم . ولكن يبدو انه كان لكل علامة اسمها الخاص بها والذي
قد يشكل احيانا احد معانيها ، وبالرغم من ان الاسم كان غالبا ما يشير
الى خاصية من خصائص العلامة نفسها . مثال ذلك ان العلامة - مو -
- Mu - تتألف من اسفين اقصي متبوعة بمجموعة من اربع خطوط قصيرة ،
في حين نجد ان العلامة - زير - - Zer - متماثلة الا انها تنتهي بثلاثة
خطوط قصيرة تعرف باسم - موفير المنتهية - .

من الكتابة المصورة الى الكتابة المقطعية

لاقى هذا التبديل عونا كبيرا من التغير الاساسي في الكتابة . وكما قلنا فان العلامة كانت تمثل في الاصل شيئا واحدا . ولم تكن هناك طريقة للتعبير عن الافعال والصفات والضمائر وتصريفات الاسماء ، كما لم تكن هناك امكانية لانجاز مثل هذه الامور دون وجود نوع من الاتفاق العام بين الكتبة الذين كان بإمكانهم اضافة معاني ثانوية الى العلامات . فمثلا اذا ما تصورنا ان الكتابة الحديثة تتألف من صور لاجسام معينة ، وان صورة الحصان كانت تقرأ - حصان - فان الصورة اياها يمكن ان تعطي معنى - السرعة - في الحركة أو في السفر أو المسافة التي يشملها السفر . ولا تطرح هذه الافكار نفسها بصورة مباشرة ، كما ان معانيها لا تتوضح مباشرة بصورة الحصان التي سيكون معناها الاولي عاملا للمفهوم البسيط عن الحصان . ويتوقف كل شيء على تقبل المعاني الاخرى التي تحملها العلامات ، وهذا ما يجعل الكتابة بعيدة عن تناول كل انسان ، ويحولها الى امتياز خاص بطبقة واحدة هي طبقة الكتاب . وهذا بحد ذاته لا يفي بالدرجة المطلوبة ، اذ ليست الكتابة بهذا المعنى الا مجرد مفردات لتعابير وافكار لا يمكن استعمالها . وهذه هي النقطة التي تحولت عندها الكتابة من الشكل الصوري الى الشكل المقطعي ، واما بالنسبة لنا فنحن قد الفنا الكلمات التي يمكن أن تفرق الى مقاطع ثم حروف . وتبدو العملية طبيعية . ولكن اكتشاف ذلك لم يكن بالامر اليسير الذي امكن العثور عليه يسر .

وما ان تم استيعاب المبدأ حتى سارع الكتاب الى تكوين فكرة عن اعطاء كل علامة قيمة (معنى) المقطع الاول للكلمة التي تمثلها هذه

العلامة • فمثلا نجد ان العلامة الخاصة بالحصان تكون لها قيمة المقطع الاول منها وهو (حصا) • اما علامات الكلمات الاخر التي تبدأ بذات المقطع من امثال (حصاة) أو « حصاد » فان لها ذات القيمة •

وتنتيجة لذلك فان علامة أو رمز مفرد يمكن ان يكون له أو لها ، في هذه المرحلة ، عدة معاني ؛ وعلى تقيض هذا فيجوز ان معنى واحدا يمكن ان يكون له عدد من العلامات • وهكذا اصبحت المجموعة باكملها من اختصاص الخبراء ، وتحولت الى مهارة علمية راقية وشديدة التعقيد ، الى درجة ان الرجل العادي لا يمكن ان يدركها • ولو حلت المقاطع الى الحروف التي تكونها لكان الموقف سليما •

وفي الحقيقة اتخذ المصريون هذه الخطوة ولكن بما انهم لم يشملوا بهذه الخطوة بقية المجموعة في نفس الوقت ، والتي كانت انذاك فائضة ، فقد نجحوا ليس الا في اضافة مزيد من التعقيد الى كتابتهم • اما سكان العراق القدماء فانهم لم يذهبوا ، من جانبهم الى ابعاد من عزل حروف العلة • فكانت النتيجة ان مثلت العلامات المتماثلة في الكتابة العراقية القديمة في شكل اجسام وافكار واحيانا مقاطع بل وحتى حروف • وعلى العكس من ذلك فانه يجوز ان يكون لكل علامة عدد من المعاني والقيم ممثلة في الاجسام والمقاطع والحروف ، وغالبا ما كان ذلك يتسبب في مضاعفة قيم العلامات الاخرى •

اما وقد تحدثنا بما فيه الكفاية عما تعنيه العلامات فان علينا ان ندرك انها لم تحافظ على شكلها البدائي • ولقد بحثنا فن الكتابة الحقيقي في الفقرات التي اتت على ذكر مدارس اعداد كتاب العلامات • لقد بدأ الكاتب يدرك ان اية خطوة لرسم اي جسم على سطح من الطين الطري بواسطة المرقم ستكون غير دقيقة طالما ان أي ضغط لرسم خط منحني

سوف يتعرض لأن يكون مصحوبا بصدوع تشوه الشكل العام للخط وذلك اذا كان هذا المنحني اعق من الخدش الواهي . ويسرع الكاتب الى ان يرى ان الطريق الوحيد للتغلب على هذه الصعوبة هو في ان يضغط رأس القلم على لوح الطين لطبع العلامة وليس لرسمها ، وهذا يعني ان المنحنيات تتحول الى خطوط متقطعة . ونتيجة لذلك اصبحت الكتابة خطية ، واكتسبت بالتدريج الصفة المسارية . كانت العملية بطيئة وظلت تتطور في اثناء استمرار الكتابة العراقية القديمة . وآخر ما لدينا من نماذج ترجع في تاريخها الى بداية العصر المسيحي .

كان الخط المساري يكتب ، اصلا ، من اعلى الى اسفل بشكل اعمدة متوازية ، ومن اليمين الى اليسار . وغالبا ما كانت يد الكاتب تشوه أو تسمح الاعمدة السابقة . وبناء على ذلك اصبح طبيعيا ان يدار اللوح بزاوية قائمة الى اليسار ، وان تكتب العلامات بصورة افقية ؛ ثم صارت الكتابة تقرأ كما تكتب ، اي بشكل اسطر افقية تجري من اعلى الى اسفل اللوح ، وتكمل قراءتها على التوالي من اليسار الى اليمين . وكانت النتيجة ان ظلت اللغتان الاكدية والعبثية هما الوحيدتان بين اللغات السامية اللتان تقرأن بنفس الطريقة التي تقرأ بها اللغات الاوربية ، وهذا يعني بالطبع انه لكي تكتشف الشكل الاصلي للعلامة لابد ان تدور اللوح بزاوية قائمة الى اليمين ، وهكذا تعيد العلامات الى وضعها الاصلي .

وبمرور الزمن عانت الكتابة ، التي صارت الان مسارية حقا ، مزيدا من التحويرات الهامة ، كما انها كانت تعرف باسم الكتابة الاكدية في اثناء العصر الذي سبق تقسيم بلاد بين النهرين الى مملكتين منفصلتين . وعندما وقع هذا التقسيم نشأت وتطورت بصورة تدريجية بعض الفروق بين الكتبتين الاشورية والبابلية على التوالي . فلقد مالت الكتابة الاشورية الى

اطالة وزيادة العلامات الالفية ، في حين اظهرت الكتابة البابلية ميلا نحو
ابقاء علاماتها بشكل اشربة تشبه الرقم ٧ أو ٨ .

لقد توضح قوة تأثير حضارة بين النهرين على سكان آسيا الغربية ،
من خلال الطريقة التي استمار بها جيران هذه البلاد خطها اذ تبناه الحثيون
والميتانيون بسرعة ، في حين تقبل الملاميون مبادئه ولكنهم اصطفوا لانفسهم
الخط الخاص بهم والذي كان يحوي على بعض الفروق الكبيرة . بعد
ذلك استخدم الفينيقيون الشماليون والفرس الاخمينيون خطا قام على
اسس مختلفة ، بالرغم من انه كان مسماريا . وتعود هذه الفروق بصورة
صميمة الى تاريخ الالفية .

فك الرموز

كان فك رموز هذا الخط أو هذه الكتابة امرا بالغ الصعوبة • ففي البداية لم يستطع احد ، بعد ان جوبه بلغة غير معروفة مكتوبة بخط غير معروف ، ان يدرك وجود اي حل ما عدا وجود نقوش مكتوبة بلغتين. احدهما معروفة والاخرى مجهولة • وحدث مثل هذا عند قراءة الكتابة المصرية بعد الاستعانة بكتابة يونانية موازية ؛ ولم تأت الجهود التي بذلت في اوقات مبكرة بشيء يزيد على كشف معاني بعض العلامات وذلك عندما تم العثور على كتابات منقوشة ليس بلغتين ولكن بثلاث لغات •

لقد تنبه السير هنري رولنسون في احدى حملاته ، الى وجود نقوش ضخمة محفورة على وجه صخرة على الطريق بين كرمشاه وهمدان وقد تبين ان تلك النقوش تمثل وصف دارا لوقائع اعادة فتح بلاده واتصافه على رعاياه المتمردين والمطالبين بالعرش • ولم تكن هذه الوقائع معروفة حتى ذلك الوقت • كانت الوقائع في شكل ملحمة طويلة ذات ثلاثة اقسام • وكانت علامات القسمين الاولين معقدة ، وفيها الكثير من التباين ، في حين كان القسم الثالث مبسطا ويكثر فيه التكرار •

انهك الباحثون في قراءة القسم الثالث وفك اسرار رموزه • ووجد احتمال يقول ان اكتشاف النقوش في بلاد فارس يوحي بان لغة هذه النقوش فارسية كما ظهر شيء من التماثل مع الافيستا والزنده المكتوبين بهذه اللغة (٢٨) •

وزيادة على ذلك فان تشابه بعض العلامات التي تتكرر في البداية نوحى باحتمال كون هذه الكتابة المنقوشة مرسوم ملكي • ومن الكلمات المكررة نجد (الملك ، بن •••) ومن المحتمل ان تمثل الكلمات المتداخلة

(٢٨) الافيستا ، هي الكتب الفارسية التي تحتوي على الاعمال المنسوبة الى زرادشت ، اما الزنده فانه من اقدم المخطوطات الفارسية •

أسماء أشهر ملوك الأخمينيين • لقد كانت معالجة المشكلة سليمة • وبعد
العديد من البدايات الفاشلة تبسّطت المهمة بوجود علامة تدلّ على وجود
الفواصل بين الكلمات فتمت السيطرة على النص وشخص على أساس أنه
نص فارسي قديم

وفي عام ١٨٦٢ نشر — ف. شبيگل F. Spiegel كتاباً يضم
قواعد ونصوص وترجمات ومفردات اللغة المكتشفة حديثاً • وأخيراً حصل
الباحثون على ما كانوا يريدون وأعني النقوش المكتوبة بلغة معروفة لتكون
مفتاحاً لنقوش مكتوبة بلغة غير معروفة •

لم يكن بالإمكان الحصول على نتيجة من أحد النقيش المتبقين ،
والذي كتب باللغة المحلية العيلامية ذات الصلة الآشورية والتي كان عدد
قليل من كلماتها معروفاً • أما النقش الثالث فكان بالأكادية وهي لغة
بلاد بين النهرين الشائعة والتي تفرعت إلى البابلية والآشورية ؛ واذ تشير
بساطة وقلة عدد العلامات نسبياً في النقش الأول إلى استعمال الأبجدية فإن
النقش الثالث يوحي بالكتابة المقطعية بسبب من كثرة علاماته المعقدة •
ولقد ذهل الذين فكوا رموز هذه النقوش حين وجدوا أنهم كانوا اثناء
أقدامهم على العمل يواجهون من حين لآخر بعلامات لا يمكن أن ترتبط
بالعلامات السابقة لها واللاحقة ، أي أن تلك العلامات كانت صوراً تمثل
فكرة كاملة لا علاقة لها بالكتابات الأخرى • وبالرغم من كل هذا فقد
عرفت أسرار هذه النقوش وفك رموزها ما عدا بعض النقاط المميّنة
منها • وقد دهش المترجمون أثناء عملهم من التشابه الموجود بين لغة
النقوش وبين اللغتين العربية والعبرية بل وحتى بين اللغات السامية

الآخري • وزيادة على ذلك فإن الحاجة إلى التاموس الذي يحوزنا الآن، جعلت دارسي اللغة الآشورية يحصلون على معرفة بلغات سامية أخرى لكي يكتشفوا في المفردات الآشورية جذرا فعليا يمكنه أن يعطيهم المفتاح الذي كانوا يبحثون عنه ولا زالت هناك بعض المظاهر غير المعروفة في اللغة الآشورية ولكن يمكن استجلاؤها بالرجوع إلى سياقها • وإذا ما بذلت جهود لتبع الكلمة غير المعروفة فإنها ستظهر عاجلا أو آجلا في إحدى الفقرات وسيصبح معناها واضحا •

أن مثل هذا الفك لرموز لغة معينة لا يعني أنه لاقي قبولاً تاماً لا سيما وأن العلامات في هذه اللغة لها قيم مختلفة في مناسبات مختلفة ، أو أنها تارة تمثل مقطعا منفردا وتارة كلمة باجمعا وبصورة متبادلة •

تقرر إجراء اختبار لشرح هذا العلم الجديد بإشراف الجمعية الملكية الآشورية في لندن ، وإعطي للمشاركين نص غير منشور فعمل كل منهم بطريقة الخاصة • وعندما قورنت الترجمات في النهاية وجد أنها متشابهة حقاً ، ما عدا بعض التفاوت البسيط • وكان هذا الاختبار بداية لسيل متواصل من الترجمات ولم يطل الوقت بالترجمين حتى اصطدموا بنصوص مكتوبة بلغة أخرى •

لم يكن بالإمكان تقديم علم الآشوريات دون وجود النصوص المكتوبة بلغتين • وقد اتضح آنذاك أنه ليس من الممكن النظر في حضارة بلاد بين النهرين دون التعمق في معرفة اللغة والذين يتكلمونها • وكانت اللغة السومرية هي اللغة غير المعروفة ، وكانت لغة شعب أنشأ وطور حضارته الخاصة به في الجزء الجنوبي من بلاد بين النهرين وهذه هي الحضارة التي اقتبسها الساميون فيما بعد •

كانت اللغة السومرية لغة مختلفة كلية وذات صفة آسيوية • وقامت

على نفس مبادئها بعض اللهجات التي تختلف عنها ، ولا يزال بإمكاننا ان نجدتها في بلاد القفقاس . لقد جمع العراقيون القدماء وباستمرار ، العدد الكبير من فهارس الكلمات ونظموها بشكل اعمدة متوازية ، وذلك بعد ان واجهوا الاختلافات بين الاكدية والسومرية . لقد كوّن هذا الجمع والتأليف اساس المعرفة الحديثة باللغة . واذ كان الاكديون قد اطلعوا على مدى فضل السومريين الكبير عليهم لكنهم لم يظهروا اي نكران لهذا الفضل . وحتى بعد ان استوعبوا السومريين بصورة تدريجية ، وبعد ان حولوهم الى اقلية سياسية لا يعتد بها ، نراهم يحافظون بكل عناية على التركة التي تسلموها من السومريين . وقد ضمت هذه التركة الدين والقانون والمبادئ الفنية والخط بل وحتى اللغة التي اصبحت - اللغة المقدسة - فهي تشبه في هذه الحالة اللغة اللاتينية التي اصبحت مقدسة في الاقطار الكاثوليكية اليوم .

وحالما امكن اتقان اللغة السومرية صارت مفتاحا لحل تعقيدات الكتابتين الاشورية والبابلية . وكان السومريون قد فعلوا نفس الشيء من قبل والذي فعله الاكديون مؤخرا . لقد كانت لعلاماتهم المكتوبة قيمة الكلمات وقيمة المقاطع التي استعاروها من تلك الكلمات . وما دامت اللغتان مختلفتين فقد كانت الكلمات والمقاطع تقرأ قراءة مختلفة . ولايضاح هذه القضية نرجع الى خطنا الصوري الخيالي فنقول اننا اذا رأينا صورة الحصان فأتنا نقول انه حصان ولكن الفرنسيين يقولون - شغال - وتعني - حصان - ايضا . وليست ثمة حاجة الى الاكثار من الامثلة ، اذ سيتضح ان بعض العلامات سيكون لها العديد من القيم ، اي المعاني ، سواء اكانت سامية ام سومرية . ان كل من يأنس بولوج هذا الميدان سيشعر بالطائنية اذا ما تسرعنا وقلنا ان العديد من هذه القيم نادر ، وان المرء غالبا ما يجد ان عدد قيم كل علامة لا يزيد ثلاثة أو أربعة .

فن الكتابة السرية

لقد كانت طريقت الكتابة معقدة بحد ذاتها ، بالإضافة الى كونها مسألة تدعو الى الدهشة . ولكن الكتاب الاكديين اوصلوها الى درجة عالية عندما راحوا يستعملون فن الكتابة السرية . وقد استخدم هذا النوع من الكتابة بمهارة محيرة ومتناقضة ظاهريا ، وبصورة متعمدة لتشيط همسة من يريد قراءتها . كما ان هذا النوع من الكتابة كان يمارس في مصر ، حيث اجرى السيد (ي . درايتن) دراسة خاصة به .

كانت هناك انواع مختلفة من الكتابة السرية التي كانت تستعمل في ظروف مختلفة ولكن واحدا من اشهر هذه الانواع من الكتابة هو ما اصطلحنا على تسميته باسم (الكتابة السرية الخاصة بدفن الموتى) .

لقد شارك المصريون سكان العراق القدماء في الزعم بأن قول النبيء كان يساوي في الحال فعل او خلق الشيء . وقد اعتادوا ان ينقشوا على قبور موتاهم مفردات النذور التي كانوا يرغبون في ان يتسلمها الموتى . وما دام كل فرد كان قادرا على تحويل قائمة المفردات هذه الى حقيقة بمجرد قراءتها ، لذلك كان يطلب من المارة ان يفعلوا هذا . وبهذه الوسيلة يمكن الحصول على النتيجة المرغوب فيها . وما دامت هذه الرغبة قد عبر عنها باصطلاحات متشابهة في كل قائمة من قوائم الكتابة الخاصة بدفن الموتى فانها ، اي القائمة ، اصبحت مجرد عمل شكلي لم يعد يسترعي انتباهها خاصا . ولوضع الامور في نصابها الصحيح ، خطرت لدى احدهم فكرة لصياغة كلمات كتابة المقابر باصطلاحات غير مألوفة ، اي استخدام الكتابة السرية مع اعطاء الحروف قيما غير مألوفة لكي يدهش المار حين يتطلع ، ولو عرضا ، الى النصب وغرابة الكتابة ، فيضطر الى قراءتها دون ان

يفهمها ، وقد يكرر ذلك في وقت من الاوقات ومهما يكن فان الكتابة
ستقرأ ، وعندئذ يرتاح الميت .

لقد كان هذا احد استعمالات الكتابة السرية . اما ما هو
اكثر شيوعا من الاستعمال فقد كان في كتابة شيء لا يقرأه
الا العارفون بهذه الكتابة . مثال ذلك كتابة الصيغة الخاصة بصناعة
الانواع المختلفة من الزجاج . فوفقا لتلك الحقيقة اصبح كل نوع من العمل
سريا الى حد معين ، وكان مثل هذا العمل يتطلب كفاءات معينة ، ومعرفة
بنوع من الصيغ . كانت الاحتياطات تتخذ لكي لا تصل الصيغة الى ايدي
كل من هب ودب . وهكذا فانا نجد في الحالة الخاصة بصناعة الزجاج
ان الكاتب اعطى للعلامات التي استعملها في الصيغة المكتوبة قيمة غفوية
بدرجة كبيرة . فمثلا بدلا من ان يكتب (ابا - أن) (a-ba-an)
(الصخرة) فانه كتب (خا - بار - أن) (Ha-bar-an) وتبدو هذه
عديمة المعنى لمن ليس عنده مفتاح لهذا اللغز الخاص .

والكتابات الاشورية والبابلية مليئة ليس بهذه الخطوات المضللة عمدا
بل بحالات نجد فيها وجود علامة مكان علامة اخرى في كتابة كتبت على
استعجال ودون عناية . فمن المؤلف مثلا ان نجد في الواح الوصف عدم
اتفاق الاعداد الفردية والمجاميع . ولقد حاول علماء الاشوريات في حالات
معينة ان يقنعوا انفسهم بالقول انه يجب اضافة العلامة التي تظهر بانها ذات
قيمة غير مألوفة الى المعاني المقبولة . ولقد ظهر هذا القول مضللا الى درجة
جعل البعض يحمل ابحاثه ابعد من مجالها ، فابتكر قيما جديدة لما كان في
الحقيقة مجرد اخطاء ارتكبها الكاتب من جانبه . فنحن مثلا اذا ما رأينا
كلمة - Platler - مكتوبة هكذا - Plater - لا نستطيع ان نقول ان
هذه الكلمة تكتب في ظروف معينة كما في الشكل الثاني واما التفسير هو
ان الكاتب لم يتمكن من اعطاء الهجاء الصحيح للكلمة . وكبدأ عام فانه

ما من علامة آشورية لم يعرف عنها الا مثال واحد ، يمكن ان يسلم بإمكانية الوثوق بها ، كما ان كل قيمة جديدة تنتج من استعمال علامة متماثلة تماثلا شديدا مع ما هو متوقع ، يجب ان ينظر اليها على اساس انها مشكوك فيها .

مكتبة آشور بانبيال

يتضح مما مضى انه توجب على الكتاب ان يكرسوا وقتا كثيرا لاتقان مجموعة كبيرة من العلامات التي تفوق عدد علامات لغة المتدربين الصينيين والتي اوجبت على كتابها اتقان علاماتها . ويتضح ايضا انه لم يكن يملك ناصية الكتابة الا القلة ليس الا ، مما جعل من الكتاب عنصرا حيويا في الحياة الفكرية أو التجارية للمجتمع . ولذلك فأننا عندما نجد الملك (اشور بانبيال) يفاخر مثلا بمعرفته التامة بالخط المسماري يكون من الانصاف ان يتهم بالمبالغة اذ ليس لديه الوقت الكافي لاتقان هذا الخط . نعم كان عند الملك ذوق ادبي خالص لا نكره . وهذا هو الذي جعل العاهل الاشوري متحمسا للحفاظ على كل المعرفة في زمانه على الرغم مما عرف من تورطه في اخطاء المباهاة والفضاضة والفضاعة والتخريب الشنيع اثناء حملاته العسكرية . ان هذا الذوق الادبي هو الذي جعل (آشور بانبيال) يبنى مكتبة في قصره حملت اسمه . وأقرارا بالواقع فانه لم يكن الملك الوحيد الذي ادرك فكرة تكوين مجموعة من الألواح التي كان يجب ان تضم كل فروع المعرفة آنذاك . فقد سبقه في ادخال هذه الفكرة الكثيرون ومنهم سرجون الثاني مؤسس السلالة الحاكمة . ولكن عمل (اشور بانبيال) هو الذي اتم المهمة بنجاح ووسع مجالها بطريقة لم يسبق لها مثيل .

تؤلف المكتبة ، بعد ان نقلت الى لندن احد الكنوز الرئيسة في المتحف البريطاني . ولا حاجة بنا الى ان نعيد وصفنا للالواح وكيف جرى حساب

ان اروع قطعة ادبية هي طرفة (الخليفة) وهي بالنسبة لنا تحتوي على فائدة لا تقدر لتمثيلها المبدأ الرسمي عند العراقيين القدماء أثناء العهد الاشوري الحديث وهذا لا يعني ان هذا كان المبدأ الوحيد الشائع . ذلك لأنه ، بضي الوقت ، اقرت العديد من المراكز الدينية مجموعة من المعتقدات ولكن معرفتنا بها متفرقة كما انها اقل تمثيلا للفكر المعاصر من المثال الذي عندنا في مكتبة اشور بانينال وهو ملحمة الخليفة . وغالبا ما تعرف هذه الملحمة باسم (متى*... في السماء) وقد اقتبس هذا العنوان من الكلمتين الاوليتين الافتتاحيتين والموجودتين في الرقيم الاول من رقمها السبعة .

تخبرنا هذه القصة ، وهي كالقصص الاخرى الضاربة في القدم ، انه لم يكن في البداية الا (كاوس) (محيط الماء) مع (ايسو) (الماء الحلو) و (تيامات) (الماء المالح) وفي هذا الوقت لم يكن للمساء في السماء اي اسم ، كما لم يكن أي اسم لأي مكان تحت ولم يعط كذلك أي اسم ، أي لم تتم تسمية اي من الآلهة(*) .

وشرع بعدئذ بتعريف مبادئ الطبيعة وولد لخمو (Lakhamu) وزوجته لхамو (Lakhamu) من ابوين اصليين . ونحن لا نعرف شيئا عنهما . ويمثل لخمو ولхамو مرحلة واحدة حسب في عملية تنظيم العالم التي ما زالت غير كاملة . وقد ولد لهما أطفال وكان أولهم مومو ثم انشأ ثم كيثار الذين يشكلون السموات والارض ، واخيرا الآلهة الثلاثة الذين يقفون على قمة مجمع الآلهة البابلي وهم - آنو - آله السموات ، وانليل رب الهواء (والذي سيصبح رب الارض بعد ذلك) ثم - ايا - آله المياه والهاوية التي تحيط بالعالم وهو من ابناء آنو . ولأسباب وبطرق لا نعرفها تخبرنا الملحمة أن الآلهة الثلاثة وذريتهم يصبحون موضع كراهية مريعة جدا

(*) اي لم تظهر الى حيز الوجود بعد .

عند (آيسو) و (تيامات) (ولعل سبب ذلك انهم يملكون النظام الذي يعاكس الفوضى) ، وقد خطط الآلهان للتخلص من ذريتهما على الرغم من ان المبادرة جاءت من (آيسو) و (مومو) وحين كانت (تيامات) قد استبعدت من هذا المخطط فإن الآلهة الصغار قد حذروا في الوقت المناسب واتخذوا الاجراءات المضادة واستطاع - ايا - بفضل قوته السحرية ان يقهر (آيسو) و (مومو) فيقتل الاول ويسجن الثاني . واشتد حنق تيامات وتجاوز هحدوده فولدت احدى عشر جبارا مرعبا وهم الذين ستستخدمهم في اخضاع خصومها وكان (كنگو) احد هؤلاء الجبارين والذي اصبح زوجا لتيامات . ثم قدر له ان يصبح زعيما ، وأثناء هذه الفترة الطويلة ولد لـ (ايا) ولد وهو (مردوخ) الذي يلعب دورا في الاساطير البابلية ويشبه هذا الدور دور آشور في الاساطير الآشورية ، وقد ولد مردوخ في قاعة الحكم المعروفة باسم (آيسو) . لقد كان مردوخ اعجوبة منذ ولادته . فهو حكيم الحكمة وأكثر الآلهة ثقافة وقد ولد في وسط (آيسو) المقدس . وكان هيكله هائلا ، وبريق عينيهِ ساطعا ، وكان مولده مولدا للرجل القوي . ومنذ اليوم الاول وهو يستطيع ان يلد اطفالا . وأبعاد جسمه غير مناسبة للفهم الانساني وصعبة القياس . . واربعة كانت عيونه . . واربعة كانت آذانه .

عندما كانت « تيامات » في المخاض ، اكتمل نمو جسم مردوخ ولكن بالرغم من ان قوى - ايا - السرية كانت كافية لقهر (آيسو) فلا هو ولا (أنو) كائنا قادرين على مواجهة تيامات . ثم اشترك كل الآلهة ، ما عدا تيامات وجيش كنگو ، في تهيئة القوات ضد تيامات وأتباعها ؛ ويجتمع الآلهة لتستبقي دفاعهم ، ويشربون من اجل تشجيع انفسهم ، ويبالغون في الشراب والموسيقى الجميلة . ويقبل مردوخ اقتراحهم الذي يدعوه ان يكون زعيمهم ، ولما كان مردوخ لا يقل ذكاء عن أيه فإنه طرح شروطه الخاصة

والداعية الى وجوب منحه سلطات قوية تفوق سلطات الآلهة ، وألا يعصيه .
احد فيما يتخذ من قرارات ، وان يكون بيديه تحديد المصائر . ووافق .
الآلهة على شروطه واعطاه كل منهم السلاح الذي يستمد منه قوته ،
واعترفت هذه المناسبة الوقت الصحيح لأختبار الرداء لاثبات وجود
سلطات مردوخ .

وقبل الاشتباك راح المتخاصمون بشتم بعضهم البعض . وهياً مردوخ ،
اسلحته وكان قسم منها عادياً ، في حين يعتمد القسم الآخر على قوى الطبيعة .
وهي الرياح الارباع والصواعق والزوبعة . ولم تنتفع - تيامات - بقواها
السحرية فقذف مردوخ بشبكته عليها ، وعندما فتحت فمها لتبصق اللهب ،
استغل مردوخ الفرصة ليقذف احد الرياح الارباع في داخل فمها ، ثم راح
مردوخ يغني اغنية النصر فوق جثة العدو المهزوم ، ثم شق مردوخ جسم
تيامات الى نصفين كما تشق الصدفة . وقد صنع السماء من احد النصفين .
وصنع الارض من النصف الآخر . وفي السماء ثبت العدو الحقيقي للآلهة
الثلاثة الكبار . لقد وقع كنگو اسيراً منذ البداية فاسترد مردوخ منه ألواح
المصير التي كانت بحوزته .

وبعد ذلك يستمر الحديث في وصف النظام الذي فرضه مردوخ على
السماء . اما الرقيم الخامس فإنه ولسوء الحظ محظوم جزئياً وهو يحتوي
على وصف موجز للمعرفة الفلكية في ذلك العهد .

وبعد هذا الاستطراد تعود القصة من جديد فتذكر ان مردوخ اقترح
ان يخلق كائناً اسمه « الانسان » وواجبه هو خدمة الآلهة وهم في راحتهم
وتم خلق الانسان ولكن العملية تطلبت الدماء التي تم تجهيزها من قبل كنگو
الذي تم قتله . ثم قسم مردوخ الآلهة الى جماعتين ، جماعة السماء وجماعة
العالم الاسفل على التوالي .

واعترافا من الآلهة لمردوخ بالجميل منحوه (ايساغيلا) أو معبد
بابل . وعندما اضفى كل الآلهة لقباً على مردوخ وهب كذلك حقيقة الوجود
للمعبد بواسطة تلفظه .

لقد تسلح مردوخ في البداية بالقدرة لينطلق الى المعركة ، اما الآن
وبعد ان انتصر فإنه لا يزال يتحكم بهذه القدرة وبالآلهة وذلك كما وعدوه
بعد ان جردوا انفسهم من صلاحياتهم .

هناك تفسيرات اخرى لقصة الخليفة . ولكن التنف المتوفرة لدينا
غير كاملة وغير مترابطة وهي لا تظهر اية اختلافات اساسية عن ملحمة
(انوما أيلش) (*) كما نعرفها . يمكن ان نقول عن الملحمة بأنها التفسير
المسموح به للديانة البابلية الجديدة . ذلك لانها تجيب عن كل الاسئلة
التي يمكن ان يسألها الانسان عن اصلها وظرفها الارضي . ونقول بكل
طمأنينة ان الجواب عن كل سؤال يستغر عند مردوخ وقد كررت تلاوة
قصيدة الخليفة في احتفال السنة الجديدة . وقد اختلط هذا الاحتفال
بتقاليد قديمة اخذت من دين طبيعي .

الطوفان

قصة الطوفان قصة حية في بلاد ما بين النهرين وقد تطلبت الشرح
والتفسير مثلها في ذلك مثل اي شيء اخر . ويكفي عجباً القول بأنها تبدو
وكانها لم تنشر ولم تعاد كتابتها ، كما لا يلعب مردوخ اي دور فيها . وبدلاً
من ان تكون قصة الطوفان قائمة بذاتها نراها تتداخل مع ملحمة گلگامش
بشكل قصة يرويها (أوثانا بستم) لأحد زائريه ، ليبين له كيف انه وزوجته

(*) ملحمة « انوما الش » Enuma Elish هي ملحمة الخلق لدى البابليين
وتصور كيفية خلق العالم . والكلمتان « انوما الش » ليستا عنوان الملحمة بل هما
بدايتها ، وتتميان « عندما في السماء » .

صارا خالدين • والرواية الكاملة لهذه القصة تملأ الرقيم الحادي عشر من ملحمة گلگامش • ولكن هناك قطع أخرى توحى بوجود قصائد كاملة عن دورة الفيضان في فترة معينة •

لقد تقدم الزمن على مدينة (شروباك) الواقعة على نهر الفرات ، وتعرف أحيانا باسم (فاره) ، وذلك عندما اعتزمت الآلهة أن تنمر الأرض بالفيضان • كان - ايا - موجودا في مجلسهم فقرروا أن ينذر (اوثانا بشتم) الذي كان تحت حمايته فاقترب من كوخه المبني من الأغصان الجافة والطين وراح ينادي :-

« ايها الجدار ، ايها الجدار ، اسمعني »

« يا رجل شروباك ابن سفينة »

« اهجر المال واتخذ حياتك ... »

« ضع في السفينة كل بذور الاشياء الحية »

« وستقاس ابعاد هذه السفينة »

ثم ينصحه بأن يجعل الثروات في الداخل ، وهذا امر فيه من الغرابة ما يكفي • وسأل اوثانا بشتم الآله قبل البدء بالعمل عن الجواب الذي يعمله اذ لم ما سئل عن العمل الذي يعمل ، فقليل له ان عليه ان يقول ان (اثليل) كان معاديا له ، وانه يريد ان يمشي في المكان الذي يحكمه « ايا » ولكي يخفف من شكوك السكان فان اثليل سوف يجعل (كاكرو) (وكبتو) يطران عليهم مطرا غزيرا (وهذه استعارة في غاية السمو لأن (كوكو) تعني صوت العجوب عند الطحن كما تعني المصيبة • اما كبتو فتعني العجوب والاسى) ثم يجيء وصف موجز لتقلبات الظروف عند بناء السفينة وتظهر الابعاد المسجلة ان السفينة كانت مثل صندوق مسقف والذي ينقسم من الداخل بصورة افقية وعمودية ويطلق هيكل السفينة ببطقة من القار لكي

لا ينفذ منه الماء وبعد ذلك تقام مأدبة تكريما للعمال ويضع اوثانا بشتم اهله واملاكه في السفينة ويركب هو كذلك ويلقى الباب حال ما تبدأ الامطار بالسقوط ، وكان اهتمام المطر جارفا كما كانت الرعود تهدر والبرق يومض ، وسببت الغيوم ظلاما شديدا ؛ وتقول القصيدة ان الالهة كانوا يرتجفون في السماء من مشهد الاعصار فيهربون عائدين الى سماء - آنو - ثم يجثمون كالكلاب خائفين من الحائط (السماء) • وتصرخ الالهة - عشتار - كالمرأة عند المخاض وتقول :-

ليتحول ذلك اليوم السابق الى طين لاني امرت بالشر بين جماعة الالهة اء كيف أستطيع ان اصدر اوامري بتدمير شعوبي ؟ اأنا وحدي التي اخرجت شعبي ليملا البحر كالاسماك الصغيرة ؟ »

وظلت العاصفة والرياح هائجة ستة ايام بلياليها وعندما هدا كل شيء فتح - اوثانا بشتم - النافذة فرأى ان السفينة تستقر عند جزيرة ، ولم تكن هذه الجزيرة في الحقيقة الا جبل « نصير » • وظل هناك ستة ايام دون ان يتحرك ثم ارسل حمامة وبعدها سنونو فرجع الاثنان الى السفينة ، واخيرا ارسل غرابا ولم يرجع فاطلق سراح الحيوانات وقدم قربانا على قمة الجبل • وتمضي القصيدة قائلة :-

(لقد شمت الالهة رائحة الطعام الحلو فتجمعت كالذباب على القربان) وهنا تتدخل عشتار لتقول انه يجب على كل الالهة ان يشاركوا في اكل القربان الا - انليل - الذي اطلق الفيضان من عقاله وبلا تعقل • وهنا يصل - انليل - وعندما رأى السفينة قال ان هناك أشخاصا هاربين ، فاجابته - نمورتا - باقتراح قالت فيه ان «ايا» وحده قادر على توجيه الانذار لمن هرب ، اما - ايا - الذي سبق ان عرفنا دوره في القصة ، فيجيب قائلا :-

« اما بالنسبة لي فاني لم اكشف سر كبار الآلهة الى اوتانا بستم . لقد جعلته يرى رؤيا وبذلك سمع سر الالهة » . وبعد ذلك اصدر - انليل - امره القاضي بان يكون اوتانا بستم وزوجته من الخالدين ، وان يسكنا في منطقة نائية عند مصب النهر .

ان ما يذهل القارئ هو الصورة الحية لشخصيات الآلهة التي تضي عليها صفات الانسان البدائي كما يذهل القارئ من الصراحة في وصف هياجها وغضبها ، ثم في وصف شروح - ايا - .

لقد استقرت فكرة - الطوفان - في ضمير كل العالم القديم وتحتفظ الكثير من البلدان بمختلف القصص عنها . والمعتقد بصفة عامة ان القصص المتداولة في بلاد بين النهرين ترجع في اصولها الى الفيضانات القاسية وغير العادية للنهرين الكبيرين في تلك البلاد (دجلة والفرات) .

يقدم السيد (ج . دي مورغان) (*) ، وهو خبير جيولوجي ، رأيا يقول فيه ان هذه القصص تخلد ذكرى فيضان حدث في آخر عصر جليدي ويرجع تاريخه الى عام (٨٠٠٠ ق . م) وانه كان لهذا الفيضان اثر واسع النطاق الى درجة لا يمكن نسيانها .

هنالك مجموعة من القصائد الوصفية التي تصور المراحل المختلفة لنشوء وتطور الدين عبر فترات زمنية طويلة ، كما تصور تركزه على نوع خاص من المعابد ومن هذه القصائد قصيدة (انوما ايليش) التي تشرح الدور القيادي الذي لعبه هذا الاله أو ذاك .

(*) جاك دي مورغان J. De Morgan عالم فرنسي وطبيعي ترأس البعثة الاثرية الفرنسية التي بدأت التنقيب في مدينة « سوسة » هاصمة الفرس الاخمينيين سنة ١٩٠٢ وقد عثر على مسلة حمورابي التي تضم شريعته الشهيرة ونقلها الى متحف اللوفر في باريس . وكانت هذه المسلة من بين المنهوبات التي نقلها العيلاميون اثناء استيلائهم على بابل سنة ١١٥٧ قبل الميلاد .

لدينا قصة اخرى عن الخليقة من معبد « نر » حيث كان يتعبد
 — انليل — (بعل القديم) و (نليل) زوجته وذلك اثناء المهد الذي فقد
 فيه (أنو) اهميته ، وقبل ان يستسلم فيه انليل لبعل مردوخ • ويساهم
 في هذه القصة الألهان (انو) و (انليل) والالهة (نينماه) ويقال انهم
 كانوا مسؤولين عن وجود الكائنات البشرية على الارض ، وتعرف هذه
 الكائنات باسم — الرؤوس السود — وهذه كنية لا زال معناها الدقيق غير
 مقرر ، ولعلها تشير الى لون شعر السومريين أو يحتمل انها تشير الى التقاطيع
 البرونزية • واذا ما صح احد هذين التفسيرين فانها ستظهر ان السومريين
 كانوا على اتصال مع شعوب شقر الشعور أو البشرية • واما اذا لم يكن
 التفسيران صحيحين فان من المحتمل ان يبدو لوهم عاديا تماما وغير مشهور •
 ويعتقد العديد من الباحثين ان السومريين جاءوا من منطقة كثيرة التلال
 غير محددة ، ان لم نقل انها منطقة جبلية حقا •

اساطير - زو - والتنين - لاجو

تنتمي هاتان الاسطورتان الى مجموعة اساطير نر وتدور الاولى حول
 الانسان الطير ، زو(*) ، السارق الطبيعي ، والذي استغل فرصة وجود
 (انليل) في مرفق الماء حيث كان يفتسل بالماء الصافي تاركا عرشه ونازعاً
 تاجه الذي هو شعار سلطته ، لكي يحصل على رقم المصير التي كان انليل
 حاميا حماها ، ثم يسلب انليل سلطانه •

لم تنجح الخطة لأن الآلهة قررت الاشتراك في عملية مطاردة اللص •
 ومن الممتع ان نلاحظ العدود التي وقف عندها مؤلفو هذه الاساطير الذين
 كلما وجدوا دافعا للكتابة كرروه • نجد في هذه الاسطورة ، كما في اسطورة

(*) يعتبر زو طير الصامقة في الاساطير المراقية القديمة •

(انوماالش) ، ان الآلهة تفسح المجال أمام (زو) فتبتعد عن طريقه وطريق اتباعه وبالرغم من ذلك فإن الذي قسّر القاء القبض على زو هو ألهه (لوغال بندا) (الذي يبدو انه ملك وله صفات الالهية) • وقد قرر هذا الاله ان يلقي القبض على (زو) عن طريق اقامة وليمة يدعو اليها (زو) مع زوجته وابنه • ونجد ان هذا الموقف يتكرر في اسطورة (التبعان العظيم) (اللو يانكاس) وهذه الاسطورة من الاساطير الحثية • نعود فنقول انه بدلا من مخاطرة القيام بهجوم مباشر على (زو) قام الآله المكلف بالانتقام بدعوته الى الوليمة ، فجعله يشرب ويشرب حتى تمكن من السيطرة عليه •

لدينا بعض الاختتام الاسطوائية التي يظهر عليها الانسان الطير ، ويحتمل انه (زو) نفسه ، وهو يقاد الى آله جالس على عرش ويصدر احكاما • وهناك ترجمة بابلية لهذه القصة تجعل من مردوخ متعلبا على - زو - وبالتالي يتلقى الآله لقب - محطم جمجمة الطير زو - •

أما اسطورة التنين - لابر - فأنها تروي لنا كيف سيطر الرب على الالهة حين رسم الآله - ائليل - في السماء رسماً على غرار التنين الذي عاد الى الحياة • ونجد في هذه الاسطورة انه لم يجرأ سوى اله واحد من الآلهة على الاصطدام بالحيوان المولود ومن ثم ذبحه ، وظل الدم يجري لعدة سنوات • ان حبكة القصة ليست مألوفة حسب بل انها تلقي ضوءا على عملية خلق مخلوق حي • فالآله الخالق يحدد الطبيعة التي ستكون عند المخلوق حينما يأخذ شكله النهائي في مخيلته ، ثم حينما يعطيه اسما • انه يرسم شكله الذي يكاد يحصل بواسطته على الحياة الكاملة وتحتوي ملحمة گلگامش على عملية خلق مشابهة فعندما ارادت الآلهة (أورور) ان تخلق (انكيندو) فأول ما فعلته انها خططت له في عقلها ومن ثم رسمت الخطوط العريضة لشكله العام على الارض عن طريق كتلة من الطين وثقت الحياة في هذه الكتلة بعد ذلك •

القصيدة المسماة (الهبوط)

تنتمي الى مجموعة قصص انليل اسطورة اخرى في غاية الغرابة والتي
أعتبرها مترجمها الاول - س . لونگدون - S - Longdon - خطأ بأنها قصة
هبوط الانسان . وبالرغم من ان القصيدة تزخر بالغموض الا انه من
الممكن اعطاء وصف عام عنها . لقد عاشر انليل (نينليل) وآلهة أخرى
معاشرة جنسية ، وتنج عن هذه المعاشرة العديد من البنين . اما نتائج ذلك
على الارض فهي انتاج المطر والفيضان وخصوبة التربة ، واخصاب العائلات
البشرية . والحقيقة أن هذه القصيدة من اكثر الاساطير شيوعا ، كما انها
تقدم مثالا عجيبا عن اقدم المعتقدات التي يرجع تأريخها الى عهد يوجد فيه
دين يعاني من عملية التغير بأقتراب فجر التاريخ .

اسطورة نينورتا (Ninurta)

تضفي صورة غريبة على أسطورة (نينورتا) ابن انليل وترتبط هذه
الاسطورة بمجموعة اساطير وقصص (نر) . وتخص هذه القصيدة الكفاح
الذي خاضه الآله ضد اعدائه . كما ان فيها ذكرا لبعض انواع الصخور
التي قيل عنها ان البعض منها قد حارب من اجله كما حارب البعض الاخر
ضده .

لقد كانت هذه الصخور قبل القتال بلا اسماء . اما بعد الانتصار
الذي حققه (نينورتا) فإنه قد وهبها الاسماء ، (اي انه ثبت وجودها
الفردية) كما اعطاها احسن الصفات المختارة ، واعتراها بجميل الصخور
التي حاربت الى جانبه ، فإنه جعلها ثمينة جدا . فصار منها الرخام ، وحجر
اللازورد والحجر البلوري والمرمر . وتستعمل هذه الاحجار في زخرفة
القصور والمعابد . اما الصخور التي حاربت ضده فقد اصبحت من ارخص

مواد البناء أو انها كانت تستعمل في بناء عتبات الابواب وهي بالتالي تدوسها
الاقدام فتصبح كثيبة وغير محترمة ولا مشرقة .

تستدعي القصة وجود تعليقين يقول الاول منهما ان القصة لا تقدم
أي دليل عن قوة الاحساس عند العراقيين القدماء بالنظام الذي ينطوي
عليه الكون ، والذي لا يمكن ان يوجد شيء فيه بلا سبب . اما التعليق
الثاني فيقول ان القصة تظهر كيف ان عيون العراقيين القدماء لم ترض عن
الحدود التي كانت قائمة بين مختلف انواع الوجود الطبيعي وانهم اعتبروا
هذه الحدود سيئة التعيين .

تمجيد عشتار

قد يبدو عصر سيادة (آنو) طويلا وهو يتطابق مع عصور ما قبل
التاريخ وكذلك مع العصور التاريخية المبكرة ولهذا فليس لدينا الا الادلة
القليلة عن هذا العصر . وقد يكون احد هذه الادلة نتيجة الجهود اليائسة
التي بذلها كهان (الوركاء) ، مركز عبادة انو ، لمقاومة النفوذ المتنامي
للآلهة الجدد في الوقت الذي كانت فيه عبادة آنو تعاني الانحطاط .

تتناول القصة موضوعة البحث كيف ان (آنو) اشرك الآلهة عشتار
في تاجه ، بعد فترة طويلة من حبه لها ، واعترافا منه بجميلها فقد رغب في
ان يرفعها الى نفس درجة المساواة معه ، ولقد اشركها في تاجه اطاعة لنصيحة
الآلهة . لقد اقترح مجمع العائلة السماوية وبالاجماع ان عليه ان ينظم
مكاتها فننفذ ذلك متحصنا بهذا الاجماع ثم امر بأن يكون اسمها بعد
الزواج (اتو) وهو صيغة المؤنث لـ - آنو - وهذا يشبه تماما - تليل -
صيغة المؤنث لتليل . وبعد ان مجدت عشتار وبجلت بهذه الطريقة احتلت
مكانا مهما في السموات حيث كان آنو يقيم من قبل ثم شخصت بالكوكب
السيار (الزهرة) .

دنيسا العالم السفلي

يأتي ذكر العالم السفلي في صميم الكثير من الاساطير وتقابل مناطق هذا العالم في اهميتها السموات ، كما يشكل ذكر احدى هذه المناطق جزء من الرقم المساوية التي اكتشفت في تل العمارنة من صعيد مصر . وعند مقارنة ترجمات هذه الرقم مع بعض القصائد وعلى الاخص ملحمة جلجامش، تقدم هذه المقارنة برهاناً على الشعبية الواسعة للادب البابلي في كل انحاء العالم القديم .

تخبرنا القصة موضوعة البحث كيف ارتبط (نيرغال) بربوبية الجحيم التي كانت ملكتها (ارشكيغال) وهذه الملكة هي اخت عشتار . وبالرغم من انها كانت ملكة وآلهة لكن يبدو انها كانت ايضا من سجناء — أراللو — (Arallu) وهو الاسم الذي يطلق على العالم السفلي والذي عرف ايضا بأسم — الارض الرحيبة — أو — ارض الالعودة — وهذا ما ترمي اليه الحقيقة القائلة بأنه عندما أرادت الآلهة ان تجتمع على وليمة ارسلت رسالة الى (ارشكيغال) تدعوها فيها الى الوليمة قائلة لها انها اذا لم تستطع المجيء فترسل رسولها لكي يأخذ لها حصتها من المأدبة . وبناء على ذلك ارسلت (نامتار) Namtar (المصير) لينوب عنها وهو في نفس الوقت (عفريت الوباء) وعندما ظهر نامتار بين الآلهة قام الجميع احتراماً لسيدته باستثناء الآله (نرغال) وحده . وعندما رجع نامتار الى الجحيم شكى امر الشكوى من هذه المخالفة ، فأرسلته (ارشكيغال) مرة ثانية وهو يحمل امرا بوجوب تسليمه (نيرغال) لكي يقتل . وحينما ظهر (نامتار) ثانية بين الآلهة لم يكن (نرغال) هناك وبذلك لم يستطع (نامتار) ان ينجز مهمته . ولكن الآلهة حذرت نيرغال فبادر بالذهاب الى الجحيم برفقة المفاريت . وبعد ان وضع حراساً عند كل باب من الابواب

التي سيسهل عليه الهروب منها راح يحاجم (اريشكيكال) جارا اياها من شعرها ثم سحبها من فوق عرشها وتظاهر بأنه يريد ان يقتلها . لقد تلاشى كل غرورها في الحال واخذت تتوسل الى قاهرها لكي ييتي على حياتها وعرضت عليه الزواج منه وان تجعله قرينها الملكي وقد حدث هذا بالفعل . وفي ملحمة گلگامش سوف نرى ان عشتار ، وهي اخت اريشكيكال ، تعرض هي الاخرى مشاركتها في السلطة والمال على البطل الذي ترغب فيه رغبة عاطفية .

هبوط عشتار الى العالم السفلي

كان العالم الأسفل هو الموحى ايضا باسطورة (عشتار) المشهورة وحبيبها تموز . ويبدو ان هذه الاسطورة حصيلة مزج بين اسطورتين قديمتين تميزتين ، تخص احدهما (دموزي) (تموز) (اله الصبوب) والذي يموت كل سنة ثم يعود الى الحياة من جديد .

وهناك رواية اخرى تنفي عنه الموت ، وتقول انه كان يقسم حياته بين مرافقة الآلهتين ، فيقضي نصفها في العالم السفلي حيث تمضي الطبيعة الشتاء نائمة ، ويقضي النصف الاخر ، في بداية الربيع ، على الارض ، وقد ازدادت محتويات هذه الاسطورة بعد ان اضيفت اليها اسطورة هبوط عشتار الى العالم السفلي ولا تذكر النسخة الاصلية من الاسطورة اي سبب لهذه الرحلة كما انها لا تعين الهدف المقصود من الاتيان بتموز الى العالم العلوي ويذكر هذا الهدف بصورة غامضة في عهد متأخر وتجري وقائع للنسخة التي بأيدينا كالآتي :-

قررت عشتار الهبوط الى العالم السفلي دون الرجوع الى تموز . وعند وصولها الى هناك كان عليها ان تتحدث الى حارس الباب . وبالرغم من ان (اريشكيكال) هي اخت عشتار الا انها فرحت كثيرا بهذه الغنيمة ،

وأمرت بأدخالها على الفور . وخلال ابواب الجحيم السبعة التي كان على عشتار ان تجتازها كان حارس الباب يجبر عشتار على ان تنزع جزءا من حلتها فنزعت أولا تاجها ، ثم أقرطها ثم قلائدها ومن ثم حمالة الثديين المصنوعة من المعدن الثمين ، ونطاقها الذي يضم تعاويذ اجبار الولادة ثم الاساور التي كانت في معصمها وبمدها الخلاخل واخيرا ملابس الحشمة . وهكذا وقفت عشتار عارية بين يدي ملكة العالم السفلي . وبعد ان غلبها الغضب وبدون اية لحظة للتفكير ، هجمت على اختها التي امرت وزيرها فامتار ان يطلق على عشتار المنيذ من الامراض مثلما تطلق مجموعة من كلاب الصيد .

واذ تجري هذه الاحداث في العالم السفلي كان كل شيء على الارض يجف ويذبل . فالاشجار لا تنضج ، وتحول الحيوانات والكائنات البشرية الى كائنات عقيمة ، أما الآلهة فكانت تبحث حائرة عن وسيلة لتخليص الآله ويخلق — آيا — فردا يحكم عليه بأن يكون ضحية فيذهب باحثا عن (ارشكيغال) ويطلب منها ان تعطيه ماء من قرية ماء خاصة . ومما لا شك فيه ان هذه القرية لا يشرب منها الا الآلهة . وعندما سمعت (ارشكيغال) هذه الكلمات ضربت على فخذهما وعضت أصابعها . وأخذت تلعن الرسول وتخبره بأنه لن يتناول من الطعام والشراب الا الفضلات ومياه مجاري المدن . واخيرا وبالحاح من طلبات الرسول تنصاع (ارشكيغال) وتسكب على عشتار الماء الذي يعيد اليها الحياة ، ثم امرت بقيادتها عبر الابواب السبعة (وهذا ما يذكرنا بدوائر الجحيم السبعة في الكوميديا الآلهية للشاعر الايطالي دانتي) . وعندما كانت عشتار تمر خلال هذه الابواب كانت تسترد البستة وجواهرها عند كل باب .

تحتوي القصيدة ، كسائر القصائد الاخرى ، على العبارات القديمة الجافة والتي تتكرر في كل المحتويات المتشابهة . تقول القصيدة ان الآلهة

سيئي الطباع يضربون افخاذهم ويقضمون اصابعهم ويميزون عن الاجتماع دون ان يشربوا الى حد الافراط . ان اللعنة التي تصب على رسول الآلهة تشبه اللعنة التي تصب على عاهرة المعبد في ملحمة كلكامش . فالصورة العامة التي تحصل من اساطير بلاد بين النهرين يرثى لها اذ نجد العنف عند الآلهة بالاضافة الى شراحتها وجموحها وانعدام الايمان وحقدتها . فهي خلاصة الناس السذج الذين نبعت هذه الآلهة من تصوراتهم ، وكما اسلفنا القول فإنه يمكن ملاحظة درجة معينة من التطور في اخلاقهم بعد مضي القرون العديدة . ولكن من المفيد ان تذكر انهم يعطوننا صورة حقيقية عن الانسان المتوسط في حضارة ذلك الزمان .

ملحمة كلكامش

كانت قصة گلگامش تعتبر القصيدة البطولية التي يستطيع قارئها ان يثق من نفسه في السيطرة بواسطتها على سامعيه [اللوح ١٩] . اما بطل القصة فقد كان ملك الوركاء في الماضي البعيد والذي بنى المدينة بقصورها ومعابدها وابوابها واسوارها المحيطة بها ، وهذا الانجاز الذي كان مدعاة فخره وتباهيه ، هو الذي كان يتعزى به عن نهاية مغامراته غير الناجحة .

لقد كان حاكما جيدا ولكن وطأة حكمه اثقلت كاهل الشعب وبخاصة كاهل الزوجات وبناتهن فقد قدمت الصلوات والأدعية بصورة عامة شاملة الى اوروو آلهة الخصب لكي تخلق مخلوقا يكرس گلگامش له نفسه وبذلك يحول اتبائه عن رعاياه . تأملت (اوروو) مخلوقها الذي ستعطيه الحياة ، ثم رمت بكتلة من الطين على الارض ، وشكلتها واعطتها الحياة . وهكذا جاء (انكيدو) المتوحش الى الحياة وهو يجهل الحضارة جهلا تاما ، وكان جسمه متداعيا ، كما كان يأكل العشب كالغزال ويطلق زفأه من الثقوب التي فيها ماء . لقد كان حقا حيوانا من جميع الوجوه . احتاج

كلگامش الى القوة التامة للعنصر الآلهي في كيانه للسيطرة عليه (كان كلگامش ثلث انسان وثلثي آله لانه ابن الآله) (نين سن) •

ولكن يستقر في اعماق انكيڊو عنصر لشيء معين أبعد من كونه مجرد حيوان لانه كان ينقذ الوحوش من شباك الصيادين ، الذين كيما يتخلصوا منه جلبوا له عاهرة من معبد عشتار ، وهذه بدورها قد هيأته للتمدن بطريقة واضحة امتدت ستة أيام وسبع ليال • فقد قص شعره ، وحلق جسمه وتم دهنه بالزيت ، ولكنه ظل لا يعرف شيئاً عن الخبز ولا عن طعام الانسان أو شرايه • وعندما تذوق الطعام والشراب شرب الشراب المخمر سبع مرات ثم سبع مرات أخرى فسكر نتيجة ذلك وفي النهاية احضرت عاهرة المعبد انكيڊو امام كلگامش الذي كان قد اعلم بما سيقع من خلال الاحلام المضطربة التي فسرتها امه له • وادى اول لقاء بين انكيڊو وكلگامش الى العنف ، فراحا يتبادلان الضربات في سبيل الآلهة التي تريد ان تشكل اتحادا مع كلگامش وكان النصر حليف الخصم المتمرن ، فأعترف انكيڊو بالهزيمة واصبح صديق كلگامش ، وانطلق الاثنان في سلسلة من المغامرات تذكرنا بمغامرات هرقل اليوناني ولكن عبر هذه المغامرات قصير(*) •

كانت اولى الحملات الى ارض الارز لمحاربة العملاق (هيبابا) الذي كان عدوا لدودا (لشمس) ، لاسباب لا نعرفها • ومن المحتمل ان تحتوي القصة على صدى المحاولات القديمة جدا ، والتي بذلت في بلاد بين النهرين والتي لا تقل عن نضيرتها في مصر من اجل الحصول على الاخشاب التي لا تستطيع تربيتها ان تمدّها بها •

(*) هرقل اليوناني : بطل ورد ذكره في الاساطير الدينية الاغريقية واشتهر بمغامراته الحربية مع الوحوش والالهة •

يكرس قسم كامل من القصيدة لوصف التحضيرات التي استدعتها الحملة وكانت الاسلحة التي اعدّها الصديقان لنفسيهما تشابه في الحجم والوزن وهي مناسبة لقتال العملاق . لقد حاول كبار القوم في الوركاء اقناعهما بالعدول عن تنفيذ الحملة التي تخفي مخاطر لا شك فيها . ولكن گلگامش رفض هذه المحاولات بعبارات تبدو غريبة لنا ، ولكنها كانت مألوفة في بلاد بين النهرين فتقول هذه العبارات ان گلگامش يرغب في ان يحصل على الشهرة ، وحماسته لهذا الامر لا تقل عن حماسة امه الآلهة (ثين سن) تضرعت الى الآلهة الشمس لترعى ابنها .

من الجائز ان يتخذ وصف الغابة حجة لكتابة جيلة تنطوي بضع صفحات . ولكننا لا نستطيع الا ان نرجم بالغيب فنقول ربما كان الشاعر نفسه موجودا هناك ، أو ان الوصف جاء تعبيراً عن عدم الاحساس بالجمال الطبيعي الذي يتميز به الادب الأكدي . ومهما يكن فإن الغابة نفسها مكان مربع ، والحراسة شديدة على ممراتها التي يمر بها (خببابا) ، وهذا العملاق وحش جبار ينفث اللهب . ويذكرنا هذا الوصف بغابات (طوروس) في تركيا يركان ارجيوس^{(٢٨)*} الذي ربما كان ما يزال في ثورانه في ذلك التاريخ .

وبعد ذلك نشب قتال استطاع خلاله گلگامش ان يشل (خببابا) بواسطة اطلاق عدة اعاصير مدمرة عليه ، وقطع گلگامش رأس (خببابا) عندما كان عاجزا عن الحركة وسط الاعاصير ، وبالرغم من كثرة توسلاته طالبا الرحمة .

وعند عودة گلگامش من حملته منتصرا قابلته الآلهة عشتار وهو

(٢٨) يعرف الان باسم ارجاس داغ .

(*) وهذا البركان يقع في جبل ارجاس داغ في الاناضول .

يفادر قصره وعلى رأسه التاج ، ويرتدي ملابسه الجديدة • وكانت عشتار تعيش آنذاك في معبدها الارضي مع بطاتها من العاهرات المقدسات • ووقفت عشتار بجانب گلگامش لكي تغريه ، ثم راحت تخبره بقدرتها على رؤية المستقبل ، وقالت له بأنه سيركب في عربة من الازورد والذهب ، ولها عجلات ذهبية كذلك ، ومقعد مرصع بالاحجار الكريمة ، وعندما يصل الى المعبد سيركع الجميع له • ومجمل القول انها كانت تعرض عليه ان يكون آله • رفض گلگامش هذه العروض بصوت اجش يحمل الالهانة لعشتار ، والحقيقة أن هذه الفقرة متناقضة تناقضا غريبا مع ما نعرفه عن شخصية گلگامش ، وبأنه يمثل رعبا لكل نساء المدينة • بعد ذلك ذكر گلگامش عشتار بمشاقها السابقين المديدين ومصيرهم ، ذكرها بتموز وموته وبالطائر الأرقط التي حطمت هي نفسها جناحيه ، وبالاسد والحصان، ثم الراعي والبستاني اللذين حولتهما الى حيوانين • ثم يضيف مستهتما :- وانا ايضا ، فبعد ان وقعت في حبي ستعامليني كما عاملتهم •

غضبت عشتار غضبا شديدا ، وصعدت الى السماء لتطلب من ابيها - أنو - أنز" الموت بكلكامش ، ولكن اباه ، مثله مثل - أورورو - وبقيّة الآلهة الذين تصورهم هذه القصائد ، لا يتخذ عملا مباشرا ، بل انه بخلق ثورا سماويا لا يستطيع السيطرة عليه حتى مئات الرجال • ولكن گلگامش ينجح في قهر ذلك الثور ، اما عشتار التي كانت تراقب الصراع من شرفة المعبد فانها تلعن گلگامش فيرد عليها - انكيدو - بتمزيق احد اطراف الثور ، وقذفه على رأس عشتار ثم يصيح :- « لو امسكت بك للفت احشائه حول عنقك » •

وبناء على ذلك راحت عشتار ومعها خدمها تندب موت الثور ، في حين أحضر گلگامش وعاءً ليضع فيه زيت قرني الثور ، لان هذا الزيت يستخدم في عملية التزييت المقدسة •

وفي الليلة التالية يرى - انكيدو - حلما (وهو يعادل الحقيقة عند العراقيين القدماء) ، فيرى في هذا الحلم اجتماع مجلس الالهة الذي يقرر فيه - اقليل - اذانة - انكيدو - بالرغم من احتجاجات شمس ، ويحكم على - انكيدو - بالموت لانه ذبح ثور عشتار ، مع العلم ان - گلگامش - هو المسؤول الفعلي عن ذلك . وينفذ الحكم في الحال ويصاب انكيدو بالحمى فيندب حياته القصيرة شبه المتوحشة ، ثم يلعن عاهرة المعبد التي انت به الى الحياة المدنية . ويويخه شمس على نكران الجبل . ولكن ما دامت اللعنة قد لفظت بصيغتها المناسبة فانه يقبل الالتزام القاضي بجعلها سارية المفعول ، فيحول عاهرة المعبد الى شجرة - البستول - . واخيرا مات انكيدو ، فرتاه گلگامش هذه الكلمات التي تذكره بمآثرهما :-

« قد قبضنا على الثور السماوي وقتلناه »

« نحن ذبحنا - خمبابا - الذي عاش في غابة الارز »

« اي نوم هذا الذي يسبك بك الآن ؟ »

« لقد اصبحت كئيبا ولم تعد تسميني »

وبعد ان ارتعب گلگامش من فكرة مجيء اليوم الذي يموت فيه ، راح يفكر في سلفه البعيد - اوتانا - بستم - (يوم الحياة) وكيف ان هذا وحده ، من دون البشر ، هرب من الطوفان ، وهو يسكن الان مع عائلته في اطراف الدنيا ، ولذلك فهو يضع خطط الذهاب اليه ليساله كيف يمكنه - نيل الخلود - .

يجيء گلگامش اولا الى جبل - ماشو - وهو الجبل الذي ترتاح عنده الشمس كل ليلة ويحرس هذا الجبل الرجل العنقر الهائل . وبعد ان يقتنع الجميع بان گلگامش اكثر من نصف آله ، يصفون له الطريق الظليل

المؤدي الى الغاية التي يقصدها ، فيمشي في هذا الطريق ، ويصل الى شجرة جميلة المنظر تحمل اثمارا من اللوزود . وهذه الثمار هي العنب الاسود اذ نحن الان مع گلگامش في سوريا . ثم يمضي البطل مواصلا سيره فيصادف امرأة قرب البحر اسمها - سيدوري - وتوصف بانها صاحبة حانة . والوصف الانسب لها هو انها كانت من منتجي الخمرة لان هذا بشكل اشارة الى تجارة الخمر التي كانت تجري مع الساحل . وعندما علمت سيدوري بمخاوف گلگامش تعمدت تبديد اماله قائلة له :-

« انك لن تجد الحياة التي تبحث عنها لانها جزء من الآلهة ، وان الموت نصيب البشر . » ثم نصحته بأن يسلي نفسه حيث هو وان يتمتع بالحياة في الوقت الذي ينتظر فيه يوم موته . وبالرغم من هذه النصيحة فأنها اخبرته بالمكان الذي يجد فيه النوتي التابع لآوتانا ييشتم . اذ انه الان قريب من هدفه . ويعرف هذا النوتي باسم - اور - شنابي (Ur - Shanabi) (خادم الثلثين او خادم - ايا -) .

نحن نعرف ان الالهة مصنفة بترتيب عددي يحدد مكاتها ، ويرتكز هذا الترتيب على - آنو - الذي يعتبر رقمه الوحدة الاساسية للنظام الستيني(*) عند سكان بلاد بين النهرين ، ولذلك فان العدد - ٦٠ - هو رقمه ، في حين كان العدد - ٤٠ - رقم - ايا - ولذلك فهو ثلثا - انو - . كان النوتي ذكيا وكان على هذا النوتي ان يعبر مياه الموت لكي يوصل المسافر الى سيده ، وان قطرة من تلك المياه تعني خرابا اكيدا ، ولذلك جعل من گلگامش مساعدا له في قطع اعمدة طويلة يدفع بها الزورق كما يدفع المشحوف بالعمود . كان النوتي لا يستعمل العمود الواحد الا

(*) يقصد بالنظام الستيني ان تكون ال - ٦٠ - هي الوحدة الاساسية في النظام .

مرة واحدة في دفع الزورق ، ولذلك فانه استعمل ما لا يقل عن مائة وعشرين عموداً لعبور مياه الموت الى - اوتانا ييشتم - . واخيرا وصل گلگامش الى - هدفه ، وهناك اخبر - اوتانا ييشتم - بالهدف الذي جاء من اجله ، ثم سأله عن الكيفية التي دير بها هربه من الطوفان .

ان هذا القسم من القصيدة يشكل ملحمة منفصلة وليس لقصة اوتانا ييشتم - التي مر وصفها في ارتباط عضوي بالعمل الرئيس گلگامش - ذلك لان - اودانا ييشتم - ساهم ، كما فعل الآخرون ، في تثبيت همة - گلگامش - اذ انه تساءل قائلاً :- كيف يستطيع گلگامش ان يأمل في جعل الآلهة تعقد اجتماعا خاصا من اجل تحقيق هدفه الوحيد الا وهو الخلود او الحياة الابدية ؟ انه مجرد خاني ضعيف . ولكي يثبت هذا ، امره - اوتانا ييشتم - بان يجلس وان يظل يقظا ستة ايام وسبع ليال ، فلما جلس گلگامش فام وعندما استيقظ اعطاه - اوتانا ييشتم - التجهيزات اللازمة لرحلته ، كما اعطاه مجموعة من الملابس السحرية التي تبقى جديدة دائما . وفي اللحظة الاخيرة اوضح اوتانا ييشتم ، وبإعزاز من زوجته ، لگلگامش قائلاً له ان هناك نباتا شائكا في اعماق الماء قادر على اعادة الشباب . ربط گلگامش الاحجار بقدميه مثلما يفعل غواصو اللؤلؤ ، ثم غطس الى القاع وجرح يده جرحا بليغا لكنه نجح في سحب النبات الشائك واخرجه الى السطح ، فصاح باعلى صوته : يسمى هذا النبات (رجع الشيخ الى صباه) ؛ سأكل منه واستعيد شبابي .

وعند عودته الى وطنه رغب البطل في ان يسبح في ينبوع ماء عذب . وبينما هو يسبح سرق ثعبان النبات منه ، وكان الثعبان قد ستم رائحة النبات فجاء اليه . وتشبه هذه السرقة سرقة الواح المصير من - ائليل - عندما كان يستحم هو الآخر . ونعود الى الثعبان فنقول ان النباتات هو السبب الذي يجعل الثعبان يبدل جلده كل عام لكي يبدو صغير السن دائما . بكى گلگامش مر البكاء وعاد الى الوركاء ، مع النوتي حيث وجدناه

شيئا من التأسى ، حين اراه نوتي - اوتانا يشتم - اسوار المدينة ووضح له كيفية اتمام العمل بها •

لا تزال القصة غير منتهية • ذلك لأن - گلگامش - يرغب اخيرا في ان يعلم من - انكيدو - عما يجري في العالم السفلي فيظهر له - انكيدو - في المنام ، ويمنحه فرصة المجيء اليه والاتصال به ، ولكن - گلگامش - يفعل تماما عكس ما اقترحه عليه صديقه • ويبدو شيء من التعسف في هذا الامر ، ولا يستطيع - گلگامش - الا ان يدعو - انكيدو - الى العودة الى الارض ما دام هو نفسه قد اضاع فرصة نزوله الى عالم الاموات ثم يطلب من - انليل - ان يسمح - لانكيدو - بالمجيء الى الارض ولما كان ذلك ليس من اختصاصه فانه عرض الأمر على - سين - وهذا بدوره عرضه على - ايا - الذي وضع الطلب بين يدي - نيرغال - حاكم العالم السفلي والذي اعطى أذنا بعودة روح - انكيدو - الى الارض لبضعة دقائق ليس الا •

تحتو القصة حذو القصص البدائية في اسلوبها المألوف والذي يكرره المؤلف بصورة متناقضة ، فيضع نفس العبارات كلمة فكلمة على اساس كونها خارجة من فم كل آله من الالهة ، وذلك عندما يتوالون في ابداء حججهم •

تكاد القصة تكون مروية فكلگامش يسأل صديقه بالحاح ولكن انكيدو يشتم من الجواب ، لان الصبق يرهقه • ويصنف الموتى الى مجموعات مختلفة • فالذين ماتوا في المعركة يحظون بتأييد اقاربهم ، اما الانسان الذي يترك بلا دفن أو الذي لم يجد من يأويه بالنذور الخاصة بالموتى ، فانه يتجول بحثا عن الطعام اذ ليس له الا ما يسقط في الشوارع من فئات •

وهكذا تنتهي هذه الملحمة بملاحظة مثيرة في حزنها كتلك الملاحظة التي وردت في نهاية قصة الطوفان ، كما ان هذه الملحمة تتمتع بشعبية كبيرة ، وجدير بالذكر ان شذرات مترجمة عنها قد اكتشفت في البلدان التي تتاخم بلاد بين النهرين •

يأتي الفن في كل ارجاء الشرق الادنى على وصف بعض مآثر گلگامش ولا سيما اخضاعه للكائنات الرهيبة • ويظهر البطل وهو يهاجم من جانبيه من قبل أسدين أو ثورين الا انه ينجح في رد الهجوم وجعل الحيوانات تحت رحمته • حيث يسك كلكامش بالوحوش من رقابها •

لقد كان تجميع الاشكال المأخوذة من أحد مشاهد ملحمة – گلگامش – بسيط تأثيره احيانا وبصورة ملحوظة على تناول مشهد – دانيال – وبخاصة حينما يظهر كلكامش وهو يرفع الثور من ذيله ، أو من رجله الخلفية ، ويدوس على رقبته بعقبه وكان – دانيال – يصور احيانا وعلى جانبيه الاسود وقد نكست رؤوسها بشكل واضح ، في حين تبدو يدا – دانيال مبسوطتين ومرفوعتين الى السماء في الوقت الذي تلحس فيه الاسود قدميه •

اساطير - ادايا واتانا

تسمى قصة - أدبا - بن - ايا - الى مجموعة القصائد البطولية التي تسمى ، مثل ملحمة كلكامش ، الى تقديم العظة الاخلاقية ، كان أدبا - سماكا يزود مائدة الالهة في المعبد بالاسماك وحدث ذات مرة وبينما كان يصطاد الاسماك في احد الخليجان ان قلبت هبة قوية من ربح جنوية زورقه فغضب - أدبا - جراء ذلك وراح يلعن الريح الجنوبية قائلا :- ساحطم اجنحتك ، فما كاد يشم كلماته حتى تكسرت اجنحة الريح . وبعد سبعة ايام لاحظ الآله - انو - ان الرياح لا تهب . وعندما سأل عن السبب قيل له ان - أدبا - بن ايا - كسر اجنحتها ؛ فطلب - آنو - استدعاء - أدبا - للمثول امام العرش لكي يقاضيه على فعلته وكانت التهمة الموجهة لـ - أدبا - خطيرة جدا فراح والده ايا - يشير عليه في كيفية تخليص نفسه قائلا له انه ما دام انو - ، كما يظهر ، سوف يعبد الى سنة فان على - أدبا - الا يقبل الطعام منه . وزيادة على ذلك اخبره باسماء الآلهة الذين يحتمل ان يواجههم في طريقه ، ثم نصحه وعلمه كيف يتصرف تجاههم . ويفعل - أدبا - ما قاله له - ايا - فيظهر بمظهر الحزن ، ويلتقي عند باب - آنو - بالهي الخصوبة - وهما - تموز - و - تنكيزدة - اللذين سبق ان قابلناهما في نصوص اخرى وهما يسكنان العالم السفلى في اثناء الفترة السنوية للموت . سأل الآلهان - أدبا - عن سببه حداده فأجابهما قائلا :- حزين على - تموز ونيكيزده اللذين نمدهما ، نحن أهل الارض ، من الاموات . سر الآلهان بهذا الجواب وسمحا له بالدخول ، ونجح في الدفاع عن نفسه امام - انو فقرر هذا الآله تقديم طعام الحياة الى - أدبا - لكن هذا ، وقد تعلم الدرس جيدا ، لم يقبل الا رداء وزيتا لطلاء جسمه . ونتيجة لهذا الرفض خسر نعمة الخلود .

ومع ذلك فان هذا مثال اخر عن التناقضات في شخصية - ايا - الذي انقلبت نبوءته الى كتابة مدمرة على الرغم من كونه - رب المعرفة .

لا يتردد مؤلف القصص من عرض الآلهة وهم يحملون نقاط الضعف الانسانية وهو يتركنا نحمل انطبعا بأن هذه هي الطريقة التي كان ينظر بها اليهم فبالرغم من انهم كانوا اقرباء الا ان هناك حدوداً لقوتهم •

تنتمي قصيدة - إيتانا - Etana الى نفس المجموعة فبطل القصيدة يتحس لتخفيف آلام المخاض عند زوجته ، ويلتمس من الآلهة شمس - ان يهبه حجر الولادة الذي سبق ان واجهناه موضوعاً في فطاق عشتار عند هبوطها الى الجحيم • وينصح شمس - إيتانا - بالذهاب الى الجبل حيث سيجد المساعدة التي يطلبها ، فيفعل - إيتانا - ذلك فيصادف ثعباناً ونسراً اشتركا في البحث عن فريسة ، لكن النسر نكث بالعهد الذي قطعه للثعبان • وبالرغم من تحذيرات صغاره له الا انه لا يعبأ بهم فيأكل صغار الثعبان الذي منحه شمس النصيحة فيلتف هذا الثعبان على جثته ثور ميت • وعندما جاء النسر ليأكل منها قفز عليه الثعبان فجأة فكسر جناحيه ، وحطم مخالبه ، وتركه يموت جوعاً على الرغم من توسلاته ووعوده •

هنا يظهر - إيتانا - على المسرح فيقدم الطعام للنسر • وعندما يشفى من جراحه يمرض على - إيتانا - ان يأخذه الى السماء ليأخذ من عشتار طلسم الولادة الذي يرغب في الحصول عليه • ويصعد الاثنان الى السماء ، وتبدأ الارض تصغر وتصغر ، ولكن مسكن عشتار - لا زال يبدو بعيداً فوق سماء - آنو - حيث تحفظ - رموز الملكية - من قبل الآلهة • وبعد أن يعجز - إيتانا - والنسر - عن بلوغ مقر عشتار يحبطان الى الارض راجعين اذ ليس من قدرة الانسان ان ينافس الآلهة •

القصص الاخلاقية • المذهب الصالح • الحكمة البابلية :

تعتبر القصيدة المعروفة باسم - المذهب الصالح - من اشهر القصص الاخلاقية وتبدأ هذه القصيدة بالكلمات :- « سوف أغني لاله الحكمة » •

وترتكز هذه القصيدة اساسا على قصيدة قديمة ذات طابع تشاؤمي •
 لقد اقعد المرض الرجل الصالح ، وقد حيرت اعراض مرضه الكهان واصحاب
 التعاويذ على حد سواء ، كما غلبت معرفتهم ولم تعد صلواته تجديهفعما
 ولذلك فانه يصيح قائلا :- « لم يدر الي ربي وجهه ، ولم ترفع الهتسي حتى
 رأسي ولم ينقذني المعزم بشعائره ، من الغضب المقدس • لقد حرصت
 دائما على الصلاة ولم اتخلف عن تقديم النذر واكرمت يوم موكب الآلهة ،
 ووجدت السرور في عبادة الملك ، وكانت موسيقاه فرحتي الدائمة »(*) •

لقد ابتعد عنه كل الناس لانه اضاع كل ما كان في-حوزته ، ولانهم
 اعتقدوا ان هذا البلاء جاء نتيجة الاثم ، وهنا يجد الرجل الصالح نفسه
 لا يستحق اللوم فيقول :- « لعل ما يظنه الانسان صالحاً فيحترمه يبدو شراً
 عند الآلهة » •

وتنتهي القصيدة أصلا بهذه الملاحظة الكثيرة ، ولكن الشخصية في
 هذه القصيدة تتبدل تبدا جذريا في اثناء الاصلاح الديني العظيم الذي قامت
 به السلالة الاولى في بابل • فقد وجد الكهان انه من اللائق اضافة فصل
 ثان يستعيد فيه الرجل الصالح صحته واملاكه واحترام زملائه له • وسبب
 ذلك ان مردوخ قد اشفق عليه وتختتم القصيدة بالكلمات التي تقول :-

« يستطيع مردوخ ان يهب الحياة حتى في القبر وتستطيع زوجته
 (ساربانيت) ان تنقذ حتى من هاوية الموت » •

وتثير القصيدة مشكلة جديدة، ترى هل ينبغي لنا ان نرى اشارة خفية الى
 اسرار البداية والاحتفال بها وذلك عندما يقول الرجل الصالح وهو يشير الى ابواب
 معبد ايساكيلاء المختلفة التي استطاع ان يثبت حقيقة كل اسم من اسماء هذه الابواب؟

(*) المذهب الصالح يقصد به النبي « ايوب » الذي ورد ذكره في التوراة
 وفي القرآن الكريم •

«لقد توقف نحبي عند - باب وقف النحيب - واشرقت شاراتي عند باب المعجزات» وهملجرا قد يبدو هذا اشارة الى الارتباط الكائن بين اسماء الابواب والاسرار كما ان هذا تأكيد لاشك فيه على جدوى واهمية الاسم الحسن للابواب المختلفة وعلينا ان نتذكر ان القابها كانت تعتبر قادرة على خلق السجيا التي تشير اليها هذه الالقاب . وهكذا فانه عندما يمر الرجل الصالح من هذه الابواب يجب عليه ان يرى تغير طبيعته . وعندما كان مردوخ يسير في موكب خاص بالاحتفال بعيد - اكيثو (٣٠) كان يلقي التحية كل مرة باسم جديد وذلك عندما يصل الى مكان جديد ، وهكذا فانا يجب ان ننظر الى الامور بهذا المعنى لا بالمعنى الشائع المقبول عن الاشارة الى بدء الاحتفالات بالطقوس الدينية .

والى هذه المجموعة من الادب التشاؤمي تنتمي الامثال التي جمعت ونشرت تحت عنوان - الحكم البابلية - وقد جمعها ونشرها السيد (س . لانكدون) وتأخذ هذه الحكم صيغة المحاورة بين (سيد) واتباعه من العبيد . (والسيد في التفسير البدائي هو الملك دون شك) وتعالج هذه الامثال مشاكل الحياة اليومية وغالبا ما يتناقض ما تستنتج مع ما يتوصل اليه الرأي الحديث .

الشعر الغنائي ، بعض التراثيم

يؤلف هذا النوع من الشعر فصلا متميزا بما فيه الكفاية بين مجموعة الابتهالات التي تقدم الى الآلهة في الاحتفالات الدينية وتشمل هذه الابتهالات - التراثيم - التي غالبا ما تكون ذات روح وقوة كبيرتين ، ويخاطب بها الآلهة ، وتضفي عليها هذه الروحية والقوة ، بصورة متميزة ، انواع الثناء الملل وغير المتغير والذي كانت تركز عليه الابتهالات .

ويعد الثناء على النهر الى الاسماع ذكر القوة الخلاقة للمياه ، والدور الذي تلعبه هذه المياه عند الابتلاء بالبحر . اما الثناء على النار فانه يعيد الى الاسماع ذكر قوتها في تنقية المعادن . اما الترنيمة المقدمة الى - شمس - فانها تعرضه في دور - القاضي الاعظم - الذي يتوجه اليه كل الكون ، وهو يصدر احكامه الصائبة في السموات والارض على حد سواء .

اما الآلهة - سيين - فتطلق عليه كنى عديدة ، فهو - آله القمر - كما يوصف بأنه ثور صغير العمر مكتمل الخلقه في كل عضو من جسمه ، وقيل عن لحيته بانها من (اللازورد) ويشكل هذا الوصف اشارة الى الصبغة الزرقاء المعتمة التي كان يتخضب بها رجال بلاد ما بين النهرين ، اما مدار الآلهة سين فقد كان ثمرة ضخمة جدا تتكاثر ذاتيا وكانت قرون الآلهة تعتبر اشارة الى الهلال على الرغم من اعتبارها احيانا الزورق الذي ينزلق فيه بين ارجاء السموات .

وتحتوي الابتهالات التي تقدم لعشتار على مختلف النعوت من بينها انها - الكوكب - الذي يمثل عشتار مساءً وعشتار صباحاً . وكانت هذه الابتهالات منظومة بشكل شعر جيد القافية ، وتذكر فيه الصفات المنسوبة الى عشتار ليشكل اللازمة المكررة ، وكان بيت الشعر المكرس للمديح يردف بيت اخر تذكر فيه احزان المؤمنين مثل :-

يهرب قلبي
فيصعد كالطير في السماء
انتِ كالحمامة
انا انجب كل يوم •

اما التريمة فانها تنتهي بمزيد من تكرار صفات الآلهة ، فهي تحقق
نبوءات ايها - سين - واخيها - شمس - ثم تنتهي التريمة بالعبارة :- انا
عشتار •

ولبعض الترانيم صفة متميزة تماما • ويذكرنا مطلع بعضها بالقصيدة
الفنائية للشاعر الاغريقي - بيندار Pindar - • تقول التريمة :-

سامبح بحمد - بعل - إليل - فاصنع اليّ يا صديقي • ايها المحارب
استمع لي فالتسبيح بحمد - بعل - إليل - أفضل من العسل والخمر • اتم
افضل من احسن زينة خالصة •

الخرافات

نشأت الحكاية الخرافية والتي يعد بابرئوس ثقة فيها^(٢١) اصلاً في الشرق واستخدمها سكان العراق القدماء . وهذا امر طبيعي تماما . ذلك لان الاساطير تضم آلاف الامثلة عن الحيوانات التي تتحدث وتفكر مثل الكائنات البشرية . فصار منطقيا ان تتحول هذه الحيوانات الى شخصيات معنوية تستعمل في الحكايات الخرافية التي استعملت لتوضيح بعض الدروس الخاصة ، هذا على الرغم من ان مجالها محدود . وزيادة على ذلك فقد استخدم الفن الحكايات الخرافية لتصوير مخلوقات نصف انسانية ونصف حيوانية ، فتتج عن ذلك مشاهد تلعب الحيوانات فيها الدور القيادي .

تبين اقدم الاختتام الاسطوائية التي عثر عليها في - سوسة - الاسود والثيران والابقار في اوضاع انسانية كالمشي وقيادة الزوارق ، ويمكن العثور على مثل هذه الجوقة الحيوانية - في ازمنة تساوي في قدمها مقابر - اور - وتتضمن مثل هذه المشاهد حماراً يعزف على الناي . وقد استخدم كتاب الخرافات المتأخرون مثل هذه المواضيع .

لقد ازدهر في مصر فرع آخر من الفن ، اذا جاز لنا ان نسميه كذلك ، ولم يشخص مثل هذا الفن في العراق لحد الان . ونعني بهذا الفرع القصة القصيرة عن المغامرة . ويجب الا نخلط بينها وبين الحكايات الخرافية على الرغم من فضل الاولى على الثانية . وقد عثر في مصر على أحسن نماذج لهذا الفرع واكثرها تهذيباً ومنها - قصة الاخوين - و - مغامرات سنوحي المصري - الذي استغز في - سوريا - في عهد الامبراطورية الوسطى .

ولسوء الحظ اصيب نص الخرافات الذي بحوزتنا بتلف شديد بمرور

(٢١) طبقاً لما ذكره لندل وسكوت في القاموس اليوناني ظهر بابرئوس كاتباً للخرافات سنة ٥٧٠ ق . م .

الزمن ولكن ، وبالرغم من الثغرات فيه فافتنا نستطيع ان نرى الحصان والثور يتنازعان على فضائلهما ، كما تتباهى النخلة وشجرة الاثل بسجايهما فسي صفة نزاع •

فتدعي كل منهما انها خير من الاخرى واخيرا تنتصر حجج النخلة ذلك لان سعفها وخشبها وعصيرها وثمرها عناصر ثابتة في الاقتصاد • وزيادة على ذلك فان مشاهد كتلك التي تصور حيوانات تحمل على ما يظهر تجهيزات لمأدبة معينة تظهر محفورة على لوح من عاج كان يستعمل لتزيين قيثاره وجدت في المقبرة الملكية في اور • وينتمي هذا المشهد على اكثر احتمال الى هذا النوع من الادب •

تكوين التاريخ

اتخذ امطوب الكتابة شكله المحدد ابتداء حكم السلالة الاشورية المتأخرة والامبراطورية البابلية الجديدة وجاءت بعد الكتابات التي سجلت منذ بداية التاريخ اعمال الملك الجبارة مجموعة مختلفة من الصيغ الروائية التي وضعت لها قواعد في وقتها . وهذا ما ساعدنا على استخلاص بعض الاستنتاجات المؤقتة عن الروائين واسلوبهم في الكتابة ، وعن احساس سكان العراق القداماء بالتاريخ كسجل للحوادث .

تسجل الحوليات الوقائع البارزة حسب التسلسل الزمني التاريخي فتحظى الحملات العسكرية في بلاد آشور بالمكان الافضل في سجل الوقائع . ذلك لان الحروب كانت صناعة آشور الثابتة . اما في بابل فان قسائم البنايات هي التي نالت المكانة الاولى . ونستطيع ان نراقب نمو الامبراطورية الاشورية نتيجة للسجلات العسكرية المتتابعة . وكانت اوامر الآله هي التبريرات التي تعطى لدوافع هذه الحروب ، والتي كان يزعم عنها بانها كانت حربا مقدسة . كما كان هناك عذر آخر طالما اتخذ ذريعة لهذه الحملات ، وهذا العذر هو العجز عن تقديم الاحترام الى ملك بلاد آشور . ويتمثل هذا العجز في اهمال نصوص معاهدة ، او في اهمال العلاقات الدبلوماسية . واخيرا فان الاخبار تأتي على وصف الطريق الذي سلكته الحملة ، وقصة الاتصارات المكتسبة ، مع عودة الملك الى عاصمته مثقلا بالفنائم .

هناك نوع ثان من الكتابات اقل شيوعا يعرف باسم - (كتابة العرض) يصف المراحل المختلفة التي يمر بها غزو منطقة معينة . اما النوع الثالث فهو قادر جدا ويمثل تقريرا موجزا عن حملة عسكرية . وقد قدم الملك هذا التقرير الى الآله المقيم في احد معابده . ويحرص الملك في هذا النوع على ان يتذكر بانه هو نائب الآله ، وانه يقدم له تقريرا عن اعماله في نفس الوقت الذي يقدم له فيه الشكر .

واذ تحفظ هذه الانواع الثلاثة من النص ذكرى المملكة المسؤولة عن كتابتها فانها ، مع ذلك ، لا تهتم بالتاريخ المعاصر لها . اما البابليون فانهم كانوا يكتبون المقالات عن هذه المهمة في السجل التاريخي البابلي ولهذا فقد خلفوا وراءهم سجلا باهم حوادث بابل وآشور ، والتي وقعت في الفترة ٧٤٥-٦٦٨ ق م .

كان تحت تصرف سكان العراق القدماء سجل تأريخي عن العصور المبكرة عندما ارادوا ان يتهربوا من الوقائع المعاصرة في منتصف الالف الثاني قبل الميلاد . وبالرغم من ان هذه السجلات غير كاملة من عدة وجوه ، فانها كانت مع ذلك تمثل جداول بالسلالات ومع كل ذلك فقد كانت ثمة مخاطر تحقيق بكل محاولة لتحصيل الابحاث ابعد مما يجب وتنتج هذه المخاطر من عدم امكان الوثوق بمعرفه الكتاب عن الفترات المبكرة جدا .

هناك الكثير من التناقضات في نسخ الجداول التي بحوزتنا . وبغض النظر من هذه التناقضات الموجودة في كل مجموعة فاننا نقول ان هناك نوعان من الروايات التاريخية احدهما بابلية ، والاخرى آشورية ، والواقع ان هذه الجداول تمثل نوعا من المذكرات التي تخص السلالات حسب التسلسل التاريخي ، على الرغم من وجود سلالتين تحكمان في نفس الوقت في مركزين مختلفين ، او ان احدهما قد ظهرت قبل ان تتلاشى الاخرى من المسرح .

لقد ازداد عدد الاكتشافات من هذا النوع زيادة هائلة اثناء الخمسين سنة الماضية . ولقد ساعدتنا الاكتشافات الحديثة على تصحيح النظام السابق الخاص بالتسلسل الزمني الذي كان يرتكز على عدد محدود من الوثائق التي كانت تشكل اساسا ثابتا بدرجة معينة ولكنه غير دقيق من التسلسل التاريخي الخاص بهذه البلاد ، والذي كان يفترض السنة (٤٠٠٠ ق م) بداية للتاريخ ، وكان هذا الرقم هو المقبول رسميا .

اما العادة الحديثة التي تعلق اهمية على احدث الوثائق اكتشافا حسب ، فانها تشبه المزايم القائلة باعادة تنظيم التسلسل التاريخي الخصاص بالشرق الاوسط كل اربع او خمس سنوات ، دون الحاجة الى مزيد من الوقت للتفكير في قابلية الاعتماد على اخر ما تقدمه التنقيبات من نصوص ، وبالطبع فان مثل هذه الميول لا يرضى بها .

لنأخذ ، مثلا ، هو اولا التناقضات العجيبة في الارقام التي تشير الى عدد الاسرى الذين اخذهم شلمانصر في معركة - قرقار - Qarqar وثانيا الموشور المعروف باسم (موشور نبوئيدس) المحفوظ جيدا والذي لا خلاف على قراءته ، والذي نجد ان الكاتب قد ارجع فيه قصته الفسنة الى الوراء . وهناك تفسيران مقبولان لمثل هذا الخطأ وهما موجودان في وثيقة رسمية وبناءً على ما في هذين التفسيرين فان هذا الخطأ ناتج اما من عدم مبالاة عامة ، او من غش متعمد وليس للتاريخ شأن في اي منهما .

الاسلوب التاريخي وصلاحيته

كانت السجلات التاريخية حتى نهاية العصر الذي نتحدث عنه تصاغ الاسلوب الادبي القديم الذي تمثله القصائد الهومرية(*) . ووفقا لهذا الاسلوب كان اسم كل شخص او شعب او بلد يردف بكنية لا تنفصل عنه . ونجد نفس العبارات التي استعملت في وصف حملات - سرجون - تتكرر دون تغيير وذلك في اخبار آخر اعضاء السلالة الآشورية المتأخرة . وهذا نتيجة لطريقة تربية الكتاب الذين كانوا يكدون ذاكرتهم لكي يحفظوا العبارات المعدة من قبل ، والتي يجب ان يقولوها في ظروف معينة . صحيح ان اوصافا جديدة قليلة العدد قد ظهرت في عهد حكم - آشوربانيال - ولكنها تمثل مظاهر نادرة في السجل العام للمل .

وفي نهاية المطاف فانه لا يمكن الاعتماد تماما على هذه الوثائق ، لا لانها متهمة بالمبالغة في وصف بعض الانتصارات ولكن لانها مشهورة بعدم ذكرها لاية هزيمة لحقت بالآشوريين ، هل يطارد العاهل الآشوري عدوه المهزوم عبثاً ؟ اما الاخير ، اي العدو ، فانه استطاع ، كالطير ، ان يحصل على مكان لا يمكن الوصول اليه وذلك من خلال تراجع ، هل تراجع جيوش الملك في المعركة ؟ انها تعد العدة لانسحاب مخطط الى العاصمة .

واذا ما اردنا مثالا اكثر قدما فاننا نستطيع ان نجد واحدا تأخذه من وصف معركة - قادش - والتي وقعت بين رمسيس الثاني والحشيين . اذ يذكر كل كل طرف وصفا للنص الذي يزعم انه قد احرزه . ومع ذلك فانه عندما تأخذ التصحيحات حصتها فان الكمية عينها من المادة التي تحت تصرفنا تمكتنا من ان تكون فكرة جيدة وجميلة عن سياسات الدول التي كانت تمثل قوى عالمية في الوقت الذي قلما بدأ فيه الضنير الاوربي يتحرك .

(*) نسبة الى الشاعر الافريقي القديم - هوميروس - صاحب الاللياذة -

المراسلات الخاصة

المراسلات الملكية

كان سكان بلاد بين النهرين من كتاب الرسائل الذين لا يتعبون • ولقد ظل سالما جزء كبير من مراسلاتهم ، أو هكذا قد نظن على الرغم من انه يجب علينا ان نتذكر بانه لم ي تلف شيء من مراسلاتهم طالما كانت رسائلهم غير قابلة للتمزيق • وتنصب معظم المراسلات على قضايا الاعمال ، التجارية منها خاصة ، ومن غير المؤلف كثيرا ان نعرض على رسالة ودية الى صديق غائب • تتعقد مشكلة ترجمة هذه الرسائل ما دامت تعالج مواضيع متعددة ، وتنقل فجأة من موضوع الى اخر • ويبدو انها تذكر حقائق مختلفة ليس لدينا معرفة عنها •

كانت هناك تقاليد خاصة باستهلال الرسائل ، وتظهر هذه التقاليد جامدة • وكما رأينا عندما بحثنا في موضوع الخط المسماري الذي لا يترك الا مجالا ضئيلا للمعالجة الفردية ، فانه لم يكن في ذلك الوقت من يستطيع من تسلي الرسائل ، ان يحدد اسم المرسل بمجرد النظر الى الرسالة ولذلك كان المرسل يكتب اسمه دائما كما يلي :-

(الى (أ) من خادمكم (ب))

ثم يلي ذلك تمنيات بحسن صحة المرسل اليه وغالبا ما نضع مثل هذه العبارات في نهاية رسائلنا • وقد تكون الرسائل احيانا كثيرة اللف والدوران ولكنها في صورتها الموجزة والبسيطة كانت تجري كالآتي :-

« ليهبك (هذا او ذاك) الآله الحياة » •

وتأتي بعد ذلك مادة الرسالة التي تنتهي عندما لا يجد الكاتب ما يكتبه .
ولم تكن هناك صيغة مقررة لإهاء الرسالة ، وكان الكاتب ، اذا ما اعتقد بان
هناك سبب للشكوى ، يجتهد في توضيحاته او اوامره مع الثبات التي يراد منها
ان تهديء من فكر المرسل اليه ومن امثال ذلك قوله :- ألم تعد اخي ؟ ألم
تعد ابي ؟

ان اهم الرسائل ، من البصر الذي ندرسه الان ، هي تلك التي كتبت
من قبل والى مختلف الملوك الآشوريين المتأخرين وتلقي هذه الرسائل ضوءاً
على كل وجه من وجوه الحياة سواء في البلاط ام الشؤون العامة . وهناك
اشارات الى الحرب ، ولقد سبق ان ذكرنا مقتبسات من بعض هذه الرسائل
التي تشير الى حملة سرجون على ارمينيا ، وبكل بساطة فان تلك الرسائل لم
تكن الا تقارير سرية قدمت الى الملك من قبل وكلائه .

وكان الملك يهتم بالاعمال اليومية مثل النقل بواسطة الزوارق ، واصلاح
اضرار الفيضان ، وتوجيه التوزيع الى المقصرين بواجباتهم . وهكذا فقد جاء
في احدى الرسائل :-

« يحمل حائكو المبد اعمالهم او الطلبات القاضية بوجوب حضورهم بين
يدي الملك للاستماع اليه » . ولقد جاء في رسالة الملك قوله :- « سوف
تمنحون في وقت لاحق فرصة المشول بين يدي فاذا كان لديكم شيء تريدون
قوله لي فاكتبوه » .

وتمضي الرسالة فتقول :-

« كيف يمكنني ان اتحمل رفض طلب المشول ؟ الى من اتوجه في
المستقبل ؟

وهناك العديد من تقارير الشرطة عن اشخاص مفقودين فمثلا نجد
رسالة تقول :- لقد بحثنا عنه في - بير حازا فلم نجده . كما بحثنا

عنه في مدينته ، ولم نعر عليه ، الا ان اخاه وجد هناك ويكاد يكون وحيدا
فأعتقل . وجيء به امامي ، وعندما سألته :- اين اخوك ؟ اجاب قائلاً :- لم
أره . اتني ارسل الاخ الى الاله » .

اما في الرسالتين التاليتين فانتنا نرى الموظفين وهم يؤدون اليمين
القانونية ، وتستطيع ان ترى من خلال هذه اليمين التركيب الكهنوتي
المتسلسل حسب الدرجات لمجتمع الموظفين . وتشدد الرسالة الثانية على
الاهمية التي تقضى على هذا الاحتفال الخاص . تقول الرسالة الاولى :-

« الى الملك ربي ، من خادمه (عشتار - شن - ارش) . الصحة للملك
رببي وليباركه - نبو ومردوخ . لقد أدى يمين الاخلاص للالهة في اليوم
السادس عشر من نيسان الكتاب والكهان والسحرة والاطباء ومراقبو طيران
الطيور ، وموظفو القصر الذين يسكنون في المدينة ، ويمكنهم الان ان يؤدوا
يمين الاخلاص للملك » .

اما الرسالة الثانية فتقول :-

« الى الملك ، سيدي ، من خادمه - كابيتا الصحة للملك سيدي . اما
عن مسائل اليمين الخاصة ببابل ، والتي كتب لي عنها الملك فأقول اني لم أكن
موجوداً والسبب هو ان رسالة الملك وصلتني بعد ان سافرت واخي الى
بلاد - أراشي - Arashi في جولة تفتيشية ، ولم استطع ان اصل الى
بابل في الوقت المناسب لاداء اليمين لقد قابلت في رحلة العودة كبير موظفي
البلاط . وعندما يوجهني الى الوركاء التي تحميها آلهتكم . ساكون قادراً
على تلقي يمين الولاء لسيدي الملك ، ولكنني لا اثق ثقة تامة في هذه اليمين
التي تؤدي بصورة سرية ، والتي فكرت في ان تجعل الجنود وابناءهم
وزوجاتهم ، وكذلك آلهتهم يؤدون اليمين اللائقة بالملك ولكنني لن اقبلها
الا وفقاً للصيغة التي وضفها الملك في رسالته ، وذلك عندما يأتي كبار القوم
لاداء يمين الولاء للملك ربي » .

وختاماً ها هي الرسالة التي بعث بها بعض كبار الموظفين والذي لانعرف اسمه وهي مرسلة الى الملك سنحاريب الذي عكس قوانين وراثية العرش ، فجعل ابنه الاصغر - اشور بانيبال - على عرش بلاد آشور ، وجعل ابنه الاكبر على عرش بلاد بابل .
تقول الرسالة :-

« لقد فعل الملك ، ربي ، على الارض فعلة لم يسبق ان فعلها احد حتى في السماء ، وقد جعلنا شهوداً لها . لقد خلعت على احد ابنائك الكسوة الملكية ، وجعلت منه حاكماً على بلاد آشور ، وجعلت ابنك الاكبر وريثاً لعرش بابل . ان ما فعله الملك ، تجاه ابنه ليس من صالح بلاد آشور ، ويقيناً ايها الملك فان بلاد آشور هي التي منحتك السلطان حتى مشرق الشمس الى مغربها . وحين ينال اطفالك الاعزاء شيئاً من هذا السلطان فان قلبك قد يرضي . ومع ذلك فان الملك ربي نفذ خطة شريرة . ولذلك صرت ضعيفاً في هذه البلاد » .

قارن هذه الرسالة بالرسالة التالية المرسلة من قبل مواطن بابلي جاء ليقدم شكواه الى الملك فطرد بسرعة من الحضرة الملكية . تقول الرسالة :-

« انا كالرجل الميت » تهاوى بعد رؤية الملك ، سيدي ، وعندما ارى ملامح الملك ، سيدي ، تعود لي الحياة ، وبالرغم من اني لا زلت جائعاً فاني اشعر بالانتعاش وعندما نلت شرف مسمع الملك لي غلبني الخوف فلم اجد كلمة اقولها » .

: والحقيقة ان الرهبة من الملوك هي غير الرهبة من القوانين المقدسة آنذاك . ونحن نشعر بالذهول من البلاط الاشوري وما فيه من عبودية وصراحة تجاه شخص الملك . وكانت هذه الحالة مظاهر بارزة في الشرق القديم .

العلوم ، موضوع الالهام

يحفظ لنا المؤرخ - بيروسس(*) في بقايا تاريخه التي حصلنا عليها
يعد ان ضاع معظمه ، احاديث قديمة جدا عن بداية الحضارة في بلاد بين
النهرين . ووفقا لهذه الاحاديث رأى السكان البدائيون ، وهم في مستوطناتهم
الكائنة في المستنقعات الواقعة حول الخليج العربي ، مخلوقا خرافيا عرف باسم
- اوئيس - Oannes - وكان نصف انسان ونصف سمكة . ويخرج هذا
المخلوق من الماء فيمضي النهار بين السكان مرشدا اياهم الى كل فرع من فروع
المعرفة ، ثم يرجع كل ليلة الى الاعماق . وقد استمر ظهور مثل هذا المخلوق
اربعة مرات ، وكان كل مخلوق يكمل العمل الذي بدأه سابقه .
شاع اعتقاد عام يقول انه منذ ذلك الوقت وما بعده لم تسجل اية
ملاحظة لظهور مثل هذه المخلوقات .

ونتيجة لهذا المفهوم بالذات عن المعرفة الموحى بها صارت هذه المعرفة
ليست محترمة حسب بل ومقدسة ايضا . وقد ظهر التأثير الاول لذلك في
انتشارها ، اذ اصبح من غير المناسب نشرها في العالم على نطاق واسع ، بل
يجب ان تكون مقصورة على قلة مختارة جديرة بها . وهذا يعني اولا وقبل
كل شيء - الكهان - الذين يعتبرون قيّمين عليها ، وهم بدورهم يهبونها لمن
يثبت انه يستحقها ونخص بالذكر منهم المتبرين .

وكان مفهوم التبرين آنذاك عاملا حاسما في عملية التعليم ، فهو يمنع
اولا الاعلان عن المسائل السرية جدا او الحظيرة والتي تستوجب عدم شرحها

(*) بيروسس Berossus كاهن معبد بابل الذي ترجم الى اليونانية
مؤلفات البابليين عن الفلك والتنجيم ، ووضع عن بابل تاريخا مفصلا في
ثلاثة اجزاء نشر باليونانية . وقد ضاعت مؤلفاته وبقيت منها فصول
وشذرات في مؤلفات كل من يوسفس واميانوس

في الكتب • وهكذا فقد تحتم القيام بالتعليم الشفوي وبعد ذلك تعطى المواضيع المتنوعة بصورة تدريجية، والواقع اننا لانملك اي كتاب مدرسي يفسر لنا كل ما ضمه اي فرع من فروع التعليم • لقد حرص الكهان على اعطاء المتعلم حسب ، المقالات التي تكون معانيها العميقة ابعد مما يبدو ظاهراً ، وهم واثقون من ان هذه المعاني لا يمكن ان تفهم الا بوجود مفاتيح لها • وغالباً ما تواجهنا العبارة التالية في احد النصوص :- (عليك ان تشرح للمتربين ٥٠)
 لم يطبق هذا الحظر تطبيقاً شاملاً على قراءة نص معين ، ولكنه طبق على تفسيره • لقد سبق ان رأينا ان سبب ذلك يعود الى اللغة والارقام ، اذ غالباً ما يسعى الفكر البابلي الى اخفاء نفسه عن طريق - الرمزية واروع مثال على ذلك هو ما تجده عند شرح اهمية معبد (بل - مردوخ) في بابل ، اذ يضم هذا الشرح سلسلة من الارقام التي تسجل ابعاد ساحة المعبد ودكاكه ، وابنية معبد - ايسلگيلا - وقد عرف هذا المعبد باسم - المعبد الشامخ - بسبب زقوراته السامقة •

بعد ذلك ينتقل كاتب اللوح فجأة ومن وسط وصفه الصريح ، الى ادخال الصيغ التحذيرية ، ان من المذهل حقاً ان لا تظهر اية دلالة خاصة في قائمة الارقام والابعاد هذه ؛ ومع ذلك فاننا نقول ان السر يكمن في معاني هذه الارقام ، اذ اتنا نعرف انه غالباً ما استعملت الارقام لاختفاء القضايا السرية المقدسة ، كما انها تؤلف لغة سرية يسمو معناها على افهامنا • وهنا نستطيع ان نتذكر بناء - سرجون لاسوار خرسباد - الخارجية ، وجعله طولها مساوياً لارقام اسمه ، وهذا شيء يجب اخفاؤه الا عن المتربين •

جميعات العبادة السرية

هناك سؤال يقول :- هل كانت جميعات العبادة السرية موجودة في بابل وآشور كما كانت موجودة في أماكن آخرين بصفة عامة كاليونان مثلاً ؟ لقد أحكم كتمان السر ومع ذلك فإن هناك أساساً للتفكير والقول بأن مثل هذه الجمعيات كانت موجودة . فقد ورد في القصيدة المشهورة والمعروفة باسم - المعذب الصالح - كيف زكى الإله مردوخ هذا الرجل الذي وصفت القصيدة محتته ، والذي سبق أن نزل إلى القبر ، ولكنه عاد إلى الحياة في بابل ، وفي أثناء عودته كان يمر عند كل باب بتجربة مباشرة من النعيم الذي يوحى به اسم الباب ، مثل - باب الكوثر ، وباب الجن الصالحين ، وباب السلام ، وباب الحياة - وباب الشمس - وباب الوحي - وباب كنس اللغات وباب البحث عن النعم ، وباب انتهاء الفواج ، وباب التطهير . وبعد هذه التجارب سمح له بالثول في حضرة الإله مردوخ وكانت هناك قرينته - ساربايت - والتي يعبدها ، فقدم بين يديهما تضرعه .

هناك أدلة تشير إلى أن بعض أبواب معبد - إيساكيلا - كانت تعرف بهذه الأسماء . وبناءً على ذلك فإن السؤال المطروح هو : هل كان النص مجرد سجل لرحلة حج إلى مكان مقدس أو هل أنه وصف لحالة عاش فيها المؤمن درجات من النعيم ، وأن مقدار هذا النعيم يتوقف على مقدار تقدمه في مراحل المعرفة ؟ .

يجب علينا أن نتمسك بما سبق أن قلناه أكثر من مرة ، من أن لكل مظهر من النصوص والشعائر الدينية معنى سري ورمزي ولقد سبق أن ذكرنا أمثلة عديدة حول هذه المسألة . وكلما ازدادت دراستنا للحضارة البابلية كلما ازداد تأكدنا من احتواء الفكر على عنصر خفي وأنه في أصل كل شيء يوجد رمز ، ومع أننا غالباً ما قد تتجنب حتى الشك بعدم وجوده،

الا ان معرفتنا تسمح لنا بأن نستنتج حتى ولو كان ذلك على حساب التفسيرات التي قد تبدو بعيدة المدى •

وهكذا فانه حتى ولو لم يكن هناك اساس ايجابي لايجاد هذا القدر من نقاط الضعف في هذه المسألة ، فانها على الاقل كانت تمثل شيئاً معيناً كان سكان العراق القدماء متمكنين منه • ونحن نأخذ برهان ذلك من الألواح التي سبق ان اقتبسنا منها •

اما سكان العراق القدماء ، الذين مزجوا احترام الدين مع قوة التعليل المنطقي ، فانهم كانوا ملزمين بالحصول على بعض الاستنتاجات من مفهوم الالهام هذا • فهذا المفهوم لم يكن قابلاً للتحمين واذا ما صدقنا الاحاديث المنقولة فان الكثير من المحاولات المختلفة التي بذلت من اجل ذلك لم تأت الا بالنفع القليل • والشيء الوحيد الذي يستطيع ان يفعله الانسان للمعرفة التي توحى بها الآلهة هو ان ينسقها وينظمها •

تؤكد الديانة البابلية القائمة على عبادة الطبيعة وتعدد الآلهة ، على الايمان العام الشامل بهذا الالهام • اما في الديانة التوحيدية والتي يكون فيها كل شيء من خلق آله واحد ، فان الايمان يتطلب نوعاً معيناً من معرفة الذات لكي تشكر الله على كل ما هو خير في هذه الحياة • واما بالنسبة (للبابلي الفرد) فإنه كان يؤمن ايماناً قوياً بعدم وجود شيء في هذه الحياة ، سواء كان طبيعياً ام من صنع الانسان بلا آله مناسب له • فالشعير هو الآلهة النفية (نيدابا) اما الكرمة فانها تذكره مباشرة بالآلهة (كيشتين - اتا) (الكرمة السماوية) •

ولم يكن لدى سكان مدينة (اما) سوى الاله (شارا) الذي يتذكرونه بمجرد النظر الى حقولهم وبساتينهم • وكان الرمز الذي يستعمل لكتابة اسمه هو نفس الرمز المستعمل لكتابة كلمة الخضرة •

ومجمل القول كانت الديانة البابلية تمثل نوعاً من الاساطير التي تتخذ

من القاعدة التاريخية مرجعا لها . اما ما يدخل عليها من تحسين فليس نتيجة جهد اجتهاد شخصي بل نتيجة احسان تفضل به احد الالهة على الانسان ، ويتتمي هذا الاله الى مجمع الآلهة البابلي الذي لا ينضب معينه .

هذا هو السبب الذي يجعل التقسيم الحديث للفكر والمعرفة الى فنون وعلوم طبيعية وعلوم تطبيقية ، يبدو غريبا على التصور البابلي الذي اعتبر كل فروع العلوم ذات اهمية متساوية ، وبسبب مصدرها تساوت جميعها في دقتها . اتنا سنحسب صنعا اذا ما تأكدنا من ان تقسيمنا الحديث للعلوم لم يعد يدعى الدقة وانه قد يتوجب علينا تغييره ذات يوم ذلك لان حقائق الفيزياء والكيمياء والرياضيات تنوء تحت المكتشفات الحديثة . ولما لم يكن هناك شك يطابق البابليين فأفهم لم يستطيعوا ان يروا ، كما نستطيع نحن ، عملية نشوء وتطور المعرفة على الرغم من ان هذه العملية كانت عندهم ابطأ مما هي عندنا .

علينا ، عند تكوين احكامنا عن الشعوب البدائية ان نحرص على عدم توجيه اللوم اليها بسبب ما يبدو فيها من ركود ظاهر . ان الفكر وحده لا يخلق لحد ذاته التقدم فهو بحاجة الى مهارة في العمل ، والى التجربة التي تجعل من كل خطوة الى امام استغلالا ممكنا لآفاق جديدة تمتد امكانياتها الى المستقبل دائما وتعطي نتائج غير منتهية . ان الاكتشاف لا يمكن ان يتحقق الا في مناخ مفضل تماما عند المكتشف ويبرهن تاريخ العلوم ان كل جيل يكاد ان يواجه اولئك الذين سبقوه في وطء نفس الارض قبله . ولولا حاجة المجتمع المعاصر الى المعرفة ولو الحاجة الى المعدات الضرورية لتأخرت عملية الاكتشافات .

وبعد ان تذكر هذه الظروف سوف نمضي ، لغرض التبسيط ، في تقدير قيمة العلوم بأسمائها المألوفة كالرياضيات وتطبيقاتها والفلك والعلوم الفيزيائية والكيمياء .

الرياضيات

عند وصفنا للرياضيات البابلية سوف نعلم واقفين على دراسات شاملة لهذا الموضوع قام بها (تورو دانجان) • وقد نشرت نتائج هذه الدراسات في عدة اجزاء •

يركز نظام العد السيني على العدد (٦٠) او على حاصل ضرب ، او احد كسور الرقم (٦٠) ، وقد استعمل العرب والافريق هذا النظام على حد سواء ، ولا يزال يستعمل في أوروبا الغربية في القياسات الرياضية للاقواس والزوايا ، واجزاء الوقت •

لقد استعمل البابليون هذا النظام بأضطراد كما استعمله السومريون من قبلهم • وهناك سؤال اثير عن فائدة هذا النظام الذي ترك آثاره على نظام العد الحديث ، حيث يكثر حديثنا عن (الدوزينة) او الكروص او عن - بضعة دوزينات - (*) ونعني بذلك عددا نستخدمه بدلا من كلمة مئات او الالف •

نفرض ان العدد (٦٠) هو اصغر عدد يحتوي على أكبر عدد من الكسور ، وهذا هو السبب في استعمال العدد المذكور في تقسيم السنة الى أيام ، وكذلك في اتخاذ وحدة للتعبير عن عدد الدرجات وفي تقسيم الدائرة الى ستة قطاعات • ومن المحتمل ان يكون استعمال هذا النظام قد اقتصر اول الامر على الاعداد ومن ثم طبق في مراحل متأخرة على القياسات •

نحن نعرف ان السومريين كانوا يحسبون بوحدات من الواحد الى العشرة • وبالطبع فان هذه عملية طبيعية ما دامت الاصابع تهى لهم الاعداد من واحد الى عشرة وبدلا من ان يستمروا في حسابهم من العشرة الى المائة ،

(*) الدوزينة Dozen تعداد انكليزي مقداره ١٢ اما الكروص Gross

فمقداره ٢٤ •

فأنهم توقعوا عند العدد (٦٠) • وابتداءً من هذا الأساس شرعوا يولدون نظاماً يرتكز على الوحدة (٦٠) أو كسريها (٦) و (١٢) وصولاً إلى النظام العشري • ويمكننا التعبير عن النظام العشري والنظام السومري بالعمودين المتوازنين التاليين :-

السومري الستيني	العشري
١	١
١٠	١٠
١٠×٦	١٠×١٠
$(١٠ \times ٦) \times ١٠$	$(١٠ \times ١٠) \times ١٠$
$(١٠ \times ٦ \times ١٠) \times ٦$	$(١٠ \times ١٠ \times ١٠) \times ١٠$

أما نظام القياسات الذي استخدمه السومريون فقد كان ستينياً بصورة جزئية • فمثلاً كان جدول الأوزان يقوم على أساس المفهوم العرفي المستند إلى ما يستطيع الإنسان أو الحيوان حمله • أما القيم العرفية التي تتبع النظام الستيني فقد خضعت للأوزان الصغرى مثل (المينا) وهي تساوي سدس (الحمل) المذكور آنفاً ، ثم الطالين وهو من مضاعفات المينا ، ويعادل (الحمل) وأجزاءه •

إن للسومريين فضلاً كبيراً علينا في تقسيم اليوم الذي اعتبروه شروق الشمس بداية له ، فقسبوه إلى اثني عشر ضعفاً للساعة ، أي أربعة وعشرين ساعة ، ثم قسموا كل (ضعف ساعة) إلى ثلاثين جزءاً وقد قدر الفلكسي الاغريقي (كديناس) أن منتصف الليل يجب أن يعتبر بداية لليوم • ويسبب هذا القياس خطأ أقل من الخطأ الذي يسببه الحساب بشروق الشمس •
لقد طبق على الدائرة نظام تقسيم اليوم إلى (٣٦٠) جزءاً ، وقسم (سمت)

الشمس الى قطاعات دائرية تتألف من اثني عشر (ضعفاً للساعة) ، اي (٢٤) ساعة . وفي النهاية فقد تجت منطقة البروج من هذا التصور وفي هذه المنطقة تغطي كل علامة $\frac{1}{12}$ من الدائرة الكاملة او ثلاثين درجة . وقد وسع هذا التقسيم ، الذي يعود تاريخه الى نهاية عهد الاخمينيين ، مجال علم التنجيم الذي استوعب استيعاباً كاملاً بعد ان تحققت مضامين الاعتدالات . وعلى الرغم مما في النظام السومري من عيوب بسبب اخذه بالنظام العشري تاره ، وبالنظام الاثني عشري تاره اخرى ، فإن مجال هذا النظام يكمن في كون حجم العدد غير مطلق بل نسبي وكان يعبر عنه بالموقع الذي يحتله (*) . وكان العدد يربط سلسلة كسور في قوة شينية فazole مع سلسلة اعداد صحيحة في قوة شينية تصاعدية ، وهكذا صار هذا النظام اداة مرنة تستعمل في الحساب - وعندما تبنى اليونانيون هذا النظام بصورة جزئية فقط حرموا انفسهم من هذه الخبرة ، ويمكن ان يقال نفس الشيء عن الهنود الذين لم يأخذوا الا بالجزء الخاص بالاعداد الصحيحة وعندما ادخل هذا النظام الى أوروبا الغربية من قبل العرب كان على العالم ان ينتظر حتى القرن السادس عشر للميلاد ، حتى يدرك تماماً المنافع التي يحصل عليها من سلسلة الاعداد الموجودة في قوة تنازلية .

لدينا الان العديد من المجموعات المهمة من المسائل الرياضية البابلية والتي تظهر انهم كانوا قادرين على حساب الحجم المضبوط للهرم والمخروط الناقص ، وهم لم يحسبوا الزوايا بواسطة المستوى الافقي ولكنهم حسبوها بمقدار الانحراف عن الخط العمودي . كانوا ينظرون الى اشكال ذات بعدين تقف على مستوى عمودي ولكنهم رؤوا هذه الاشكال معكوسة ولذلك وصفوها بالاشكال التي افترضوها وقالوا عن المثلث بأنه (رأس مسمار) وان متوازي الاضلاع

(*) لم تكن في هذا النظام علامة واضحة لمرئية للاعداد التي تحت العشرة والتي كانت نستنتج من المحتوى .

(رأس ثور) • وفي الوقت الذي اوفت فيه الهندسة البابلية متطلبات حياتهم اليومية ، نجد ان تطور الجبر يحظى بمساعدة كبيرة متأية من وسائل الحساب التي اتقنها البابليون ، فتقدم علم الجبر بخطوات عملاقة ، واعتبر نتيجة لذلك من اعظم انجازات ذلك العصر • ونتيجة للاتقان المدهش الذي اظهره البابليون في المعادلات الجبرية من الدرجة الثانية ، فإن تورودانجان يعتقد اعتقادا جازما ان لهذه المعادلات تأريخا يمتد في أعماق الماضي البعيد ، وانها لابد ان تكون تراثا ورثه البابليون عن السومريين •

مجموعة من الاسئلة

تتخذ المجموعات السالبة من التلف اشكالا مختلفة فهي تارة تذكر السؤال وتارة اخرى تذكر جوابه كذلك وتارة ثالثة تقرر هذه المجموعات السؤال والخطوات اللازمة لايجاد الحل ، اما عملية الحساب الحقيقية فتترك للطالب ، وقد نجد احيانا ذكرا للمسألة مع طريقة الحل . والجواب . وتبين الامثلة المعطاة عن النموذجين الاخيرين وبصورة كاملة انه يجب استعمال الجداول الحسابية ، ولكن لا يوجد شرح نظري للعمليات المتتالية التي تستخدم . وسنقتبس مثالا عن كل مسألة من كل نوع ، زيادة في الايضاح ، ولكننا مستبدل الاصطلاحات البابلية بأصطلاحات مألوفا عندنا .

(أ) المستطيل :-

لقد ضربت الطول بالعرض فحصلت على المساحة ، ثم جمعت الطول والعرض فكان حاصل الجمع فكان حاصل الضرب مساويا للمساحة وجمعت الطول والعرض والمساحة فكان الناتج الكلي للثلاثة هو تسعة ترى ما هي ابعاد المستطيل ؟

(ب) جمعت مساحة اربعة مربعات فكان الناتج دقيقة واحدة وثلاثين ثانية (٣٢) وكان مجموع اضلاع هذه المربعات دقيقتين وعشرين ثانية فما هي اطوال اضلاع هذه المربعات ؟

(٣٢) استعملت العلامات من الدقيقة والثانية في هذه المسائل لكي تشير الى اجزاء القوة المتعاقبة للعدد ٦٠ وهكذا فان الرقم ١ ، ٣٠ يعني دقيقة

واحدة وثلاثين ثانية = $\frac{1}{60} + \frac{30}{60 \times 60}$ لتفسير المسألة (٣) انظر

المسألة (٣) الملحق (١) .

الجواب :-

طول اضلاع هذه المربعات هي على التوالي :-
الاول خمسون نينده (٣٣) الثاني (٤٠) نينده الثالث (٣٠) نينده والرابع

(٢٠) نينده +

(ج) حجر مجهول الوزن :-

طرحت $\frac{1}{4}$ وزنه $\frac{1}{4}$ شاكل و (١٥) حبه ، استعدت $\frac{1}{11}$ من المقدار

المطروح + $\frac{1}{4}$ شاكل وهكذا ارجعت الحجر الى وزنه الاصلي فما مقدار

ذلك الوزن ؟

الجواب :-

أدوّن :- ٧ ، ١١ ، ٢٥ ، ٥٥ ثانية

اطرح (١) من (٧) وأضيف (١) الى (١١) • اضرب الباقي بخمسين ثانية

ثم اجمع واطرح من المجموع (٢٥) ثانية • اضرب الباقي في (٧) وهذا يعطيني
الوزن الاصلي للحجر •

د - حقل : ريمت الفرق بين عرض الحقل وطوله طرحت ثماني دقائق وعشرين
ثانية من المساحة فكان طول الضلع الجانبي يزيد على طول الجبهة بعشر
وحدات •

طريقة الحل : ربع العدد (١٠) : دقيقة واحدة و (٤٠) ثانية + ثماني

دقائق وعشرين ثانية = عشر دقائق ، $\frac{10}{4} = ٥$

$٢٥ = ٢٥$ (١٠) دقيقة + ٢٥ ثانية = (١٠) دقيقة ، ٢٥ ثانية ، ويمثل

النتائج الاخير حاصل تربيع (٢٥) اصف خمس ثواني الى (٢٥) ثانية = (٣٠)

ثانية = الضلع اطرح خمس ثواني = ٢٠ ثانية وتساوى العرض •

(٣٣) قد تكون ننده اما قياسا للطول او المربع •

وبالاضافة الى هذه المسائل المطولة جدا ، وتسهيلا لعملية الحساب نظم
السومريون العديد من الجداول التي تحتوي الخطوات اللازمة للعمليات
الحسابية المختلفة • وكانت هذه الجداول ضرورية لان وحدات القياس والكيل
والوزن كانت تشتق من طول الاصبع والذراع ، وهذا يشبه تماما ما اتفق
عليه في أوروبا الحديثة حول اتخاذ المتر اساسا للقياسات •

وبالرغم من ان هذه الطريقة تعتمد اساسا على التجربة اكثر مما هي
نظرية وبالرغم من أن (راي) (Rey) قد تطرق في وصفها قائلًا بأنها
طريقة الخطأ والصواب الخالدين ، فأنتا لا نكرر بقاء الرياضيات البابلية
فريدة من نوعها في العالم القديم كما انها تسمو على كل شيء ورثناه من
العهود القديمة •

الجغرافية - رسم الخرائط

ليس لدينا اي بيان واضح عن التصور الاشوري للارض • وعلينا ان نستنتج ذلك بأحسن ما يكون معتمدين على الوثائق المختلفة التي تشير الى هذا الموضوع ، لقد كان الاشوريون مقتنعين بعدم كروية الارض • وكانوا يقولون انها قرص دائري توجد في حدود محيطه حوافي الجبال التي تستقر عليها السماء مثلما يستقر الغطاء فوق القدر • واعتقدوا بوجود منفذين في هذه الجبال احدهما للشروق الشمس ، والثاني لغروبها • لم يثبت بصورة واضحة في مسألة مسار فلك الشمس الذي تتعقبه اثناء ليل • فهل كانت تجري في مسار دائري يمر في الجزء السميك من حوافي الجبال ، ام انها كانت تمر من جوف الارض ، اي تحت قرص الارض •

كان يعتقد ان الارض تطفو فوق مياه الهاوية ، وهي المياه التي تقابل جدول الماء المر الذي يدور حولها ، على الرغم من ان هذا على ما يظهر ، لم يكن عائقا امام وجود المياه الجوفية العذبة التي كانت تغذي الينابيع والانهار • كما لم يعق وجود عوالم سفلى تحت سطح الارض • والحقيقة ان فكرة السومريين والاكديين عن الارض شديدة الغموض ، ولا نستطيع الا ان نستنتج فنقول ان رجال المعرفة ، وهم الكهنة ، لم يلتفتوا الى مشاكل تعريف علم الكون ، وسبب ذلك ان اولئك الكهنة لم يدخروا وسعا في تكريس انفسهم لمعرفة انساب الآلهة ، ولتقرير نظام مجمع الآلهة •

يتضح من الوثائق الغديدة المتعلقة ببيع الضياع والحقول والبيوت انه كانت عند سكان العراق القدماء درجة مضية من المعرفة الرياضية لتدليل مشاكل المسح ، كما انهم عرفوا ايضا كيف يرسمون بدقة متناهية مخططات مدنهم • ، وتوجد الادلة البارزة عن ذلك بشكل لوح مسماري يظهر المخطط الاساسي العام لمدينة (نمر) وقد اثبت هذا المخطط انه يتطابق تطابقا عجيبا

وشديدا مع المخططات الذي رسمتها البعثة الامريكية اثناء تنقيها في المدينة .
لقد لوحظ ان النصب الاشورية والبابلية ، وخلافا لنصب اوربا الغربية ،
لا تتجه الى جهات البوصلة الأربع بل الى جهات فرعية ، اي مثلا الى الشمال
الغربي بدل الشمال ، والى الجنوب الشرقي بدل الجنوب . ويمتقد ان هذا
التوجه يرتبط باتجاه الرياح في بلاد بين النهرين هنالك لوح يعود الى العهد
الفارسي ويمثل مخططا للارض كما تصورها البابليون . وتقع بابل في مركز
القرص الارضي (وهذا يشبه اعتقاد الصينيين القائل بأن الصين هي مركز
العالم) . ولقد اشرت على المخطط بعض المدن والقنوات ، ثم يأتي بعد ذلك
البحر المحيط ، واخيرا يؤشر في جهة ثانية بالمثلثات على المناطق البعيدة جدا
ومن الجميل ان نرى ان المثلث الشمالي قد كتبت فيه ملاحظة تقول :-
(البلاد التي لا ترى فيها الشمس قط) . وعلى ما يظهر فأن من المحتمل ان
يكونوا عرفوا الليل القطبي عن طريق الامثال المنقولة . هناك بعض اللوحات
التي تمثل ما يعرف اليوم بأسم (دليل المسافر والسائح) وتعطى هذه اللوحات
المسافة بين مدينة واخرى ، والزمن اللازم للرحلة وتقدم هذه اللوحات المزيد
من البراهين ، وان كانت ثمة حاجة اليها ، على تطور التجارة ، وعلى تكرار
الاسفار بين مختلف بلدان الامبراطورية والاقاليم الملاصقة لها .

التقويم ، علم الفلك

لقد اعتبر العراقيون القدماء علم الفلك وسيلة وليست غاية وفائدته الرئيسة هي ان يستخدم كدليل لاهداف علم النجوم (التنجيم) والذي سوف نبحثه فيما بعد ، وليمكنهم من تثبيت التقويم .

وفي عام ١١٠٠ ق.م تبنى الاشوريون هذا العلم على الصورة التي وجدناها قيد الاستعمال في العهد الاشوري فكان الاشوريون قد اخذوا التقويم عن البابليين ؛ وكان هذا التقويم القمري - الشمسي يتألف من اثني عشر شهراً ، ويتألف كل شهر من ثلاثين يوماً ، وهذه الاشهر هي بحسب بداية السنة البابلية .

- ١ - نيسان (اذار / نيسان) .
- ٢ - ايار (نيسان / ايار) .
- ٣ - صيوان (ايار / حزيران) .
- ٤ - تموز (حزيران / تموز) .
- ٥ - آب (تموز / آب) .
- ٦ - ايلول (آب / ايلول) .
- ٧ - تيسري (ايلول / تشرين اول) .
- ٨ - مارچيسوان (تشرين اول / تشرين ثاني) .
- ٩ - كيسليف (تشرين ثاني / كانون اول) .
- ١٠ - تبيت (كانون اول / كانون ثاني) .
- ١١ - سباط (كانون ثاني / شباط) .
- ١٢ - آدار (شباط / اذار) .

وما دامت دورة الاثنى عشر شهرا تتألف من (٣٦٠) يوما فقد تقرر
 اضافة شهر كبيس في فترات منتظمة تقع اما في منتصف السنة او في اخرها ،
 ويسمى هذا الشهر الكبيس باسم الشهر السابق له مثل ايلول ثاني او اذار
 ثاني . . . الخ . ومن ناحية عملية فان هذا التقويم اثبت خلوه من عيوب
 غير مشكوك فيها . وسبب ذلك ان رداءة الطقس قد تمنع المراقبة الصحيحة
 لهلال الشهر الجديد الذي يعتمد اعلانه على هذه المراقبة ، ونتيجة لذلك فقد
 يؤخر الاعلان يوما او يومين كما ان الملك كان هو الذي يعلن هلال الشهر
 الجديد مستندا الى التقارير التي يرفعها اليه الفلكيون بشكل رسائل تتضمن
 نتائج ملاحظاتهم . ويشير ذلك الى مظهر بارز من مظاهر المراسلات الرسمية؛
 ادناه نموذج من هذه المراسلات :- (قمت بالمراقبة في اليوم التاسع والعشرين)
 وعما اذا كانت هناك غيوم ام لا ، فان الرسالة تختتم بالقول :- (لقد
 رأينا القمر أو لم نر القمر) .

وهناك رسالة اكثر تفصيلا تقول :-

(لقد رأيت القمر في اليوم الثلاثين ، والذي كان في علو اليوم الثلاثين .
 انه في الوقت الحاضر في علو مناسب لليوم الثاني من الشهر) . وهكذا
 يستطيع الملك ان يثبت اليوم الاول من الشهر) .

والنتيجة المحتملة لهذا التلكؤ في الزمن هي انه قد يكون من الضروري
 اضافة شهرين كبيسين الى نفس السنة . اما عن بداية السنة بشهر نيسان فان
 هذا يعني ان هذه البداية تتطابق في الوقت مع الهلال الجديد الذي يلبي
 الاعتدال الربيعي . اما الاهمية الخاصة التي يحتفظ بها شهر (تيسري) في

النصوص الدينية ، فانها تشير الى الذاكرة الماضي البعيد عندما كانت بداية السنة تحل في الخريف •

كانت السماء تعتبر مقسّمة الى مناطق كبيرة • فهي تشبه الارض في هذا التقسيم • وبناء على ذلك اعتبرت المنطقة الوسطى طريقا لـ - آنو - وتمر هذه المنطقة ، وبشكل منحرف ، عبر محور شمالي - جنوبي • ويوجد فوق هذه المنطقة طريق - افيل - اما تحتها فطريق - أيا - •

جداول النجوم الثابتة

لقد سجل الاشوريون والبابليون ، وبقدر ما سمحت به لهم مصادرهم البدائية ، اسماء النجوم المرئية في كل منطقة من مناطق السماء التي كانوا يعرفونها . كان طريق - انليل - يحتوي على ثلاثة وثلاثين نجما بما في ذلك مجموعتي نجوم ذات الكرسي ، والجبار ، وذئ العنان ، والسرطان ، والاسد والاكليل الشمالي ، والدب الاكبر ، والتنين ، والدب الاصغر ، والثعبان والنسر ، والنسر الواقع ، والدولفين ، والمرأة المسلسلة ، والمشتري (*) .

أما طريق - آنو - فانه يحتوي على ثلاثة وعشرين ، بينهما الحمل ، والحوث ، والثريا ، والديوان ، والشعري ، والمذراء ، والكلب الاكبر ، والشجاع ، والغراب ، والميزان ، والنقاب .

ويحتوي طريق - ايا - على خمسة عشر نجما ومن بينها الحوث الجنوبي ، والدلو ، وقنطورس ، والذئب ، والقرب ، وقلب العقرب ، والراعي .

لقد ميّز سكان العراق القدماء بين الكواكب السيارة وبين النجوم الثابتة . وقد قارنوا الكواكب السيارة بالمعزى الضالة بينما قارنوا النجوم الثابتة بالمعزى الاليفة . وتمكن العراقيون القدماء ، عن طريق الرصد والحساب ، من ان يؤلفوا جداول بالنجوم الثابتة مع سجل للمسافات الفاصلة بينها . وكان يعبر عن هذه المسافات بواسطة وحدات زمنية ترتبط نسبيتها الحسائية بوزن الماء الساقط من « الساعة المائية » (وهي اداة عرفها البابليون واستعملوها لهذا الغرض) على المر الكائن بين نجمين وقت الزوال . وهكذا كان من الممكن ان تقرأ في الجدول :-

(*) لزيادة الاطلاع على مواقع هذه النجوم تحيل القارئ الكريم الى كتاب (الطريق الى النجوم) الذي نقله الى العربية الدكتور عمر فروخ .

المسافة من غامتو Gamtu الى برج الجوزاء هي اثنان ونصف مينا
(من وزن الماء) (٢٤) •

وكانت هناك طريقة ثانية لقياس الموقع النسبي وهي بشكل صيغة تتضمن
تقسيم الخط المتوازي الذي يعتقد ان النجم يقع عليه • ويعبر عن هذا التقسيم
بالدرجات • مثال ذلك انا نقرأ في اللوح :-

(خمس درجات على مستوى الارض هي المسافة من برج الجوزاء الى
برج نجمة المساء) •

واخيرا فقد كانت هناك قياسات مطلقة او سماوية ويعبر عنها بالرجوع
الى دائرة مطلقة ذات (٣٦٠°) ، واتساع مقداره ستة أميال ونصف ، وبناءً
على ذلك فالتا قد نجد اللوح يقول :-

(هنالك ثمانية عشر الف دائرة في السماء ، تفصل بين برج نجمة المساء
والنجم الوحيد والناسك) •

كانت هذه النتائج هي المعول عليها في بلاد بين النهرين ذلك لان
الالات الوحيدة التي استعملت لمراقبة الاجرام السماوية كانت عبارة عن
انابيب تعمل عمل -المراقب، ومنها الساعة المائية والمزولة الشمسية ، والبولو -
وهي نصف كرة جوفاء فيها ابرة مثبتة في مركزها وتلقي بظلها على الجدران
فتضبط الفترات عن طريق تأثير الظل •

لم يتقيد الفلكيون بانتظار الظهور الفعلي للقمر ليحددوا بداية الشهر
الجديد • بل انهم كانوا يحيطون الملك علما بظواهر النجوم والشمس والقمر
التوازنية في مواعيد دقيقة تحدد الاعتدالات الفصيلة ، واوقات الخسوف
والكسوف • وقد تملكنا شعور بالعجب الشديد من اهتمام الملك بالظواهر

(٢٤) انظر الملحق (ب) من طرق احتساب المسافات بين النجوم •

الساوية . وهذا امر لا شك فيه . فمن المؤكد ان الملك كان يلقي التشجيع من الفلكيين على اهتمامه هذا ، والذي يعتبر وسيلة لغاية نهائية الا وهي التنجيم وبناء على ذلك فان تقارير اولئك الفلكيين كانت في شكل اجوبة لبعض الاسئلة التي يطرحها الملك نفسه .

وبناء على ذلك ووفقا للممارسة التي كانت مألوفة آنذاك ، والمتمثلة في محاولة مزج المبادي العلمية المعروفة وقتذاك بالحكايات ذوات المسحة الدينية والملحمية فلم يكن يوجد الا تفسير واحد للحملة الخليفة . وقد أريد به ان يضم كل المعرفة الفلكية الشائعة آنذاك ، وذلك عن طريق اسناد صفة خلق الاجرام السماوية وحركاتها الى - مردوخ . ولكن من المؤسف ان يكون الجزء الاكبر من الرقيم الذي يتحدث عن هذا الموضوع ضائعا .

ان آخر ما تمخضت عنه احدث الابحاث في مسألة علم الفلك البابلي هو الاعتراف ببعض الفضل للاكتشافات التي توصل اليها الفلكيون الكلدانيون . ويبدو ان الرواد الحقيقيين في هذا الحقل كانوا جماعة من فلكي القرن الثالث ق.م ، وكان من بينهم الفلكي - سودينس - Soudines - من بلاد الكلدان ، والذي كان يعيش في بلاط (بيرغانم) (Pergamum) عام ٢٣٩ ق.م ، ثم (نابوريانوس) (Naburianos) والذي لا نعرف عنه شيئا سوى اسمه ، ثم (كدينو Kidinnu) وهو مؤلف القوانين القمرية ، ويعرف باليونانية باسم (كدناس) .

العلوم الطبيعية

علم النبات • علم الحيوان • علم المعادن

كان البابليون من خيرة المراقبين • وكانوا ، منذ عهد بعيد ، على علم بوجود مجموعات واسعة من انواع الكائنات المرئية • وقد جاء هذا الكتاب على ذكر هذه النقطة مرات عديدة •

ان المظهر السلبي في موضوعنا الحاضر هو محاولة البابليين العملية المحضة لحل مشكلة التصنيف لنباتات مختلفة • فمثلا نجد ان حديقة (مردوك بلدان) قد نظمت بشكل الواح رتبت فيها النباتات لا اعتبارا للمبادئ العلمية ولكن على اساس الرجوع الى فوائدها او استعمالاتها الشائعة • ويمكن ان يقال نفس الشيء عن الرقيم الذي وجد في - سوسة ، والذي يسجل قوائم باسماء النباتات التي كانت تستعمل في صناعة المراهم • وتحمل هذه القوائم كتابة صورية تعني - رائعة - •

ان احدى العادات الانسانية العامة والدائمة والمدهشة هي طريقة الفلاحين في تسمية الاشياء وفقا لثماثلها مع بعض الاشياء المألوفة • فنحن نجد ، مثلا ، وكما هو الامر عندنا ، انه كان لدى الاشوريين نبات اسمه - لسان الكلب - ويبدو ان هناك اضطرار الى استعمال مثل هذه الاسماء على الرغم من ان النبات قد يختلف اختلافا كبيرا عن الاسم الذي نعرفه نحن به •

ولا تزال هناك بعض قوائم بأسماء النباتات لا تبدو فيها الاسماء جارية حسب تسلسل منطقي في تكوين بعض القوائم نوعا من القواميس التي تضم اسماء سومرية واكدية بشكل اعمدة متوازية • وقليل من التذكير عن الموضوع يجعلنا نرى أنه على هذه الشاكلة يجب ان يكون الحال •

لقد سبق ان عرفنا ان اسم الشيء يضيف وجوده عليه • وفي نفس الوقت فان معرفة الاسم تضيف القوة على - المسمى - ذاته • فالحصول على

قائمة الاسماء يضمن الحصول على الاشياء (المسميات) ذاتها ، وبالنسبة للبابليين فان تصنيفها يشكل غاية بذاتها اذا لم يكن الترتيب تعكسياً خالصاً .
واما عن التعريفات المطاة للحيوانات والخضراوات والمعادن فانها رديئة جداً . ولذلك فانا نجد ترميزاً واحداً لكل من - البرد - ، والحجارة ، وكذلك فواة التمر . اما ما نعتبره نحن - عشبا - فغاليسا ما كان يعتبر (شجيرة) والعكس بالعكس .

لم يكن سكان بابل اقل رغبة في مراقبة الحيوانات وكذلك الاسماك والطيور التي احسنوا تصويرها باشكال تشبه الحيوانات المعاصرة . وهناك قائمة يعود تاريخها الى ما بعد عام ٢٠٠٠ ق م بقليل . وتمطى هذه القائمة اسماء الاسماك التي يبعث في السوق في مدينة - لارسا - القرية من الخليج العربي وكان يجب ان تضم القائمة اسماء الاسماك التي صيدت في البحيرات والقنوات ، وكان عدد انواعها لا يقل عن ثمانية عشر نوعاً صالحاً للاكل .

تظهر الدلائل التي بين ايدينا ان انواع معينة من الحيوانات ، كالكلبش طويل الرأس ذي القرنين المتباعدين والمقوسين ، قد اختفت الان . كما تؤكد هذه الدلائل على ان حيوانات معينة كانت تعيش بصورة سائبة في داخل حدود بلاد بين النهرين ومن بينها حصان السهوب الصغير والذي يشبه رأسه رأس الجمل وله عرف كثيف يابس . اما صورة الثور الاحدب او الهندي والموجودة على مزهرية تعود الى عهد تاريخي مبكر ، فانها تثبت وجود العلاقات التجارية بين بلد وآخر حتى في هذا التاريخ المبكر .

وحتى الاحجار المختلفة قد جرى جردها وتصنيفها في قوائم خاصة وكان من الممكن التعرف على العديد منها . ولقد سبق ان عددنا المعادن الصناعية الرئيسية ، وذلك عندما تحدثنا عن التجارة . لقد اعطيت الاحجار اسماءً كما اعطيت النباتات ، واستندت طريقة التسمية الى - شبيه مفترض - موجود بين

اعضاء جسم الحيوان ، ولدينا ، الان ، ملحمة سومرية كان الهدف منها شرح اسماء الاحجار . وتقدم لنا هذه الملحمة مثالا رائعا عن الطريقة التي لخص بواسطتها السومريون الخواص الطبيعية للاجسام ، وهي تعتبر بديلا للنمط الحديث المتمثل في كتابة المقالات الواسعة لهذه الخواص .

لقد كتب السومريون القصائد في تعليقاتهم على اسماء هذه الاجسام . وكنتيجة لظروف غير معروفة لدينا ، واجه الاله العظيم - نورتا - تحالفا من قبل اعدائه ، واخذت الاحجار نصيبها من القضية فضلع بعضها مع الآلهة و ضلع البعض الاخر مع اعدائه ، ولكن الآلهة انتصر ، وحلت الهزائم بخصومه . ويدو ان كل هذا حدث في عهد بعيد من التاريخ . ذلك لان الاحجار قلنا كانت آنذاك تتفاوت بعضها عن بعض ، ونتيجة لهذا الانتصار ، قرر الآلهة ان يبدي اهتمامه المباشر بالاحجار فاعطاها اسماءها ، وأقر مصيرها . فالاحجار التي وقت الى جانبه اعطاها اجمل الاسماء واحسن المصير ، اذ جعلها تتخذ مواد للتماثيل والهياكل الخاصة بالآلهة ، في حين تصنع الجواهر من الاحجار الكريمة ، كما استعملت هذه الاحجار لاغراض الزينة في العبادة . اما الاحجار المعادية والمدحورة فقد حكم الاله عليها بان تستعمل ابخس استعمال ، ولتصبح عديمة القيمة . فجعل منها مواد لرصف الطرق ، واعتاب الابواب التي تطؤها الاقدام ، او ان تبقى مجرد حصى مرمى في الطرقات .

لقد عرف سكان العراق القدماء مجموعة واسعة من الاحجار ، وبخاصة الاحجار الجميلة النادرة التي صنعوا منها الاختتام الاسطوانية ، والتي كان كل فرد يحملها . ومن امثلة ذلك الصوان الازرق ، واللازورد ، والصخر البلوري ، والعقيق واحجار كثيرة اخرى لا تعد .

الكيمياء

تألف القسم الاعظم من علم الكيمياء ، كما مارسه سكان بلاد ما بين النهرين . من تطبيقاته العملية . وقد كان هؤلاء السكان من المهرة المشتغلين بالمعادن ، كما كانوا خبيرين في معالجة المواد المعدنية ، وفي تصفية الفلزات ، وتركيب السبائك غير المألوفة ، والتي حصلوا عليها عن طريق ادخال تغييرات بسيطة في نسب العناصر . فمثلا نجد ان الصيغة التي استعملت لصنع نوع من الزجاج المعروف آنذاك باسم - زجاج الزجاج الاخضر ، كانت تتألف - من ستين جزءاً من الزجاج العادي ، وعشرة اجزاء من الرصاص ، وخمسة عشر جزءاً من النحاس ، ونصف جزء من ملح البارود (تترات البوتاسيوم) ، ونصف جزء من الكلس . ولكن اذا ما استعملت نفس العناصر وفق النسب ٦٠ ، ١٥ ، ١٤ ، ١ ، ٢ تكون النتيجة هي الحصول على ما يعرف باسم « زجاج أكيد » - .

كانت تصفية المعادن تجري عادة بطريقة وضع المعادن في بوتقات ، ثم يعاد تسخينها عدة مرات . وهناك نص يعود في تاريخه الى عهد - الملك نبونيدوس . ويبين هذا النص الاختبارات العديدة التي أجريت على سبيكة وزنها خمس (مينات) اي ما يقارب باونا واحدا وأونسا . وتمود هذه السبيكة الى الخزينة الملكية . لقد فقدت السبيكة ، عند بدء التسخين في تنور خاص ، نصف مينا وخمس شواقل من وزنها ، اي ان وزن الذهب المتبقى كان اربع مينات وخمسة عشرة شاقلا ، وبعد عملية التسخين الثانية كان مقدار الفقدان في الوزن نصف مينا وشاقلين ، ونقص وزن الذهب الخالص الى $3\frac{1}{2}$ مينا و ٣ شواقل .

وعندما كان الذهب يرسل من عاهل الى عاهل ، كانت هناك شكوى يسبب الخسارة المفرطة في الوزن اثناء عملية التصفية .

لقد كان ملك مصر احد مجهزي الذهب ، لكنه لم يكن يستعمل هذا الذهب كهدايا ابداً الى من يتراسل معهم ، وانما استعمل بدلا من ذلك مواد خام في القسم الاعظم من هداياه فكانت هذه المواد تصنع ثم يعاد ارسالها الى البلاط المصري .

لقد شكى الملك البابلي (بورا بورياس ، من القرن الرابع عشر ق . م . تقريبا) مرتين لدى الملك المصري - امينحوتب السادس من رداءة نوعية الذهب الذي تسلمه منه ، وادعى في شكواه بان الذهب قد غش دون علم الملك ، والدليل على ذلك ان ما كان وزنه عشرين مينا لم يعط عند تصفيته الا اقل من خمس مينات من الذهب الخالص .

لقد اظهرت التحليلات التي اجريت على انواع مختلفة من ادوات الذهب المكتشفة في مقابر - اور - الملكية (النصف الاول من الالف الثالث ق . م) تفاوتاً كبيراً في النقاوة . ويتراوح هذا التفاوت بين سبعة قراريط الى اثنين وعشرين قيراطا ، في حين اظهر تحليل السبائك من عهد - نابونيدوس - وجود ٩٦٨ ، ٩١٤ ، ٨٧٠ جزء ذهب في كل الف جزء .

الاعراف الفنية

لقد سبق ان تناولنا بالبحث الصورة التي كونها الاشوريون من العالم . وبحثنا كذلك طرائق رسمهم لمخطط بناية ، او قطعة أرض معينة ، ثم رأينا ان الصورة التي كونوها تختلف عن صورتنا نحن . اما طرائق رسم مخططات المدن والاراضي فهي نفس طرائقنا التي تستعملها اليوم . وما دمنا لا نستطيع ان نحكم حكما منصفيا على انجازهم الفني ، وذلك وفق المقاييس النقدية العصرية ، فاننا نتساءل عن كيفية رؤيتهم للعالم المادي الذي من حولهم ، وكيف كانوا يحاولون التعبير عما كانوا يرونه .

يؤلف الوجود المجرد لهذه المقاييس ، في الحقيقة ، اغراء قائما يجملنا نعتبرها من اصلح المقاييس . وهذا اعتبار زائف تماما . ويدفعنا هذا الاغراء الى ان نقول عن وسائل تعبيرنا بانها ارقى الوسائل للتعبير عن الواقعية ؛ والواقع ان ادعاءنا القائل بان مبادئنا النقدية هي وحدها الصالحة ، انما ينبع من إفتنا الطويلة المدى لهذه المبادئ التي تحكممت باذواق العالم الغربي منذ عهد سيادة اليونان .

ان علينا ان نتذكر بان امتداد العهد الى حوالي الفي سنة ، هو اقل من المدة التي تمكن خلالها الشرق الاقصى (منذ القدم) والشرق الادنى من تقبل سلطان تقاليدهما الخاصة . وحتى لو زعمنا ان خسر الاشكال ثلاثية الابعاد كان يعتمد اعتمادا طفيفا على الاعراف ، فاننا يجب ان نأخذ بنظر الاعتبار الحقيقة القائلة بان فن الرسم كان ملزما باستعمال وسائل فنية معينة لكي يحل مشكلة تمثيل الاشكال ثلاثية الابعاد ، باشكال ذات بعدين ، او ان يعمل البعد الثالث اهمالا تاما . ان الخاصية التقليدية لهذه الوسائل تظهرها الحقيقة القائلة بان العديد من الناس الذين واجهتهم نفس المشكلة كان عندهم حلها الخاص بهم ، وأن تقبلهم لهذا الحل جاء نتيجة لفترة طويلة من

الممارسة والتدريب ، وكذلك نتيجة التشويه المتعمد للملاحظات الحسية قبل
امكانية الحصول على هذه النتيجة . ولولا هذا النوع من الممارسة والتدريب ،
والذى هو في الحقيقة عملية تفتيق الازهان عن امكانيات تقبل ما يعرض
عليها من افكار ، فلن يصبح بإمكان غير المتعلم ان يحصل على هذه النتيجة التي
ستكون صعبة الفهم بالنسبة له ، وسيبدو امامها كالهيمجي الذى يقلب
الصورة عدة مرات دون ان يعرف كنهها ، وكذلك استعدادنا لان نلقن الاعراف
الفنية الحديثة .

النحت

نبدأ بالنحت لأنه يعتبر من اقل الفنون التي مارسها الاشوريون حاجة الى الاعراف الفنية • ولسنا ملزمين بأن نتوقف طويلا عند هذا الموضوع • وسبب ذلك ان سكان بلاد بين النهرين لم يظهروا الحب الشديد للتصاوير ثلاثية الابعاد لجسم الانسان على قطاع واسع باية حالة ، اذا ما اردنا ان ندخل في حسابنا تماثيل هذا العصر التي بقيت سالمة •

ان علينا ان نتذكر ان التماثيل البشرية ذات الحجم الطبيعي كانت - على حدة من الاهتمام المحدود الذي كان البابليون يبدونه في هذا الشكل فن الفن - تتطلب كتلا من الحجارة يصعب الحصول عليها في حين كان من السهل الحصول على الالواح الصخرية التي كانت تستعمل في صنع المنحوتات المحفورة • وزيادة على ماتقدم ، وكما نعرف من الكتابات ، غالبا ما استعملت الاحجار الكريمة لتزيين التماثيل الخاصة بالآلهة والعظماء من الاشخاص • ولم يكن بالامكان آنذاك سرقة تلك الاحجار دون كسر التماثيل ؛ ومع كل ذلك فانه من الصواب القول بان الاشوريين لم يكونوا مولعين جديا بالجسم الانساني • وتظهر التماثيل التي بحوزتنا انها البست الملابس بصورة متفاوتة • فصار من العسير رؤية اجزاء الجسم التي غطاها - المثال - بالملابس السميكة •

هناك حالة واحدة عثر فيها على جذع انساني وقد بدا من الوهلة الاولى انه يمثل عشتار ، ولكن الاسم الذي يحملها هو اسم الملك - آشور بعل - كالا • ويمثل هذا الجذع المنحوت قطعة فنية رديئة الصيغة •

تظهر نوعية النحت انحطاطا ملحوظا جدا في الفن منذ ان نحتت تماثيل - غوديا - وذلك قبل عصر سلاله - سرجون - بالف وخمسمائة سنة ، وتشبه الفترة المبكرة الفترة اللاحقة في استخدام الاعراف الفنية ولكن ليس الى الحد الذي يقيد جهود الفنان العارف تماما بجمال نموذج • ويعتبر تمثال

آشوربانيبال الموجود في المتحف البريطاني نموذجاً للمنحوتات الآشورية المحفورة . ونجد في هذا التمثال ان البعد الثالث له قد اظهر بصورة ضعيفة . وعن عمد ، مما جعل التمثال يبدو وكأنه طفل . ان قلق – المثال – البادي في خوفه من صنع تمثال كبير ينوب عن الذات العليا ويحل محلها في المثول بين يدي الاله في المعبد ، قد جعله ينتج ما يشبه عبود البناء المربع الشكل . ثم انه استغل الرداء الطويل الذي يرتديه الملوك والآلهة لكي يتجنب نحت الساقين اتنا نعرف من المنحوتات المحفورة ان التمثال كان قادراً على ان يفعل هذا من ناحية فنية ، ولكنه رأى ان الساقين كانتا تمثلان اكثر اجزاء التمثال سهولة للتشهم .

ومن جهة اخرى فاننا نستطيع ان نجد السرور والمتعة في مهارة الفنان العراقي القديم ، كما نجد قدرته على تصوير الحيوانات وهنا نجد اتنا لا تناول صناعة تماثيل واسعة النطاق . ذلك لاننا نجد ان تماثيل الحيوانات تتفوق في جودتها ، وبوضوح ، على تماثيل الانسان التي كانت اكثر شيوعاً من التماثيل الكبيرة .

المنحوتات المحفورة

اظهرت لنا الاكتشافات الاثريّة الحديثة مجسوعة من الرسوم الجدارية والتي يمكن ان تتخذ ميدانا لدراسة شاملة تامة . فعندما ترك النحت متجهين الى تفحص المنحوتات المحفورة أو التصوير لن يملكنا شعور يجعلنا نظن بان الفنان كان يمارس عمله تحت اي نوع من الاحساس بوطاة الاعاقة او تثبيط الهمة ، وسنجد انفسنا امام تقاليد عريقة . لقد حقق الفنان ، وبكل جلاء ، اظهار العناصر غير التصويرية بجدارية وانطلاقة غير مترددة الى درجة تجعلنا نحن المشاهدين نتقبل ما نرى دون ان نحس بالصدود على الرغم من غرابة المشهد .

وعلى سبيل المثال انا قد نتفحص الاعمال التي انجزت في فترات حكم مختلفة للسلالة الاشورية المتأخرة . لقد كانت المنحوتات الناتجة في عهد الملك سرجون نفسه تتصف ، وعلى نطاق واسع ، بطول يفوق الحجم الطبيعي وكانت تفاصيل الصورة واضحة وحددت المسافات بصفة جيدة . اما المنظر العام الذي يضمها فلم يكن يوحي الا باشياء طارئة وغالبا ما كان يغض النظر عنه .
كلية .

هناك القليل من المواضيع الشاملة التي تشغل اللوحة بطولها . ولكن لا يوجد في هذه المواضيع العديد من الاشكال . فنحن نستطيع ان نرى ، اعتمادا على مخلفات الفترة الاخيرة من حكم عظماء ملوك السلالة الاشورية، تبدل الاعراف الفنية تبديلا جذريا يشبه التبدل الذي اصاب الفن الزخرفي في فرنسا والذي ظهر اثره بين التصاميم العظيمة للفواكه والازهار (كتركة من القرن السابق) وذلك اثناء حكم لويس الرابع عشر ولقد تحولت هذه التصاميم الى باقات ورود في عهد لويس الخامس عشر بصورة تدريجية ومهذبة ثم الى ازهار في عهد لويس السادس عشر .

لقد قست المنحوتات الاشورية المحفورة ، بنفس الطريقة وبصورة دقيقة في عهد آشوربانيال ، الى اقسام اظهرت فيها الاشكال الانسانية بنطاق اصغر، وزيادة على ذلك فاننا نجد مشاهد لمعارك حقيقية وهي تختلف كلية عن مشاهد اخرى من عهد آشورناصربال والتي نجد فيها ان الاجسام وعربات القتال والخيول والمحاربين قد اختلطوا اختلاطا لا خلاص منه ، بالموتى والجرحى .

وفي الحقيقة فقد وصل الفن آنذاك درجة كان عليه عندها اما ان يرسم خطة جديدة او ان يصاب بالهزال . ذلك لان الصيغ التقليدية اكتملت اكتمالا منطقيا فوصلت الى النتيجة النهائية .

لم يركز الفن الاشوري في عهده المبكر الا اقل ما يمكن من الاهمية على المناظر العامة . ويحتمل ان يكون هذا الفن قليل الاحساس نسبيا بانواع الجمال في الطبيعة . ومن الادلة التي تشير الى هذه الامور اشارة مرضية ، ما تم العثور عليه من اشكال يسهل تشخيصها ، وهي تمثل الاشجار كالنخيل والصنوبر والشجيرات كما ان هناك اشارة الى منطقة الجنوب التي توجد فيها الكثافة النموذجية للقصب العالي والذي يكفي لاختفاء الخيال، ولغرض الاشارة الى الشمال رست شجيرات العنب باغصانها الملتفة والتي تشكل انماطاً زخرفية جميلة .

ان احسن رسوم المناظر العامة جاذبية هي بلا شك تلك التي تمثل ركنا من مكان مخصص للصيد ، والذي كانت تحفظ فيه اسود آشوربانيال . ويبدو في هذا المشهد احد الحيوانات وهو يضطجع ، في حين يقف حيوان اخر في مكان تكلمه شجيرات العنب ، وتبرز وردة ضخمة من الارض ، وتؤلف كل اشكال هذا التركيب مشهدا ريفيا اخاذا .

الاشكال المنظورة

يتألف هذا المنظر الخاص مما يمكن ان يوصف بأنه قطعة ذات بعدين لمنظر عام . وهو لا يفتينا جوابا لتساؤلنا عن كيفية معالجة الفنان الاشوري لمسائل الاشكال المنظورة . ويبدو ان مبداءه الاساسي يكمن في اتباع ما توحى به نباهته ، عوضا عما تراه العين . كما انه تجاهل ما يبدو من تساؤل الاشكال البشرية عند ازدياد المسافة . فهو لذلك يرسم هذه الاشكال جميعا بنفس المقاييس ، فتكون النتيجة عدم انطباق الشكل المنظور على الاشكال البشرية ، ولا على معالم المنظر العام . والواقع ان هذه المعالم كانت تهمل كلية ، مما يجعل ملامح المنظر العام متراكبة بعضها فوق بعض ، فتبدو وكأنها معلقة في الهواء . كما انها تكون موزعة توزعا متبادلا بين مختلف المستويات . وهنا يجب على الناظر ان يتابعها من اعلى الى اسفل . وبالعكس ، وذلك وفقا للجهة التي يتركز فيها عمل الفنان ، ان كان في اعلى المنظر او في اسفله .

وبالرغم من ان الاشوريين والبابليين لم يستخدموا الرسم المنظور بالمعنى الحديث للكلمة ، الا انهم كانوا يتبعون اسلوبا خاصا بهم ، يصورون بواسطته مختلف الشخصيات من آلهة وملوك ، ورجال بلاط ، وناس عاديين . وكانت العناية بالتصوير تزداد تبعا لازدياد المكانة والاهمية . فالمنحوتات المحفورة والكبيرة الحجم ، الموجودة الان في متحف - اللوفر - في باريس تصور - كلكامش - بأنه النذ الاشوري لهرقل اليوناني ، وهو يصارع اسداً والشيء المهم في المجموعة هو البطل نفسه الذي كان بإمكانه ان يسحق الحيوان بالجلوس على صدره ودون اية صعوبة .

ولو كان المشهد جدولا او بحيرة اسماك تحف بهيا الاشجار لكأن الفنان يصور اولا الجدول او البحيرة ، ثم يضع الاشكال البسيطة والجانبية للاشجار على شواطئ الجدول او البحيرة .

ويبدو بعمله هذا وكأنه يصور بوحى من وجهة نظر خيالية او يعرض كل مظهر من مظاهر التصميم وكأنه يمثل وجهة نظر المشاهد الذي مشى - ووقف عند كل مظهر على التوالي - لم يكن الفنان الاشورى يرسم منظرا ناقصا لبناية معينة فيجعل احدى الواجهات وكأنها تكاد تختفي على الرغم من ان لها نفس ارتفاع بقية الواجهات ؛ انه يتصور نفسه واقفا مباشرة امام البناية فيرسم الواجهة التي يراها في حين يحتجب عن الجانب الاخر .

تعني هذه المحاولة ان الفنان كان عاجزا عن رسم صورة جانبية لهجوم على مدينة معينة واحتلالها ، وكذلك للجنود وهم يصعدون السلالم ، ما دام السلم لا يتألف من عمود واحد بل من عمودين قائمين وقضبان جانبية . سوف يخفر النحات المنظر الجانبي للسلم اذن ، وبناءا على ذلك سيظهر المهاجمون وهم يتسلقون السلم كله وبشكل مواز للارتفاعات (اللوح ٢٠) .

ولما لم يكن يستطيع - كما قد يفترض ذلك - ان يظهرهم واقفين على الدرجات ، لانه لو فعل ذلك لاختفى جزءا من السلم حيث انه كان يعرف بان السلم كامل في الحقيقة ، وانه يجب ان يصور بهذه الطريقة . وهذا ما يفسر لنا سبب عدم ظهور جزء من القوس امام وجه احد رماة السهام ، والذي ظهر في الصورة وهو يسحب سهما .

وعندما تأتي الى الاشكال البشرية نجد ان الرأس يرى جانبا في حين يرى الجزء الاعلى من الجسم تاما او منحرفا بزاوية صغيرة ، وهذا قليليل الوقوع . اما الحوض فانه ، كما هو الامر في الرأس والسيقان ، يرى في صورة جانبية ليس الا ، في حين ترى الاقدام واحدا اثر واحد وفي نفس المستوى . ويظهر القدمان كاملين دائما . ولا يحاول الفنان على الاطلاق تقصير خطوط الرسم ل اظهار الاجزاء المخفية . فالفنان يحاول جاهدا ان يحافظ ، بقدر ما يستطيع ، على مبدأ تصوير الاشياء كما هي حقيقة . وهكذا فان العين الانسانية ، عندما تشاهد كاملة ، يكون لها تعبيرها الخاص ومظهرها ،

ولذلك فإن الفنان يحفر العين كاملة في الشكل الجانبي للوجه • وبمنفس الطريقة فأننا نقول ان لحية الاشوري مربعة • ولما كانت لا تظهر هكذا في الشكل الجانبي للوجه ، فإن الفنان يظهرها مربعة على الرغم من ان وجه صاحبها لا يظهر منه الا جانب واحد •

لقد درس السيد (ر - فلاڤيني) (R. Flavigny) العديد من الصور الصغيرة دراسة تفصيلية فبناء على ذلك فأننا حينما ننظر الى مشهد ديني يتحتم علينا ان ننظر الى كل معالم الهندسة المعمارية ، واللوازم الخاصة بالطقوس الدينية ، وان نرى بعين العقل الاعمدة والنيران المقدسة والتي تظهر مضمومة وراء الآله • واذا ما صورت عربة تسير بأقصى سرعة ، وهذا غير مألوف ، فإن الخيول الاربعة تمثل ازواجا امام العربية ، وكأنها تريدان تمزقها • كما أن مقدمة العربية واضحة للعيان • وغالباً ما نجد منظراً جانبياً للآله وهو جالس على العرش الذي يستقر فوق اسدين • لقد حفرها الفنان كل على افراد ، وكل واحد امام الآخر

واخيرا فأننا قد نجد متعبدا بين الهين متماثلين يواجهه احدهما من اليمين ، ويواجه الآخر من اليسار • والتفسير المحتمل لهذا التماثل هو وجود نسختين لصورة الآله تتجه كل منهما الى جهة معينة • ويضفي الفنان على هذه الاشكال التغيرات بمهارة فائقة ، واذا ما واجهته مشكلة اظهار الجنود اثناء العمل في معسكر او قلعة ، فإنه لا يتردد عن جرنا الى داخل الخيام ليرينا ما في داخلها ، او انه قد يرسم مخططا اساسيا لجدران القلعة الخارجية التي يبرز البرج في خارجها ، فهو يشبه اشجار بحيرة الاسماك التي سبق وصفها • اما في الفراغ الطليق المتروك داخل القلعة فإنه يظهره بأقسامه التي تضم الرجال وهم منهمكون بالطبخ •

اما استثناءات هذه القواعد فهي نادرة ، وتمثل بعض الاعمال الفردية التي جاءت قبل اوانها ، ويمثل تصوير الاصطبلات الملكية احد هذه

الاستثناءات ، وهو من عهد آشوربانيبال والذي يظهر ثلاثة ارباع الوجه .
ونرى في هذا المنظر صورة كبيرة لضابط واقف عند مدخل الاصطبل
في حين ازال الفنان الجدران من الداخل ما عدا الاعمدة القائمة ، وقصده
من ذلك اظهار ما يجري في الداخل . وبالفعل فأنتا نستطيع ان نرى الصور
الصغيرة للخيول وهي سائبة .

وتعطينا (خرسباد) مثالا اخر يعتبر استثناء وهذا المثال عبارة عن
منجوتة اشورية تمثل جولة اصطياد الطيور . ويظهر في المقدمة صياد بلا لحية
في حين يكون الصياد الثاني ملتجيا ، واكبر عمرا فاذا لم يكن الشخص الاكبر
الذي يظهر في الوجه اميرا حسبما قلت ذلك قبلا في الفصل الاول فائسا
يجب ان نعتبر هذا المشهد التصويري يمثل محاولة لاستعمال الرسم المنظور
بالمعنى الحديث للاصطلاح .

الجري السريع في الفن

لرسوم الحيوانات تقاليدها الفردية الخاصة بها وبمض هذه التقاليد لا يمكن تجنبها فهي تشبه التقاليد الضرورية اللازمة لتصوير الخيل وهي تجري • ونود ان نقول هنا انه حتى وقت ظهور السينما لم تحاول اية امة ان تحلل وبكل دقة التابع المضبوط للحركات التي يصنعها الحصان الجاري • اما في الماضي فان كل امة اختارت طريقها التي استعملتها في تصوير هذه الحركات • فمثلا نجد ان اليونانيين صوروها كنوع من الخبب ، في حين كان المصريون والاشوريون يظنون ان الحصان الجاري يقف على ساقيه الخلفيتين وكأنه على وشك الوثوب • والاختلاف البسيط بين التصويرين هو ان المصريين اظهروا الساقين الاماميتين منحنتين في حين يظهرها الاشوريون ممتدتين • واخيرا فان الفن (الايجي) يظهر الحصان طائرا في الهواء مع اظهار حوافره الاربعة مرتفعة عن الارض •

لقد استعملت آلة التصوير المتحركة في تحليل الحركات فأظهرت ان كل هذه التصويرات القديمة لم تمسك بالحركات الحقيقية ، وان اليونانيين وحدهم قد اقتربوا كثيرا من الحقيقة •

علينا ان نعتبر هيئة المشي بمد الساق مجرد تقليد تصويري اخر استخدمه الاشوريون في تصويرهم حركات الخيل • وعلينا ان لا ندهش من ذلك لعدم امكانية وجود مراقبة دقيقة للحركات •

وهناك مثال اخر عن العرف الخالص هو معالجة صف من الأشخاص البشرية ، او عربة تسحبها عدة خيول ، عندما يتصور الناظر اليها وكأنه ينظر مباشرة الى المادة موضوعة البحث فالفنان يشير الى عدد محدد جدا من الاشخاص او الخيول قد يصل الى اربعة ، وذلك بحضر صف واحد او اكثر يتعقب بكل دقة مقطع الشكل الرئيس •

فهذا العرف الخاص لم يكن في الواقع مقتصرًا على الفن الاثوري وحده . فقد تم تعقب ذات الاجراء عندما يفترض ان يشاهد حيوان ذي قرون في شكل جانبي بصفة دقيقة بحيث لا يرى منه سوى قرن واحد . بقي مثل هذه الاحوال لا يصور الفنان سوى قرن واحد حسب وهذا بدون شك هو اصل اسطورة وحيد القرن .

ومما يعادل ذلك تصوير اسد بوضع جانبي اذا كان يهاجم فريسته . حقا ، فان النحات يصوره وقد امتدت قوائمه الاربعة وتقاطع احدها خلف الاخر في وضع غير فني كلية حتى بالنسبة الى صورة دب يوشك ان يلتهم فريسته .

وفي الختام فأتانا نستطيع ان نذكر عرفا فنيا كان يتحكم في اشتغال النحات بتمثيل الثيران المجنحة هائلة الحجم ، والتي كانت تحرس ابواب القصر الملكي ، وهي ناشرة اجنحتها على المدخل الذي كان على الزائر ان يمر منه . وهذا امر منطقي تماما اذا كان يفترض في المشاهد ان يكون دائما امام الجسم الذي يتطلع اليه . اما الزائر فانه سيرى الثيران امامه ، وعلى جانبه في تناوب . وبناء على ذلك فأتانا نجد ان جناحي الثور يدوان بارزين في المنحوتة ، في حين جعل الرأس والجزء الامامي ثلاثي الابعاد . ونتيجة لذلك وضع الفنان للحيوان اقدمه الاربعة ، ولكي يحدث انسجاما مع اجزاء الجسم الامامية ثلاثية الابعاد ، كرر الفنان القدم الامامي لكي يظهر الحيوان وكان له خسة اقدم حقيقة . واجمالا للوصف فأن الحيلة تبدو تهويلا اخرق ، وقلما يمز مشاعر المشاهد . وفي الحقيقة فأن الكثيرين ممن شاهدوا هذه الاعمال لم يدهشوا منها . والفضل في ذلك يعود الى مهارة النحات وسيطرته على تقاليد صنعتبه العريقة التي جعلت هؤلاء المشاهدين يحسون وكأنهم يرون التماثيل الاثورية الهجينة كالانسان ذي الرأس الحيواني ، والحيوانات ذات الرأس البشري . وسبب ذلك هو

ما لدى الفنان من صفات عجيبة وهذوء وثقة ، مكنته من ان يفرض وحدة الموضوع على العالم المنفصلة . وختاما فانتبا تؤكد على المهارة السامية التي تعلم الاثوريون بواسطتها تصوير الحيوانات كالاسبد المحتضر ، والدم القوار يخرج من فمه ، او اللبوة التي شك السهم جزءها الخلفي ومع ذلك فهي تجر نفسها متحدية الصياد ، ثم صورة الاسد وهو يغادر الققص فكل هذه الصور قطع فنية خالصة وجديرة بالملاحظة .

لم تلون التحوت الناتئة جميعها . وهي بذلك تشبه التحوت التي تلتها فيما بعد ، والتي لم يلون منها الا بعض المعالم البارزة كاللحية السوداء ، مع وجود لمسات حمراء او زرقاء على الملابس ، او ادوات الزينة التي جعلتها الالوان تبدو مرتفعة . ويبدو ان هذا التمييز في استعمال الالوان كان ممارسة مقبولة في هذا التاريخ في الشرق الادنى ، وقد استعمل في تلوين وتميز التوايت الفينيقية المصنوعة من المرمر ، والتي تعرف باسم التوايت البشرية وتشبه هذه التوايت ما كان عند المصريين . فنحن نجد في هذه التوايت ان نموذج الرأس يصنع منخفضا ، ويكاد التلوين يبرز الشعر والعين ، في حين يترك الباقي دون تلوين .

الفصل الرابع الحياة الدينية السودانية

نستطيع القول ، وبقدر ما يتعلق الامر بممارسة العبادات ، ان لدينا امكانية الوصول الى مصادر الاخبار المباشرة عن الحياة الدينية التي نشأت وتطورت على نطاق واسع في بابل ذلك ان الاوصاف العديدة للشعائر الدينية والتي ظلت محفوظة ، ذات قيمة خاصة ليس بسبب الضوء الذي تلقيه على كل تفاصيل المراسيم التي تراعى في الاعياد ، ولكن لانها تمكنتنا ايضا من استنتاج الممارسات المختلفة في المناسبات الاخرى .

هنالك تقرير يقول ان للاعياد ممارسات خاصة بها ، ويظهر هذا التقرير ان الممارسات الاخرى هي من مسائل العمل اليومي . وفي الحقيقة ، ومع وجود بعض الثغرات فإنه سيكون من الممكن اعادة تركيب التقويم الديني لسنة كاملة . ان من الصحيح القول باننا لا نملك المدونات الاخلاقية بذاتها والتي تبحث في موضوع الخير والشر . ولكن المعرفة الضرورية موجودة في قوائم الآثام ، وفي التحذيرات واللعنات التي ترفض بواسطتها اعمال معينة باعتبارها مكروهه عند الآلهة . وما علينا الا ان نلجأ الى التحليل المتأبر لكي نستخلص من هذه النصوص الفكرة البابلية عن الخير والشر . ولكن اذ يعتبر الفكر الحديث هذه المفاهيم مشتملة على نوع من الوجود المطلق ، فإن الفكر الديني العراقي القديم قد اعتبرها من نتائج ارادة الآلهة . فالخير هو ما ترضى عنه الآلهة والشر هو ما لا ترضى عنه الآلهة . ولم تنتج التصورات

المجردة عن الحق (كيتو) والعدل (ميشادو) مظاهر مقبولة في مجمع الآلهة البابلي الا في اثناء عهد سلالة بابل الاولى .

اتنا نستطيع ان نسمع صدى النمط الفكرى المبكر يتردد في قطع شجيرة من الادب البابلي ، وهي متوفرة لدينا في قصيدة (الأم الرجل الصالح) . فبعد ان تستولي المصائب على البطل يقوم بتعداد اعماله الماضية فلا يجد فيها الا الفضيلة فيصيبه التشاؤم ، ثم يتساءل عما اذا كان ما يعتقده المرء صالحا يكون في عين الآلهة شراً ؟ .

وبنفس الطريقة نقول اتنا لا نمتلك اي وصف صريح عن الفردية ، واخلاق كل آله على حدة . ويتوجب علينا مرة ثانية ان نعتمد على التحليل المقارن لما نعرفه عن ابوتهم ، وعلاقات عائلاتهم ، والخصال التي يتمتع بها كل منهم ، والاسباب الموجبة لحياتهم . وفي الحقيقة يجب ان نعرف كل الدراسة المتعلقة بطبيعتهم الحقيقية .

لقد اشبع البابلي رغبته التي تدعوه الى ان يكون سجلاً دائماً عن الحقائق الدينية الاساسية ، وذلك عن طريق تأليف القصائد ذات الصيغة الملحمية كقصيدة الحلق ، وقصيدة هبوط عشتار الى العالم السفلي ، وعندما ندرس كل هذا الادب ، فإن دراستنا هذه ستترك عندنا شعوراً بالكآبة . وهذا امر لا شك فيه . ونستخلص من هذا ان الدين الذى يكشف عنه هذا السجل يعجز عن مماشاة ذكرى احدى حضارات الماضي العظيمة والتي دامت لما يزيد على ثلاثة آلاف سنة ولعلنا بحاجة الى ان نذكر انفسنا بالحقيقة القائلة بان اية عقيدة يجب ان تحمل طابع العصر الذى صاغها او تقبلها ، وان اي عنصر سامي قد يكون فيها ، يصبح ملوماً عندما يتقادم عليه الزمن ويصبح بالامكان معرفة الغث من السمين .

ان كل عهد زمنى لاحق لا يشكل الا حلقة واحدة في سلسلة الزمن ،

ولاً مفر له من الاعتماد على سابقه • اما في دنيا الفكر فيجب ان تمضي قرون ، وان تتكون مفردات ذهنية جديدة قبل ان يكون بالامكان التثبت من صحة شيء معين ، وقيل ان يتضح الطريق للمرور الى عوالم ابعد من الاعراف المقبولة • وهذا يشبه تماما ما يحدث في دنيا العلوم الطبيعية • حيث تمكننا المهارات الفنية المحسنة من الاهتداء الى تجربة جديدة تمهد لنا الطريق الى اكتشاف جديد •

ان فشل الفكر البابلي في بناء نظام ديني متجانس لم يكن بسبب ضعف اساسي ملازم له ، ولكن بسبب ان مستوى انجازه كان قد تقرر مسبقا بحدوده الزمني •

التقلبات والتناقضات

تعتبر التناقضات وعدم التماسك من اغرب المظاهر التي تبرز في ايسة دراسة عامة للديانة البابلية . ولقد كانت العقيدة البابلية تتميز بتعدد الآلهة . كما امتاز مجمع الآلهة للبابلي الذي ضم هذه العقيدة بأنه ، ولاسباب عديدة ، كان مليئا بالعبادات المتناقضة ، وتكرار الصفات التي نسبها الى الآلهة . قد لا تكون الالهية نفسها نتيجة لايحاء مباشر ، ولكنها كانت من أهم أنواع المعرفة التطبيقية . وكان من المقبول بأن تحطي بما وهبته الآلهة انما هو مجرد أمر طارئ . لقد كان هذا هو السبب الرئيسي ، وهو غامض ان لم نقل واضح ، الذي جعل ادخال التحويرات امرا مستحيلا الى حد كبير .

وبالاضافة الى ذلك فإن ديانة العراقيين القدماء نبتت من انواع مختلفة من الجذور ، واتبعت نمط نمو القطر نفسه ، وواحدة بعد واحدة راحت اقدم المدن السومرية تبتلع جاراتها فكانت كل واحدة من هذه المدن تتمتع بالاستقلال الذاتي في سنواتها المبكرة ، كما كان لها كهاتها الخاصة بها ، وتقاليدها الرفيعة . ان علينا ان ندرك انه كان لهذه التقاليد مظهر مزدوج ، اذ كانت ملزمة بأن تساير نظرة العصر السائدة اثناء تكونها ، وهذا ما أضفى عليها نوعا من الوحدة . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى كان عليها ان تنسجم مع التنظيم ومع الاتجاهات الخاصة ، ومع حاجات كل مدينة منفردة . وهذا ما أدى الى بروز اختلافات عظيمة في التفاصيل .

لقد تقبل الفكر الديني نظاما معيناً من الابوة والقربى خاصا بالآلهة ، وهو يشبه ما عند البشر ، وفي داخل هذا الاطار راحت كل سلطة كهنوتية تضع مجموعة معتقداتها المنفردة بما في ذلك اختيار الآله الخاص بالمدينة الذي كان ، وبصورة عامة ، يختلف عن آله المدن المجاورة . وعندما راحت المدن تكون وحدات اكبر بصورة تدريجية اندمجت اولاً مجاميع

الالهة المختلفة ثم جعل الآلهة السومريون على تماس مع آلهة الغزو السامي، مع وجود عملية لا مناص منها من الاخذ والعطاء .

لقد جاء الساميون بأفكارهم الدينية معهم ورعوها اسوةً بالأفكار التي اخذوها من سومر وهضموها . فهم قد حافظوا على مجمع الآلهة السومري، ولكنهم أعادوا تسميته بأسم «سامي» وهكذا ضاعفوا العدد الذي يمثل مجموع الآلهة التي شملت عبادتها . ووفقاً لمبادئ الجماعات المختلفة من الكهان فأن النتيجة الطبيعية لكل هذا كانت اعتبار أي إله مفروض وفي مختلف المناسبات ابناً لأبوين مختلفين . ولعل أكثر امثلة عدم الثبات دهشة هو المثل الذي يمكن ايجاده في الطريقة التي كانت فيها أسماء الأزواج المختلفة من الآلهة مترابطة . لقد كانت عشائر أكثر الآلهات احتراماً وتبجيلاً ولكنها غالباً ما اعتبرت زوجة لآلهة رفيعة للمذن العظمى وعندما أدمج المجمعان كان بإمكان كل آله من الآلهة العديدين ان يدعى بأنه زوجها .

اصلاحات سلالة بابل الاولى

كان يحتمل ان تقع عدة تعديلات صغيرة نسبيا ، وذلك بمضي الوقت . ولكننا لا نعرف شيئا عن هذه التعديلات ، سوى ان اكبر الاصلاحات حدثت في عهد سلالة بابل الاولى . كانت طريقة محاولة حل المشكلة غير مباشرة . ومن المحتمل ان يكون البيت الحاكم قد حسب ان تبنيه الرسمي اسمين من آلهة المدن القديمة ، قد يثير غضب بقية المدن الاخرى ، ويدخل في حساباتها ان المدينة التي اتخذ منها الآله الاسمي تبجل أكثر من غيرها . ولذلك قرر هذا البيت ان يوجد نظاما جديدا بين جمهرة الآلهة التي تنتمي الى نفس المجمع . وبقيدر ما نعلم لحد الان ، كان الاله - مردوخ - حتى هذا الوقت ذا مكانة بسيطة نسبيا لكنه اختير ليكون الاله الرئيس ليس للدولة الجديدة حسب ، بل للمدينة وبلاد بابل ايضا . ويفضل هذه المكانة وضع مردوخ على رأس آلهة المجمع . وبقدرة قادر ارتأى الكهان عدم الحاق الضرر بعدد او اهمية الآلهة القديمة . وان كل ما حدث هو ، بكل بساطة ، اختيار آله تكون له السيادة دون الاستغناء عن الآلهة الموجودة من قبل . لقد نفذت نفس العملية في بلاد آشور بالنسبة الى الآلهة القومي ، آشور ، والذي كانت عشتار زوجته . تقدم ملحصة - الخلق - الدعم المناسب لهذه العملية الثورية والتي اعتبرتها الكهانة البابلية ذات اهمية كبيرة . وكما نعرف من قبل فان الملحمة وصفت هذه الآلهة بالعنف وبأن الرب قد تملكها ازاء تهديدات - تيامات - وكاوس - . وانها طلبت المساعدة من مردوخ الذي منحه كل سلطاتها طوعا لكي يتمكن من النجاح . واعتبر مردوخ عند بعض مدارس الفكر الديني خالقا للعالم . وعلى الرغم من هذه التفسيرات الجذرية فانه لم يكن هناك اي انقطاع عن التقاليد الخاصة بعبادة الالهة الاخرى او في قراءة تراثهم الجديدة لتمجيدها .

كما لم تكن هناك اية علامة تخرج من عدم التناسب بين التراثيم والمبادئ الدينية الجديدة •

ومما لا شك فيه ان سبب ذلك راجع اما الى الغموض الذي يؤلف المظهر العادي في الفكر الشرقي او الى خاصية تعدد الاله الموجودة اساساً في الدين البابلي •

ديانة الطبيعة البدائية وتطورها

قبل ان نبدأ بدراسة الدين في عهد السلالة السرجونية علينا ان نصف بإيجاز الاشكال المبكرة التي كان عليها هذا الدين . ذلك لان هذه الاشكال تركت وراءها اثارا مهمة . وحتى هذا العهد ، وبقدر ما نستطيع ان نصدر من احكام ، فان دين بلاد بين النهرين قام على عبادة القوى الحيوية في اطواره المبكرة جدا ، والتي انتهت قبل حلول تاريخ السجلات المدونة المبكرة ، والتي ما زالت باقية .

وكما تقول العبادة المشهورة :- ان الانسان مقياس كل الاشياء ، فان الفكر العراقي القديم قد عبر عن هذه القوى بقوله ان هناك ارواحا للولادة والتكاثر تتمثل في وحدة الذكر والانثى كما في العائلة البشرية . وكانت مجموعة هذه القوى تضم دائما شخصا ثالثا هو الآله الشاب الذكر (وهو الابن) . وكان هذا الابن يشكل دائما مصدر ازعاج طفيف لرجال الدين البابليين ، لانه كان يمتلك سلطات وخصائص ابيه ، وكان يعتبر اما ابنا او محبوبا للآلهة ، ، وذلك وفق ما كانت الظروف تتطلبه وغالبا ما كان يكتسب الصفتين في وقت معا .

لقد خفف هذا الدين من هذه القوى الحيوية عن طريق خلق عدد من الآلهة الذين كانت لهم وظائف معينة ومحدودة ، فمثلا خلق آلهة للحبوب، والغابات ، والكروم والجداول ، بالإضافة الى وجود ارواح برتبة ادنى ، او وجود العفاريت . وكل هذا ليمثل محاولة تجعل هذه الآلهة مسؤولة عن قوى الشر الخبيثة .

لقد كان هذا الدين اسيويا في خاصيته ، وهو يشبه ، من بعض الوجوه، الديانات الهندو - اوربية البدائية .

جاءت المرحلة الثانية عندما اختلط هذا الدين السومري بمظاهر اخرى مختلفة لا تتوضح الا بعد تماسها مع الدين السامي ، هذا مع العلم انه حافظ على عنصر عبادة الطبيعة الخاص به .

يرجع تاريخ هذا التماس الى العصر التاريخي . ومن المحتمل انه يرجع حتى الى ما قبل عصور ما قبل التاريخ . فلم تكن المدنية السامية في هذا الوقت متقدمة تقديما ماديا ، ولكنها في الوقت الذي كانت تتقبل فيه الحضارة السومرية تقبلا كليا تقريبا ، كانت تمتلك افكارها الخاصة بها لسكي تغير وتوسع طابعها من مصادرها الخاصة بها .

كان الاله - آنو - في هذا العصر هو الشخصية المهيمنة على مجمع الالهة . لقد كان آنو او ان يقيم في السماء (ورمزه هو نفس الرمز المشير الى كلمة - نجم -) كما كان يمتلك سلطات لا حصر لها بما في ذلك السلطات التي كانت تنسب الى ارواح - الولادة والتكاثر . اما اقرب الاقرباء الى - آنو - فهم - انليل (آله الريح) و - انكي آله العالم السفلي ، والذي اصبحت فيما بعد آله مياه الهاوية التي لا قرار لها والتي رست عليها الارض . وتأتي بعد ذلك آلهة الاجرام السماوية مثل - انزو - اله القمر ورب المعرفة ؛ و - أوتو - اله الشمس ، و نرغال - حاكم العالم السفلي او مملكة الاموات الذين كان مسؤولا عنهم ، وكان لكل واحد عن هذه الالهة زوجته ، وكانت (عشتار) من اهمهن جميعا ، وينظوي تحت اسمها نطاق واسع من الهويات الشخصية .

ان علينا الا نتصور ان عنصر عبادة الطبيعة قد تلاشى باجمعه . بل على العكس من ذلك اتنا لانزال نجد آلهة يمثل هذا العنصر مثل (دمورزي) (تموز) و (نينكزيده) و (شارا) و (نتركسو) وهي ، على التوالي ، الهة الحصاد وحطب الحياة والخضار والفيضات . اما زوجاتهم فهي (با با) إلهة الصحة ، و (نتود) إلهة الولادة و (گاتمدك) مانحة الحليب الرحيمة ،

و (غيشتين - أتا) الكرمة السماوية ، و (شالا) ربة سنا بل القمح . وليست لاحد من هؤلاء - المعبودين - اهمية من الدرجة الاولى كما للالهة التي سبق ذكرها ، ولكنهم مع ذلك يدللون على عصر مضى :

ومما لا شك فيه ان سبب هذه الحقيقة ناجم عن تأثير وتفوذ الساميين الذين ادخلوا عبادة النجوم .

واخير جاء العصر الثالث الذي سبق ان جئنا على ذكره بايجاز . ويحتمل ان يكون هذا العصر قد شهد ادخال معبودين كبيرين الى مجمع الالهة . وقد قدر لهذين المعبودين ان يصبحا فيما بعد الالهين الوطنيين لبابل وآشور ، ونقصد بذلك مردوخ وآشور .

وباستثناء ما ادخله الكشيون من عدد قليل نسبيا من الآلهة اثناء سيادتهم على العراق ، والتي استمرت عدة قرون في الالف الثاني ق.م ، فان الدين قد استعاد الشكل الذي نستطيع ان ندرسه فيه ، وذلك في ظل السلالة السرجونية والامبراطورية البابلية الجديدة .

تركيب الهيكل أو مجمع الالهة

اذا ما مضينا نحسب الآلهة الرئيسين في الهيكل البابلي ينبغي لنا ان نفهم ان ذلك يحتاج الى كتاب لكي يضم قائمة كاملة بهم ، هذا مع العلم ان الوثائق الجديدة التي تم اكتشافها ما تزال تعمل باستمرار على زيادة معرفتنا بالعديد من الآلهة الجدد الذين كانوا على الرغم من ضآلة اهميتهم يصورون لنا الزيادة المدهشة للالهة التي كانت تحدث في بلاد ما بين النهرين .

ومما لاشك فيه ان الكهانة حاولت ، وعلى الاقل ، ان تحقق نوعا من التضييق ، وان كبار الآلهة قد جمعوا في مجموعات تألفت كل واحدة منها من ثلاثة الهة واول هذه المجموعات هو الثلاث الذي يضم الآلهة (أنو) و (انليل) و (ايا) باعتبارهم الحكام الوحيدين للكون . وقد فعلت الكهانة ذلك بسبب الضغوط المتصاعدة والنتيجة عن تعقد تركيب مجمع الآلهة ، هذا بالاضافة الى الخوف من عملية الاقصاء الضرورية .

كان - أنو - من اكثر الالهة اهمية في العصر السومري . وكان مقامه في السماء ولقد مكث هناك بالرغم من وجود آلهة آخرون يعادلونه في القوة من ناحية عملية . لقد تمركزت الطقوس الدينية الخاصة بـ (أنو) في (دير) (*) في بلاد اكد ، وفي (الوركاء) في بلاد سومر وقد عبد هناك مع ابنته عشتار في المعبد الذي كان يعرف باسم أتنا - وهو صرح (أنو) او صرح السماء ويلاحظ ان - النجمة - هي العلامة التي استعملت لتقوم مقام اسمه ومقامه . كان لـ (أنو) معبد محترم جدا يقع في (الحي المقدس) الذي عرف

(*) دير : موقع على مقربة من نهر اليوسيفية جنوبي بغداد . تدل كل الشواهد على انه موقع مدينة اكد عاصمة الاكديين عشر فيه مؤخرا على مكتبة عامرة تضم الالوف من الرقم الطينية .

باسم (غرسو) من مدينة (لكش) وفي هذا المكان عبدت عشتار كذلك وكان اسمها بالسومرية (نينسي) واعتبرت ابنة (آنو) ، وفاقت عبادتها عبادة والدها في الاهمية ، وظل (آنو) معترفا به على انه اعظم الالهة شأنا حتى حلول العصر السومري الجديد وقيام سلالة بابل ، بادخال ديانة مردوخ .

كان شعار الملكية موضوعا بين يدي - آنو - ويتألف هذا الشعار من الصولجان والتاج ، ويشكل هذا الثنائي اشارة واضحة الى مملكتي سومر واكد التوأمين اللتين كانتا تشبهان مملكتي الصعيد والدلتا (مصر العليا ومصر السفلى) وعند باب مقام (آنو) السماوي ، اي مستوى منطقة البروج اوسمت الشمس ، سكن الهان شديدا التشابه ، وكانا مسؤولين عن دورة الطبيعة ، اي تكوين الفصول ، وهما تموز وكيزده . وحتى ولو كانت العبادة والالقاء تعود الى (آنو) فان ذلك لم يكن عائقا لعبادة آلهة اخرى . ذلك لان الشعائر الخاصة بآله معين لم تكن تستبعد طقوس آله آخر اللهم الا اذا اراد المتعبد نفسه ان يجعلها كذلك .

نستطيع ان نعر على الدلائل التي تشير الى علو شأن - آنو - وتفوقه، من الطريقة التي يستضيف بها الالهة الاخرين . وتعتبر سماء - آنو - المكان المفضل لاجتماع الالهة في الافراح والاتراح . وكانت هذه السماء هي مكانهم عندما هددهم الداء الذي انتقدهم منه مردوخ ، وكذلك في وقت الطوفان الذي دمر معابدهم عندما كانوا يقيمون على الارض . كان - ائليل - ثاني آله عظيم في اول ثالوث ويعرف عند الساميين باسم (بعيل) ومعناها (الرب) . وكان يحكم الارض . اما في بلاد سومر فقد تركزت عبادته في - نمر - وقد خاطبه احد ملوك لكش في اوائل العصر السومري بعبارة (ملك الالهة) . ومما لا شك فيه ان السيادة التي غالبا ما كان يتمتع بها ، تمثل انعكاسا لتقاليد كهنوتية . اذ بالرغم من انه كان يحصل

القاب الحكيم والعاقل فانه (وتحديا لرغبات عشتار وايا) كان مسؤولا عن امر بداية الفيضان . وانا نستطيع ان نحكم على مقدار تلاشي سلطته من الحقيقة القائلة بأنه عندما ظهر مردوخ على المسرح اتخذ بدوره اسم (بل - مردوخ) في حين أصبح اسم انليل ، وهو صاحب الاسم ، بعمل القديم . اما زوجة (انليل) فكانت تسمى (بعليت) (السيدة) وبالطبع فان هذا تأنيث لاسم الزوج (بعمل) .

اما ثالث هؤلاء الآلهة الثلاثة فهو - ايا - ويعرف بالسومرية باسم (انكي) . وكان يطلق عليه (رب الارض السفلى) والتي يقول عنها البابليون انها (هاوية المياه) التي يطفو فوقها العالم الارضي ولا يطفو فوقها العالم السفلى الذي يحكمه الاله - نيرغال . ويعني اسم - ايا - (بيت الماء) وهو يحد ذاته وصف لمملكته . وكان البابليون يعتقدون ان الحكمة والمعرفة تقيمان في هذه الهاوية ، والتي كانوا يعرفونها باسم - أسبو- وتمثل هذه الكلمة الصيغة السامية للكلمة السومرية - أبزو - ومعناها - مقر المعرفة - .

كانت (دامكينا) زوجة - لايا - ولم تكن مشهورة على الاطلاق في حين كان - ايا - نفسه حامي السلالة البشرية وهناك بعض الروايات الدينية التي تجعل منه خالقا للانسان . ووفقا لما في هذه الروايات فانه خلق الانسان من الطين ، ثم نفخ فيه الحياة . وكان - ايا - يعرف كذلك باسم - الفخار الالهي - وبسبب من تحذيره المسبق بالفيضان ، فانه كان مسؤولا عن ضمان نجاة زوج من الكائنات البشرية ، وبما انه كان يحكم المكان الذي كان مقر المعرفة فانه صار حاميا لكل نوع من المعرفة المتقدمة كالكهانة والسحر والطب وكان الآله يوصف بأنه الآله الذي كانت عيناه تشعان فهما وكان الماء المقدس الذي استعمل في المراسيم الدينية يؤخذ من الآبار والتي تعود لمملكته ، والتي كانت نفسها ترتبط بالبحيرة الباطنية ، او بمصبي النهرين

العظيمين دجلة والفرات اللذين كانا يعتبران آلهين أيضا •
وقصارى القول فإن هذا الثالوث الاول من الالهة قد اقتسموا فيما بينهم
السيادة على ثلاثة عناصر من العناصر الاربعة ، والعناصر الثلاثة هي الهواء ،
والارض ، والماء ، هذا على الرغم من ان سيادة (آنو) على الهواء غير منازع فيها •
اما السماء فكانت هي الاخرى مقسمة بين نفس الالهة الثلاثة • وكان طريق
(آنو) ينضوى تحت سموات (انليل) و (آيا) •

الثالث الثاني

سن ، شمس ، عشتار

بالرغم من ان امكانية اعتبار الثالث الاول ، بأي معنى من المعاني وحدة منطقية قائمة بذاتها فقد كان هناك آله لا يمكن ان يركوا دون ذكر . ويقودنا هذا القول الى (الثالث الثاني) المؤلف من سن ، الاله القمر ، وطلهه ، شمس (الشمس) وعشتار (كوكب الزهرة) .

الاسم (سن) هو الصيغة السامية للاسم السومري (ان زو) والذي يعني آله المعرفة . وتشير هذه الحقيقة الى مفهومين متضادين ووفقا لما جاء في احد هذين المفهومين فإن المعرفة تقيم في السماء ، في حين يقول المفهوم الاخر انها تقيم في المياه التي تحت الارض . وكان الذين قد جلوا من القمر (الها) وليس آلهة جماعة صغيرة من سكان العراق القدماء والتي نسبت اهمية كبرى الى القمر ، وانه هو الذي يتحكم في مرور الاشهر . فهو ينمو من هلال الى بدر ، ثم يأفل . كما ان السنة تتألف من اثني عشر شهراً قمرياً ، ويجب اجراء تبديل في هذا العدد من وقت لآخر ، وذلك لكي يحدث انسجام مع مرور سنة حقيقية . ونتيجة لذلك اصبح عدد ايام الدورة القمرية الكاملة ، وهو العدد (٣٠) ، مرادفاً للاله (سن) . وقد كتب بالعلامة التي تتضمن معنى اليوم .

لقد اعطت الدورة القمرية الثانية للاله (سن) ارتباطاً خاصاً بالنظام والحكمة ، وقد تصوره العراقيون القدماء بشكل انسان في ربيع حياته ، له لحية طويلة من اللازورد . وعندما يكون هلالاً كانوا يقولون انهم يشاهدون الزورق الذي يبحر به عبر السموات ، وجدير بالذكر ان الهلال يرتفع في عروض بلاد ما بين النهرين في خط مواز للافق ، وتتجه نهايته الى اعلى .

الاله الثاني في هذا الثالث هو شمس (الشمس) (اتو السومري) قد ندهش اذا علمنا انه الابن الوحيد للاله القمر ، وانه ليس له حق خاص به يجعله سيدا ، ذلك اتنا تعتبر الشمس اهم بكثير من الاثنين وهما القمر والزهرة اما في الشرق فان الآية تنعكس اذ بينما يرحب الناس بشمس الصباح الباكر والتي تدفئ الارض وتطارد الظلال التي تكمن فيها الارواح الشريرة مثيرة الرعب ، نجد الشمس تفتقد هذا الترحيب الذي حظيت به اول النهار وذلك حين يبدأ هذا النهار بالانتهاء • وتسير الشمس في طريقها الى الغروب ، وعندما تبلغ السم لا تعتبر صانعة الخير للانسان ، ولكنها تصبح قاتلة تلهب جلود كل الاشياء النامية ، فتحول السهول الى صحارى وتسبب ضربة الشمس التي تأتي بالموت والآلم • وزيادة على ذلك فان الشمس تفتقد عند هذه الدرجة صفتها التي تجعل منها (شمس) وتصبح (نركال) آله العالم السفلي والذي يسكن في دنياه ضحايا الآلم والواجاع التي سلطها بنفسه على البشرية •

ان الحقيقة القائلة ان (شمس) كان يعتبر آله العدل يؤلف ضوءاً جانبياً جميلاً في طريقة التفكير البدائي الذي كون هذا التصور عن الشمس التي تدفئ كل شيء والتي تعتمد العالم بضوئها وتبدد ظلمات الليل التي تخفي الأتمين • وهذه الصفات لا تليق الا باله العدل ، والذي برعايته وحمايته استطاع الملوك الشرعيون العظام قبل حمورابي ، ان يضعوا قوانينهم • وفي متحف اللوفر بباريس توجد مجموعة قوانين هذا العاهل الشهير والتي تصوره وهو واقف بخشوع امام شمس •

وفيما يجب ان يكون مرحلة متأخرة نسبياً في تطور طقوس عبادة (شمس) اعتبر هذا الاله اباً للطفلين (كيتو) و (ميشادو) (الحق والعدل) وكلاهما يمثل تصورا دينيا مجردا ابد من مدى الذكاء في الفكر البدائي وكانت (آيا) (Aia) زوجة شمس تكمل هذا الثالث الثاني بالآلهة

عشتار التي يمكن وصفها بانها خلاصة (تنخور سالك) او (نتي) او (إنا)
او العديد من الالهات السومريات الاخريات واللواتي جسدن جميعهن
مبادئ الخصوبة او التماسل .

ان وجود عشتار كمحدد مساوٍ مع الآلهة الاخرين الكيان
في مثل هذا الثالوث لهو دليل مدهش على شدة عبادة قسوى
الطبيعة والتي تأصلت جذورها في المجتمعات البدائية ، ذلك لان المجتمع
السامي كان اقل استعدادا من المجتمع السومري لاعطاء المرأة اية مسؤولية
حقيقية في حياة البلاد ، على الرغم من احتمال ان قوانين حمورابي قد اعطت
المرأة في بلاد بابل حقوقا لم تحصل عليها المرأة الفرنسية مثلا الا في بداية
القرن العشرين . ومن امثلة تلك الحقوق الحضور لاداء الشهادة في المحاكم
القانونية . لقد كانت قرينة الملك في المجتمع الاسيوى عضوا في مجلس
الدولة وكانت توقع على مراسيم الدولة ولها حق التملك . كما كان لها
عيالها الخاصون بها والذين أوكلت ادارة شؤونهم الى حاجبها الشخصي .

ولم يكن هذا الامر مقصورا على الشعوب الاسيوية وحدها ، بل تعداه
الى اليونان البدائية حيث كانت المرأة تصرف امر عيالها . ويتضح هذا من
قصة (نوسيكّا) المذكورة في (الأوديسّا) ، والتي جاء فيها انه عندما كانت
الاخيرة تخبر (اولسن) عن السبيل الذي يسلكه لكي يحصل على المساعدة
من ايها الملك . وقد طلبت منه ان يدخل القصر حيث سيجد آباها جالسا
في احدى الغرف وهو يشرب مع الآلهة ، ثم قالت له بأن عليه الا يتوانى
او يتأخر عند ايها ، بل يمضي في طريقه ، ويرمى بنفسه عند اقدام امها
التي لها القول الفصل .

ان القول بان عشتار تمثل تخيلا للعديد من الآلهات المختلفات ، يجعل
من نسبها غامضا . وتأتي مختلف النصوص على ذكر عشتار في مواضع
مختلفة ، وهي تذكر ابنة لكل من (سن) و (آنو) واخت لكل من (شمش)

و (إشيكيغال) • اما قائمة ازواجها وعشاقها فانها تملأ كتابا كاملا ، وهي تصبح بهذا الاسم او ذاك زوجة للاله العظيم الذى يكاد ان يكون الها لكل مدينة • فهي تمثل مزيج شخصيتين مختلفتين في شخص احدى الالهات مثل (سيدة الحب) و (سيدة المارك • ولا حاجة بنا لكي نرى في هذا التصور الثنائي شروحا فلسفية او شعرية قدمت في اوقات مختلفة كالقول بان الحب شقيق الموت ، او ان الموت يعادل الحب •

يجتمع في عشتار مبدأ الخصوبة الطاعى ، وهو يمتزج مع شخصية سيدة العادات • ومع ذلك فقد عبدت عشتار تحت اسمين مختلفين يعبران عن مظاهرها المختلفة فهي قد آلهت في - الوركاء - باعتبارها (عشتار عبادة الطبيعة) ، في حين كانت عشتار (حلب) و (أرييل) هي سيدة الممارك وحدها • وقد تطلب هذان المظهران شخصيتين مختلفتين وكذلك صفات ورموزا مختلفة • اما في الاقلمة الدينية المتأخرة فان المظهر المزدوج لقوى الطبيعة كان واضحا ، اذ كانت (فينوس) (الزهرة) آلهة للحب واللذة ، اما اذا كان اسمها (سايل) Cybele فيعني انها تمثل النماء البشري والحيواني •

نينورتا ، نوزكا ، نيرمال ، اداد وتموز

علينا ان ندرك بوضوح ان التالوث الاول (آنو ، ائليل ، ايا) كان يحذ ذاته كافيا من ناحية عملية لتوضيح معالم الكون . اما العنصر المفقود فهو عنصر - النار - والذي يمثله (شمش) ، من التالوث الثاني . ومع ذلك فقد احتوى مجمع الالهة على العديد من الالهة الاخرين الذين يعتبرون ثافوين بالنسبة للاعضاء الرئيسيين ، وبالنسبة لوظائفهم . وكانت الكهانة عاجزة عن تصنيفهم .

كان من بين هؤلاء الالهة - نورتا - او - اينورتا - والذي اصبح في العصر الاشوري الحديث آله المارك ، واما في بدايته فكان آله الطبيعة . وكان في العصر السومري المبكر الها للخصوبة ، كما كان في هذا العصر « رب غرسو » (نكرسو) اي الهي المقدس في (لكش) . وعندما صار - نورتا - اله الخصوبة كان يتحكم في الفيضان السنوي للأنهار والذي بدونه لا يمكن ان يكون هناك شيء اخضر . كان المحراث رمزه في السابق . وعندما حل العصر الآشوري ابدل المحراث بالسلاح . انه يمثل اندماج آلهة اخرى بما في ذلك (نشوشيناك) آله موسه و (زبابا) اله كيش . ويعبر تعدد زوجاته الواضح عن تنوع اسلافه . وتظهر النصوص المختلفة انه كان زوجاً لـ (بابا) و (نينگارك) و (گولا) . وتجسد هذه الآلهات الثلاث تنوع الصفات ، وهن لا يكتفين بمراقبة صحة الانسان وشفاء سقمه، بل انهن قادرات ، في مناسبات اخرى ، على ائزال الموت بالانسان . وتقول الاساطير اليونانية ان الكلب رفيق گولا يصبح رفيقا كذلك لـ (ايسكولايوس) بجسد الاله المعروفة بالسومرية (گيل) (Gibil) عنصر النار ويعرف عند الساميين بأسم (نوزكو) وهو اله اللهب . ويمتدح عباده فائدته ومنافعه حين يقدمون له الشكر اذ لا يمكن تقديم اللقرايين المحروقة دون مساعدته .

لقد كان الماء الجاري هو الآخر إليها فكان مهتما اهتماما خاصا بإدارة العدل ، اذ كانت له القدرة على تمييز البريء من المجرم وكان هذا في الحقيقة تجسيدا لما اسمته العصور الوسطى بقضاء الله ، حين كان المتهم يقذف في الماء ويترك امر اثبات براءته او اجرامه الى الآله . فأن غرق فهو مجرم وان طفا فإنه بريء وقد قدست شريعة حمورابي هذه الطريقة فاتبعها في احقاق الحق .

اما (نرغال) اله العالم السفلي فقد كان مغرورا وكما رأينا فإنه كان في الاصل اله الشمس ، وكان مدمرا للحياة ، وهو الذي خرج باحثا عن مملكة ، خشق طريقه وسط ارض الالعودة ، والتي عرفت باسم (أراللو) ، والتي كانت تحكمها (أرشكيغال) شقيقة شمش وعشتار . وقد أظهر نيرغال شيئا من العنف مع الملكة التي عرضت عليه الاقتران به حالا .

اما (آدد) ، وهو الثاني في هذه الجماعة فقد كان عضوا مهما في المجمع . وكان اله العواصف بما في ذلك الزوابع والبروق والمطر الرحيم الذي يرحب به الناس . لم يكن اصل آدد سومريا ولا ساميا فقد عرفنا ذلك من الاساطير الفينيقية التي اكتشفت في (راس شمرا) (*) ونقرأ فيها انه عندما قدم كل اله مع معبده الى المجمع كان (آدد) الآله الوحيد الذي لم يجهز بشيء . ومن هنا نستطيع ان نستنتج ان (آدد) لم يكن عضوا في الجماعة الاصلية للالهة . والواقع انه كان الاله الاعظم في العالم الاسوي . وكان يعتقد انه يقيم على ذروات الجبال وسلاحه الرعود والبروق . أما صفته الحيوانية فهي الثور الذي كان خواره يشبه هدير الرعد .

كان آدد يمثل المبدأ السامي للتكاثر ، والذي ينجسد بآله الاشجار والينابيع وامثالها .

(*) راس شمرا هي مدينة (اوغاريت) من اعظم المدن الفينيقية خلال الالف الثاني قبل الميلاد تقع الى الشمال من ميناء اللاذقية السوري . نقب فيها « شافير » ابتداء من ١٩٢٩ واستمر التنقيب حتى سنة ١٩٦٠ .

كانت (شالا) هي زوجة أدد . وأما كنيتهما فهي (سيدة القيلة والقمر) ونوضح هذه الكنية شخصية (شالا) توضيحا كافيا ، وما دنا نبحت في موضوع آلهة الخصب الذين بقوا حتى العصر الاشوري ، فأنتنا نذكر (نيدابا او نيسابا) آلهة الغضار ، ويختلط ذكرها بالقصب الذي كان ينمو نمواً كثيفاً في الاهوار والقنوات . وبسبب من استعمال القصب كأدوات للكتابة على الطين ، أصبحت (نيدابا) آلهة للاعداد والنبوءات التي كانت تعتمد على الاعداد . وبالإضافة الى ذلك كانت نيدابا آلهة لمنتوج كثير الفائدة، واعني به النبات المعروف بأسم ذيل الحصان وهو من السرخسيات ، والذي يحتوي رماده على الصودا ، التي تستعمل عوضاً عن الصابون عند خلطها مع الرمل والدهن .

وآخر هذه المجموعة هو تموز الذي كان غالباً ما يعطى اسمه الى احد اشهر السنة . وعلى الرغم من تناقص اهمية عبادته بمضي الوقت الا ان الحفاوة به استمرت ، ولم تمت الاساطير التي تتحدث عنه ، وفي الحقيقة عادت الاساطير الخاصة به اليه اخيراً وذلك في المناطق المحيطة بشواطئ البحر المتوسط، حيث عبد في العهد الاغريقي الروماني تحت اسم (ادونيس) . وهذا الاسم بكل بساطة هو تقبل للاسم السامي (آدون) والذي يعني الرب او السيد . ولقد عبد الابطال ايضاً ، والذين هم من نسل اب آلهي وام بشرية . ولقد سبق ان تعرفنا على كلكامش الذي كان الند الاشوري له رقل اليوناني ، وهو مثله قوي ، وقد حقق المآثر الاسطورية ولكنه ، وفي الفترة الاخيرة ، لم يجعل بدرجة شديدة تشبه درجة تبجيله في الالف الثالث قبل الميلاد . ومع ذلك فإن ذكرى اعماله الجبارة ظلت حية في الاذهان .

العفاريت

لقد تأثر كل من الدين البابلي والدين الاشوري تأثرا عميقا بالاعتقاد القائل بوجود الجن والارواح الشريرة والخيرة التي تحيط بالانسان احاطة دائرية . ولا يوجد اي حديث ثابت يفسر حقيقة هذه الكائنات . الا ان الاشرار من الجن والارواح ، كانوا يعتبرون ابناء للالهة الاشرار القدماء ، والذين اوقع بهم مردوخ هزيمة لكي يحرر زملاءه الالهة من تأثيرهم وشوذهم ، أما الاختيار من الارواح والجن فقد قيل عنهم انهم ينحدرون من بعض كبار الالهة الذين كانوا ما يزالون يعبدون .

لقد قسمت الغالبية التي يتحدر كل عفاريتها من اصل آلهي ، قسمة غير متساوية بين الجن الاخير والاشرار . ولقد تم تصوير الجن الاخير في حالتهم الظاهرة في شكل لثيران مجنحة تؤلف زخارف ابواب القصر الملكي ، او انهم كانوا ، في هذه الحالة المنظورة من بين الحرس الخاص لعشتار ، وقد كونوا جزءا من سلسلة اعدادها . ونحن نعرف ان الالهة قد تم تصنيفها بشكل هرمي . كما يمكن استخدام مجموعة الاعداد في التعبير عنها بشكل جماعي . ولقد كان اسم هؤلاء الجن الاخير يتألف في شكله المكتوب من علامة الالهة عشتار الموجودة داخل العلامة والتي تحمل معنى ثلث او ثلثي عشتار ، وما دام العدد الذي يمثل عشتار هو (١٥) فان العدد الخاص بالجن الاخير هو (٥) او عشرة .

يتفوق الاشرار من الجن على عدد الاخير منهم تفوقا هائلا . واعتبر الجن ابناء للالهة الذين يحتمل ان يكونوا اما اصدقاء واما اعداء للانسان . كما وصفوا في احيان اخرى بأنهم ابناء (بعل) ، وفي احيان غيرها ابناء (آنو) .

وفي مثل هذه الحالات كان يظن بأن امهم هي احدى إلهات العالم السفلى .
وهناك وصف اخر ينسبهم حتى الى الآله (ايا) وزوجته (دامكينا) ،
هذا على الرغم من ان هذين المعبودين كانا محبين للانسان . أما العفاريت
الذين صوروا بشكل كائنات رهيبة مرعبة فقد قسموا الى مجموعات كثيرة .
وأول هذه المجموعات وأكثرها شيوعا هي المجموعة التي تعرف باسم (أوتككو-
Utukku كما تعرف باسم السبعة ايضا ، على الرغم من احتمال تغير عدد
أفرادها في بعض المناسبات .

يحيط الغموض الشديد بالمراجع التي تشير الى هذه العفاريت ، في حين
نجد النصوص متناقضة ، وهي تؤكد ان هذه الكائنات غير معروفة في السماء ،
ولا يوجد هناك منها الا سبعة ليس الا . كما تشير مراجع كثيرة الى انهم كانوا
يعرفون بوجودهم على شكل عشائر منفصلة ، وبشكل تجمع لانواع مختلفة
من العشائر . وكان من أشهرها (ستيمو) أو (الاشباح) ثم (نامتارو) وهو
عفريت الوباء .

وعندما نسأل عما كانوا يفعلون نجد ، وفي كثير من الاحيان ، ان نباحهم
أسوأ من عظمتهم . ذلك لأنهم قد يجعلون المسافرين يتنبهون الى وجودهم
فيتعقبون خطواتهم . وهم لا يستطيعون دخول البيت أو الصغير ، أو التمتسه ،
او قلب الاشياء رأسا على عقب ليس الا ، بل انهم كانوا يستطيعون ان يشقوا
طريقهم الى الاضطرابات وهناك يؤذون الحيوانات ويقتلونها ويجعلونها تفر
الى مختلف الجهات ، وهذا هو مبدأ سيطرة الارواح الشريرة وبالمعنى الذي
كان مفهوما في العصور الوسطى .

ومهما كانت القوة التي يخلق بها الباب ، ومهما وضعت من حواجز ،
فإن بإمكان هذه الارواح ، ولوج البيت والآتيان بالافعال الشريرة ، وجعل
العوائل تختصم مع بعضها البعض . والواقع ان هذه الارواح تتحمل مسؤولية

اي ظرف سيء يحيط بالانسان كبر هذا الظرف ام صغر وواقع الامر ان الكتابة الشريرة كانت طابع احساس الانسان بأنه محاط من كل جانب بأنواع من اعداء غير منظوريين • والذين تفرعت عن حياتهم كل مصيبة كانت تنزل بالسكان البابليين في حياتهم اليومية ، كسوء الحظ ، والمشاكسة والعصية فهذه الارواح تحيط بالانسان ليل نهار •

لقد أغضب أحد البابليين إلهه بعصيانه قوانينه فقدر عليه العقاب • وبالرغم من احتمال هروبه من بيته فقد يصل الى الشارع وهو غير قادر على توفير الحماية له وتقول الاسطورة :-

(ان من يمشي بلا اله في الشارع سيكون المغرير دثاره) •
لقد كان هناك اخرون من جماعة السبعة الذين كانوا يعذبون سكان العراق القديم وهؤلاء هم الكوايس وشيطانات الاحلام اللواتي يجامعن الرجال اثناء نومهم ولا يمكن ان يفلت اي انسان منهن مهما كافح • وتمنع الشيطانة (او عفرته الاحلام ابنة آنو) ولادة الاطفال في الوقت المناسب ، كما تقتل الطفل الوليد • واخيرا فهي العين الشريرة التي لا يمكن ان يوفق أحد اذا ما وقع تحت نفوذها الذي يمتد بقوته فيحبس المطر في السماء ، ويعيق القصب عن النمو ، ويسلط العقم على المواشي في الاصطبلات والعائلة في البيت • اما الجماعة الرئيسة الثانية المنحدرة عن الجن الاشرار فيمكن ان نقول عنها بأنها تضم العفاريت الذين لا يظهرون الا في فترات متقطعة • فهم يمثلون الاشباح (ستيمو) وهم ارواح من كانت حياتهم شقية والذين خدعوا بآمال معينة ، او ماتوا ميتة عنيفة ، او من لم يتمتعوا بالسعادة التي اضمنوا انفسهم في سبيل الحصول عليها • وليس مدهشاً ان نرى عددهم كبيراً :-

من ترك جثمانه على الارض السهلة •

من لم يدفن •

من تموت عذراء
من تموت عند الولادة
من مات رضيعاً
من يسقط من أعلى النخلة
من اغرقاً قهراً

وأخيراً غيرهم ممن لا يحصى عددهم كالذين لم يشيع جثمانهم تشييعاً
كريمة لا ي سبب من الاسباب ، ومن لم يكن عندهم صديق يسيء لهم
فذور الجنازة • فكل هؤلاء لا يتعلقون بأدعاءات غير مرضية ، وجميعهم يلتحقون
بصحبة (أولئك) لغرض تعذيب الأحياء •

تصوير الالهة

من المؤكد انه لم يكن لدى الآشوريين او البابليين في العهد السرجوني ، اي تصور عن الآلهة يمكن ان يطلع عليهم صفات بشرية . ومن الممكن الان ان نأخذ الامر مأخذ التأكيد ، فتقول ان الآلهة كانوا منذ البداية ، ما عدا في بعض الحالات النادرة ، يصورون بهذه الهيئة البشرية مع عدم وجود علامات خاصة تميزهم عن البشر ، ولم تضاف عليهم العلامات الخاصة كالتياج او الشعرات الاخرى الا في عهد متأخر . وفي الحقيقة فإن ما حدث في بلاد بين النهرين تكرر حدوثه في اوربا الغربية .

كيف يمكن مساعدة جماهير شعب جاهل في التعرف على العشرات المختلفة من اعضاء مجمع الآلهة ؟ الواقع انه لم يكن بإمكان اي فنان على سطح الارض أن يعطي للاله العلامات الفارقة التي تساعد جماهير الشعب على التعرف بصورة كاملة على الآله المذكور . وهكذا فقد اضطر الفنان البابلي الى الانسياق في نفس مساق فناني اوربا الغربية الذين أعطوا القديسين والرسل الموجودين في واجهات الكنائس ، علامات فارقة تجعل امر التعرف عليهم سهلا .

وبالنظر لذلك اعطى الفنان البابلي للالهة خصائص يمكن بواسطتها تمييزهم لكي يمكن البابليين من التعرف عليهم بهذه الطريقة ولد التصوير البابلي المبكر ان رسما كان وان نحتا . ومنذ ذلك الوقت راحت كل حضارة تستخدم هذا التصوير . وكانت الخطوة الاولى لنشوء هذا الفن تنثل في وضع التيجان على رؤوس الآلهة ، ثم تلى ذلك تصوير الآلهة بملابسهم عندما يمكن تصوير اشباههم . وهذا يفسر لنا الحقيقة القائلة ان الآلهة كانوا يصورون احيانا واثناء العصر الاشوري ، وهم يرتدون بدلة تشبه البدلة التي كان يرتديها الملوك الاشوريون او الملوك في العهد الكيشي ، هذا بالاضافة الى وجود التاج القديم الذي كان اسطواني الشكل في اعلاه

صف من الريش ، او انه كان يضيوي الشكل حوله عدة ازواج من قرون الثيران . وقد اضيفت هذه القرون الى التاج لتكون من علامات التقديس في العصر المبكر جدا . وبالرغم من ان هذا كان كافيا لخلق نوع عام من التقديس الخاص بالآلهة ، الا انه غير كاف بحد ذاته لجعل الآلهة متميزين بصورة فردية ، وقد وجد الحل في اضافة علامة معينة مفردة وغير غريبة الى كل اله ، ومن العلامات التي استعملت لهذا الغرض ، السلاح والآلات والحيوانات الى غير ذلك من العلامات التي كان الهدف منها ان تكون علامة شخصية قارقة .

كان لكل اله اسطورة تضاف الى اسمه . وتزخر مثل هذه الاساطير بالحروب العجيبة ضد الآلهة الخصوم او الوحوش المخيفة . فنحن نجد الحيوان الضحية مصورا بجانب الآله او تحت اقدامه . وهذا الموضوع مفضل عند الفنان ، ويحمل الآله بيده السلاح الذي استعمله في الحرب ، أو انه يحمل آلة شخصية او خاصة . وقد تندمج صفات آلهية مختلفة في شخص الآله الفرد ، والذي تتجمع فيه عدة مظاهر مقدسة . وهكذا فأتنا نجد ان عشتار ، وهي الآلهة التي تجعل الحب ينمو ، تتخذ الثعبان مرافقا لها . ولكي تؤكد على شخصيتها كالهة على الارض ، اي عشتار على الارض وسيدة المعارك ، تراها تتخذ الاسد رفيقا لها وتحمل السلاح ، اما عشتار السموات وآلهة الحب فتتخذ لها سرباً من الحمام .

شعارات ورموز الالهة

لعل من الجميل ان نأتي ببعض الامثلة عن الشعارات المختلفة التي كان يراها البابلي مرافقة لآلهته ، او انها كانت تحملها في مواكبها او في اثناء دخول البابلي الى معابدها .

كانت شعارات (انوا) و (انليل) ، اللذين كانا من بين أقدم الآلهة ، تتمثل في التيجان التي على شكل بيضة اما - أيا - فقد صور رمزا بشكل غول خرافي له جسم سمكة ، ويشبه الجزء الامامي من جسمه مقدم جسم المعزة ، ويحمل هذا الغول صولجانا ينتهي برأس كبش .

اما الحيوان الذي يعود الى شمس فهو الاسد ، ويكون له احيانا جناحان ، اما شعاره فهو قرص الشمس وغالبا ما كان يصور الآله والسنة الذهب تندلع من كتفيه .

اما حيوان (سين) فكان تينا خرافيا وشعاره قرص القمر .

اما عشتار فبالاضافة الى الحيوان الذي سبق ان ذكرناه ، كان بوسعها ، كسيدة للمعارك ، ان تحمل القوس والكنانة ، وكانت حزم الاسلحة تبرز من كتفيها .

واذ تحمل الهة الحرب السلاح فان الهة الخصوبة كانت تحمل الاغصان والمسحاة . ومن امثلة الهة الخصوبة مردوخ ، ثم ابنه ، نابو ، اما شالا Shala

ربة سنبل القمح ، فقد رمز لها بسنبلة الشعير ، وكان شعار (نسكو) هو المصباي الغريب الشكل ، والذي يشبه حدوة القرس .

ولقد صور (ادد) واقفا فوق ثور ويحمل بيده الفأس والبرق ، ويشبه فأسه الرمح المثلث الرأس والاسنان المقوسة ، في حين نجد ان آشور كان

يصور احيانا بنصف طوله الاصلي وهو يطلق سهما ليصيب به صميم قرص الشمس المحاط بالاجنحة .

لقد تبسط امر التعرف على بعض الآلهة عن طريق خصائصهم المميزة لهم . فلقد كان (نابو) في مدينة (يورسيا) القريبة من بابل ، يحتصب مكانة ابيه مردوخ بصورة تدريجية . ولقد سبق ان عرفنا هذا من قبل وهذا يشبه تماما ما فعله مردوخ في وقت مبكر عندما طرد اباه « ايا » . وكأله للكتابة والمصير كان « نبو » يحمل الواح الكتابة والقصة الخاصة بها او اداة الكتابة ولكن، وتخليدا لذكرى الاله العظيم الذي هو والده ، اتخذ (نابو) نفس الشعار الذي كان لوالده وهو (التنين الخرافي) وذلك تماما كما فعل مردوخ . لدى الحثيين المجاورين نقش محفور لموكب معبد (يازلي) قايا (Yazili Kayà) الكائن في العراق ، يعيد الى الازدهار الزواج المقدس الذي تم بين الآله والآلهة اللذين يمثلان مبادئ التكاثر والنسل ، ويشترك الاله الاصغر ، وهو ابن الاله الاكبر ، في الموكب مرتديا ملابس الاله الاكبر ، ابي والده ، ويركب الابن والآله الكبيرة ، ابي والدته ، على نفس الحيوان وهو نمسر ارقط . وهذا يذكرنا ، وبشكل مدهش ، بالرابطة بين الاثنين .

وعندما تنقل هذه الفكرة الى مرحلة ابعد ، فاقنا تقول انه اذا ما اريد تصوير مختلف آلهة المجتمع في مجال محدود فليس هناك حاجة الى اعادة انتاج اشكالهم ما دامت شعاراتهم ورموزهم تفني عن ذلك .

الارقام ونجوم الالهة

استعمل سكان بلاد ما بين النهرين الطريقة الغريبة في الاشارة الى آلهتهم ، وذلك عن طريق الارقام . ولقد استطاعوا بامكانيات الحساب الموجودة في الارقام من ان يشملوا بهذه الطريقة حتى مجمع الالهة نفسه . وهكذا تمكنوا من ان يكتشفوا علاقات مختلفة بين الارقام . ولم يكن بالامكان ادراك هذه العلاقات لو نظر في امر الالهة بمعزل عن الارقام .

تظهر الطريقة التي وزعت بها الارقام انطواءً على نظامي العدد الستيني والعشري اللذين كانا شائعين في بلاد بين النهرين . كان العدد (٦٠) هو رقم الاله (آنو) . ويعتبر هذا العدد اساس النظام الستيني . وكان رقم - ينكرسو - هو (٥٠) ورقم - ايا - هو - ٤٠ - او ثلثا رقم - آنو - اي (شنبي ومعناها ثلثان) اما (سين) فكان رقمه (٣٠) ، وهو عدد الايام في الشهر القمري . وكان رقم عشتار هو (١٥) ، ورقم الجن الصالحين التابعين لها فهو (١٠ ، ٥) .

تبدو معظم الارقام وقد اختيرت اختيارا تعسفيا فما عدا الرقم الخاص بالاله (سن) فاننا لا نعرف سبب هذا الاختيار ، ولا نملك الا ان نقول بان هذه الارقام قد اختيرت لارتباطها بدرجات القربى ، والتي يعتقد بانها كانت موجودة بين الالهة . ونجد احيانا ان العلاقات العددية اياها تكون مسؤولة عن مثل هذه القربى . واذا ما فهمنا هذه النقطة فاننا نستطيع ان نقول بان ابعاد معبد - ايساكيلا - كانت تخفي معنى غامضا ، وليس من الضروري في الارقام نفسها ولكن في مضامينها التي تجعل القياسات منطقية على عالم كامل من المعاني الخفية ، والتي تحرك بدورها القوى السماوية التي لا يدركها الا המתرون على هذا النوع من اللغة الرياضية التي تمجد الامور الخفية

المقدسة كما يقول المتضلعون في هذه القضايا ما بالنسبة لغير المتمرنين فانها تبقى مجرد مجموعة أبعاد •

لقد كان كل من الشمس والقمر الهين قائمين بذاتهما، في حين كان يتم تشخيص بقية الآلهة عن طريق ارتباطهم بالنجوم او الكواكب السيارة فمثلا ترتبط عشتار مع الزهرة ، مردوخ مع المشتري ، وايا مع الصوت الجنوبي والدلو والشرع والسفينة وعندما دعت الحاجة الى ايجاد القاب احتمالية لمردوخ في سلالة بابل الاولى عبرت ملحمة الخليفة في احد اجزاءها عن ذلك قائلة ان مردوخ ، وبعد خلق الارض ، قام بفرض النظام في السموات وقرر مسارات النجوم •

ان الفصل الذي يحتوي هذا القسم يكاد يضع بكليته •
لقد جعل مروخ منقذا للالهة وفيه تنتهي المعرفة الفلكية • ثم يؤكد على تفوق مردوخ على بقية الآلهة • ولما كانت كل نجمة الهأ وبطلا ، او فردا من الجن فان مردوخ هو الذي وضع قوانين هذه النجوم التي يجب ان تلتصق بها •
كان المشتري هو الاختيار المناسب بصورة خاصة لمردوخ ، ذلك لان مدار المشتري يختلف عن مدارات كل الكواكب السيارة الاخرى ، اذ انه يظهر اقل ما يمكن من الانحراف عن سمت الشمس ، كما انه من اكثرها ، استقراراً ، فهو يناسب الحكم •

تقع كل النجوم ضمن دنيا (آنو) • وعندما تكون سلطته في الحضيض فان هذه النجوم تشكل - جيش آنو - • وهذا ليس بالشرف الرفيع اذ انها تمثل آنذاك كل جماعة الآلهة ، بما في ذلك الآلهة الذين تم اخضاعهم في الصراع الذي دار بين مردوخ و (كاوس) •

تماثيل الالهة

لدينا العدد الكبير من صور الآلهة من عهد السلالة السرجونية ، وذلك اذا ما ادخلنا في حسابنا كل الاختام الاسطوانية التي يظهر عليها هؤلاء الآلهة . اما عدد التماثيل فانه صغير نسبيا مع ندرة التماثيل كبيرة الحجم . والتفسير المحتمل لذلك هو ما نقرأه في كتابات المؤلفين القدامى من ان التماثيل كانت تصنع من مواد ثمينة ، فاذا ما اخذنا هذه الحقيقة بنظر الاعتبار ، بالإضافة الى حجوم التماثيل ، نجد ان قادة الحملات العسكرية الظافرة قد ابدوا اهتماما خاصا بهذه التماثيل . وبناءا على ذلك فانهم قضوا بتدميرها . هناك تماثيلان جديران بالذكر . يمثل الاول جذعا نموذجيا لاثني وهو من الصخر ، ويوجد عليه ما يشير الى الملك - آشور بعل كالا(*) ، فهو لذلك ، اكثر قدما من عهد السلالة السرجونية ، ولعله يمثل (عشتار الوركاء) ويكاد يكون التمثال بلا شكل ، بالإضافة الى كونه ثقيلًا وهذا ما يظهر قلة احساس الاشوريين في تصوير الجسم الانساني .

اما التمثال الثاني (او بالاحرى الفرد الثاني من الزوج) فانه اقل صيانة ، وهو موجود في المتحف البريطاني ويعتقد انه يمثل الاله - نبو - . ولزيادة التأكيد على قابلية تحمله لعوادي الزمن فان النحات صنعه اقتداءا بالتمثال البرونزي الذي يمثل الملكة (ناير - اسو) ملكة (سوسه) والموجود الان في متحف اللوفر في باريس . وقد صنع هذا التمثال في زمن يسبق زمن التمثال الثاني بخمسة قرون وصانعوهم صناع البرونز العيلاميون .

(*) آشور بعل كالا من ملوك بلاد آشور دام حكمه ثمانين عشرة سنة في الفترة ١٠٧١ - ١٠٥٤ قبل الميلاد .

نعود الى الحديث عن التمثال الثاني فنقول ان النحات يلبس هذا التمثال -
الصداري التي تناسبه جيدا مع التنورة الطويلة التي تشبه الجرس والتي تسع
عند القدمين لتسمح بقدر من الاستقرار والصلابة للتركيب كله . يقف
الاله رافعا ذراعيه امامه وله لحية ويضع على رأسه تاجا ذا قرنين متعارضين .
وتشير الكتابة الموجودة في مقدمة رداء الاله الى (سامو - دامات) وهي
نائبة الملك في زمن (ادد نيراري الثالث) (مصدر اسطورة سميراميس) (*)
ويرجع تاريخ التمثال الى عام ٨٥٠ ق م . فهو يشير الى عصر سابق لمصر
سرجون . تنتهي الكتابة بالصفة الذكر بموعظة رزينة تقول :- (ايها الانسان
القادم بعدنا ، لا تثق باي اله آخر سوى (نابو . وهذه صيغة غير مألوفة
لكنها معقولة ، وهي مجرد امتداد منطقي للكتابات التي تشير الى عدد الاله
وكان تدعو كلا منهم باسم - ملك - الآله - او - رب الارباب

لم تحظ النظرية التي تقول بان التمثال يمثل الاله - نبو -
بالقبول الشامل ، اذ تعاكسها الحقيقة القائلة بان التمثال فرد من زوج ليس
الا . وهذا يوحي بان كلا من التمثالين كانا موضوعين في مدخل احد المحارب ،
كما كانت العادة جارية بالنسبة للالهة التي هي اقل شأنا (وجدت تماثيل
مشابهة في ارسلان طاش وفي ساحة المعبد في خرسباد) .

وزيادة على ذلك فان لباس التمثال الموجود في المتحف البريطاني الان
بسيط ، ولا تزينه الا القليل من المجوهرات ، وهذا ما يجعله موازيا للتماثيل
التي كانت موجودة في (ارسلان طاش وخرسباد) كما يجعله متناقضا مع
ما نعرفه عن تماثيل كبار الالهة . اما القول بان التاج غير مزين فنرد عليه
قائلين بان وضع التمثال ووجود يديه في حالة ارتقاع مع ملامسة الخصر ،
وكون الكفين مفتوحين وكأنهما تصفقان ، نقول ان كل هذا يشخصه
باله قليل الشأن ، أو بأحد الجن وليس بأي من الالهة الكبار . وتبدو

(*) حور اسم سميراميس في الاصل من اسم سامرامات . وكانت الاساطير وكتب
المؤرخين القديم تعتبر سميراميس الهة لاشور وليست نائبة للملك .

الحجة سليمة اذا ما طبقت على النحوت المحفورة ولكن عندما يتعلق الامر بالنحت تكون الاهداف الكبرى للنحات هي الثبات والقوة . لقد كان تحطيم اي تمثال لاي آله يعتبر مدعاة لحدوث كارثة ذلك لان هذا التحطيم لايجعل التمثال عديم القائدة حسب ، بل انه يثير غضب الاله نفسه .

ان الحاجة المطلقة هي التي تفرض ارادتها . وختاما نقول انه من المحتمل ان تستحسن الحجج المقدمة سابقا ، ووجهة النظر القائلة بان من المحتمل ان يمثل التمثالان الهين صغيرين . ذلك لان الكتابة المدونة عليهما والتي تمتدح (نابو) لا تقول انها تمثله .

تسم الكتابات غير المألوفة المدونة على التمثال المحفوظ في المتحف البريطاني ، والذي سبق ذكره ، مع جهود بعض الكهان الهادفة الى التقليل من عدم التوافق القائم بين الادعاء القائل انه ليس هناك الا ملك آلهة واحد او رب ارباب وبين العبادة المكرسة لعدد من الآلهة الاعضاء في مجمع الالهة . لقد ذكرنا من قبل اعتقاد الكهان القائل بان عدد الالهة اصغر مما يظهر ، وان سبب ذلك هي الطريقة التي تضاعفت بها الاسماء . فلقد كانوا غالبا ما يشددون على اهمية تماثيل مختلف الالهة ، ويزعمون مؤكدين على ان العديد من الالهة المنفصلين ظاهرا ، كانوا في الحقيقة يمثلون مظاهر مختلفة لنفس الاله .

ونستطيع ان نرى تطبيق هذه العملية في نصوص دينية معينة مثل :-
إرا هو - نيرغال - مدينة كوتا
مسلمتاي هو - نيرغال - مدينة بابل
لئخش هو نيرغال - مدينة كيش
وقرأ بعد ذلك في مكان اخر :-
نيرغال هو مردوخ المارك
زبابا هي مردوخ النحر

انليل هو مزدوخ السيادة والشورى

شمش هو مردوخ المعدل

وهكذا نستطيع ان نرى ان التماثيل تضمن ترتيب الالهة في جماعات مختلفة والحقيقة ان هناك نصاً يتطرق فيساوي كل مجمع الآلهة مع (نينورتا)، ويجعل بقية الالهة مجرد اجزاء منه • يقول النص :-

انليل وتليل هما عيناه

سن بؤبؤ عينيه

الكائنات الالهية السبعة اسنانه

اذناه - ايا - و دامكينا -

ندياه نابو •

وغالباً ما يعبد نفس الاله في مختلف المدن تحت مظاهر واضحة التحديد وتمييزة ولذلك تقرأ :-

ادد من بيت كركارة هو اله المطر

ادد من معبد (ي - نابه) هو اله الفيضان

ادد من حلب هو اله الريح ••

ان الانطباع الذي نحصل عليه من هذه النصوص وامثالها يظهر لنا وجود هيكل تجري فيه عملية صهر الالهة بصورة تدريجية حتى يصبح الاعضاء المختلفون مجرد مظاهر مختلفة لاله يضم الجميع •

تبدو الصلات والعلاقات بين الآلهة والبشر ، بانها كانت علاقات وروابط بين سادة وعبيد على الاغلب الاعم وهي تشبه العلاقات العائلية بين الاباء والابناء مع انعدام وجود أي تصور للعطف او الحب • وكانت هذه موجودة في عهد سلالة بابل الاولى • كما ان الاله كان سريع الغضب ، شديد العقاب • ويمكن التخفيف من غضب الالهة عن طريق الصلاة ، وفوق كل شيء ، عن طريق الذنور • كان الهدف الرئيس من حياة الانسان على الارض

هو عبادة الآلهة • وتعد قصص الخلق تعبيراً واضحاً عن وجهة النظر هذه فهي تقول :- (لقد خلق مردوخ الانسان ليقيم المعابد التي تدخل السرور الى قلوب الآلهة) •

ليس في ديانة بلاد بين النهرين اية علامة تشير اصلاً وفي كل الاحوال، الى مفهوم لأله الحب او المسودة ، ولم يكن يوجد قبل عهد سلالة بابل الاولى اي اثر لاية نظرة صوفية • ولكن معظم الترانيم الصوفية قد صيغت في تعابير تدل على للتوبة والتضرع ، بدلا من الاعتراف بالجميل •

أما في مصر فانها تظهر تناقضا حادا • ذلك لان المصري في الامبراطورية الجديدة ، كان يتطلع فرحا الى المهام اليومية للحياة في العالم الآخر ، في حين نجد المواطن في بلاد بين النهرين لم يكن يتصور ما قد يتوقعه في العالم الثاني ، ولم تكن عنده رغبة لهجر حياته ما لم يكن وجوده قد أصبح لا يحتمل •

الانسان - ابن الالهة -

مما لا شك فيه ان الامبراطورية البابلية تشير الى العصور التاريخية في تاريخ الحضارة . واتنا الان قادرون على القول ، وبكل ثقة ، باننا نستطيع ان نرى بدايات لمفهوم جديد وثوري . لقد كان الايمان متمركزا حتى الان حول هذا الاله او ذاك من الالهة المجمع في حين ، وكما نعرف ، كان الملوك يتباهون بمفاخرين يكونهم ابناء الالهة ، ولكن هذا الايمان بدا يتغلغل الان في المجتمع ، وبين كل مستوياته ، فصار كل انسان ابنا لاله الذي يشفع له كذلك عند الالهة الآخرين وهذا امتياز كان يقال عنه آنذاك بانه حق مقصور على الملوك وحدهم ، الملوك الذين يصنعون لاهتهم تماثيل تقف بالنيابة عنهم ، امام الاله العظيم الذي يتحكم في مصيرهم ، والذي يأخذ بأيديهم الى هذا المكان ، والذي يعيشون في ظل رعايته .

لقد كان اله الانسان الشخصي مستعدا دائما لان يأتي بمريده و ابنه الى حضرة العظيم حيث يشفع له هناك . وكان الاله الشخصي يتولى حراسة الانسان وحمايته من التأثيرات الشريرة ، وكذلك من العفاريات الموجودة في كل مكان ، او من الاشباح التي تبحث عن الضحايا . ولكن اذا لم يعد المؤمن يظل ابنا للاله ، بسبب الالهم ، فان هذا الاله سيشيخ عن ابنه وسيتركه وحيدا ، وسيدخل احد العفاريات المكان الذي اصبح خلوا . ذلك لان هذه العفاريات تتسكع دائما باجثة من مثل هذه القرص .

تعكس الاسماء الشخصية الظهور الطارئ لفكرة الاله حامي الانسان . وتجعل هذه الفكرة الانسان الذي كرس نفسه لالهة الشخصي يسرع الى أن ينفذ الاسماء التي كانت ترمز الى الحماية التي يوفرها احد الالهة الكبار . وهو يفعل ذلك تفضيلا لالهة الخاص به . انه قد يختار الهاً اخرًا وذلك حسبما تقرره حاجته . كما انه قد يختار اسما مثل : (الهى ملاذى) او (الهى اصن

الهيّ) او (الهي هو ابي) او (الانسان لآلهه) وزيادة على ذلك فان الاله
استعاد في هذا العهد خصائص الرحمة والخير ، والتي لم تكن معروفة ، وهذا
الاله هو الذي كان يطلب منه ، ان يمنح الانسان العمر المديد والغنى جزاء
لايفاء الانسان بواجبه نحوه . كان خيره قادرا على أن يقدم ماكان يعتمد في
نواله على مؤهلات العابد فقط وهذا يمثل نقسا مكن العابدين من مخاطبة
آلهتهم ، فيما بعد ، باعتبارهم آلهة الرحمة .

بدايات التصوف

لقد كان هذا هو العصر الذي شهد بداية الحماس الديني الذي استطاع بمفرده ان يمد الدين بالماء والخصوبة ليزيد من نمائه . لقد كان على المؤمن في الماضي ان يخشى الآله . وهذا جزء من واجبه . لكن معنى هذه العبارة قد اتسع حتى صار تمجيذا ساميا لا يدرك . وعندما قورنت العبادة بالخوف من الآله ، صار من الممكن تحويل هذا الخوف الى غاية للحب . فنحن نجد في قصيدة (آلام الرجل الصالح) ان البطل يقضي حياته بالتأمل الذاتي والحسرات ، ثم يقول :-

(ومع ذلك فان سروري هو في الخوف من الآله أو الملك) ففي عصرنا الذي نتحدث عنه كان نبوخذنصر يجب الخوف من الاله من كل قلبه وروحه وايا كانت الشكوك التي قد يشعر بها القارئ حول التقدم الروحي الذي تمثل في هذا الخوف ، سوف تتبدد اذا ما نظر هذا القارئ في الطمأنينة الضئيلة التي كان من الممكن وجودها في الديانات البدائية لهذا الماضي الغابر .

لنأخذ احد الامثلة عن هذا الحال من مصر فنقول انه عندما يموت (الفرعون) وهو نفسه ابن اله ، فانه يتحول الى (اوزيريس) ويستطيع وحده ان يضمن بان رسائل احسانه هي التي يجب ان تشترك في هذه المكانة الخاصة بالآله . لقد كانت النخبة المختارة التي تدفن على مقربة من الفرعون تضم النبلاء وكبار افراد الشعب . اما العوام فلم يكن لهم اي امل في الحصول على النعيم بعد الموت .

ان هذا يفسر لنا سبب اكتشاف توابيت حجرية صغيرة جدا لا يتجاوز طولها بضع بوصات وقد دفنت هناك من قبل الاتقياء املا في ان تأتي ببعض بركات الملك الميت لأبائهم الاموات . لقد بلغت هذه الحاجة الى الامل درجة انه عندما استقرت الامور ثانية بعد اول ثورة كبيرة في التاريخ المدون والتي

اوصلت الامبراطورية القديمة الى نهايتها ؛ ولذا ان اوضاعها المادية لم تتغير ،
في هذه المرحلة لم تكن الجماهير اقل رضا ، لانها قد اشبعت حاجتها الملحة
التي كانت تشعر بها ، ونعني بها الحقوق الدينية والحرية الدينية لقد صار
بامكان اي انسان ، منذ ذلك الوقت وما بعده ، ان يصبح « اوزريسا » بعد
موته شريطة ان يكون لائقا لذلك معنويا .

القيمة الانسانية للالهة

اعطى الدين في بلاد بين النهرين ، وفي صورته القديمة جدا ، مفهومًا وساذجا عن الآلهة . وقد تبين هذا المفهوم في عبارات الانسان المعاصر لهذا الدين . وفي الوقت الذي تطور فيه الدين السومري القديم بكل تفاصيله يكون عهد عبادة الطبيعة قد انقضى . وقد تميز هذا العهد بقدرته الخلاقة الكامنة في آلهته القانين الذين يموتون ويمدودون الى الحياة حسب تنابع القصول الاربعة وبعد انقضاء هذا العهد لم يعد الموت يحصل بالآلهة . ولكن حتى وان كان الامر كذلك فان وجود هؤلاء الآلهة على الارض كان يتبع نفس نمط الحياة البشرية . كان (گلگامش) ملك (الوركاء) يخرج من قصره ومعه خدومه ومرافقوه فيمشي مخترقا المدينة ليقابل عشتار ، وهي خارجة من المعبد يرافقتها موكب خاص بها يضم الكهان والكاهنات فيتقابل الاثنان على قدم المساواة . وعندما كانت عشتار تقف في حب (گلگامش) فانه ، وهو القاني ، يوبخها كآلهة ، وكان يستعمل في توبيخها سلسلة قطة من عبارات القسم التي قد توقع تبادلها بين اثنين من الابطال الهومريين(*) . وجبا في الانتقام تشق عشتار طريقها الى سماء - آنو - وهناك تطلب من ابيها ان يخلق شيئا يستطيع ان يخلصها من (گلگامش) . وما هذا الصعود الى السماء وخلق الثور السماوي الذي لا مثيل لقوته ، الا احد مظاهر القصة التي تظهر الآلهة ذات قوى خارقة للطبيعة .

وثناء الحرب ، وبعد العودة الى (الوركاء) اقامت عشتار مع اتباعها على شرفات المعبد لكي تنفذ انتقامها حتى النهاية . ولكن گلگامش يبدد آمالها ، ويظهر منتصرا في حين يقوم رفيقه (انكيدو) بتقطيع اطراف الثور ، ثم يرمي

(*) يراد بذلك الابطال المذكورون في الياذة الشاعر اليوناني (هوميروس) ،

بجزء منها في وجه عشتار مهدداً اياها بان يخنقها بقلادة يصنعها من امعاء
الشور •

لدينا رأي يقول ان هذه الفقرة تمثل حشواً متأخراً يعبر عن رد الفعل
ازاء الممارسات التي اشتملت عليها طقوس عبادة عشتار ، ومنها (البغاء
المقدس) ولكن هذا امر مشكوك فيه • وسبب ذلك ان الفقرة ظلت جزءاً
من الملحمة في الوقت الذي كان فيه البغاء المقدس ما زال يمارس في بلاد بين
النهرين ، وفي الوقت الذي كان فيه المؤرخ الاغريقي (هيرودوتس) يجوبها •

هناك فقرات اخرى في ملحمة (الخلق) • ومنها القصة الطويلة التي
تصف الطوفان • وتمزو هذه القصة كل نوع من التشلل الى الآلهة بالرغم من
استعمال الكنى التي توحي بالعكس من ذلك • فالآلهة تقضح بعضها البعض
كزوجات السمك ، وعندما استطاع احد الرجال الصالحين الهروب من
الطوفان ، وعرض تقديم الضحية للآلهة سأل لعابها لذكرها فتجمعت
كالذباب حول هذا الرجل صاحب الضحية ، لقد حاولت عشتار ان تمنع
(ائليل) من المشاركة في الضحية فابدت عجبها قائلة :-

لينقلب هذا اليوم الى طين !! هل جئت بقومي لاملأ بهم البحر مثل صفار
السمك ؟

كان ائليل هو الذي امر بالطوفان • ورغم انه كان من كبار الآلهة الا
ان مصادر اخباره لا تزيد على ما عند الانسان العادي • فهو لم يكن يعرف
بقصة هروب أحد من البشر ، وكيف تم ذلك • فهو يتساءل قائلاً :-
من فعل ذلك ؟

ثم يقع شكه على (ايا) الذي كان بطبيعته محسناً الى البشر • ولقد
كان هذا الشك في محله • ولكن تحذير (ايا) جاء محرفاً بعض التحريف ،
لانه عندما اقترب من الكوخ الذي كان يقيم فيه الرجل الصالح ، هس

بالرسالة التحذيرية من خلال الحائط المبني من الحصران والطين ، ونجد الاله العظيم (ايا) رب (ايسو Apsu) موقع كل المعرفة ، محدداً وهو يرتجف كالطفل الذي اكتشف امره ثم يقول :-

(انا لم اقل شيئاً بل القصب) • لم يكن (ايا) ليقدم نصيحة حسنة. على الرغم من كل حكمته • ولكنه يحذر (أدابا) لكي يحرص على عدم قبول قتات الطعام ، لانه ان فعل ذلك فسوف يموت • وكان (أدابا) تحت حماية (ايا) ، وقد استدعي الى السماء لينال العقاب • والحقيقة ان الطعام الذي قدمه (آنو) الى (أدابا) كان طعام الحياة ، والذي بإمكانه ان يضفي الخلود على الانسان • وهكذا فان هذه الفقرة المقصودة هي التي اثقلت كاهل الانسانية بعبء الموت •

اتنا نحتاج الى وقت طويل لكي نعدد خصائص الانسان البدائي ، والتي نستطيع ان نتبصرها في سلوك الآلهة الذين اصابهم الذعر الشديد عندما هاجمهم (كاوس) فهربوا الى سماء (آنو) ، حيث انحنوا على الجدران وراحوا ينبحون كالكلاب • ان هذا هو مشهد ندائهم لمردوخ ، وعندما استعادوا شجاعتهم ، التأموا في وليمه وسكروا •

لقد حفظت كل هذه العناصر والتي يتوقع المرء ان يجدها في العهد البدائي ، اما مجمع الآلهة فانه قلما اصابه التفسير ، وحتى في نهاية العهدين البابلي والاشوري • فقد بدأ زعماء الكهافة ، وبصورة تدريجية تم تكوين المفهوم الذي ينال احترام المتعبدين ، وذلك عن طريق اصفاء العديد من المؤهلات المحترمة الى الآلهة القدامى ولكن لم يكن هناك تبدل اساسي عما كان مطبقاً في الحقبة التاريخية البعيدة والتي نضجت فيها الافكار الاصلية •

السلطات الالهية ، المصير

يعتبر سلطان الآلهة غير المحدود على الانسان ، من اول واخطر انواع السلطات التي كان يعتقد انها بحوزة الآلهة ، وينضوى تحت هذا السلطان الملك والفلاح على حد سواء . كانت هذه السلطات مصدر الملكية التي تظهر صورتها المادية في اوسمتها ، والتي كان يقال عنها ، كما نعرف ، بانها ترجع الى السماء لتوضع امام عرس - آنو - في حالة خلو كرسي العرش لسبب من الاسباب ، اما عندما يبدأ عهد جديد فان الملكية تهبط من جديد راجعة من السماء .

وفي زمن السلالة السرجونية بدأ الآلهة يسترجعون صفاتهم بصورة تدريجية . وكما عرفنا فان هذه الصفات كانت غير موجودة عندما كان الآلهة ما يزالون في حالتهم البدائية ، وكانوا آنذاك يوصفون بانهم كانوا عادلين ، وغير متميزين ، وخيرين ، وكارهين للشر الذي كان مكروها ايضا عند كبار الآلهة .

وبالرغم من هذا فمن المحتمل ان يكون المواطن البابلي قد شعر بالامتنان على مكائته عندهم . ولما كان هذا المواطن يواجه يوميا انتصار الشر على الخير ، وعلى الايمان والصبر ، فانه كان يشعر بالحاجة الى (دين خلاص) لم تكن شروطه متوفرة في الدين الذي كان موجودا آنذاك في بلاد بين النهرين . ونتيجة لهذا صار لزاما على الانسان البابلي ان يعيش في خوف دائم من هاجس آلهي جائر .

اما عن السبب الذي دعا (اثليل) الى ان يأمر بالطوفان فلم يقدم اي تفسير له .

كان الآلهة يتمتعون بسلطان اكبر بكثير من هذا ، واعني به قدرتهم

على تحديد المصائر • وكان الآلهة يجتمعون في مجلسهم الخاص لتحديد وتثبيت المصائر الخاصة بالسنة القادمة • فكان - نابو - هو الذي يكتب هذه المصائر على الواح من طين • اما موعد هذا الاجتماع فهو عيد مردوخ الكبير ، الذي كان يقام في بابل في بداية كل سنة ، وذلك بعد مسيرة الموكب الى المعبد الذي يعرف باسم (اكيـتو Akitu) والذي يقع خارج المدينة • لقد كتب (نبو) الواح الطين ، لان كتابتها كانت من اختصاصه باعتباره كاتب الالهة ومنذ ذلك الوقت صار يحكم الانسان •

ولقد كانت سلطات الالهة موضع حسد وقد حدثت مرة وقبل الخليفة، ان سرت هذه السلطات من قبل الطير (زو Zu) • وعندما اراد (كاوس) ان يهاجم احفاده من الآلهة ، كانت الواح المصير في معسكره ولم يكن بمقدور مردوخ ان ينتصر لو لم يخطب في اجتماع الالهة الذين عهدوا اليه بالتأثير لهم • لقد قال مردوخ في خطابه :-

(اذا كنت سائرا لكم ، وأذبح (تيامات) ، وامنحكم الحياة ، فان عليكم ان تعظموا وتعلوا منزلتي • اجلسوا كأصدقاء في مكان الاجتماع ، ودعوني اقرر المصائر عن طريق فتح فمي ، وحتى ولو كان الامر كما تفعلون • لا تغيروا اي شيء افعله ولا تبطلوا او تفشلوا اثر ما اتفوه به) •

واجتمع الالهة على مأذبة ضمتهم جميعا ، فشربوا هناك وسكروا ، وغلبهم شعور بالسعادة ، فراحوا يصرخون صراخا عاليا ، كما اخذت قلوبهم تدق بشدة ، وحددوا المصائر لمردوخ الذي سينار لهم •

اتنا نجد في نص اخر ملكا يوصف بأنه احد الذين حدد لهم الالهة مصيرا جيدا • وهذا تعبير بديل للقول بأن اسمه كان جيدا • ان الاسم الجيد والمصير الجيد يشكلان ضمانة لحياة ناجحة • ولكن عندما يترك السابق

غامضا فان اللاحق يكون ، او على الاقل ينبغي ان يكون ، محددا تحديدا اكثر دقة .

لقد كان الاله ، عند قيامهم بعملية تثبيت سنوي لمصير بابل يرقبون عن كتب حوادث الساعة ، كما كانوا يرقبون بصورة خاصة القضايا السياسية الجارية . ومع ذلك فان المصائر تمثل مزيدا من التأكيد على الوجود الالهي في كل مكان وعلى سيادة النظام المقرر . وكما قال (مردوخ) نفسه ، كانت مصائر بابل تلزم مجمع الآلهة بان يعتبر ما يتعهد به غير قابل للتغير ، وان ما تنطق به شفاء ثابت لا يتبدل . ان ما يقوله يشكل في نفس الوقت ضمانا للنظام ازاء الفوضى ، وهو برهان على الوجود في كل مكان ، كما انه تحديد للارادة الفردية الحرة ، بل انه قد يمثل حتى ضمانا تقدمها الكهانة ازاء هواجس الاوتوقراطية الملكية .

ليس هناك شيء غير محتمل حول الدور الذي يلعبه المصير في مجتمع صحيح التنظيم كالمجتمع العراقي القديم الذي لم يترك فيه اي شيء للصدفة، ولم يفسح مجالا لآمال غير واع لها .

ان علينا ان نفكر جيدا بمبدأ سلطان الاسم لكي ندرك مقدار ، قوة التعزيز الذي نالته وجهة نظر العراقيين القدماء عن المصائر التي ما ان تثبت وينطق بها حتى تكتسب وجودها المتميز الخاص بها ، وتصبح واجبة التحقيق . ذلك لان لفظها وحتى مجرد التفكير فيها ، يجعل منها وشيكة التحقيق . لقد لعبت المصائر دورا يمتد به في توجيه الشؤون الديوية .

قد يتسبب الائم الانساني احيانا في جزع الالهة فينفرون من الانسان . ولقد سبق ان بحثنا الاعتقاد الواسع الانتشار حول وجود الجن الاشرار،

والذين يبحثون عن أي مكان يستقرون فيه ، حيث يتجنبون الفرص
للاقتضااض . ان أحد التفسيرات التي يمكن ان نعطيها عن العدد المفرط من
المظاهر الخيرة المكتوبة على النصب الدينية ليس الرغبة في زيادة التأثير والنفوذ
لهذه النصب ، بل الحماية أيضا بقصد عدم افساح المجال لدخول وتمشيش
أي تأثير شرير في الأماكن الخالية .

الخطيئة والاعتراف

كانت الفكرة البابلية عن الخطيئة ، في نواحي معينة ، مألوفة في كل دين . ولكن في العديد من الحالات قد تتدرج الاختلافات الاساسية بين الدين البابلي والدين الجديد . والمحقق في عصرنا الحاضر ان يشعر المرء بنوع من الحيرة والذهول . ان معرفتنا عن الموضوع لم تأت عن قوائم الخطيئات الشاملة بل من كتب الاعترافات التي عدت فيها الخطايا . ويأخذ الاعتراف اشكالا مختلفة بين الشعوب المختلفة . فهو في الاقطار الكاثوليكية يتألف من قراءة الذنوب التي يعلم المذنب انه ارتكبها . ويرافق هذه القراءة تأكيد من المذنب نفسه على كراهيتها ثم اصرار بالتوبه الخالصة .

اما في مصر وحيث كان الاعتراف مطلوبا في الحساب الاعظم بعد الموت ، فان المؤمن يسلم بدور مضاعف ، فيطلب من نفسه الا تفرقه بالذنوب امام الاله . والواقع ان المصري كان يقدم اعترافه باستعمال صيغة النفي . فهو يقول :-

(لم افعل هذا او ذاك) .

(لم افعل شيئا يكرهه الاله) .

(لم احب اي انسان ضد سيده ولم اترك اي انسان جائعا . لم اقض على حياة لم ارتكب ، فاحشة في المكان المقدس لاله مدينتي قط . لم انقص كيل الحبوب قط . لم انقص قياس اي شيء اعطيته قط . لم اسد مجرى الماء الجاري قط . لم أعق الاله من تسلم حقوقه) .

اما في بلاد بين النهرين فنجد الامر على العكس ، حيث كان الاعتراف امرا شاقا . فلم يكن على المذنب ان يعترف بكل الخطايا التي يعلم انه ارتكبها حسب بل ان عليه ان يتلو بعض الخطايا الاضافية التي يمكنه ان يفكر فيها خشية ان يكون بعضها من خطاياها الخاصة التي كان ارتكبها

عرضا او دون وعي . كان الاعتراف يتم عادة عن طريق وكالة الكاهن بسبب عدم قدرة التائب على اعطاء نفسه الغفران .

ان العديد من الامثلة التي عندنا والتي تقدم بعض المظاهر الجديدة ، بالرغم من الكثير من التكرار ، تمكنا من ان نعيد تركيب قائمة تمثل قائمة الخطايا بدرجة معينة . كان الكاهن يسأل التائب ، بعد ان يسمع اعترافه ، ان كان قد اساء الى اله او الى آلهه معينين ، او انه مارس الكذب ، او عاند سيده ، او اثار العداوة بين الموائل والاصدقاء ، تسلم ما ليس من استحقاقه ، او زيف علامات الحدود ، او استعمل الموازين غير الدقيقة او احتفظ بما وجب عطاؤه ، او سرق ودفع الاخرين الى السرقة ، او تسلل الى بيوت الاخرين ، او جامع زوجة جاره ، او ظلم احداً ، او رفض اطلاق سراح اسير .

ان كل هذا يمثل قائمة مختارة للذنوب المقصودة ، ونجد فيها ان كاتبها يكررون نفس الذنوب عدة مرات في القوائم الاخرى التي استنسخوها من النسخ الاصلية .

وبالاضافة الى هذه الخطايا المقصودة والموجه ضد الاله والانسان ، فان هناك مجموعة اخرى يحتمل انها ارتكبت سهواً ، ولكن كان بإمكانها ان تثير حتى الاله . ولذلك فالتائب يسأل الكاهن يسأل التائب ان كان رافق أحد المسحورين ، او قام في سريره ، او جلس على مقعده ، او اكل من صحنه ، او شرب من قدحه . كما كان يسأله عما فعل اثناء مشبه في الشارع ، وهمل تخطى فوق الماء المقدس المسكوب ، او داس ماءً قفراً ، او نظر مرتاباً الى الماء المستعمل لفصل الايدي ، او لامس امرأة يدين غير نظيفتين ، او نظر مرتاباً الى امرأة ويداه غير مغسولتين او لامس احداً غير نظيف .

تشير كل هذه الامثلة الى عدم الطهارة في تأدية الشعائر الدينية ، والتي يحتمل ان يكون التائب غير متنبه اليها ، وعلاوة على ذلك فان المسحور يصيب

الناس بالعدوى • ومن الواضح انه اذا كان كل عمل من اعمال هذا الانسان يعتبر خطيئة فان من النادر جدا ان يكون باستطاعة اي مواطن من بابل ان يأمل في التهرب من الانتقام الالهي • وبنفس الطريقة نقول ان النهر كان آلهة • ولذلك فان البصق او التبول فيه خطيئة كبرى • ومن الطريف ان نقول هنا ان هذه المجموعة من الخطايا هي بالنسبة لنا من مسائل الصحة العامة، وهي قضايا ننظر اياها بعبوس في ايامنا هذه •

علينا ان ندرك ان مجرد ادراج خطيئة خاصة من الخطايا موضوعة البحث في قائمة من هذه الشاكلة ، كان هو المطلوب ذلك لان (مبدأ الاسم) يؤكد على ان النطق بالخطيئة يجعلها مكشوفة ، وبالتالي يقضي عليها • ومع ذلك فاننا نجد في عهد السلالة السرجونية ان الشعائر المستخدمة في عملية المصالحة بين التائب والاله ، تعبر عن الاسف على ارتكاب الخطايا ، وعن كرهها ، ولكن بكلمات قليلة • وبالرغم من كل عدم المرونة ، وعدم الكمال الموجودين في الدين البدائي ، فان هناك درجة معينة من التقدم الذي يعكس بدوره تقدما فكريا ، ويكشف عن الاختلافات بين الصياغة الاولى لهذه الشعائر ، وبين الشكل الذي استقرت عليه في العصر الذي تتناوله في هذا الكتاب •

الشك

لقد قام عالم الاشوريات البريطاني المرحوم (س . لانكدون) بجمع ونشر العديد من النصوص التي تظهر ما كانت عليه ردود فعل الناس ازاء ظروف الحياة . وقد نشرت هذه النصوص تحت عنوان - الحكمة البابلية - . لقد سبق ان تعرفنا على الشك الذي كان يعذب روح انسان بابل ، ازاء المصيبة التي لا يستحقها ، والواردة في القصيدة التي كانت تعرف باسم - الام الرجل الصالح - وأنه كان من الافضل ان تعطى هذه القصيدة عنوان (اريد ان امدح اله الحكمة) . وهذه العبارة هي فاتحة النص .

اذا نستطيع ان نكتشف اشارة التشاؤم ، او عدم المبالاة ، في المحادثة بين السيد وعبيده ، والتي جاء فيها :- (اسمع ايها العبد ، اريد ان افعل شيئاً) . اما العبد فيجيب قائلاً :-
(فلم سيدي . افعله الان)

ثم يمضي العبد ليؤكد الاسباب الممتازة لقرار سيده ، واذ ذاك يعلن السيد انه لا يريد ان يفعل (الشيء) وبناء على ذلك يغير العبد موقفه ، ويجد بنفس الطريقة الاسباب المناسبة لذلك . وبعد سلسلة من الاحداث المتعاقبة يرغب السيد في الذهاب الى القصر لكي يتناول طعام العشاء ، ثم يتورط في ثورة ، ويرغب في ان يأخذ امرأة وفي كل مناسبة كان العبد يوافق على اختيار سيده ، وعلى تبديله لهذا الاختيار .

لدينا مجموعات من الامثال والتي ينحو بعضها منحى خلقيا . وهذه نماذج من تلك الامثال :

(لا تدوم الصداقة الا يوما واحدا اما الذرية فتدوم الى الابد . من هو اليوم حي يموت قبل غد) وهناك امثلة اخرى تهكمية مثل : هدية الملك تضمن نبوءة مبشرة بالخير .

هل يقبض المستنقع ثمن قصبه ؟ وهل يقبض

الحقل ثمن محاصيله ؟ (معناه انك لن تحصل على ما تستحق)

واخيرا فهذه نصيحة عملية يمكن ان يقدمها الاب المعاصر الى ابنائه •

(لا تتزوج المرأة التي كان لها عشاق كثيرون لانها ستتخلي عنك اذا ما

سألت احوالك ، واذا ما تخصصت معها فانها ستتهزأ بك • انها تأتي بالكارثة

الى اي بيت تحل فيه وتخطم اي رجل يتزوجها) •

المعابد

لقد كان هناك أصلا عدد من الانواع المختلفة من اماكن العبادة • وبعد حلول الالف الاول قبل الميلاد • اصبحت الخطوط الفاصلة غير واضحة ، مما ادى الى نشوء شكل المعبد الذي كان شائعا في ذلك التاريخ •

تقع معابد آسيا الغربية في ثلاث مجموعات واسعة ، ويمكن ان نجد مثلا عن النوع الاول في معبد عشتار في آشور والذي يعود تاريخه الى العصر السومري •

يتألف هذا المعبد بكل بساطة من قاعة مستطيلة الشكل تضم احدى نهاياتها قاعدة كان يستقر عليها تمثال الآله •

اما النوع الثاني ، والذي هو سومري كما يتضح بكل جلاء ، فانه يتألف من باحة تكون اما خالية او محيطة بمعبد لا يختلف عن النوع الاول الا في وجود باب في وسط احد الجوانب القصيرة ، مع وجود الاله في الجانب الاخر في حين يقوم المذبح المقدس في العراء مقابل الباب ، ومن الممكن التعرف على المعابد البابلية من الالف الاول قبل الميلاد باعتبارها مشتقة من هذين المعبدتين •

لنتفحص مبداً غير مهم نسبيا ولكنه يعد نموذجا صحيحا للمعابد التي كسفت عنها التنقيبات في بابل •

عرف هذا المعبد باسم (ي - ماخ E - Mah) (المعبد الرفيع) وكان مكرسا لعبادة (نين - ما) (السيدة الرفيعة) وهي احد مظاهر عشتار • كانت ابعاد هذا المعبد تتألف من ١٦٠×١١٠ أقدام اما الجدران فكانت تشبه جدران معظم الصروح الدينية • كما انها تشبه ما هو موجود في معظم ابنية بلاد بين النهرين من حيث اتخاذها اتجاها على محور جنوبي غربي شمالي شرقي •

وكان المدخل يقوم في احد الجوانب القصيرة، وهو بشكل، شأنه العديد من ابواب الابنية الاشورية، حجرة صغيرة تؤدي من جهة اليسار الى غرفة البواب الصغيرة ، وينفتح الباب على فناء واسع غير متناسق قليلا من جهة اليمين ، وبذلك لا يتوفر مجال للنظر المباشر من الشارع حتى النهاية القصوى من الحرم . ويؤدي الفناء الى غرفة الانتظار ، كما يحتوي على بئر ماء التطهير . وتؤدي غرفة الانتظار الى الحرم نفسه والذي يضم قاعدة تمثال الاله نفسه وهي مربعة الشكل .

وكانت توجد في أسفل الجانب الايمن من الفناء سلسلة من الغرف الطويلة الضيقة ، والتي كانت تستعمل لسكنى عدد معين من الكهان ، كما استعملت كمخازن لبعض المواد الخاصة بالشعائر الدينية . ووجدت نفس التنظيمات على الجانب الايسر بالاضافة الى قاعة طويلة قريبة جدا من الحائط وهي تمثل في الاصل ممرا يمتد خلف جدار الحرم الذي تستند عليه قاعدة التمثال . ويمكن ان نقول ان هذا الممر كان اما وسيلة لحماية الطريق المؤدي الى قدس الاقداس ، ذلك لان الجدران الطينية بحد ذاتها لا يمكن ان تكون عائقا هاما امام اللصوص ومن التسلسل الى الداخل ، وبالتالي فان هؤلاء المعتدين لابد ان يمرروا عبر ممر الحراسة . هذا من جهة ومن جهة اخرى فمن المحتمل انه كان وسيلة اتصال مع المقام الالهي وتمثال الآله . وهكذا يتمكن الكهان من الحصول على اجوبة الآله .

لقد كشفت الحملة التي نقبت في (ماري) الواقعة على نهر الفرات ، عن تمثال للالهة عشتار ، وتوجد على صدرها مزهريه جوفاء تتصل بانبوب داخل التمثال وهذا . الاتصال يمكن من هو خارج الحرم أن يجعل الماء ينبثق من المزهريه اشارة الى الخصوبة والرضا الالهي . اما المنببع المقدس فلم يكن في المعبد على الاطلاق بل كان يقوم على مسافة ما أمام الباب .

معبد مردوخ في بابل

كان معبد مردوخ من اكبر المعابد البابلية • ويبلغ طوله حوالي (٤٧٠) قدما (٢٥) ، ولم يكتشف الا جزء منه • تشغل مجموعة الابنية كلها قطعة ارض مستطيلة الشكل تزيد مساحتها على الستين فدانا • يحد المعبد من الغرب نهر الفرات ، ومن الشرق طريق الموكب الذي يوجد باب عشتار في نهايته • وعلى الرغم من كثرة التنقيبات التي اجريت في الماضي ، الا ان البعثة الالمانية هي التي تمكنت بصورة جزئية ، من الكشف عنه • وحتى عملها هذا تطلب ازالة ما يقارب الاربعين الف ياردة مكعبة من الانقاض •

يمتد تاريخ المعبد الى سلالة بابل الاولى • وقد نهب من قبل الحيثيين عندما اغاروا على المدينة ونهبوا تمثال مردوخ وسربانيت ، ثم استعادهما مؤخرا الملك (الكيشي) (آغوم كاك) الذي اعاد تزيينها بالاحجار الكريمة ، فوضع على رأس الاله تاجا من الذهب واللازورد ، وزين ابواب المحراب باوراق الارز المنقوشة على الواح نحاسية تحمل صورا عديدة لحيوان التنين الخرافي واسماك ماعز البحر ، والكلب ، وكلها كانت شعارات لمردوخ ، وايه (آيا) •

لقد عانى المعبد في تاريخه الكثير من اعمال الترميم الهادفة الى اصلاح الاضرار الناتجة من الحروب بين بابل واشور • فبعد ان ضمن ملكا آشور ، اسرحدون وآشوربانيبال السلطة في البلاد ، حاولا ان يصلحا ما افسده سلفهما سنحاريب (٦٨٩ ق م) • ولكن المعبد لم يستطع ان يستعيد مجده المنقطع النظير الا على يد السلالة البابلية •

ووفقا لما نقوله القصة العجيبة عن الجهود التي بذلها (اسرحدون) في

(٢٥) يبلغ طول كتدرائية القديس باول خمسمائة وعشرين قدما على اكثر تقدير •

اعادة بناء المعبد ، فان مردوخ امل على الكهان ، وهو في حدة غضبه على المدينة ، نص اللوح الذي يمنع فيه عملية اعادة البناء الا بعد انقضاء فترة سبعين عاما . وفي اللحظة التي كان فيها اسرحدون متحمساً للمباشرة بالعمل . اعلن الكهان ان مردوخ امر بعكس ترتيب الارقام التي دون العشرة (وهذا يعني تغيير ترقيمها ، كالارقام العربية ، وذلك حسب النظام الذي تأخذه الارقام في الحالة الجديدة) وكان من نتيجة ذلك ، ان تناقصت السبعين سنة حتى صارت احدى عشر سنة ، وبذلك صار اسرحدون طليقا لكي يباشر العمل .

لقد جاءت الاضرار التي لحقت بالمعبد من الثورة التي قامت بوجهه (خشرخيش) عام ٤٧٩ ق م . وهو من السلالة الاخمينية . لقد كانت هذه الاضرار من الشدة والجسامة بحيث اجبرت الاسكندر على ان يتخلى عن نواياه الرامية الى اعادة بناء الابنية على الرغم من رغبته الشديدة في أن يترك اثرا خاصا يبين فضله على بابل ، وذلك عن طريق جعلها العاصمة أكثر اهمية من بين عواصمه .

لقد كان عند الاسكندر عشرة الاف عامل تفرغوا للعمل مدة شهرين ومع ذلك فانهم لم يستطيعوا ان يزيلوا الا جزءا من الركام وانقاض الحجارة .

تعتبر القاعة الامامية الكبرى اول مظهر من مظاهر معبد (ايساغيلا) (اي معبد الرأس الشامخ) التي تدهش الناظر اليها الذي يقترب منها قادما من بوابة عشتار وقد كانت هذه القاعة تحتوي على برج المعبد ، وكانت بنايات المعبد الخارجية تقوم في احدى النهايات . وكان المعبد الرئيس يقوم في القاعة المجاورة لها ، وكانت هناك وسائل اتصال بين القاعتين .

اما الفراغ المفتوح الكائن في مقدمة المعبد فتبلغ ابعاده
 (١١٠×٥٠ ياردة) • في حين نجد ان ابعاد مثيله من الفراغات المكشوفة في
 معبدي (بعليت) و (زبابا) هي (١٠٥×٤٥ ياردة) •
 اما الحرم الذي كان يعرف باسم (اي كور E-Kur) ومعناه
 (جبل المعبد) فقد بني على دكاك من الآجر الاسفلتي • وهناك نظرية تقول
 ان هذه الدكاك تمثل ذكرى موعلة في القدم ، عن تلول الاراضي التي يحتمل
 ان يكون السومريون قد سكنوها قبل ان يستقروا في بلاد بين النهرين •
 قد يكون هذا صحيحا الا ان هناك امراً آخر ، هو فيضان دجلة والفرات •
 فبالرغم من عدم احتمال وصول المياه الناتجة عن الفيضانات الى المستوى
 الذي كانت عليه التماثيل الا ان شدة الرطوبة الناتجة من الفيضان الشتوي
 قد تؤدي الى وجود خطر يحيق بالبنائات الطينية الجافة والتي تمتص الماء
 يسر •

ان كل معلوماتنا عن الزخرفة العراقية لمقام (ي - كور) وغيره من
 الاماكن الاخرى الموجودة في معبد (ايساغيلا) ، والتي بنيت على نفس
 المخطط الارضي الذي بنيت عليه اماكن العبادة البابلية ، انما جاءتنا
 استنتاجا اما من الكتابات التي خلفها الملوك الذين كانوا يتعبدون هناك ،
 واما من الوصف الذي قدمه (هيرودوتس) الذي يقول انه رأى هناك
 تمثالا عظيما للاله ، وعرشا ومنصة ، ومنضدة هدايا ، وكلها من الذهب وهي
 تزن في مجموعها الثمانمائة طالين (اربع وعشرين طنا تقريبا) (*) •

ويبدو ان هذه الارقام قد بولغ فيها الى حد كبير • والحقيقة انه تم العثور
 على كميات مذهلة من الذهب في مقابر - اور - الملكية وتؤلف هذه الكميات
 هدايا من الصحن الذهبية والاثاث الخاص بالمقابر الملكية • ولكن على

(*) ترجم سليم طه التكريتي ما كتبه المؤرخ هيرودوتس عن العراق في مقال
 خص به مجلة « المورد » العدد الثالث لسنة ١٩٧٩ •

الرغم من ان بعض القطع الصغيرة هي من الذهب الخالص الصلد ، فان البقية كانت تتألف من الواح رقيقة من اعمال الذهب البارزة ، بل وحتى من اوراق ذهبية مشكلة فوق اجسام خشبية او برونزية مستخدمة في الزخرفة .

تحتوي قاعة المعبد في (خرسباد) سلسلة من الاعمدة الخشبية غطي كل منها بصفائح برونزية تعطى العمود شكلا يشبه جذع النخلة ، ويغطي سطح البرونز المحفور بدوره بورقة رقيقة مناسبة من الذهب ، والتي تجعل العمود يبدو وكأنه عمود ذهبي ضخمة . وعلى العموم فان النتائج التي اظهرتها التنقيبات حتى الان تثبت بان الذهب الاصم لا يزيد على كونه قطعاً مصاعاً .

لدينا العديد من اوصاف الابنية والسقوف المغطاة بالذهب والتي تتألق في الشمس . وغالبا ما اظهرت التنقيبات التي اجريت في مثل هذه الابنية قطعاً من الفيسفاء ، او الطابوق المطلي بطلاء اصفر لماع . وهذا العمل من الاختصاصات الباهية المعروفة . ومن المحتم ان يكون مثل هذا الطلاء لماعاً في شمس الشرق الساطعة .

وينطبق نفس الشيء على الاحجار الكريمة المزعومة لبلاد بين النهرين. اذ لم تكن مثل هذه الاحجار التي ذكر وصفها ، قبل العصر الهليني ، الا ما نسميه باشباه الاحجار الكريمة ، كاللازورد والعقيق واشباه ذلك . وعلاوة على ما تقدم فقد توفرت للسكان وصفات صنع الزجاج الملون . ومما لاشك فيه ان انتاج هذه الوصفات يبدو وكأنه من الاحجار الكريمة على الرغم من عدم وجود المعرفة الفنية آنذاك ، والتي تيسر عملية تمييز الفروق .

نستطيع ان نكون بعض التصورات عن زخرفة معبد (إيساغيلا) ، وذلك عن طريق نتائج التنقيبات . وبناءاً على ذلك فاننا نجد ان الزخرفة الخارجية تعكس نمط التقاليد الشرقية التي لا تزال موجودة في جامع

(أيا صوفيا) في اسطنبول مثلا ، حيث يكون القسم الاعظم من الزخرفة بسيطا . اما الزخرفة من الداخل فهي ليست كذلك . فما ان نمر من الابواب حتى نرى اشكال الاوراق النباتية المزخرفة باشرطة من البرونز المرصع والذهب ، كما نجد نفس الزخرفة على الابواب التي عثر عليها في (بلاوات) و (سوسه) والمحفظة الان في المتحف البريطاني ومتحف اللوفر .

يجد الزائر ان الجدران مغطاة بالواح من المرمر ، وتوجد فوق هذه الالواح رسوم ذات الوان زاهية وصافية ، وهي تشمل الازرق والاحمر والاسود . وتتباين هذه الالوان عن ارضيتها البيضاء . ويمكن رؤية نماذج مماثلة في معبد (ماري) وقصور تل برسيب وخرسباد . ومن المحتمل انه كانت توجد الواح وطينوف من الطابوق المزجج كما نجد في باب عشتار في بابل مثل ذلك ، هذا على الرغم من ان كل هذه كانت تشكل نوعا من الزخرفة التي تحتاج الى ضوء لماع لكي ترى باحسن صورة . ويبدو ان مثل هذه الزخرفة قد اقتصرت على السطوح الخارجية جيدة الاضاءة . فنحن نعرف ان احدى غرف الاستقبال الكبيرة في القصر الملكي في بابل ، قد زينت باشرطة عمودية من الطابوق المصقول اللامع وتنتهي الزخرفة من الاعلى ومن الاسفل بنحيلات كبيرة الحجم . لقد كانت ملابس تماثيل الالهة القائمة فوق قواعدها غنية بالتطريز المذهب ، في حين كانت الستائر ومظلات العرش والموائد واواني النذور تصنع من المعادن الثمينة أو أنها كانت تغلف بالذهب ، فلا عجب اذن اذا ما ذاعت شهرة المعبد شرقا وغربا .

الزقورات ابراج المعبد

كانت الزقورات التي قامت قرب المعبد تسمى (ايتامنشي) ويعني هذا الاسم (اساس معبد السماء والارض) وتستعمل حكمة ثمين Temen للتعبير عن حجر الاساس في البناية ، وهذه الكلمة هي التي استعار منها اليونانيون كلمة (تمنوس Temenos) لتدل على معنى (مركز مجموعة من المعابد) . ولما كانت الارض والسماء تعتمدان على بعضهما البعض فان هذا يعني ان زقورات بابل اصبحت حجر الزاوية لكل البناء . لقد وصفت زقورات المعبد الاخرى بانها صلة الوصل بين الارض والسماء . وانا اعتقد ان الزعم القائل بان اساس الزقورات في الارض وان رأسها يكاد يضيع بين السحب ، يخفي وراءه تصورا اكثر عمقا حول الامور غير المادية التي تربط بين عنصري الكون المنظمين .

لقد كانت الزقورات مظهرا نظاميا لكل معبد مهم . فهي تقوم منفصلة عن بقية البناء . وهي تشبه في هذا الحال برج الاجراس في الكنيسة الايطالية .

وقد اظهرت التنقيبات التي أجريت في بلاد بين النهرين نوعين مختلفين تماما من الزقورات ويسود احدهما في شمال البلاد ، ويتألف هذا النوع بغض النظر عن الاساس من عدد من الدكاك المستطيلة الشكل المتراكبة ، والمتناقصة الحجم . ويوجد طريق ينحدر تدريجيا وقد بني على الجدران الخارجية ، ويؤدي الى القمة التي يعلوها معبد صغير . وبصفة عامة كانت هناك سبع دكاك او طوابق . وكان كل طابق يحمل لونا يختلف عن لئون الطابق الذي يليه من الاسفل او من اعلى . وجدير بالذكر ان في خرسباد زقورة لا تزال تتنصب مرتفعة حتى الطابق الرابع . ويبين الطابق المتعدد الالوان والمتناثر ركامه فوقها ، بان الوان الطوابق ، اعتبارا من الاسفل ،

كانت على التعاقب : بيضاء ، سوداء ، حمراء ، بيضاء ، برتقالية مائلة الى الحمرة ، فضية ، واخيرا ذهبية . وكان قياس كل جانب من القاعدة حوالي اربعين قدما . وكان ارتفاع كل طابق تسعة عشر قدما . وبذلك يبلغ مجموع الارتفاع ١٣٣ قدما .

يوجد نوع مختلف آخر من الزقورات في الجنوب ، وبخاصة في - اور - ويتخذ هذا النوع نموذجا لدراستنا هذه^(٢٥) . تبدو البناية ، كما نعرفها ، بانها قد بنيت اصلا من قبل الملك (اور نمو) قبل عام (٢٠٠٠ ق م) بقليل . وقد عانت هذه البناية العديد من عمليات الترميم ، واعادة البناء ، وبخاصة في عهد (نونيدوس) آخر ملوك بابل . كانت هذه البناية تقوم في مركز « اور » مع العديد من المعابد الاخرى ، والتماثيل الدينية . ثم الحقت بعد ذلك بمعبد (سن) الذي كان على هيئة شكل رباعي (١٩٠×١٥٠ قدما) وتجه زواياه الى الجهات الاربع الاصلية . كان يوجد على احد جوانب هذه البناية الطويلة سلم عمودي تقريبا تتجه زواياه القائمة نحو السياج الاعلى ، في حين يوجد سلّمان اخران يلتقيان في مكان واحد ، ويتدى كل منهما من الطرف البعيد لنفس الجانب ، يلتقي هذان السلّمان في قمة الطابق الاول .

لقد كان هذا البناء يرتفع الى علو خمسين قدما ، وكان محاطا ببنايين مربعي الشكل مشابهين له ، ولكنهما اصغر منه . وكان مجموع ارتفاع البناء سبعين قدما . وكانت جدران كل واجهه من واجهات ارضفته تنحدر انحدرا خفيفا الى الداخل ، كما كانت مزخرفة بالواح بارزة للزينة ليس الا . وكل البناء مبني ثالبن الذي قوّي بالطابوق والزفت .

(٢٥) لفرض الاطلاع على اعادة تركيب شكل زقورة اور ، انظر كتاب السرليوناردولي « تنقيبات اور » المجلد الخامس سنة ١٩٢٩ .

وفي الحقيقة ان زقورة (أور) لم تكن مؤلفة من سلسلة من الدكاك المربعة والمستقيمة الاضلاع تقريبا ، كالتى كانت في (خرسباد) • بل ان هذه الزقورة تتخذ شكل ثلاثة متوازيات السطوح بعضها فوق بعض وعلى القمة محراب صغير مرصوف بسطحه بالطابوق الصقيل ذي اللون الازرق الغامق الجميل ، ويمتد تأريخها الى زمن اعادة بنائها من قبل (نبونيدوس) • وكان الطابق الاسفل هو الاسود ولون الذي يليه هو الاحمر •

يوجي الوصف الوارد في الادب القديم ، بان زقورة بابل كانت تشبه زقورة خرسباد • ووفقا لما يقوله هيرودوتس فان مسافة كل اتجاه من عند القاعدة يؤلف (ستادا واحدا) (٢٦) • وكان يوجد فوق هذه القاعدة سبع طوابق متراكبة ، في حين يلتف طريق على الجدار الخارجي صاعدا من طابق الى طابق • وجدير بالذكر انه اثناء زيارة هيرودوتس لبابل كانت الزقورة مدمرة تدميراً شديداً بناء على اوامر « اردشير » (٤٧٩ ق م) ولذلك يعتبر وصفه من الدرجة الثانية •

لقد كشفت التنقيبات أن الطوابق السفلى تظهر عليها اعادة البناء حسب خطة اور ، ولكن على قاعدة مربعة • وقد سجلت الأبعاد على لوح يعرف باسم لوح (ايساغيلا) • ويشير هذا اللوح الى ان طول القاعدة كان أكثر من (٢٩٥ قدما) بقليل ، في حين تؤكد التنقيبات بانه كان (٣٠٠ قدما) • ووفقا لهذا اللوح فقد تساوى كل من الارتفاع والعرض والطول • ولكن هذا القول لا يشمل ابعاد الطوابق المنفردة السبعة ، والتي اعتبرها هيرودوتس ثمانية حين ادخل المنصة في حسابه • واذا ما صدقنا اللوح فيجب أن يكون مجموع الارتفاع « ٣٠٠ قدما » تقريبا ••

لقد بذل الكثير من الاثاريين محاولات عديدة لاعادة بناء الزقورة ،

« (٣٦) اي حوالي مائتي يارد •

معتمدين على القياسات التي كشفت عنها التنقيبات ، وعلى معلومات اللوح •
ووصف هيرودوتس •

ويعتقد (ي. اونگر) (*) ان الزقورة المعروفة باسم إتمانبي •
كانت تضم المظاهر العامة للانواع الشمالية والجنوبية • فالطابقان
السفليان ينتميان الى الانواع الجنوبية ، في حين تنتمي الطوابق العليا الاربعة
الى النوع الشمالي ، ويحاط الصرح كله بمحراب ، وكما قيل لهيرودوتس ،
فأنه كان يضم سريرا جميلا ، وبجانبه منضدة من الذهب ، ولم يكن فيه
اي تمثال ، وان الشخص الوحيد الذي كان ينام هناك هو امرأة اختيرت من
قبل الاله نفسه ، وإذا ما صحت هذه الرواية فأنها تعني انه كان هناك ما يشبه
الحرم الصغير الذي يكرس لزواج الاله المقدس • نحن نعرف ايضا
انه كان هناك العديد من المقامات المقدسة في كل جانب من البناية وبمستوى
الطابق الاول • ويجب أن نتذكر هذه الامور اثناء أي بحث من هذا النوع
عن الزقورات •

لقد احيطت شهرة هذا البرج بهالة من التقديس في الاحاديث الانجيلية،
لانه هو الاصل الذي نشأ عنه برج بابل وظل الامر كذلك حتى تحول البرج
الى اكمة لا مظهر لها ، ودون ان يكون من اليسير رؤية طوابقها • وعندما
جرت محاولة لاعتبار برج بابل مطابقا في النوع لزقورة مدينة (بورسيا)
المجاورة ، والتي تبعد عشرة اميال عن بابل ، لم يفحص برج بورسيا فحفا
مناسبا ، وكان هذا البرج قد نجا من محاولة نفس مفرقة ارادت القيام بها
بعثة (فريسنل) • عام ١٩٥٢ م (**) فبعد ان بدت بعض السطوح العليا

(*) اونكر Eunger من الاتاريين الالمان الذين تقبوا في بابل وغيرها قبل
الحرب العالمية الاولى •

(**) فرسنل Fresnel (فولجانس) (١٧٩٥-١٨٥٥) دبلوماسي عمل
قنصلا في بغداد واشرف على التنقيبات التي اجريت في بابل سنة ١٨٥٢ •

متلونة اتفق كل من (فرسنل) والكلونيل (رولينسون) على تمجير لغم يوفر لهما المال والوقت ، ويشطر البناء الى شطرين وبذلك ينكشف قلبه • ولحسن الحظ منعت بعض الشواغل (فرسنل) من هذه المحاولة •

ونعود الى القول بان برج بورسيا اقيم على شرف الاله (نابو) بن مردوخ ، ويحتمل ان تكون المساحة التي يشغلها مختلفة كثيراً عن برج بابل وبلاضافة الى المعابد الكبيرة التي طبعت بابل بطابع العاصمة الدينية ، علينا ان لا تنسى الكثرة الكاثرة من المعابد الصغيرة والمذابح التي كانت تبني في الشوارع ، اما بامتداد عمارة معينة او عند مفترق الشارع ، فهي تشبه اضرحة السلاطين في اسطنبول • وجدير بنا ان نقبس بعض ما جاء في الكتابات المدونة الخاصة بهذه المعابد •

يوجد في بابل كلها ثلاثة وخمسون معبدا لكبار الآلهة ، وخمسة وخمسون معبداً صغيراً مكرساً لمردوخ ، وثلاثمائة معبد صغير اخر لآلهة الارض ، وستمائة معبد صغير للآلهة السماء ومائة وثمانون مذبحاً مقدساً للآلهة عشتار ، ومثل هذا العدد للآلهين نيرغال و (ادد) ، واثنى عشر مذبحاً مقدساً لمختلف الآلهة • ولما كانت هذه الاعداد قلما تصدق فأن اللوح يؤكد وجودها بالفعل داخل المدينة •

الكهانة • الملك او الكاهن الاعلى :

كان الملك ، كما قد تتوقع ، على رأس الكهانة ، وهو ممثل الاله على الارض • وقد تضمنت الالقاب الملكية القاباً مثل (كاهن عشتار) و (ممون معابد ايساغيلا) و (أزيدو) • ولم تكن هذه الالقاب مجرد القلب فخرية • ذلك لان الملك كان ، وبصفته الشخصية ، يقدم النذور ، كما كان يبيت في اجراء بعض الاحتفالات ، ولا شك انه كان يتلقى المشورة لاداء هذه المهام من الكهانة الاعتيادية ولكنه كان يتمتع بحرية العمل الذي

كان جزءاً من اعمال مكتبة الكهنوتي الرفيع . وهذه التقاليد ضاربة في القدم . ذلك لان الحسد كان يدفع بالملوك واحداً اثر واحد ، الى ادعاء الالقاب . وما دام الملك غير قادر على اداء كل المهام التي تقع على عاتق الكاهن الاعلى ، فانه يعين بديلاً عنه ليمثله ، او يقوم مقامه في اداء هذه المهام . وغالباً ما يكون هذا البديل احداً رتبته الملك نفسه ، او احد كبار مجلس الكهان . وبالرغم من ان هذا البديل يستمد سلطاته من (الانعام الالهى) والذي يتجلى في حسن الطالع ، الا ان الملك نفسه هو الذي يتولى أمر تعيينه ، وهو الذى يتولى تحليفه قسم الاخلاص . وسيراً على نفس المبدأ ، كان كل معبد تحت سلطة كاهن كبير .

لم يكن الملك يتولى تنصيب مثل هؤلاء الكهان حسب ، بل انه يتولى تعيين من يشغل منصباً اقل خطورة . لقد ادى نظام التعيين هذا الى نشوء المنافسات . وكان على الملك ان يختار من يريد من بين المتسابقين على المناصب . انظر مثلاً هذه الرسالة . المرفوعة الى الملك من قبل احد وزرائه .

(فيما يخص خليفة كبير المعبد قلت لسيدي الملك ان المنصب يليق . بابنه وبابن اخته . ان ابنه وابن اخته وابن (نابو بعليت) ، وهو بن عم مساعد رئيس الكهان ، سوف يمثلون امام الملك ، وسوف يعين سيدي من يجده منهم الانسب للمنصب) .

يأتي الكهان العاديون ، من ناحية الترتيب ، بعد كاهن الملك الاعلى وكبار اعضاء الكهانة الذين عهد اليهم الملك بالسلطات . لقد كان يطلق على الكهان العاديين اسم (سبانغو . Shangu) (الكهّان) ويشمل هذا الاسم الكهان الذين يديرون المعبد ، وكذلك الذين يشتغلون فيه كموظفين . يمكن حصر المظاهر العديدة لوظيفه الكاهن اساساً في نوعين . ويتمثل الاول في معرفة ارادة الآلهة ، وتفسيرها . اما الثاني فيتمثل في جعل المؤمن يعيش بسلام مع الاله اذا كان ذلك ضرورياً .

العرافون والمنشدون

يتولى العرافون انجاز أول هذه المهام ، اي معرفة ارادة الآلهة وتفسيرها ، اما المهمة الثانية فيتولى المنشدون انجاز قسم منها اذ يقومون بتلطيف قلوب الآلهة باناشيدهم وموسيقاهم . اما السحرة فانهم ينجزون ما يتبقى من المهام ، ووظيفتهم هي أن يمتدحوا القرايين المقدسة المقدمة من قبل الكهان المتخصصين في استرضاء الآلهة ، وفي الحصول على بركاتها ، والذين ينقذون المؤمنين من سلطات العفارت التي تضطهدهم . ولأجل تحقيق ذلك يؤدي هؤلاء الكهنة بعض الصلوات والشعائر الدينية .

لقد عبّد العرافون (واسمهم بارو Baru) كل الآلهة الذين ينتمون الى مجمع الآلهة البابلي . ولكنهم يزعمون بانهم تحت رعاية آلهة التنبؤ بالغيب ، وانهم يمثلون تقاليد مرعية جدا ، وان الشعائر التي كانوا يمارسونها قد انحدرت اليهم ، كما كان يعتقد ، من (انميدورانكي Enmeduranki) ملك (سبار) قبل الطوفان ، والذي استمر حكمه ، كما تقول الجداول المختلفة من (واحد وعشرين الف سنة الى اثنين وسبعين الف سنة ٢١٠٠٠-٧٢٠٠٠) وما دام قد انعم على هذا الملك بمزايا الكمال البدني فان الدين يحلفونه يجب ان يكونوا مثله . والحقيقة ان النصوص تقول انه لن يستطيع احد ان يكون قيماً على مراسيم شمش وادد (وهما الها الكهانة) من كان ابوه غير طاهر ، وكان نفسه غير كامل الاطراف ، او الملامح ، وغير سليم العيين او الاسنان ، او الاصابع او من كان يبدو عليه المرض ، او به دمامل .

لقد كان على العراف ، اي البارو ، الطمبوح ان يخضع لدراسة طويلة ، وان يمر في تجربة تدريبية ، بالاضافة الى وجوب حلاقة

شعره كله ، او ان يخلق أم رأسه على الاقل ، لكي يكون موهلا لعمله ، او كما تقول الصيغة الخاصة بذلك (لقد ادى الحلاق عمله اليدوى عليه) •

وما دام المرء لا يستطيع ان يعيش حياته اليومية دون مساعدة العرافين ، وما دام من الممكن الاستعانة بخدماتهم عند اية اشارة لذلك ، فقد خصص البعض منهم لاداء الواجبات المطلوبة في القصر ، او في المعبد المجاور له •

لقد كانت الرسائل التي كتبها هؤلاء العرافون تكرر القول باستمرار :-
(لقد جعلني الملك ابحث عن هذا او ذاك) •

ولقد توجب على العرافين الملحقين بالقصر ان يكونوا في حالة استعداد لتفسير اي شيء يطلب منهم تفسيره • كما كان عليهم ان يؤدوا يمين الولاء باعتبارهم عن الموظفين •

فنحن نجد احد الموظفين يذكر الملك باليوم المحدد لاداء القسم الذي يتضمنه امر حضور الكتاب والعرافين والمعلمين والاطباء ومراتب الطيور وموظفي القصر ، لقد اعتبر هذا القسم شيئا عاديا ، او انه شبكة تحتوي من يؤدي القسم • اما المعنى الحرفي للصيغة التي تقال عند القسم فهي :-
(سوف يشق طريقه في وسط القسم)

اما الجعاعة الاخرى فانها تتألف من المنشدين او (الكالوا Kalu وهم الذين يرتلون الصلوات وينشدونها مع المتعبدين وفي وقت واحد ، وترافق الموسيقى المناسبة هذا الانشاد ، وتتألف هذه الموسيقى من القرع الايقاعي لطبول كبيرة تشبه الصناديق ، بالاضافة الى القيثارة وآله موسيقية اخرى تشبهها وقد تم العثور على نماذج من هذه الآلات سليمة في مقابر (اور الملكية) ، هذا بالاضافة الى ما وجد من اشكالها منحوتة على التماثيل • وتكاد تكون جميع القيثارات تحمل صورة ثور صغير ، او رأس ثور • ومن

المحتمل ان تكون انغامها عالية جدا ذلك لان صوتها كان يقارن غالبا بخوار
الثورة . ولقد وصفت بعض انواع الصلوات بانها بحاجة الى مرافقة صوت الناي،
ولقد رافقت اغاني المنشدين العدد الكبير من الاحتفالات الدينية ، بما في
ذلك الطويلة جدا مثل الاحتفال الخاص باعادة بناء معبد متهدم .

لدينا جدول خاص بالترانيم ، وتمثل جميعها انواعا مختلفة من النواح .
وقد ادخلت في الاطوار الموسيقية والغنائية الخاصة بكل منشد . ويوجد
بين هذه الترانيم سبعة وخمسون ترنية كانت تتطلب مرافقة الطبل الكبير ،
ثم اربعون ترنية كانت تتطلب وجود الناي ، وسبعة واربعون تتطلب رفع
الايدي بالدعاء عند قراءتها .

العزّمون :

كان المنشدون اجمالا من المنشدين للتعاويذ . ذلك لان هدف وموضوع
ترانيمهم ونواحيهم ، هو التطهير والحماية . يعتبر (الاشيبو Ashipu)
هو المساهم اكثر فعالية ونشاطا في هذه المناسبات وتقابل حكمة (أشيبو في
الاكدية كلمة مشمش Mashmash) والصيغة السامية للكلمة الاخيرة هي
(مسماشو Masmashu) . وهناك اساس للظن باحتمال وجود شيء من
الاختلافات بين هذه الكلمات . ولكننا لا نعرف سببا لها . كان واجب
(الاشيبو) ينحصر في ان ينطق بالتعاويذ ، وهو يشبه العراف في استطاعته
الادعاء بانه يمثل تقاليد عريقة جدا . وتقول احدى التعاويذ التي كان يستعملها .
(انا ، الاشيبو ، الذي خلق في اريدو ، نعم ، الاشيبو الذي ولد في
(اريدو في سوبارو Subaru) .

ان هذا يدل على ان (اريدو) كانت تعتبر المدينة الاقدم بين المدن السومرية
في حين كانت (سوبارو) اول اسم عرف عن (آشور) المتأخرة . وهكذا فان

الأشييو يدعي ان اصوله تضرب في اعماق بدايات حضارة بلاد بين النهرين •

انا نسمع بوجود نوع اخر من الكهانة ويعرف باسم (إريبي ييستي Eribi biti) • ولهذا النوع حق دخول الحرم • ولن ننظر الى هؤلاء باعتبارهم طبقة منفصلة • وذلك لان الاسم يشير بكل بساطة الى ذلك النوع من الكهان الذين لهم ، كما يدل اسمهم ، حق دخول الحرم ، وكانوا يعتبرون من بين الكهان الذين سبق ذكرهم •

صغار الكهان وموظفو المعبد

يقوم موظفو المعبد باعداد رجال المؤخرة ، بما في ذلك البوابون والحراس والموظفون الذين يؤدون مهام تقديم القربان وكانوا يعرفون باسم (حاملو السكاكين) ، ثم حاملو العرش . ومما لاشك فيه ان واجبهم هو ان يحملو على اكتافهم النقالات التي يحمل عليها الآلهة في المواكب . ويبدو ان عددهم كبير ، وهذا ما يشير اليه تجمع العدد الكبير من تماثيل الالهة في احد الاحتفالات .

لقد كانت تجري في المعبد مجموعة متنوعة من الفعاليات ومن بينها فعاليات صانعي الشراب ، وصانعي الحلويات والكمك الذين يصنعون الكمك المقدس الضروري في بعض الاحتفالات . لقد كانت قاعة المعبد الامامية المكرسة لعشتار في الفترة المتأخرة تعج باسراب الحمام الذي كان يمثل طيور الالهة الشخصية وكانت هذه الطيور تعشش في قمة المعبد ، اما العناية بها فكانت تعتبر من الامور الدينية وكذلك اطعامها . وكان المتعبدون هم الذين يقومون بذلك ، فيقدمون لها الكمك المصنوع في المعبد خصيصا لهذا الغرض .

السرقا؁ والشغب في حرما؁ المعبد

كان بين موظفي المعبد رجال يقومون بأعمال الحراسة وكان واجب هؤلاء هو منع ، او على الأقل اخماد الشغب ومنع السرقا؁ التي كانت كثيرة الشيوخ ، وذلك بسبب وجود دواعي الاغراء القوية المتمثلة في ملابس الآلهة وحليها والكنوز المتراكمة التي تشكل لوازم خاصة بالشعائر الدينية .

ومن امثلة التقارير التي كانت ترفع عن السرقا؁ ، تقرير يقول :-
المنضدة الذهبية التي فقدت من معبد (آشور) شوهدت في حوزة النحات
س نوصي بأن يتخذ الملك الخطوات لاستدعائه واستجوابه .
والذي لا شك فيه هو ان الملك سيقول :-

لماذا لم يرفع احد تقريراً إليّ بهذا الشأن ؟ لقد قلع الكاهن التابع
لـ (شمس) السماء الذهبية من (ايساكيل) وذلك عندما غادر بابل .
ثم يمضي التقرير ليقول :-

لقد لفت قائد خرسباد نفسه الاظفار اليه بتعمده فتح الظروف المختومة .
انه الآن يفتح غرفة المخزن التي تعود لآله الملك ، وحالما جاء قائد وحاكم
نينوى وارييل بالفضة الى المعبد قام باخذها منهما) .

لقد كانت الاحتياطات اللازمة لحفظ المواد الثمينة تزداد باستمرار يقول
احد الصاغة :-

(لقد صنعت تاج آنو) ... لقد تسلمت اثنا عشر ميناً من الذهب
كهدية لبعل ، واستعملته في صنع المجوهرات للآله (سربانيت) . لقد اودع
كل شيء في خزانة معبد آشور ولن يستطيع احد ان يفتح الخزانة الا بحضور
الكاهن س ... حبذا لو تفضل الملك وارسل شخصاً يخوله فتح الخزانة لكي
اتمكن من اتمام العمل وارساله الى الملك) .

قد تقع احيانا محاولات إغتيال في المعبد كما نرى في التقرير التالي :-
 (عند باب - اي - أثا) الكبير أستل (س ين ي) خنجره معترضا
 طعن (ز) الذي عينه الملك رئيسا لموظفي (إي - أثا) وعندما أحضر (س)
 امام المحكمة قررت حجز الخنجر ، كتب في - الوركاء - لليوم الحادي
 والعشرين من شهر كسليف من السنة السادسة عشرة لحكم (نابونيدوس
 ملك بابل) .

الصلوات :

كان الوضع المتخذ اثناء الصلاة يتمثل في رفع اليدين نحو الاله مع
 القراءة العلنية بصورة خاصة ، وقد اشتملت الصلوات على عدد كبير من
 الترانيم والادعية والتي يشارك فيها الجميع ويحدث توقف بين الحين والحين،
 واثناء هذا التوقف ينطق الجميع بنوع من التفجع او النواح العام . ولم
 تكن المواكب تقام داخل المعبد حسب بل حتى في ارجاء المدينة كذلك . كما كان
 بين المشاركين العديد من الكهان وتمثيل الآلهة ، والممثلون الرسميون ،
 ويصادف احيانا وجود الملك والمتعبدين .

يعتبر تقديم الضحية اهم مظاهر العبادة . وكان الجدي هو مادة
 الضحية بصورة عامة . وفي مثل هذه الحالة يحرق قسم من الحيوان ، في حين
 يأخذ الكهان الباقي . وقد يأخذ تقديم الضحية شكل سكب الحليب والخمر
 والعسل وتحتاج مهام شعائر التضحية بالحيوانات والتي تتراوح بين الطيور
 والثيران ، الى جيش لجب من صغار الموظفين كما تتطلب الصلاة الاداء الحرفي
 للفروض التقليدية ، وان اي فشل في ذلك سوف يفسد دلالة الاحتفالات
 والتي كان اهمها تلك الاحتفالات التي يراها الملك ممثلا في شخص كبير
 الكهان . لقد كان الاحتفال الديني مرافقا لكل عمل كبناء المعبد مثلا . كما
 ان الركن الاساسي في كل صلاة هو التطهر بصورة تامة ، ذلك لان البابليين

كانوا يعتقدون ان عدم الطهارة امر يثير الرعب لانه يفسح المجال للدخول
الفاريت •

لقد كانت احتفالات الاستطاف وتقديم القحية في سبيل الاسترضاء ،
مهمة ايضا لغرض مكافحة الآثار السيئة التي خلفتها أيام أو اشهر معينة ،
والتي قد تشمل فرض الحظر حتى على أكثر الاعمال شيوعا في الحياة اليومية.

الاعياد الدينية

كان لكل اله اعياده الدينية المعينة • وكان اهمها عيد رأس السنة الجديدة • يحل هذا العيد في الربيع في شهر نيسان • وبمرور الوقت اكتسب صفة ثنائية • وقد نشأ هذا العيد اصلا كعيد من اعياد الطبيعة وهو يتميز بنوعين من المظاهر فيعبر المظهر الاول عن حزن الطبيعة على موت كل الاشياء النامية ويعبر المظهر الثاني عن فرحة الطبيعة بعودة الحياة الى هذه الاشياء • واضيف الى هذا العيد تمجيد مردوخ فيحتفل بالآثر التي دفعته الى مقامه الجليل بين الالهة • ويستمر عيد السنة الجديدة في بابل اثني عشر يوما • وفي معبد (ايساغيلا) يستقبل مردوخ آلهة المدن الاخرى في شخص تماثيلهم واول من يقدم له الولاء ابنه (نابو) الذي كان يعبد في مدينة (بورسييا) المجاورة •

ان من الصعب التأكد من الدلالات المختلفة للعيد ولكنه كان يضم احتفالا بعودة مردوخ الى الحياة ، فيتحول الحزن الى فرح ، ثم يسير مجموع الالهة برفقة الموكب الكبير الى المعبد خارج المدينة ، والذي يعرف باسم (اكيثو) وهو الاسم الذي يطلق على المعبد ايضا وفي اثناء هذه الفترة يمثل نوع خاص من المسرحيات التي تصور حوادث ملحمة (كلكامش) ، ومنها نداء الاله الى مردوخ لكي يكون بطلهم في مقاومة (تيامات) أو (كاوس) كما تصور النصر الذي احرزه وتنصيبه رئيسا لمجمع الالهة واداء اهم الواجبات الرئيسة ، وبخاصة تثبيت مصائد مدينة بابل • وتشمل مراحل العيد اداء بعض العبادات الطبيعية والتي تتألف من تنفيذ عملية الزواج المقدس التي تتم في المعبد لزوجين من الالهة مختلفين اما بتمثال آلهين ، او بكاهن كبير وكاهنة كبيرة • وهنا يختتم العيد ثم تعاد التماثيل الى معابدها القريبة والبعيدة • لقد كان لكل مدينة كبيرة طريقتها الخاصة بها للقيام بهذه الاحتفالات • وكان اي خطأ او تقصير في تنفيذ مراسيم الاحتفالات يعني نذيرا بكارثة •

الكهانة ومبرراتها

تعتبر الكهانة ، والسحر والطب ، الميادين الثلاثة المتداخلة والتي تقوم مقام نقاط التماس العميقة جدا بين الحياة والمبادئ الدينية عند سكان بلاد بين النهرين . يستطيع العالم الحديث بمساعدة العلم ان يتنبأ بالكثير من الظواهر الطبيعية ، كحالة البحر ، او سير الوباء ، وبالتالي فانه سرعان ما يعرف ماذا حدث في اي مكان عن المعمورة .

لم يكن البابليون ، بالطبع على هذه الشاكلة ، لانهم افتقدوا مثل هذه المزايا والمنافع . ولذلك راحوا يبحثون عند الآلهة عن المعرفة لكي تنقذهم من كبرى الحوادث وصغارها على حد سواء . لقد اعتقدوا بان الآلهة يكشفون عن ارادتهم واهدافهم في المستقبل ، بالف دلالة يمكن ان تفسر تفسيراً جيداً ومناسباً ، بفضل كشفها اسرار التكهّن بالغيب لانبيدورانكي وهو واحد من الملوك الاسطوريين قبل الطوفان . ولقد ارتفعت قيمة هذا الكشف الاصلي عن الغيب بما رافقه ما كان يتم الحصول عليه يومياً ، فصار بمستوى العلم وبذلك امكنه ان ينال القبول على اساس انه مصدر للمعلومات الرسمية .

كان الملك يستشير كهنة القصر باستمرار قبل ان يتخذ اي قرار خطير . وكان البابلي العادي يفعل نفس الشي لكي يعرف شيئاً عن الحوادث التي تقع في حياته اليومية . كان التأكد من ارادة الاله امرأ ضروريا دائماً في بلاد بين النهرين وقبل القيام باي عمل .

الهة التكهون بالغيب ، الكهان

كان هناك الهان يعتبران الهى التكهون بالغيب وهذان الالهان هما (شمس) و (ادد) فاما الاول اى شمس ، فانه لم يكن يرى كل شيء حسب ، بل كان يعرف المستقبل ايضا . وكانت هذه احدى صفات (ادد) كذلك ، والذي لم يكن ينتمي الى مجمع الالهة العراقي القديم ، ولكنه كان يعتبر ، بلا شك مالكا لنفس الخصائص في بلاد الغرب التي جاء منها لقد كان هو اله الطقس وقد لعب دوراً بارزاً في السحر البابلي .

ولما كان التكهون بالغيب إلهيا أصلاً ، فمن الطبيعي ان يمارسه الكهان ، اما التطير فقد كان من اختصاص من عرفوا باسم (بارو , Baru) ومعنى هذه الكلمة هو الرجل الذي كان يرى او يفتش ، والذي يواصل عمل تقاليد (إنميدورانكي) ولذلك يجب ان يكون كسابقه كامل الخلقة ، ويتطلب تدريبه فترة طويلة من الدراسة ينقطع بعدها الى عمله . فهو يبقى رأسه حليقاً دائماً ويصبح عضواً في مجلس الكهان الملحق بالمعبد .

يجد التكهون له مجالاً في كل مادة ذلك لان كل شيء يمكن ان يكون نذير خير او شر وكانت هناك قواعد محددة تحديداً دقيقاً ووثيقاً لتنظيم الطرق المختلفة المستعملة في تفسير الفأل ، كما ان العراف لا يمكن ان يكون في حيرة من امره ، وذلك بفضل المجموعة الكبيرة من الألواح التي غالباً ما تستنسخ وتضاف الى المجموعة السابقة المتراكمة عبر القرون . وبالإضافة الى ذلك كان العراف يحتفظ بسجل خاص لمظاهر مألوفة كان قد واجهها اثناء تقدم الضحايا ويحتوي هذا السجل على الكثير من الحلول التي اذا ما درست في الوقت المناسب فانها تمكن من التعرف على اية علامة جديدة .

لقد لعبت قراءة الطالع دوراً بارزاً فيما كانت تواجه عبقرية الكاتب من طلبات غالباً ما كانت هامة . فاذا ما لوحظ مثلاً وجود الطائر عن يمين السائل،

فان هذا يعني الشر للبلد المعادي • واذا ما كان الطائر على اليسار فأن الاية تنعكس • وهكذا يمكن ان نستنتج من هذه المظاهر اربعة انواع من الطالع هي الخير ، والشر ، والنصر ، والهزيمة ؛ وقصارى القول كان الكاتب يتفحص كل ما يفهمه عن اسباب التغيير الذي يطرأ على ما يواجهه من بشائر ونذر وذلك لكي يستخلص انواعا جديدة مختلفة من البشائر والنذر ، ولكن يشترط ان يكون مستواها منسجما مع الظاهرة الاصلية • وجدير بالذكر ان التورية التي ذكرنا اهميتها سابقا ، تلعب دورها في هذه العملية • فاذا ما رأى الباحث طيراً فان تفسير ذلك يكون بتكرار كلمة يتم التلطف بها مثل صيغة فعل له معنى (أن يَنْقُذَ او أن يَنْقُذَ) وتتوقف شروط الجواب على الصيغة الاصلية للسؤال •

اعتقد سكان بابل بان العرّافين يأخذون تفسيراتهم عن طريق الوحي ، ولذلك فانهم ابعد من ان يكونوا موضع شك عند احد • بل ان هناك المزيد من الادلة التي تدعم قابلية تصديقهم • وكان الناس يذكرون جيذا الطوالع التي ساعدت بعض الملوك الاقدمين في التغلب على ازمات ايامهم • فاذا ما كرر ذكر احد هذه الطوالع سارع الناس الى اقتباسه باطمئنان •

انواع مختلفة من التكنهن - الاحلام

يعتبر اعطاء الجواب الالهي من ابسط انواع التكنهن الموجودة في النظام المقارن للتكنهن ، والذي نعرف بواسطته اهمية كل نوع . اما من ينطق بهذا الجواب فهو الاله نفسه، أو واحدمن يقومون على عبادته كالكاهنة مثلاً والتي تتمتع بسجاياء التنبؤ . واذا ما كان الجواب الالهي غامضاً فإن العراف يتولى تفسيره . وغالباً ما كانت الاحلام اكثر حاجة الى التفسير . كانت الاحلام في كثير من الاحيان الوسطة التي عن طريقها تنقل التحذيرات وقد جمعت الكثير من هذه الاحلام . وجدير بنا ان نتذكر ان المواطن البابلي كان يعتبر الحلم مساوياً للحقيقة ، وبناءً على ذلك كانت رؤية الاله في الحلم تعنى نفس رؤيته في الحياة الحقيقية ، اذ ليس من المهم ان يكون الانسان نائماً او ماشياً؛ ومن جهة اخرى فانه لم تكن ثمة حدود لتنوع المادة الموضوعية للحلم ، او لاستحالتها بالنسبة للانسان ؛ فاذا ما رأى الباحث الحديث اعمالاً مستحيلة تنسب الى كائنات انسانية فان عليه ان يسلم جدلاً بان السبب هو تفاسير الاحلام .

على من يدرس مجموعة الطوالع التي جاءت بها الاحلام ألا يدهش اذا ما وجد تكراراً لها في النصوص الاغريقية أو اللاتينية ، بل وحتى في كتب عصرنا الحاضر التي تستهدف تفسير الاحلام . ذلك لان هذا النوع من التكنهن قد استطاع ان يعيش عبر العصور دون ان يتبدل تبديلاً فعلياً .

التنبؤ عن طريق الكبد Hepatoscopy.

لقد كان هذا احد انواع التنبؤ المهمة • ولكن المصادر اللازمة للقيام به جعلته مقصورا على الملك وكبار الموظفين ليس الا • كان البابليون يعتقدون انه حينما يضحي بجدي او نعجة فان الاله يكشف عن ارادته بالتغيرات التي تحدث في شكل الاجزاء المختلفة لكبد الضحية • وقد اثبتت طريقة تفسيرهم هذه من تقاليد قديمة احتوتها مجاميع متعددة نملكها نحن رغم اننا نجهل معرفة الاجزاء والتغيرات المشار اليها •

لقد طبقت هذه الطريقة من التنبؤ على نطاق واسع من قبل الحيشين و (الأتروسكانيين) (*) • فبعد ذبح الحيوان وفتح بطنه يقوم مقدم الضحية باخذ استنتاجات تمهيدية ، وبعد ذلك يخرج الكبد ويعرضه لفحص دقيق ؛ ولكي يتمكن العرافون من ممارسة هذه الصنعة فافهم كانوا يستعملون نماذج من الطين للكبد • وتصور هذه النماذج انواع التغيرات والتكوينات الشاذة •

التنجيم :

كان هناك الكثيرون من المشتغلين بالتنجيم • ولم يكن هذا التنجيم مثل التنجيم الذي ألفه وعرفه الاغريق وعالم العصور الوسطى ، وكما هو مارس اليوم • لقد احتاج المنجمون في سبيل معرفته الطالع عند الولادة ، الى نوعين من المعرفة ويمثل الاول في دائرة البروج ، في حين يتمثل الثاني في استقبال الاعتدالين الربيعي والخريفي • ولم يكن النوع الاول من المعرفة معروفا في بلاد بين النهرين قبل نهاية العصر الموغل في القدم ، اما الثاني فلم

(*) كان الأتروسكانيون يسكنون شمال نهر التيبر في ايطاليا واصلهم غير معروف بالضبط ولكن يظن انهم من سكان بحر ايجة وقد هاجموا اللاتينيين واحتلوا روما في القرن الثامن ق . م •

يعرف الا في نهاية تأريخه (الذي ارتبط بالكون البابلي) . لقد اتخذ التنجيم البابلي من الانواء الجوية قاعدة له ، ذلك لانه كان يقوم على أساس مراقبة الرياح ، والوان النجوم والكواكب السيارة ، والخسوف والكسوف . اما النصيحة التي كان يقدمها فانه من الممكن تفسيرها بعدة وجوه لانها لم تكن تشير الى مسائل السياسية ذات المستوى العالي بل الى الحياة اليومية للانسان العادي كالزراعة . لقد كان التنجيم في الحقيقة معادلا من قريب او بعيد ، للتنبؤات الجوية الحديثة .

معرفة الطالع عن طريق الولادات واللقاءات العرضية

كان يوجد نوع آخر من معرفة الطالع الذي يستحصل من ولادة الكائن البشري والحيواني ، او من الظروف الشاذة التي تحيط بهذه الولادة . وقد اعتبرت مثل هذه الظروف مناقضة للطبيعة كما انها اعطيت (علامة) تدل على كائن رهيب او (غول) . وكان تفسير مثل هذه العلامات شائعا عند عامة السكان .

لقد كان هناك العديد من أنواع معرفة الطالع . وقد دُعيت هذه الانواع باسم (التكهّن التابع) وقد سمي بهذا الاسم لانه يعتمد على دراسة ومراقبة طيران الطيور . وكانت مثل هذه الطريقة متبعة عند الحيشين والأتروسكانيين . كما اعتمد هذا التكهّن على ملاحظة الاشكال التي يكوها الزيت المنثور فوق الماء . كما انه كان يعتمد على تحليل كل مظهر من مظاهر البيئة البشرية . ولدينا الواح عديدة فيها نصوص عن معرفة الطالع الذي اريد الكشف عنه بطرائق عديدة وكثيرة مثل معرفة ما يمثله الماء المسكوب على الطريق ، او مصادفة حيوان ، او نبات معين . ويبدأ احسن الالواح بالقول :-

(اذا كانت المدينة تقوم على تل ٠٠٠٠) .

ولعل احسن فكرة عن الدلالة التي ترتبط باللقاءات العرضية هي تلك التي نحصل عليها من عنوان مجموعة عن اصول معرفة الطالع وتعرف هذه المجموعة من كلماتها الاستهلاكية مثل :- (عندما يكون المعزّم في طريقه الى بيت احد المقعدين ٠٠٠٠٠) وتكملة هذه الجملة هي :-

(ان كل شيء يقابله المعزّم سوف يؤثّر على حياة المريض .) قد يكون التكهّن بهذه الطريقة وبهذا الاسلوب مدعاة لفرح المستهم او نكبته . وهذا يتوقف على الحيوان الذي يحصل عليه ؛ ولكن المظهر المحزن يجب ان يكون

في خضوع الفرد الدائم لكل مظهر من مظاهر العالم المادي والذي يملئ على هذا الفرد نمط سلوكه .

لقد كان الانسان البابلي ، كما رأينا سابقا ، هدفا لهجمات العفاريت . ونجده الان يجري التعديل على طريقة حياته اطاعة منه للطوالح الموجودة في كل مكان ، واذا ما اعتقد ان هذه الطاعة تكسبه وقتا يستطيع فيه الحصول على تأجيل احكام الطوالح ، واذا ما اعتقد ان الطوالح تفضل نوعا معينا من العمل ، فانه سيقع ضحية لاوهام ضالة تصور له ان الاخطار الشديدة تحيط به وان عليه ان يتذكر ان معرفة يوم الخير ويوم الشر قبل ان يقدم على اي عمل يمثل امراً هاماً . فاذا ما كان هذا العمل غير صالح بحد ذاته ، فلربما ستبدل صفة اليوم الذي يريد ان يعمل فيه ، طبيعة العمل من اساسها .

السحر :

ارتبطت ممارسات السحر في بابل بشعائر التعزيم المضاد للعفاريت، ولم يكن السحر معترفا به رسميا حسب بل كان اداة لمخاطبة الآلهة ، كما كان يمارس من قبل الكهان في المعبد بالاضافة الى كونه جزء مكمّل في الديانة البابلية . وكانت دراسته تدخل ضمن دائرة الدراسات الانثارية الخاصة بالشرق الادنى ..

لدينا الكثير من تفاصيل الشعائر التي استخدمها الكهان البابليون في هذا المجال وعندما تقرأها ندرك ان هدفها كان في جوهره خيرا ، وأنها كانت تهدف الى ضمان الخلاص من العفاريت . لقد كان السحرة غير الشرعيين ينتفعون بهذه الشعائر ، ويعتبرونها من وسائل الدفاع ضد العفاريت . ولما

كان هذا الصنف من السحرة خصباً للكهنة فائقاً لا نعرف بالتفصيل الوسائل التي كانوا يتبعونها لمهاجمة الضحية • ولكن الممارسات التي كانت تستعمل لرد هذا الهجوم ، تعطينا فكرة لطيفة جداً عن طبيعة هذا السحر غير الشرعي • وفي الحقيقة فإن الممارسات التي كان يستخدمها الساحر غير الشرعي لتعبئة قوى الشر ، هي نفس الممارسات التي استخدمها الكهنة للحصول على مساعدة القوة المتفوقة والتي لا يمكن ان تخيب في تحقيق النصر •

الهة السحر ، الكهان واساليبهم الفنية ، الرقية

كان الآلهة ، وبخاصة (مردوخ وايا) يمثلون القوى المتفوقة بالإضافة الى خدمهم من الجن الصالحين . وفي زمن الاصلاحات المدنية التي جرت في عهد السلالة البابلية سلم (ايا) كل صلاحياته الفعالة تقريبا الى ابنه (مردوخ) على الرغم من انه ظل المرجع الذي يلاذ به في وقت الشدة وغالبا ما كان ابنه يستغيث به طالبا العون منه ، ومعلوم ان (يا) كان اله كل المعرفة ، وصانع الخير للانسان .

اتنا نعرف الآن ما يحصل عليه الانسان او الشيء من قوة ، بتأثير سلطان الاسم ، وذلك عن طريق معرفة هذا الاسم او النطق به بنغمة معينة ، او حتى عن طريق كتابته او تصويره تصويرا ماديا .

لقد اكتسب السحر طبيعته الجوهرية من تطبيق هذه المبادئ من قبل الكاهن المعزم والذي كان يطلق عليه اسم (ماسماشو Masmasnu او أششيبو Ashibu) ويعنى هذا الاسم (الكهان الذين يقرأون التعاويذ) ولم تكن للكاهن المعزم اية فضيلة موروثة بالقطرة . وهو يستمد سلطاته من تعبد ، ومن كونه ممثلا لآلهة السحر الذين يعتمد عليهم في ممارسته لعمله المقدس . كان الكاهن المعزم يصيح اثناء ممارسته لعمله قائلا :- (الأششيبو الذي خلق في أريدو ، مدينة ايا المقدسة ، انا هو .) ثم ينطق بالكلمات الخاصة بالشعائر اللازمة لطرد العفارت ويكون المعزم في هذه الحالة لابسا الرداء الاحمر لان اللون الاحمر هو اللون الواقى من الارواح الشريرة ، كما قد يلبس جلدا يشبه السمكة ليؤكد صلته بـ (ايا) اله المياه والهاوية . اما الكلمات التي ينطق بها فلا يقولها إرتجالا بل انها وحي الآلهة وتبقى كذلك دون ان يصيها اي تغيير . كان الكائن ينادي خصمه بالنيابة من آلهة السماء والارض وهذا النداء يجرده من قوته ، ثم

يناشد المعزم الخصم لكي يتوقف عن تعذيب المؤمن وان يرحل ، ثم يدعو المعزم كل الالهة لمساعدة المعذب ويقرأ بعد ذلك التعويذة الخاصة بطرد العفريت وتحتز هذه الشعائر بعدد من الاعمال الرمزية كحرق مواد يظن فيها انها تشبه الارواح الشريرة ، وحل العقد التي يعتقد فيها ان الساحر الشرير قد ربط بواسطتها ضحيته ، وأخيرا تلقى تعويذة تبطل تأثير تعويذة الساحر الشرير التي رمى بها ضحيته .

وكانت هذه التعويذة مشابهة في الاصل للتعاويذ التي كانت مستعملة في أوروبا في العصور الوسطى ، وهي تتألف من صنع تماثيل تعرض للعذاب والتدمير ، وبكلمة اخرى فانها تعني ممارسة (سحر الاستعطاف) . فكانه (لاشيسو) يرسم ، اثناء هذه المراسيم ، دوائر حول نفسه بالعصا السحرية . وكذلك يرسم هذه الدوائر حول من يريد ان يجبره ، فاطقا بالكلمات التالية :-

(بيدي احمل دائرة سحر - ايا - ، بيدي احمل عصا الصنوبر ، سلاح ايا المقدس ، بيدي احمل غصن شجرة الشعائر العظيمة) ولم تكن هذه هي حدوده صلاحيات الساحر انه هو الذي يحيط تماثيل الآلهة وادوات عبادتهم بهالة من التقديس ، وهكذا يعيدهم الى الحياة بغسل وفتح افواههم ، وتتألف هذه العملية من لمسهم باداة مناسبة ، وكذلك من تلاوة بعض الصيغ . وبهذه الوسيلة تعود التماثيل الى الحياة ومعها تعود كذلك المواد التي تستعمل في الطقوس الدينية الخاصة بها كالادوات الموسيقية ومنها الطبل المقدسة . والتي تعرف باسم (ليليسو Lillisu) والتي تستعمل في العزف الموسيقى .

كان (الاشيسو) يتقدم احيانا لمساعدة الى الآلهة فعندما كانت العفاريت تهاجم اله القمر (سين) وتضطهده ويؤدي ذلك الى الخسوف ، يشارك (الاشيسو) بقية الآلهة في انقاذ اله القمر ، وذلك بتعاويذه وصلاته .

تؤدي كل هذه المراسيم بمصاحبة الترانيم التي تتألف من كلمات تزداد

قوة بطريقة النطق بها ، كما ان لعدد المشاركين في هذه المراسيم اثره الفعال ، وبالإضافة الى هذه التراثيم هنالك عدد من الرقصات التي تحاكي في هياتها الاعمال التي ينوي (الاشيبو) القيام بها لكي تشارك هي الاخرى في المراسيم المذكورة . وهذا هو التفسير لافاشيد الحرب والحب والرقصات الحربية ، والتي يراد بها جعل الطريدة لا حول لها ولا قوة .

هناك سبب يدعو للظن بأنه اذا ما ادى (الاشيبو) مجموعة الشعائر كاملة فانه سيجعل حتى الآلهة يتضجرون من الاحراج . ذلك لان عمليات سحر الاستعطاف لها رد فعل في السماء بسبب الصلات والروابط الموجودة بينهما ، ومن امثلة سحر الاستعطاف سقي النباتات لاستدراار المطر وتزويج الهين ممثلين بتمثالين او كاهن وكاهنة لتشجيع الخصوبة على وجه الارض . هناك مثال آخر نستطيع ان نجده في اللغة التي يمكن ان تتحقق اذا كانت كلماتها اكثر من مجرد نفخة فارغة وهناك حالة واحدة نجدها في (ملحمة كلكامش) وقد حقق فيها الآلهة اللعنة على الرغم منه . فعندما لعن (انكيدو) عاهرة المعبد تجلى الآلهة (شمش لأنكيدو وعقته على موقعه من انسان أحسن اليه كثيرا ، ومع ذلك فإنه بالرغم من تعنيفه لأنكيدو بسبب تلك اللعنة ، اضطر « شمس » الى ان يحول عاهرة المعبد الى كلبة .

الاحتمالات الكامنة في السحر البابلي

يظهر التحصن السريع للممارسات البابلية للسحر ، ان هذه الممارسات كانت عبادة في نواياها ، وان هدفها كان اخلاقيا خالصا وانها قد تماشى كل الغايات المادية التي ادعت الانظمة المتأخرة انها بلغتها .

لم يقدم السحر البابلي احسن السبل واقصرها للحصول على المال والشرف ، ولا الوعود بالشباب الدائم . وعلى الانسان البابلي الذي يريد هذه الاشياء ان يستعين بالساحر غير الشرعي ، لا بالاشييو الذي لم يكن عنده شيء من هذا القبيل .

ان ما عندنا من تائم يعزز هذا المفهوم وتمثل بعض هذه التائم رموز الاله التي اريد منها احلال الصلح والوفاق بين الانسان والاله ، وذلك لجعل الانسان تحت الحماية الالهية . كما تمثل بعض هذه التائم ارواحا شريرة . يمكن ان تكون عديمة الاذى اذا ما نظر اليها بوضوح ، او اذا ما ظهرت كما هي . ومرة ثانية نقول ان هناك نوع آخر من التائم التي تحمل مشاهد صيد وبالاخص مشاهد قطعان من الحيوان (وهذا منظر مألوف في الإختام الاسطوانية) ويبدو ان هذه المشاهد قد صممت لتضمن نجاح اعمال مالكي التائم ومن الواضح ان السحر البابلي ، كالكهانة البابلية ، كان يتحدى قوانين التغيير فظل ثابتا لعدة قرون .

الطب البابلي • المرحلة الكهنوتية

يشبه الطب البابلي السحر من حيث اعتماده على الاضطراب لاكتشاف اسباب الشر . وقد اشتمل على اساليب السحر الفنية مزروجة بالتكهن بالغيب . وكانت ممارسته في اطواره الاولى من ضمن اختصاص الكهنة . كان (المقعد) انسانا ممسوسا ، اي مصابا بروح شريرة ، او مبتلى بعفريت ، واعتبر ذلك سببا لمرضه . ولما كان هناك تعريف يقول ان كل مقعد آثم ، ولما كانت هذه الحالة يستعصي تشخيصها وبالتالي يمتنع على المعالج التعرف على العفريت المسبب لها ، لذلك صار من الضروري اكتشاف الاثم . وما ان يتحقق هذا الاكتشاف حتى يكون معادلا لازاحة الستار عن العفريت المسبب . وبعد ان يتذكر (الاشيبو) هذا الامر يأخذ في قراءة جداول الآثام فلعل المريض قد اقترف بعضا منها ان عمدا وان سهوا . وما أن يشخص الذنب موضوع البحث حتى يتمكن (الاشيبو) من قهر العفريت الذي استغل الذنب لكي يحل في جسم المريض . اما اذا كانت اعراض الحالة معروفة جيدا من قبل ، فان العفريت يعرف انه سيخضع بسرعة . وتستعمل مثل هذه الطائفة طريقة علاج تلقى القبول بصورة تدريجية ، وتوازي هذه الطريقة التعويذات وباستطاعتها ضد هجمات العفاريت ، كما انها تكون مصممة لتجبرها على أن تترك المريض .

لقد ادت هذه الطريقة في الماضي الى استعمال البدواء الذي كان يركب من المخاط والمواد العفنة بل وحتى من البراز . وغالبا ما كان هناك تتبع لاتجاه المرض في المستقبل ويقع هذا التتبع على بعض الاعراض التي كانت تعتبر طوال لتطورات متأخرة ؛ وعندما يتم فهم هذه الاعراض بصورة افضل فانها تصبح عناصر في تكوين معرفة سير المرض واتجاهاته .

يعني العلاج الذي يثبت فشله وفق هذه الاسس ، وجوب التخفيف من حدة تهديدات المعزمين ، وذلك من طريق اعطاء الوعود التي تغري العفاريت بالرحيل من

جسم المريض ومن بين الاساليب التي كانت متبعة بهذا الشأن ما يفعله الكاهن. اذ يأخذ خنزيرا رضيعا ، وبعد اجراء مقارنة بين رأس وجسم واطراف الخنزير وبين ما يقابلها من اعضاء المريض ، يستدرج العفريت ليتخذ مسكنا له في جسم الخنزير . ان هذه الطريقة تمثل بكل بساطة محاولة لاغراء العفريت لكي يقوم بعملية مبادلة .

هناك حالات اخرى تستعمل فيها قصبة حقيقية بدلا من الخنزير وهنا نستطيع ان نرى سميا غير متطور وغير واع لمعرفة ما يسمى الان باسم (نقل قابلية الاحساس) . وهناك طريقة بديلة تتمثل في القراءة بصوت عال لقائمة هدايا سوف يتسلمها العفريت حال خروجه من جسم المريض ، وبالطبع فان الهدف هنا هو اعطاء هدايا غير مادية ، وهذا تطبيق لنفس مبدأ قوائم النذور الموجودة على الاضرحة المصرية القديمة والتي يلتبس من المارة قراءتها . وهكذا فالتنا نجد ان العفريته (لاماشتو Lamachtu التي كانت تقتل النساء الحوامل والاطفال ، قد قبلت رشوة تضمنت تقديم ما يلزمها من مؤونة في رحلتها الى العالم السفلي واعطيت هذه العفريته حلى وحملا تقطع به الصحراء وزورقا لعبور المياه الموجودة تحت الارض . [اللوح ٢٤] .

يظهر لوح برونزي من مجموعة الواح (المسيود كليرك De Clerq منظرا تاما لعملية التعزيم . ويرى المريض ممددا على السرير يحيط به المعزومون ، وهم يرتدون ملابسهم الخاصة ، ومعهم الجن الصالحون ، وقد انهمكوا في ابطال مفعول هجمات الشياطين السبعة سييء الصيت ، في حين تراجع العفريته (لاماشتو) مثقلة بحمل الهدايا التي وعدت بها .

الظهور المفاجيء للروح الانتقادية

لقد بدأت سرعة التصديق تتراجع تدريجيا امام الروح الانتقادية وبدأ
فن العلاج يستخدم مواد اثبتت قيمتها العلاجية ، او انها ارتبطت ، ان شكلا
وان لونا ، بحالة المريض . لقد كان العصر عصر المرأة الحكيمة التي توحى
بان يعالج اليرقان ، مثلا بجرعات من دواء اصفر تماما . كما كان الناس
يفعلون ذلك في اوربا خلال القرون الوسطى عندما كانوا يؤمنون باستعمال
قرون الايل الذكر ، او قشور الروبيان المسحوقة لانها تحتوي على فوسفات
الكالسيوم . انه الوقت الذي بدأت فيه وصفات السحرة تؤكد على اهمية
جمع النباتات ذات القيمة الطبية في لحظات تعين تعييننا دقيقا . ولا يسزال
الممارسون العصريون للتداوي بالاعشاب يراعون هذه الشعائر ، ذلك لانهم
يعلمون جيدا ان القوة النسبية لعناصر دوائهم المختلفة تتباين من شهر لشهر
ومن ساعة لساعة .

الطب قبل ابقراط :

شهد الالف الاول من السنين قبل الميلاد تغيرا اساسيا ، وبدأ التعزيم
يتضاءل حتى صار ذا اهمية ثانوية . وباستثناء بعض الاماكن البدائية جدا ،
فان وسائل فنية مختلفة بدأت تطبق تبعا لكل شكوى ، في حين بدأ تشخيص
المرض يدخل في حسابه مفهوم الايام الحرجة لمدرسة ابقراط .

لقد كان ممكنا في عهد السلالة السرجونية معالجة المريض بالطريقة
الطبية التي كانت سائدة قبل (ابقراط) والتي كان الآسو يستعملها وهذه

الكلمة من الكلمة السومرية (آزو Azu) وهي تعني الشخص الذي.
يكشف المعرفة من الماء . لقد كان (الآسو) او الاطباء يؤلفون طائفة، وكان
اطباء الملك يؤخذون من بين اعضاء هذه الطائفة . وتظهر المراسلات التي جرت
بين هؤلاء وعائلة الملك انهم ظلوا صابرين على ما يلاقونه من سوء معاملة من
مرضى العائلة المالكة .

الموت • النبلاء • والعوام والجنائز • الاخرة

لم يكن قبر الانسان العادي في بابل وآشور محاطا بشيء يدعو للدهشه بقي حوالي منتصف الالف الاول ق.م • فبالاضافة الى القبر الحجري البسيط دخلت التواييت الصخرية الرقيقة حيز الاستعمال • وكانت توجد على السطح الاعلى لهذه التواييت فتحة بيضوية الشكل تدخل منها الجثة ثم يعلق الغطاء • وعلى ما يظهر فان التواييت من هذا النوع قد تبنها الجميع وتوجد مقابر كاملة لها ، ويرجع تاريخها الى العهد الفرثي وكما كان الحال في عهد أشتق ، فلم يكن لاماكن دفن الفقراء مظاهر متميزة •

كان موت الملك يمثل حادثا جللا يشمل بتأثيره كل انسان دون استثناء • ذلك لانه نذير شؤم في غاية الخطورة بالنسبة لمستقبل البلاد • فهو بوفاته يجتاز الثغرة بين الارض والسماء • ولذلك صار من الطبيعي أن تربك وفاته النظام المقرر للاشياء ، في حين نجد ان الطوالع السيئة تقرن وفاة الملك مع ذبول الخضراوات ، وهبوط مناسيب الانهار بالاضافة الى تأجيل عمل اي شيء يجعل الارض مشمرة وذات فائدة •

وعلى النقيض من ذلك نجد ان الترويج يزيد من سرعة تفتح الحياة ، ومن زيادة المحاصيل زيادة شديدة ، وحلول طقس ملائم لنمو النباتات •

لقد تكلم كل من حمورابي في مقدمة شريعته ، وآشور بانيبال في حولياته ، عن سنوات افتتاح عهديهما بقولهما ، ان هذين العهدين يمثلان عصرا ذهبيا ، وذلك بفضل الثقة التي أولاها اياها الآلهة ، ونتيجة لذلك فانه عندما يموت الملك يعلن الحداد في جميع ارجاء البلاد •

وتقول رسالة من آشور ما يلي :

(في اليوم الذي نسمع فيه بموت الملك ، يبكي شعب بلاد آشور) •

لدينا نص عن آشوربانيبال وهو يظهر في هذا النص مودعا جنازة احد رجال بلاطه ، ويحاول ، بالطريقة التي كانت مألوفا في العالم القديم ، ان يحمي قبره عن طريق ازال اللعنات المألوفة على من ارادوا انتهاك حرمة قبر معين . يقول النص :-

(في اليوم الذي يشهد فيه قصري لقاء القائد (نابوشار أو شور) لمصيره وشرفه غير مثلوم ، فسيدفن في المكان الذي يرغب فيه لكي يرتاح في المكان المفضل عنده ، وانه لن ينقل منه . ليكف كل انسان عن مديده بسوء الى المكان . لقد كان انسانا صالحا وشجاعا . واذا ما ازعجه اي انسان وهو في قبره ، فان الملك ، سيده سيستاء من ذلك ، ولن يرحم من يسبب هذا الازعاج) .

لم يكن هذا كله تعبيرا عفويا عن الحزن على فقد صديق عزيز ، بل انه يمثل بداية عصر الحداد الرسمي . ويشكل هذا تعبيرا عن الاسف الرسمي لحدوث مصيبة عامة .

نستطيع الان ان نقرر قيمة العلاقة المزعومة بين موت الملك وذيول الخضرافات . وذلك من الطريقة التي يساوى فيها الملك بـ (تموز الميت) . فالتعابير التي كانت تستعمل في اظهار الاسمى على موته ، تشبه كثيرا ما كان يستعمل عند موت الآله ، ومن المحتمل ان تكون هذه الفكرة هي السبب في ظهور المراسيم الخاصة بالجنازة الملكية . لقد سجي جثمان تموز يومين او ثلاثة ايام لكي يراه من كان يعبد . ولدينا رسالة موجهة من (اسرحدون) الى الملك وهي تطمئنه على اطاعة اوامره كما تخبره بوجوب تسجية جثمان سلفه الملكي ثلاثة ايام ثم ليوم اخر زيادة ، وذلك في مدينة ارييل . ويجري عرض الجثمان اما داخل القصر او خارج احد ابواب المدينة الكبيرة مباشرة ولدينا رسالة تبين ان باب المدينة الكبيرة قد فتح ، وسمح للناس بالمرور منه

ليظهروا حزنهم امام الملك الميت . وغالبا ما كانت فترة الحداد طويلة . فمثلا عندما تموت ام الملك يدخل الامير والجيش فترة ثلاثة ايام من الحداد وذلك في بداية شهر نيسان (وهو الشهر الاول من السنة) ويبدأ الحداد الرسمي في الشهر الثالث من السنة اي (سيوان) ويبدأ الحداد بخروج الاشوريين من باب المدينة ، ويستعرض القائد ضباطه امام حاكم المدينة الذي يرتدي الملابس الحمر والاسورة الذهبية . ويتقدم الباكي هؤلاء الناس (*) يرافقه ابناؤه (وهم جوقة من اتباعه) ويكي هؤلاء في مقدمة المستعرضين وهذا دليل على مشاركة الباكين الرسميين تحت قيادة قائد .

مراسيم الجنازة :

نتنقل الان الى الجنازة . فبعد ان يضخ الجثمان بانواع الروائح العطرية الطيارة ، ويدهن بالزيت الخالص ، ويلبس الملابس الملكية يوضع في تابوته الصخري الذي يمثل خزانة صخرية مستطيلة الشكل لها غطاء وحلقات عظيمة تستعمل لتحريك التابوت وذلك بوضع الحبال والقضبان في هذه الحلقات . يعرض الجثمان لضوء الشمس لآخر مرة ثم يحكم تثبيت الغطاء في مكانه بانطقة برونزية ، ثم تثبت رقعة مكتوبة فوق التابوت تستنزل اللعنات على كل من يحاول فتحه ، ثم يجري الدفن بعد ذلك داخل القصر عادة وبعد ذلك تقدم النذور ثيابة عن العاهل الميت .

ولقد كشفت التنقيبات التي أجريت في مدينة (آشور) عن العديد من ملوك الآشوريين الذين دفنوا في منطقة واحدة . وكان الكنز الذي دفن مع الملك يمثل تهديدا دائما للضريح الملكي (بسبب من احتمال سرقة) . ولم يتم اكتشاف أي من هذه الاضرحة كاملا مع محتوياته . كان تابوت.

(شمشي ادد) الموجود حاليا في متحف برلين ، يمثل خزانة مستطيلة واتساعها عند الرأس أكثر من اتساعها عند النهاية بقليل ، وهي ترتفع عن الارض بواسطة حافتين صخريتين وبالإضافة الى اللسان الذي يشبه الحلقة يحمل الغطاء في كل نهاية منه قبضة تشير الى عبارة تقول :-

(سأختم فتحة التابوت بالبرونز الصلب) •

ومما لا شك فيه ان الاختام كانت تثبت اصلا حول القبضات وحول التابوت كله •

البديل الملكي :

كنا نظرنا ، عند بحثنا موضوع الطب والتداوي ، في بعض اوجهه - البديل - • اتا نجد مثالا اخر في (البديلين الملكيين) الذين لم تكن وظائفهم مجرد اداء وظائف الملك ، بل كانت تشمل ايضا معاناتهم ، بالنيابة عنه ، المصائب التي تغترها الآلهة للملك ، وبسط مثال على ذلك هو (الباءة الملكية) التي كانت تعتبر رمزا لسلطة الملك ، وكانت قادرة على ان تحل محله في احتفالات معينة • ولم يجد المختفلون فيها اكثر من كونها علامة للسلطة الملكية •

ومن جهة اخرى نميل الى النظر اليها على انها تجسيد غير محسوس . ولا يخطي للملك • فقد يحل احيانا احد التماثيل محل الملك ، وتخلع على هذا التمثال في مثل هذه الحالة الكسوة الملكية • وعندما تكون الطوائف غير حسنة ، يجري انتخاب بديل انساني وهو اما من صغار موظفي الملك او من بين حاشية الملك وهذا هو اكثر شيوعا •

وعلى الرغم من ان البديل (بولو Pulu) كان يعيش في القصر ، فان الملك يواصل الحكم من وراء الستار • اما لماذا ينتخب البديل فانتا

نقول ان مثل هذا يحدث اذا كان هناك طالع ينبي بكارثة او اي شيء مما قد يحدث مستقبلا ، ويتخذ تأريضا(*) . فمثلا تقول احدى الرسائل :-
(اذا امكن رؤية المشتري اثناء الخسوف ، فان هذا يعني سلامة الملك . ولكنه يعني كذلك موت بديل عنه وقد يكون شريفا او نحيفا) .

ان سلامة الملك تتوقف شرطا على سلامة الجزء الثاني من الطالع . فاذا لم يتحقق فانه سيرتد اليه ، واذا لم تقع اية وفاة بين كبار رجال القصر او صغاره . فان البديل سيركب المخاطر بالنيابة عن الملك ويدحض بها . ولن يعود الى مكاته السابقة الا بعد حدوث الموت المتوقع اللائق .

واذا ما استمر الطالع في تهديد الملك ولم ترض الآلهة إلا بموته . فان الكهنة سيأمرون (البديل) بان يلقي مصيره ، اي ان يقتل . وقد حدث هذا بالفعل في حكم اسرحدون وكان (دامكي) بن وكيل الدولة في اكد هو (البديل) وقد قدم نفسه ليكون كذلك وقد اختارته احدى العرافات قائلة له : (انك ستسترجع الملوكية) فما كان منه الا ان وهب نفسه مع الاسلحة الملكية في وسط حشد كبير من الناس . ومنذ تلك اللحظة صار (دامكي) الحاكم الظاهري لبلاد (آشور وبابل) ولكن الطوالع راحت تتردى وتردى . وانقاذ حياة الملك (أميت دامكي ودفن) مع اوسمة الشرف الملكية وقد شُيّد ضريح له ولوصيفته التي كانت من البلاط الملكي ايضا ، والتي تختتم عليها ان تموت مع زوجها ، وعرض جثمانهما امام الناس وبصورة لائقة ثم اعلن الحداد عليهما كما قدمت الذبيحة المحروقة لعائلتهما لكي تكون بمثابة التعزيم اللائق بالطوالع الشريرة . وبعد ان تقدم الرسالة وصفا تاما لما جرى تختتم بالكلمات التالية .

(لقد أكملت مراسيم تقديم الكفارة وسيرتاح فؤاد سيدي الملك) .

(*) هذه اشارة الى اتخاذ الحوادث الهامة اساسا للتاريخ وهو امر كان شائعا آنذاك ولازال مألوفاً في مجتمعاتنا كالقول (ولد يوم حدوث ..)

حالة الميت

يدخل كل انسان ، ملكا كان او من عامة الشعب ، بعد الموت الى (لاللو Arallu) او العالم السفلى . وبسبب من اسوار وابواب هذا العالم السبعة ، والتي تحيط به ، وتحرسه حراسة جيدة ، فانه استحق اسم (ارض الالعودة) ولقد عرفنا الثمن الذي دفعته (عشتار) لدخول هذا العالم . يوجد الكثير من الروايات التي تتحدث عن حالة الموتى اثناء اقامتهم المؤقتة هناك ، وتنقسم هذه الروايات الى مجموعتين . فالمجموعة الاولى ، وهي الغالبة ، تصور الموتى وكأنهم طيور مجنحة . وهذا ما يذكرنا بالنظرة المصرية الى الميت باعتباره يشبه الطير ذا الرأس الانساني . اما الرواية الثانية فانها مأخوذة من حلم (انكيديو) الوارد في (ملحمة كلكامش) فعندما نزل الى العالم السفلى سهل عليه التعرف على الملوك وكبار الكهان واولئك الذين شغلوا مناصب كبيرة . وقد سجل احد النصوص زيارة احد ملوك (آشور) للعالم السفلى في الحلم . وتعتبر هذه الزيارة مساوية من وجهة النظر الاشورية للزيارة الحقيقية . وقد رأى هذا الملك هناك كل سكنة العالم السفلى ، وقد أضيفت عليهم الصفات التي كانت منسوبة اليهم على الارض . وهناك رواية ثالثة لعلها تستحق الذكر ، وهي تقول انه بعد موت (انكيديو) استطاع الحصول من (نيرغال) على إذن بالصعود ثانية الى الارض ، وهناك تحدث مع صديقه (كلكامش) . تقول الرواية :

(لقد فتح الاله الارض كما يفتح الباب المسحور ، ومر من خلاله روح (انكيديو) ذاهبا الى صديقه كما يمر السحاب او البخار) . وفي هذا العالم الذي لا ينيره اي شعاع من نور ، والذي يلفه الغبار لقا تاما ، والذي ينعدم فيه الهواء وينقصه الطعام والشراب ، لا تجد ارواح الموتى ما تعيش عليه الا ما يقدم للموتى من نذور وقرابين . فاذا لم يتذكرهم احد فانهم سوف يردون الى الارض ليملاوها اوبئة ، وأنداك سيعيشون على ما يجدون من

فضلات في المجاري • اما ارواح الموتى الذين حققوا مجسدا في الحرب فلها امتياز خاص بها • ويتمثل في ان تصبح عوائلهم قريبة منهم كما انهم يعيشون في رغد ويشربون الماء العذب •

لقد كانت هذه الفكرة قديمة جدا ونجدها في اقدم نصوص ملحمة كلكامش في (قلق البطل من اجل الحصول على شهرة له) •

ليس هناك اية اشارة واضحة الى فكرة الحساب بعد الموت على الرغم من ان بعض النصوص توحي بوجود واحدة من هذه الاشارات ، ومع ذلك يبدو انه على الرغم من قدرة آلهة العالم السفلى على الحساب الا ان هذا لا يشمل الا الاحياء ، اي انه كان بإمكان الآلهة أن يجعلوا ايام الاحياء على الارض قصيرة ، وان يصيبوهم بالمرض ، وكون هذا المبدأ غير مؤكد ناتج من تقاليد آنية وكانت سائدة في الاوساط الدينية في بلاد ما بين النهرين •

لقد اكلنا الان تتبع الخاتمة النهائية لحياة ساكن ذلك البلد في حوالي عام (٦٠٠ ق م) •

الخاتمة :

قد يكون الانطباع الذي نستخلصه من هذا المسح الطويل ، وعلى الاقل بالنسبة الى المستوى المادي ، هو ان حياة سكان بلاد بابل في حدود سنة ٦٠٠ قبل الميلاد ، لا بد وان كانت تشبه بصفة وثيقة حياة اي من سكان الشرق حتى الى ما قبل زهاء خمسين سنة خلت ، قبل ان ادى ظهور الماكنة ذات الاحتراق الداخلي الى تمزيق المجرى اليسير والمطررد لوجوده .

ففى الاحياء المأهولة بشكل كثيف من بغداد نستطيع ان نرى ، دون شك ، المظهر المجسد لشوارع بغداد ، بأسواقها المكشوفة في الهواء الطلق ، وهي تعرض ذات السلع ، والادوات الصغيرة للحرفيين ، وطرار بناء بيوتها حسب ذات المخطط الذي كشفت عنه التنقيبات في اور ، والتي يعود تأريخها الى حوالى سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد في زمن ابراهيم (*) .

ولابد ان شهد حكم نبوخذنصر ذات النوعية من الشواهد التي يمكن رؤيتها اليوم ، وذات الرقصات التي تتألف من صفين من الراقصين الذين يتقدمون ويتراجعون لمصاحبة النسوة اللواتي كن يولولن ويصفقن بايديهن طبقا لرتابة الرقص ، واللواتي لابد وان كن يسمعن نغمات ذات الادوات الموسيقية .

لابد وان تهدمت المعابده ولكن وجود جامع ايا صوفيا في اسطنبول(**) يشير الى شدة صرامة مظاهره الخارجية التي غطتها الزخرفة السطحية .

وكذلك مضت الزقورات ايضا ونستطيع ان نشاهد اليوم صنوها في

البرج المدور في سامراء(***) ومظهر سلمه الحلزوني .

(*) يقصد بذلك النبي ابراهيم الخليل عليه السلام الذي ولد في اور ونشأ فيها ودعا القوم الى نبد عبادة الاصنام ثم غادرها بعد ان انجاه الله من عملية الحرق المبسوطة في القرآن الكريم .

(**) اقيم جامع ابا صوفيا في اسطنبول على انقاض كنيسة ذكرها المؤلف باسم القديسة صوفيا .

(***) يقصد بذلك مأذنة الجامع العباسي الكبير المعروفة باسم الملوية .

وإذا ما راقبنا تصرف الحشود أثناء التمثيلات الدرامية التي يحتفل فيها الشيعة بالمنحدرين من نسل « علي » (رض) نستطيع ان نتصور مهرجان الآله مردوخ في مدينة بابل ، وان ارتفاع اصوات النائحين وهبوطها في هذه الايام ، لابد وان يردد صدى المناحات التي كانت نسمع أثناء دفن الجنائز في العصر الاشوري الحديث .

غير ان في الحياة الروحية فجوة عميقة لا يمكن سدها هي ان تلك الحياة، وان كانت تحيا تحت سماء مشعة لابد وان يظن المرء بانها قد ادت الى وجود متعة ، والتي استطاعت بالحفاظ على الدين الطبيعي ان تضيء روحا ومجدا جديدين للقوى الحيوية ، كانت مع ذلك ورغم كل هذا ، تعاني الضغط من جراء عقيدة كانت بحق من اشد الاديان صرامة التي مارسها الانسان .

لقد كان الالهة العنيفون المسارعون الى الغضب لا يكفون عن المطالب التي يبتزونها من البشرية ، والتي كانت تلف كل عمل من اعمال الحياة الدينية في شبكة من التزامات خالية من الرحمة ، من امثال تصور العالم وهو مأهول بالعفاريت والانتة التي تطارد فرائسها ، والطبيعة المعادية وكل نقطة فيها مليء بالعفاريت والانتة التي تطارد فرائسها ، والطبيعة المعادية وكل نقطة فيها مليئة الاهمال او الالتزام وحياة في الآخرة اكثر شقاء من الحياة الارضية حيث ينبغي ان ينفصل كل ناتج عن ضوء الارض ، وان يدفن في غبار الشرق، ذلك الفرع الذي لابد من تجربته قبل ان يتم الايمان به ، وهذا هو الانطباع عن الشقاء المستور الذي كان يخلفه الدين الذي لا يرحم والذي كان سكان بابل من أصراره .

لقد كانوا اسرى حقا لان الملك لم يكن اقل من فلاح . وبغض النظر عن الكيفية التي كان فيها عامة الشعب يحسدون ملكهم ، فانه لم يكن اقل

• مما كانوا هم افسهم ضحية تحت رحمة كهنته ، وعيدا لتعقيدات شعائر مدمرة •

واذ كانت حياة البابلي شاقة مثل حياة المصري فانها لم تستطع ان تحطم
يشاشته الطبيعية الصالحة وبهجته ومرحه اثناء عمله اليومي •
غير ان انسان بلاد الرافدين كان غريبا عن الضحك ويبدو بانه لم يكن
قد تعلم كيف يلهو •

لقد خلقت جهوده مدينة مشرقة ليست اقل قوة من مدينة مصر ومن
المدينة الكبرى التي ولدت مجددا في اوربا الغربية ، والتي كانت تكمن عميقا
في استداقتها بصفة اكثر ، من الحضارة التي ازدهرت على ضفاف نهر النيل • غير
ان المدينتين كانتا من الناحية الروحية قطبين كل على حدة • ذلك ان الشهرة
العالمية لمدينة بابل كانت تتوج العالم القديم وهي تستحق ذلك تماما • ولكن
كيف تستطيع اقلية من بيننا ان تختارها كمواطن لنا •

الملحق (١)

تفسير القضية الحسابية رقم (٢)

هذا عرض اورده توريو دانجان في كتابه « نصوص رياضية بابلية » *
 [ملاحظة استعملت الاشارات عن الدقيقة والثانية هنا لكي تشير الى
 اجزاء القوى المتعاقبة للعدد] وعلى هذا الاساس تكون دقيقة واحدة وثلاثون.
 وعلى هذا الاساس تكون دقيقة واحدة وثلاثون ثانية تساوي

$$\frac{30}{60 \times 60} \times \frac{1}{60}$$

$$550 + \left(525 \times \frac{\text{س}}{7} \right) \frac{1}{11} = 525 \times \frac{\text{س}}{7}$$

$$525 - 550 \times \frac{525}{11} = \frac{\text{س}}{11 \times 7} - \frac{\text{س}}{7} \quad \text{او}$$

$$525 \times (1 - 11) = \text{س} (1 - 11) \quad \text{او}$$

$$55 + \frac{\text{س}}{7} \quad \text{او}$$

$$\frac{55 \times 7}{10} = \text{س} = 37 \text{ د } 3 \text{ ، } 30 \text{ ث من المينا}$$

$$\frac{1}{10} = 3 \text{ شاكل}$$

ان هذا المثال العملي هو الحالة التي تكون فيها العملية ذاتها غير
 صحيحة * فالنتيجة تكون صحيحة لكن الجواب كان على اكثر احتمال
 معروفا قبل الخطوات التي اتخذت لتركيبه *

الملاحق ب

طرق احتساب ابعاد النجوم

من مقالة لشورويو دايخان في مجلة « الاشوريات والاثار الشرقية المجلد ٢٧
(سنة ١٩٣٠) العدد ٢

يمبر عن المسافة بين النجوم التي تكون مواقعها [بالنظر للنص موضوع
البحث] في ذات التوازن [برج السرطان] ، بثلاثة انظمة للقياسات حسب
النسبة التالية :

١ - الطالين او ٦٠ مينا = ١٢ دانا Dana [اي ييرو اكدي] ،
او ٣٦٠ كس Ges على الارض (اينا ككوري) = ٦٤٨٠٠٠ دانو في
السماء [اينا شامي] .

ففي النظام الاول تكون المقاسات بمقدار الوقت : ذلك ان وزن الماء
الذي يسقط من ساعة مائية يقيس الوقت بين مرور نجمين عند الاوج
(طالين واحد من الماء = يوما نجميا واحدا) .

اما في النظام الثاني فتكون المقاسات بمقدار حجم القوس .
وفي النظام الثالث تكون المقاسات بمقدار الطول . ذلك ان « الدانا »
والكش ايناككوري تعادل على التوالي $\frac{1}{360}$ و $\frac{1}{12}$ من دائرة تخيلية
يفترض فيها انها تقع على الارض فالدانا والكش شامي مقاسات للمسافة التي
يقصد التعبير بها عند مسافات حقيقية في السماء .

فبرج السرطان يمكن ان يقيس ٤٨٠٠٠ دانا او $6/928/416/000$
مترا (حوالي اربعة ملايين وثلثمائة الف ميل) .

واذا ما افترضنا ان طول خط الاستواء يكون بنسبة ١٠ : ٩ بالنسبة الى خط استواء برج السرطان فان قياسه سيكون في حدود

$$\frac{10 \times 648000}{9} \text{ دانا ، او حوالي } 720000 \text{ دانا}$$

في النظام الثاني تستخلص قياسات القوس اصلا من قياسات الوقت ، فالمسافة بين نجمين يقعان على ذات المستوى ، يمكن ان يعبر عنها قطعا بالاجزاء الثلثا والستين من اليوم النجمي او الاجزاء الثلثمائة والستين من الدائرة .
ويبدو ان البابليين لم يكونوا يميزون الكش لوقت طويل ،

$$\frac{1}{360} \text{ قياس للقوس (من الدائرة) ، والكش}$$

$$\frac{1}{360} \text{ كقياس للوقت (من اليوم)}$$

ويمكن رؤية الدليل على هذا الامر في حقيقة ان البابليين كانوا ، كما يظهر ، يقسمون سمت الشمس مثل المتوازيات الى ٣٦٠ ثاية في تاريخ متأخر ليس الا .

المحتويات

الصفحة

٥

١ - كلمة المترجمين

٦

٢ - مقدمة المؤلف

٣ - الفصل الاول

معلومات عامة

١١

البلاد

١٦

تاريخ بلاد الرافدين في الفترة ٧٠٠ - ٥٠٠ ق . م

٢٦

سجل الوقائع التاريخية

٣٢

تركيب المجتمع ، العائلة ، البيت

٤٠

الارقاء

٤٣

بيع الرقيق

٤٥

ارقاء المعبد

٤٧

عتق الرقيق

٥٠

المنازل

٥١

البيت

٥٣

استعمال الطين

٥٧

السقف والطابوق العلوي

٦٠

الخزف

٦٢

آثاث البيت

٦٣

الانارة والتدفئة

٦٤

المدينة ومقطعها

٦٥

مدينة بابل

٦٧

المباني الكبرى ، المركز

٦٨

نهر الفرات وجسره

٧٠

تجهيز الماء

٧١

الاسوار

٧٣

الابواب

٧٤

الريف ، القنوات

٧٦

الخصب يعود الى الري

٨٢

الملاحه

٨٥

الثقة ، الكلك

٨٧

صيد السمك

الصفحة

٨٨	النباتين
٨٩	بستان ميروداش بلدان
٩٢	حرث المزرعة
٩٤	الزراعة على نطاق واسع وحاصلات الحبوب
٩٥	الجاروف والمحراث
٩٧	دراسة القمح
١٠٠	بيع القمح وأعاره
١٠١	الحيوانات الداجنة
١١٤	بيوع الدواجن
١١٧	الحيوانات الوحشية / القنص
١١٩	طرق النقل
١٦١	القوافل
١٢٢	الحياة اليومية - تحية الصباح
١٤٤	الفخاريات
١٤٧	العمل والتجارة

الفصل الثاني

الملك والدولة

القصر الملكي

٢٠٠	حسب الزخرفة والمنحوتات النائية
٢٤٤	إدارة الدولة ، الدبلوماسية
٢٥٠	(الحرب)
٢٦٠	حملة سرجون الثامنة
٢٦٦	نهب مصاصر
٢٦٨	الحرب ضد هيلام ونهب سوسة
٢٧٢	السفن الحربية

الفصل الثالث

الفكر في بلاد ما بين النهرين

مفاهيم عامة

٢٧٢	
٢٧٦	مبدأ الاسم
٢٧٨	الجلوت ، الاسماء الشخصية

الصفحة

٢٨٠	طريقة النطق بالتعاويد
٢٨٢	أهمية إخفاء الاسم الحقيقي
٢٨٤	سلطان الأعداد
٢٨٧	التورية المنطوقة والمكتوبة
٢٨٨	الإحاجي
٢٩٢	إلياس مردوخ
٢٩٥	برغيب ، ملك كتك
٢٩٧	الرموز الآشورية
٣٠٠	المعرفة
٣٠٥	تطور الكتابة
٣١٤	فك الرموز
٣١٨	فن الكتابة السرية
٣٤٦	أساطير - آدابا وآمانا
٣٥٠	الشعر الغنائي ، بعض التراثيم
٣٥٢	الخرافات
٣٥٤	تدوين التاريخ
٣٥٧	الأسلوب التاريخي وصلاحيته
٣٥٨	المراسلات الخاصة - المراسلات الملكية
٣٦٢	العلوم ، موضوع الإلهام
٣٦٤	جميعيات العبادة السرية
٣٦٧	الرياضيات
٣٧١	مجموعة من الأسئلة
٣٧٤	الجغرافية - رسم الخرائط
٣٧٦	التقويم ، علم الفلك
٣٧٩	جداول النجوم الثابتة
٣٨٢	العلوم الطبيعية
٣٨٥	الكيمياء
٣٨٧	الاعراف الفنية

الصفحة

٣٨٩	النحت
٣٩١	المنحوتات المحفورة
٣٩٢	للاشكال المنظورة
٣٩٧	الجري السريع في الفن

الفصل الرابع

الحياة الدينية

الشواهد الوثائقية

٤٠٠	التقلبات والتناقضات
٤٠٣	اصلاحات سلالة بابل الاولى
٤٠٥	ديانة الطبيعة البدائية وتطورها
٤٠٧	تركيب الهيكل او مجمع الالهة
٤١٠	الثالث الثاني : سن - شمس ، عشتار
٤١٤	المغاريات
٤٢١	تصوير الالهة
٤٢٥	شعارات ورموز الالهة
٤٢٧	الارقام ونجوم الالهة
٤٢٩	تمائيل الالهة
٤٣١	الانسان - ابن الالهة
٤٣٦	بدايات التصوف
٤٣٨	القيمة الانسانية للالهة
٤٤٠	السلطات الالهية ، المصير
٤٤٣	الخطيئة والاعتراف
٤٤٧	الشيك
٤٥٠	المعابد
٤٥٢	معبد مردوخ في بابل
٤٥٤	الزقورات اراج المعبد
٤٦٠	التعريفون والمنشدون
٤٦٦	سفار الكهان وموظفو المعبد
٤٧٠	السرققات والشغب في حرمت المعبد
٤٧١	الاعياد الدينية
٤٧٤	الكهانة ومبرراتها
٤٧٥	

الصفحة

٤٧٦	الهة التكهّن بالغيب ، الكهان
٤٧٨	أنواع مختلفة من التكهّن - الاحلام
٤٧٩	التنبوء عن طريق الكبد
٤٨١	معرفة الطالع عن طريق الولادات واللقاءات المرضية
٤٨٤	الهة السحر ، الكهان واساليبهم الفنية
٤٨٧	الاحتمالات الكامنة في السحر البابلي
٤٨٨	الطب البابلي والمرحلة الكهنوتية
٤٩٠	الظهور المفاجيء للروح الانتقادية
٤٩٢	الموت ، النبلاء ، والعوام والجنايز ، الآخرة
٤٩٩	الخاتمة

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة

هذا الكتاب

جورج كونتينو- مؤلف هذا الكتاب
من مشاهير الاثاريين الفرنسيين
والباحثين في تاريخ الشرق القديم
والعراق بصفة خاصة ولاسيما
النواحي النفسية منها.. وكتابه هذا
يتميز بالشمولية، ويصف الحياة
اليومية التي كانت سائدة في بلاد
الرافدين وصفاً دقيقاً ويعطي صورة
واضحة المعالم لكل ماكان سكان
الرافدين يمارسونه من اعمال
وبيتدعونه من افكار.

دار الشؤون الثقافية العامة

وزارة الثقافة والإعلام

السعر ثلاثة دنانير ونصف

Bibliotheca Alexandrina



0510608